

يانخشي تشو

مؤلفة كتاب نمر الليل الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

THE FOX WIFE

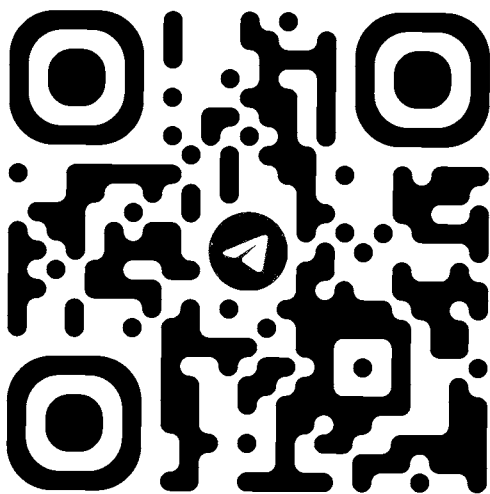
مكتبة



الزوجة الثعلب



رواية
ترجمة: هيثم فلاح



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

الزوجة الشعلب





للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

© 00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: يانغشي تشو

● ترجمة: هيثم فلاح

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: د. سعيد عثمان غانم

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/33741 م

● الترخيم الدولي: 5-503-992-977-978

● العنوان الأصلي: The Fox Wife

● العنوان العربي: الزوجة الثعلب

● حقوق النشر:

Copyright © 2024 by Yangsze Choo
Published by arrangement with Henry
Holt and Company, New York

● الطبعة الأولى: يناير / 2025 م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة

t.me/soramnqraa

يانغشي تشو

مؤلفة كتاب نمر الليل الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

THE FOX WIFE

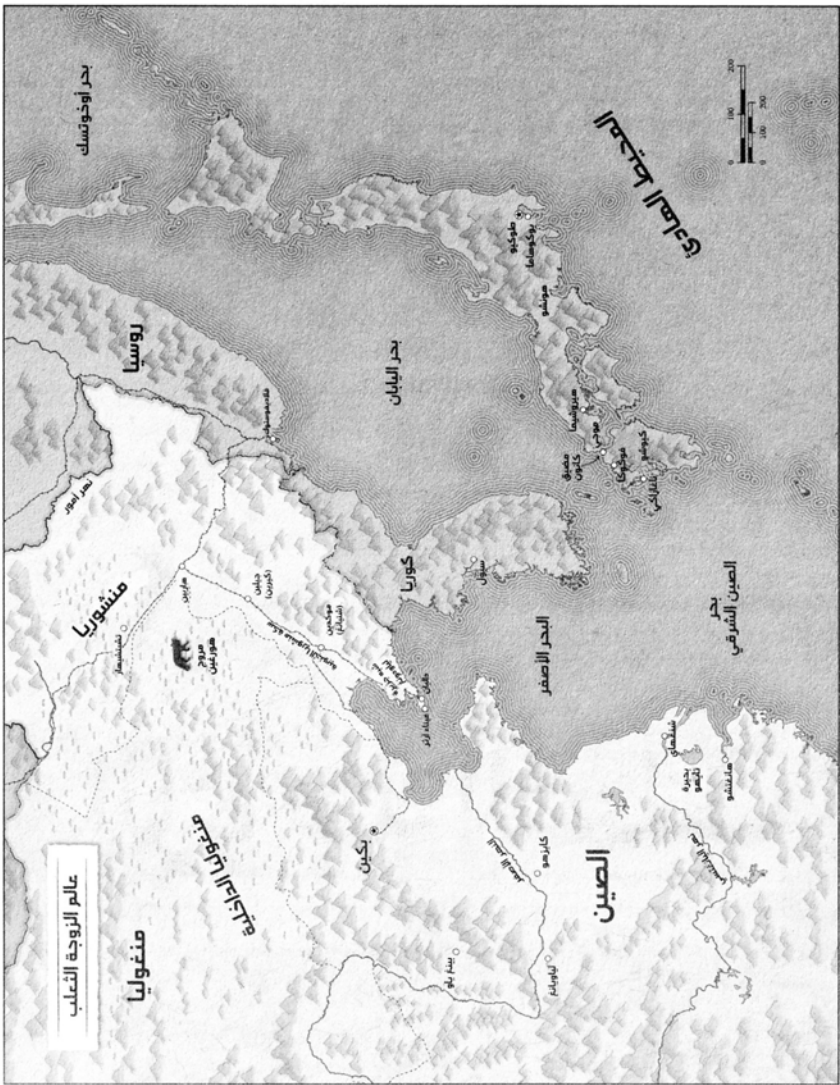
الزوجة الثعلب

مكتبة

t.me/soramnqraa



رواية
ترجمة: هيثم فلاح



대한민국

서울

부산

인천

대전

대구

경주

بحر اليابان

كوريا

البحر الأصفر

بحر الصين الشرقي

الصين

كازهو

تيانجين

بيجين

شانغهاي

هانغتشو

روسيا

بحر أوخوتسك

منشوريا

منغوليا

مملكة كوريا

عالم الزوجة الثعلب

هذا الكتاب مُهدى إلى ميكا،
التي تعشق قصص الثعالب.

1 مكتبة

t.me/soramnqraa

منشوريا، عام 1908

لعلك تعرف هذه القصة: في مساء متأخر، جاءت امرأة جميلة تطرق باب دارس لم يتوقع زيارتها.

سأل الشاب، وهو يُحدِّق في الحديقة المهملة، حيث تنحني الأزهار والشجيرات في أشكال غريبة تحت ضوء القمر: «من هناك؟»

فأجابته بابتسامة أسرة، وهي تحمل جرّة نبيذ الأرز المفضل لديه: «دعني أدخل».

وبالفعل، فتح الباب متردداً في البداية، إذ كان ينبغي أن يدرس لامتحانات الإمبراطورية. لكنه تساءل: لماذا تقف وحدها خارج هذه القिला الريفية النائية؟ ولماذا تتلأأ عيناها بتلك اللعة الغريبة في ظلام الليل الماطر؟ لكنه يقنع نفسه بأن الأمر لا بأس فيه؛ فهي ربما مجرد بغية أرسلها أصدقائه كنوع من الدعابة. ثم يشربان النبيذ، وتتوالى الأحداث كما هو متوقع، ورغم خجلها وتراكم كُتبه التي لم تُمس، فإنه يقضي معها واحدة من أمتع الأمسيات التي يتذكرها.

إلا أنه لا يستطيع تذكرها بوضوح. فكلُّ شيء بدا ضبابياً تحت ضوء المصباح الخافت والضحكات. لكنه يشعر بضرورة رؤيتها مرة أخرى؛ فيمسك يديها (ذات الأصابع الطويلة والأظافر الحادة) ولا يسمح لها بالرحيل. «منزلي هناك»، قالت وهي تشير إلى تل صغير يثير الفضول: «إذا سلكت الطريق، فهو المنزل الرابع من الأعلى».

وفي الليلة التالية، ينطلق بعد أن يخلد خادمه العجوز إلى النوم. لو كان يقظاً، لرأى أن الطريق يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى يكاد يتحول إلى ممر ضيق وسط الأعشاب المتكاثفة، لكنه لم يُعر ذلك انتباهاً، فقد كان مفتوناً تماماً. امتدت العديد من البيوت الغريبة على طول الطريق، جميع نوافذها مظلمة

وكانها محاجر خاوية. تتنوع بين قصور فاخرة وأكواخ صغيرة. وعلى كل منها اسم عائلة مكتوب بوضوح على عتباتها. أما المنزل الرابع من أعلى التل فكان قصرًا ضخماً؛ وكان الاسم المكتوب على بابه «هو»⁽¹⁾.

ثم يعود لزيارتها مرارًا وتكرارًا، مهملاً دراسته بينما تتراكم رسائل والديه الغاضبين التي لم يفتحها. وشيئًا فشيئًا يتجعد جلده كورقة ذابلة، وتتورم لوزتاه، وينحني ظهره. في النهاية، يجلب الخادم العجوز القلق راهبًا لطرد الأرواح الشريرة. وعندما تكسر التعويذة، يصرخ الطالب الشاب ويبيكي في غضب مهين، ممزقًا ملابسه بيدين مرتجفتين. يُشكل القرويون المحليون مجموعة ويقسمون أنه لا توجد بيوت أو قصور على ذلك التل المنحدر، بل مقبرة مهجورة منذ زمن بعيد. والقبر الرابع من الأعلى مشيدٌ على طراز القبور الصينية؛ على هيئة منزل صغير مطمور في التل. وباستخدام المعاول والمجارف، يكسرون القبر ليكتشفوا أنه قد تحول إلى وكر للثعالب.

عادةً ما تنتهي هذه القصة بموت الثعلب المتحول، إما مغليًا حتى الموت وإما مخورقًا على يد حشد غاضب. لكن ذلك لا يحدث إذا كنت حذرًا. ومعظم الثعالب حذرة. وإلا، كيف لنا أن نبقى على قيد الحياة لمئات السنين؟ الثعالب في تلك القصص كانت جشعة وغبية، وأعطت بقيتنا سمعة سيئة.

وكما يقول الناس إن الثعالب نساء ماكرات.

حتى في أفضل الأوقات، ليس من السهل على أمثالي كسب لقمة العيش. على سبيل المثال، لركوب القطار من موكدين إلى داليان، عليّ أن أشق طريقَي عبر سهول كيرين. كان اليوم الأول هو الأصعب، إذ كنتُ بحاجة إلى ملابس. وانتهى بي المطاف إلى سحب قميص فلاح وسرواله القطني من حبل الغسيل. لا ينبغي للثعلب الفاضل أن يسرق، لكنني كنتُ في أمس الحاجة إلى الملابس. فالظهور على جانب الطريق في هيئة امرأة شابة عارية مخاطرة لا تُحمد عقباها.

أنا أتحوّل إما إلى ثعلب صغير بفرو كثيف، وأذنين مدببتين، وأقدام سوداء أنيقة، وإما إلى امرأة شابة. لكن لا توفر أيُّ الهيأتين الأمان في عالم يحكمه

(1) ثعلب. (المؤلفة)

الرجال. بصراحة، كنتُ أفضل أن أبدو كجدة، فهذا على الأقل يمنحني بعضًا من الكرامة التي تليق بعمرى. وهذا ما جعلني أدوّن في مذكرتي أن الحكايات غالبًا ما تركز على الثعالب الإناث الجميلات اللاتي يعشن على التهام التشي⁽¹⁾، بينما نادرًا ما تُذكر الثعالب الذكور. فالنساء اللاتي يتصرفن بحرية ويفعلن ما يحلو لهن، يُواجهن دائمًا بالانتقاد. أما الرجل الوسيم الماكر، فقصته مختلفة تمامًا. غالبًا ما يُجبر الثعالب الذكور على التقاعد أو تزوير وفاتهم فقط عندما تبدأ ملامحهم الغامضة التي لا تشيخ في إثارة قلق الناس. ولا أريد الحديث عن مدى ظلم هذا الأمر؛ لهذا السبب عادةً ما أتحاشى الذكور من بني جنسى. بعد أن حصلتُ على الملابس، واصلتُ طريقي، مستجدية الحصول على وسيلة نقل. لم يكن لدي مال بالطبع، فهذه ضريبة الحياة التي قضيتها في السهول، أراقب الغيوم تنساب عبر السماء الزرقاء الشاسعة، وأقتات على فئران الحقول. لم أزر مدينة منذ زمن طويل. وعندما وصلت إلى موكين، رأيت الأجانب يصرفون المال في الشوارع، بينما يتدفق الفلاحون الجائعون فيها هربًا من المجاعة. قبل أن تصبح موكين العاصمة القديمة لشمال منشوريا، كانت تُعرف بشنيانغ، حصن إمبراطورية مينغ. العالم يتغير باستمرار، لكن الصراع على المدن يبقى كما هو.

استغرق الأمر مني وقتًا أطول مما توقعت لتسوية بعض الأمور الشخصية، وسأخبرك عن تفاصيلها لاحقًا، لكنني تمكنتُ أخيرًا من ركوب القطار بعد أن سمحتُ لقواد باستغلالى. أخبرته برغبتي الملحة في الذهاب إلى المدينة الساحلية داليان.

قال: «فهمت»، ثم مرّر يده على ذراعي، وكأنه يقيّم «جودة البضاعة»: «تبدين بصحة جيدة. هل تعانين من السُّل؟»

هزرت رأسي نفيًا: «أنا قوية. أستطيع جرّ محراث كما تفعل الثيران».

قال: «لن تكوني من يجر المحراث»، ثم أضاف مبتسمًا: «تعالى معي، لدي عمل جيد لك، ستكونين مربية أطفال».

(1) تشي (Qi): مفهوم صيني قديم يعني «الطاقة الحيوية» أو «قوة الحياة» التي تتدفق في جميع الكائنات الحية. يُعتقد في الفلسفة الصينية أن التوازن في تدفق التشي يحافظ على الصحة الجسدية والنفسية. (المترجم)

اشترى لنا تذكرتين؛ لأصحاب الدرجة الثالثة، ذات المقاعد القاسية. عبقت المقصورة برائحة العرق، والسّمك المملح، ونفحة الحديد الساخن. كان القطار في نظري اكتشافاً جديداً. رأيته سابقاً يندفع عبر السهول، مثل حصانٍ معدني ينفث سُحباً كثيفة من السخام الأسود. لطالما فكرت في ركوبه، لكن في ذلك الوقت كنت مشغولة جداً، وسعيدة للغاية. بزمجرة خافتة، أدّرت وجهي بعيداً عن النافذة، إذ لم أرغب في تذكّر ما فقدته. على الأقل كنا نسير بسرعة. خفق قلبي بنفاد صبر؛ فالغضب والقلق كانا يلتهمانني خشية أن تفلت طريدتي إن لم أصل إلى داليان قريباً. انزوت الأرض من تحتنا، متجاوزة ظلال الغيوم، بينما تتراجع السهول بعيداً. وامتدت المناظر الطبيعية لشمال شرق الصين في مشهد ثابت، بألوان بنيّة ورمادية مسطحة، تفصل بينها صفوف من أشجار الحور والصفصاف. كان القواد يراقبني وأنا ألصق وجهي بانبهار على زجاج النافذة.

سألني بنبرة ودية: «ألا تخافين مغادرة منزلك؟» يا فتيات، احذرن من الرجال الذين تبتسم شفاههم دون أن تبتسم أعينهم.

أجبت: «لا»، عادةً ما أقول الحقيقة، فالكذب يسبب الكثير من المتاعب: «على أي حال، هذا ليس منزلي الحقيقي».

ابتسم بتسامح، ولا شك أنه تخيل ضيعة منكوبة تتشبث بسفح جبل: «لماذا أنت وحدك، دون عائلة؟»

- أوه، لقد كنتُ متزوجة من قبل.

ظهرت تجاعيدٌ على جبهته بعد أن استنتج سريعاً: ليست عذراء.

- ولدي طفلة أيضاً.

أصبح الأمر أسوأ، فقد كانت قيمتي تنخفض مع كل لحظة. أخفيت ابتسامتي بتواضع بكّم ردائي. قال بضيق: «ماذا حدث لزوجك؟»

أجبت بهدوء: «لم أعد متزوجة، وأبحث عن رجل. مصور منشوريّ يُسمى بكتو نيكان. هل سمعتَ بهذا الاسم؟»

- لا.

حين توقف القطار عند إحدى المحطات، اشترى القواد زلابية محشوة بلحم خنازير تغذّت على القمامة. قال: «تأكلين بأناقة».

توقفت قليلاً إذ كان فمي ممتلئاً بالزلابية: «ماذا تعني؟»

- يا لها من أسنان بيضاء وجميلة.

كانت عيناه تلتهمان بشرتي النضرة الخالية من ندوب الجدري، وعينيّ اللامعتين، حدّقتُ إلى القواد، فأتّسعت حدقتا عينيّه. ثم أمسك بمرفقي وجزّني إلى ممر المقطورة. حينها تملكنتني لحظة شك؛ هل أخطأتُ في توقيت الكمين؟ لكن لم يكن هناك مجال لإيقافه. في الممر، دفعني بعنف نحو الجدار المتمايل. ثم أمسك شعري بإحدى يديه، وباليَد الأخرى بدأ يتحسّس جسدي بفضاظة من تحت ثيابي. قاومتُ بشكل غريزي، لكنني كنت ضعيفة في جسد امرأة. هذا هو الجزء الأخطر دائماً لأي ثعلب. إن لم أكن حذرة، فقد يكسر عنقي. ضغط فمه على وجهي وهو يلهث، كانت أنفاسه كريهة كرائحة المجاري. أغمضت عيني، وتنفست ببطء، وركّزت.

بعد لحظات، أصبح القواد ممدداً على الأرضية، وقد برز بياض عينيّه. لكنه كان لا يزال يتنفّس. فتشت جيوبه وأخذتُ محفظته، ثم سحبته باتجاه فتحة العربة. شعرت بمعدتي تنقلب. هل هناك أحد قادم؟ انحنى القطار مع المنعطف، وهو يتمايل ويهتز. ثم دفعت القواد بقوة كبيرة، فتدحرج مثل جِوال دقيق، واندفع متقلباً أسفل المنحدر.

عُدت إلى مقعدي، ومسحتُ وجهي خلسة، ثم رتبت شعري الذي كان مربوطاً في ضفيريّتين أنيقتين مثل تسريحة الخادّات. فالفتاة التي تسافر بمفردها تلفت الانتباه. أسندت رأسي إلى النافذة لأهدئ نبضات قلبي المتسارعة، وبدأتُ أفكر في خياراتي. كانت مقطورة الدرجة الثالثة مكتظة بعض الشيء بجنود المانشو، المعروفين برجال الراية، بشعورهم المميزة نصف المحلوقة والمجدولة في صفائف طويلة.

لقد كانت حِقبة خطيرة وغير مستقرة. فسلالة المانشو الحالية، أو سلالة تشينغ، كانت في حالة تدهور، وهي سلالة غير صينية تأسست في الشمال. ورغم أنهم حكموا الصين لثلاثة قرون، فإنّ السكان لا يزالون يعدّونهم غزاة، وكانت البلاد تغلي بالاضطرابات. وازداد الوضع سوءاً بجلوس الإمبراطورة الأرملة على العرش، وهي محظية سابقة يُشاع أنها سممت أعداءها. في تلك الأثناء، كان الروس واليابانيون، الذين كانوا منشغلين بتقسيم الشمال الشرقي، يجلسون في مقطورات الدرجة الأولى. راودتني فكرة قاتمة: تلتهم

الصين مثل خنزير مشوي. ويجب أن أكون حذرة حتى لا يحدث لي الشيء نفسه.

أخيرًا، قام أحد جنود الراية المانشو بحركته، وجلس بجانبني قائلاً: «من أين أنت؟»

- كيرين.

«لا تبدين فتاة محلية. هل أنت من المانشو؟» وألقى نظرة على قدمي غير المقيدتين في حذاء مصنوع من القش.

لا يمارس المانشو عادةً تقييد القدمين، رغم أن صينيي الهان فعلوا ذلك لأكثر من ألف عام. لطالما اعتبرتُها عادة مروّعة. لم يكن هناك مخلوق آخر يقيد إنائه بهذا الشكل، حيث يكسرون قوس قدم الطفلة في سن الرابعة أو الخامسة، ويربطونها لتصبح مثل الحوافر، حتى تعجز الفتيات الصغيرات عن المشي إلا بشقّ الأنفُس، بينما يستندن على الكراسي والمناضد لتخفيف الضغط عن أصابعهن المكسورة. يا لهؤلاء الفتيات المسكينات، يعرضن على شفاهن لكتم دموعهن بشجاعة، أملًا أن يُخترن لعريس مرموق.

هزرتُ كتفي، متجنبة سؤاله، لكن لم يردعه ذلك: «هل أنت ذاهبة إلى داليان؟»

- نعم.

- لماذا؟

- أبحث عن رجل.

عندها ضحك، وضرب على كرشه: «يوجد رجل جيد هنا».

فابتسمتُ وقلت: «لستُ أبحث عن رجل جيد. إنني أبحث عن قاتل».

موكدين

- عُثِرَ على جثة في الثلج.

مسح الرجل وجهه، بينما يرتعش جفنه الأيسر بشكل لا إرادي.

انحنى المحقق إلى الأمام. كان الوقت في مقتبل الصباح، والشمس المشرقة تلون الجدار المقابل بلمسات ذهبية وردية. جلسا على طاولة فارغة في مطعم فاخر يرتاده الأثرياء والوجهاء في موكدين. تدلّت الفوانيس الحمراء من الأفاريز، وبدأت الطاولات الدائرية الكبيرة المزودة بكراسي من خشب الورد كأنها في انتظار دخول رجل سياسي معروف برفقة حاشيته، ضاحكين وناقثين سحبًا من دخان السجائر. كان غو، صاحب المطعم، هو من استدعى المحقق؛ فقبل ستة أسابيع، عُثِرَ على جثة امرأة في زقاق قريب. لم يكن ثمة دليل على حدوث جريمة، كما قال غو وهو يعرض على شفتيه. من المحتمل أنها غرقت في النوم وتجمّدت حتى الموت. وهذا هو أقرب احتمال. لقد أبلغ المسؤولين المحليين، ونُقلت الجثة إلى مشرحة المدينة. إنها قصة محزنة، لكنها شائعة، كما يظن المحقق، سيما في هذه المدينة المتجمدة الواقعة في أقصى شمال شرق الصين، العاصمة القديمة لسلالة المانشو. لكن لماذا طلب غو خدماته بهذه السرية؟

قال غو: «في الحقيقة، لم يُعثَر على جثتها في الزقاق. لقد وُضعت في وضعية جلوس أمام باب مطعمي الخلفي. أبلغني عاملي في الصباح الباكر، ونقلناها سرًّا إلى الشارع المجاور. لم نفعل شيئًا خاطئًا». ثم أردف بنبرة دفاعية بعد أن تحاشت عيناه النظر مباشرة: «لكن إن انتشرت أخبار بأنها وُجدت عند عتبة مطعمنا، سيبدأ الناس في الثرثرة».

تجلب الجثث الحظ السيئ، خاصةً لمطعم شهير مثل هذا يتخصص في إقامة حفلات الزفاف والمناسبات الاحتفالية. لا شك أن غو دفع الرشاي

للمسؤولين ليُبقى الأمر سرّاً. تساءل المحقق عن سبب استدعائه إذا كانت الجثة قد نُقلت دون مشاكل تُذكر.

قال غو: «أحتاج منك أن تتعرف على هويتها. بعد مرور شهر بالتمام من عثورنا على الجثة، شبَّ حريق في المطبخ، تعتقدُ زوجتي أن نقل الجثة أزعج روحها. لقد استشارت راهباً، فأخبرنا أننا يجب أن نعرف اسم المرأة لإقامة شعائر عزاء لها». ورمش بعصية مردفاً: «كانت ترتدي زيَّ المومسات، ولم أرغب في التورط مع هاربة منهن».

ترتبط كثير من هؤلاء الفتيات بالجرائم المنظمة. وذلك ما أشعر المحقق بالتوتر، كان رجلاً قصيراً قويَّ البنية، له ملامح يقظة تشبه الكلاب: «ماذا حدث للجثة؟»

«دُفنت. لقد مرَّ شهر على ذلك الآن». ونقر غو بأصابعه على الطاولة المصقولة، كأنه يريد أن يكون في أي مكان آخر هذا الصباح البارد.

- أين وُجدت؟

نهض صاحب المطعم فجأة وقال: «سأريك المكان». ثم سار في ممر مظلم تكسو جدرانهُ الدهون ويؤدي إلى مطبخ المطعم. وهناك باب خلفي يفضي إلى زقاق ضيق، عرضه أربع أقدام لا أكثر، ويفصل بين المطعم المكون من طابقين والجناح العلوي المفتوح، حيث يجلس الناس في الأوقات الجيدة على السور ويحتسون الشاي خلف ستائر القصب، لكنَّ الزقاق الجانبي مخفي عن الأعين المتطفلة. ويمتدُّ بطول المطعم وصولاً إلى المطبخ. أما الجدار المقابل فهو خالٍ من النوافذ والأبواب.

- عثر عامل النظافة عليها عندما فتح الباب. لحسن الحظ كنتُ هنا؛ جئتُ مبكراً ذلك الصباح لمراجعة دفاتر الحسابات. وإلا لكان قد فقد صوابه وهرب صارخاً في الحي.

انكمش غو قليلاً مع هبة الهواء البارد وهو يفتح الباب الذي كان عالماً بعض الشيء: «كانت متكومة على العتبة. وعندما فتح العامل الباب بقوة، سقطت إلى الداخل. وصرخ بشدة! فكرتُ في إبلاغ السلطات في البداية، ثم أدركتُ كم سيبدو الموقف كارثياً لنا. لم أرها من قبل، لذا لا أعرف لماذا اختارت أن تتجمد على عتبة بابنا. اضطررتُ إلى اقتراض مبلغ كبير لإدارة أمور المطعم، ونحن بالكاد نسدُّ الأقساط الشهرية. إذا تراجع العمل، سنكون

في ورطة كبيرة، لذلك طلبتُ من عامل النظافة مساعدتي في نقلها. حملناها إلى زاوية الشارع. لحسن الحظ، كان الوقت مبكرًا جدًا، ولم يكن هناك أحد في الجوار. عامل النظافة الذي يعمل لدي ساذج بعض الشيء، لذا حلفته ألا يخبر أحدًا. ولهذا السبب طلبت مساعدتك». ونظر إليه بتوسل: «لديك سمعة طيبة».

أوماً المحقق، مدرِّكًا مقصده: «المحقق» ليس الوصف الدقيق له تمامًا. هو يعتبر نفسه وسيطًا أكثر من كونه محققًا، شخصًا يسوّي الأمور، ويعقد الصفقات. لكن قيمته الحقيقية تكمن في قدرته على كشف الكذب.

منذ طفولته، كان قادرًا على تمييز الأكاذيب. لم يكن أحد سواه يسمع هذا الصوت الغامض، أشبه بتحذير خافت يصدر عندما تخرج الكذبة من فم شخص ما وتبقى حائمة، مثل نحلة، أمام شفتيه. عندما كان المحقق صغيرًا، التحق لفترة وجيزة بمدرسة في ضواحي موكدين. كان هناك صبي أكبر منه جاء بثلاث قطع من الخبز المحشو باللحم الغني بالعصارة لتناولها على الغداء، مما أثار غيرة الأطفال الآخرين. لكن عندما فتحت الحزمة وقت الغداء، لم يكن فيها سوى قطعتين.

تطايرت الاتهامات في ساحة المدرسة حتى نطق المحقق الصغير قائلاً: «أنت من أكلها بنفسك. لا تدّعي بأنها سُرقت».

كان عمره آنذاك ثماني سنوات، صغيرًا مقارنة بعمره، برأس كبير يشبه البطيخ، ولا يزال يتذكر الصدمة التي علت وجهه الصبي الأكبر الذي اتهم الآخرين بالسرقة، ثم تحوّلت ملامحه إلى وجه غاضب. وبعد ثانيتين، أصبح وجهه ملتصقًا بالأرض، والدم يسيل من فتحة أنفه اليسرى.

إلى اليوم، لم يفهم حقًا لماذا كذب ذلك الصبي الأكبر. أكان ذلك ليُلقي اللوم على صبي آخر يكرهه؟ أم كانت واحدة من تلك الدوافع الغامضة: كالرغبة في إثارة الفوضى داخل الفصل لإغضاب معلمهم البائس ذي النظرة الهادئة؟ على أي حال، كان ذلك الدرس الأول، الذي تلقّنه بمرارة وهو ملقى على الأرض. وقد علّمه أهمية الحفاظ على سرية قدرته على كشف الأكاذيب.

والآن، بعد أن تقدم به العمر، أصبح ذا رجلين مقوستين ووجه يشبه كلبًا وفيًا، وأصبح الناس ينسبون مهارته إلى الحكمة والخبرة. ومن قبيل

الصدفة، يحمل اسم القاضي الأسطوري الشهير باو، سليل أسرة سونغ، الذي اشتهر بحل الجرائم. كان القاضي باو مشهورًا بقدراته التحليلية لدرجة أنه صار معبودًا. ولهذا، في كل مرة تأتيه قضية جديدة، يثق المحقق بوجود من سيلقي الدعابات أو التعليقات، بل وأحيانًا من يتهامس بالخرافات المرعبة بأن القاضي باو غونغ نفسه هو من جاء للتحقيق.

ألقي باو نظرة سريعة حوله. لقد رأى آلاف الأزقة المماثلة. لا شيء مميز هنا إلا أن هذا الزقاق لا يفتح على أي مبنى آخر، كما أشار له صاحب المطعم. موت امرأة مجهولة متجمدة على عتبة بابه الخلفي ينذر بالسوء. هل شعر غو بالذنب لتحريكه الجثة سرًا، أم أن هناك حقًا أحداثًا غريبة وقعت، مثل حريق المطبخ الذي ذكره؟

- كانت ترتدي ملابس خفيفة، بلا سترة خارجية.

- كيف كانت ملابسها؟

- كانت ترتدي تشانغي من الحرير المشمشي المطرز بالورود، وسروالًا فضفاضًا، وزينة شعر مطلية بالذهب. ملابس لافتة كملايس فنانة محترفة. وقد تساقط الثلج عليها كطبقة من دقيق الأرز؛ لم أستطع أن أفهم كيف خرجت بملابس خفيفة كهذه.

- هل كانت الجثة متييسة عندما نقلتها؟

أغمض غو عينيه، محاولًا التذكر: «كانت يداها مجمدتين، وملامح وجهها متصلبة، لكن أطرافها الأخرى لم تكن قد تجمدت». وبدأ عليه الغثيان. إذًا، لم تكن ميتة منذ وقت طويل فربما بضع ساعات فقط.

- وهل أنت متأكد من عدم وجود أي علامة على جريمة؟

قال بنبرة دفاعية: «سمعت لاحقًا أن الفاحص الطبي لم يجد أي جروح. كانت وفاة طبيعية. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك ذلك التعبير الغريب على وجهها».

- هل بدت خائفة؟

يعلم باو أن آخر تعبير على وجوه الموتى قد يكون مؤلمًا، بل ربما مريبًا في بعض الأحيان.

أجاب غو: «لا، بل بدت مسرورة. كانت تبتسم». ومسح وجهه: «لا أستطيع أن أصف لك مدى رعب الموقف. كانت هناك طبقة رقيقة من الثلج على وجهها وعينيها المفتوحتين، فبدت كعروس في يوم زفافها، تنظر من وراء حجاب؛ كأنها رأت شيئاً بديعاً».

قال باو متعجباً: «هل أنت متأكد أنها بدت سعيدة؟»

- نعم. في البداية، قلتُ لنفسي إنها ماتت بسلام، لذلك لم يكن يهم أننا نقلنا جثتها. لكن عندما أخبرتُ زوجتي، استاءت للغاية. وقالت إن هذا من صنيع الثعالب.

زفر باو ببطء. منذ العصور القديمة، كان الناس يخافون الثعالب ويقدسونها. كانت أقدم الثعالب -الثعالب السماوية- تُعتبر كائنات مقدّسة. واكتسبت الثعالب في عهد سلالتي تانغ وسونغ، سمعة بمكرها وقدرتها على التحول إلى بشر. ومع ذلك، فإن معظم من يؤمنون بقواها الخارقة هم القرويون.

تجهم غو وقال: «زوجتي من الشمال، وهناك يؤمنون بالثعالب التي تغوي الناس حتى تهلكهم. إنها تبكي كل يوم وتزعم أننا ملعونان؛ وأنه لم يكن عليّ لمس الجثة أو نقلها. لقد نفد صبري! هذا مطعمٌ شعبيّ، لكنني اقترضت مبلغاً كبيراً لافتتاحه. ونحن بالكاد بدأنا في تحقيق الأرباح».

سكت باو، فأضاف غو بتردد: «سمعتُ من معارفنا المشتركين أنك مهتم شخصياً بالثعالب. وإلا لما تجرأتُ على إزعاجك، خاصة وأنني سمعت أنك تفكر في التقاعد».

شعر باو بقشعريرة تسري في فروة رأسه. لسنوات، كان يبحث عن أي أثر للثعالب في الأحداث الغريبة. سخر منه أصدقاؤه لهذا واعتبروها مجرد هواية غريبة، بينما تناقل العملاء الشائعات عن زوّار الغسق. واكتفى باو بالتبسم. هذا صحيح، إنه مولع بالثعالب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

3

يحبُّ كثيرٌ من الرجال التفاخر بأنهم سيئون، وغالبًا ما يكون ذلك مصحوبًا بغمزة وابتسامة. وتوحي حواجبهم: **يا سيدتي الصغيرة، من الأفضل أن تحذري من رجل مفعم بالرجولة مثلي.** لكن ما إن ينتقل مجرى الحديث إلى القتل حتى يتراجعوا فورًا. فكما أتذكر، كانت عقوبة القتل في الإمبراطورية الصينية مروعة دائمًا. لذا، لم يكن مفاجئًا أن حديثي عن ملاحقة قاتل جعل رجل المانشو ينهض ويغادر، ضامنًا لي رحلة هادئة حتى وصولنا إلى داليان.

عندما توقَّف القطار زافرًا البخار المتصاعد، نزلتُ وسط زحمة الركاب. وجدتُ امرأة تحمل زوجًا من الإوز الحي المربوط، تبرز أعناقهما الطويلة بحزن من سلَّتها.

سألتُ عن ثمنها وأنا أمرر إصبعي على العنق المكسوّ بالريش، فارتعش الإوز. لمع بريق ماكر في عين المرأة، ثم أعلنت السعر بجفاء، فدفعتُ لها من محفظة القواد دون مساومة.

لا يمكنك التنبؤ بكيفية سير الأمور. فأبسط تغيير يخلق دوامة وسط عاصفة الاحتمالات؛ لأنني قررت شراء الإوز، تغير مجرى «تحرّياتي» بالكامل (هذا المصطلح يبدو أفضل بكثير من كلمات مثل «الانتقام» و«ثأر الدم»). وبينما كنت أجرُّ الإوزتين بعيدًا، تساءلتُ عن السبب الذي دفعني لشرائه. ربما قد أزعجني تعاملتي مع القواد أكثر مما كنتُ أود الاعتراف به. كانت خطتي الأولية في العثور على زقاق هادئ لأكل الإوزتين خطة سخيفة. فداليان، أو دالني كما يسميها الروس، أضحت الآن مدينة كبيرة وحديثة.

تقع داليان عند طرف شبه جزيرة لياودونغ في أقصى شمال الصين، وكان مرفأها العميق الخالي من الجليد محلَّ تقدير منذ عهد سلالة تانغ. وقد

تبدّلت السيادة عليها بين المانشو والروس، والآن اليابانيّين. أسس الروس المدينة على الطراز الغربي، لكنهم فقدوا داليان بعد الحرب الروسية اليابانية الأخيرة. ومن خلال تجوالي في الشوارع الواسعة، لاحظت أن اليابانيين كانوا منهمكين في إضافة المزيد إلى بنيتها التحتية.

لقد قللتُ من شأن سرعة التغيرات التي جرت. فالعيش في السهول ومراقبة الغيوم المناسبة جعلني أكثر ليونة، أو هكذا تراءى لي. وما الذي كنت أفكر فيه حقاً؟ أنني سأتمكن من وضع الإوز الهائج في مكان ما وأكله؟ قد يكون ذلك ممكناً في قرية، لكن ليس في هذه المدينة الحديثة المزدهمة. كانت الشمس تغرب، وتغمر الشوارع بوهج حزين كلون أزهار الفرسيتيا الصفراء. في الماضي، كنتُ أشاهدها تطلّي السهول بلون الذهب. حين كنتُ أحمل طفلة في حجري لا إوزاً غاضباً. طفلاً دافئاً نائماً، امتلاً جوفه باللبن والأحلام العذبة. على حين غفلة، يعود الحزن، مثل لصّ يسرق البهجة.

لن يزول الألم في صدري أبداً؛ لقد ابتلعني فراغ دام قاتم طوال العامين الماضيين. نما العشب على قبر ابنتي في الشمال البعيد. كنتُ أستلقي فوقه كل ليلة لأشهر، في آمال يائسة لأبقيها دافئة. كان البرد قارساً جداً، وكانت صغيرة جداً، وقد فقدتها إلى الأبد. دفنتُ وجهي في كتل التراب الجافة، وظننتُ أنني سأموت من شدة الحزن والغضب. لكن، على عكس الموتى، تتعافى الكائنات الحية. تمسكتُ بانتقامي بمرارة، كان ذلك الشريان الرفيع الذي ينبض فيّ ويُبقيني حيّة. كان الرجل الذي أمر بقتلها مصوراً من منشوريا يُسمى بكتو نيكان.

انقطعت أخباره لعامين، لكنني اكتشفتُ مؤخراً أنه اتجه جنوباً إلى داليان. سارعتُ لملاحقته، لأفاجأ بحجم المدينة التي فاقت توقعاتي. كيف سأتمكن من العثور على بكتو وأنا أبحث في الوقت نفسه عن مأوى؟ بيّنت لي حادثة القطار بجلاء مدى خطورة الظهور في هيئة امرأة شابة وحيدة. إذا هاجمني رجلان أو أكثر، فربما سأعجز عن المقاومة.

وبينما كنتُ شاردة في الطريق بيأس، توقفتُ أمامي امرأة في منتصف العمر معها خادمتها المسنة. التقت عيناui بعينيهما، فسارعتا بالانصراف. بعد بضع دقائق، عادت الخادمة. كانت نحيفة ومرتبكة، بدت كأرنب بعينين واسعتين جاحظتين: «هل هذا الإوز للبيع؟»
أوماتُ برأسِي.

- من أين أتيت به؟

قلت: «من الشمال»، إذ بدا لي أنه تربى في القرى؛ فهو صغير وعنيف نوعاً ما.

- هل أنت من الشمال؟

- نعم، من كيرين.

لسبب ما، بدا أن ذلك أسعدها. بل عرضت عليّ مبلغاً إضافياً إذا كنت على استعداد لحمل الإوزتين إلى منزل سيدتها. وبما أنه لم يكن لدي مكان أذهب إليه، وافقت. وبينما كنا نسير، أغرقنتني بالأسئلة: من أين جئت؟ وماذا تعمل عائلتك؟ لكنني أجبتها بشكل مبهم، إذ كنتُ أملك أسئلتني. على سبيل المثال، هل سمعتِ عن هذا الفن الجديد الذي يُدعى التصوير الفوتوغرافي، وهل يوجد من يمارسه في داليان؟

قالت: «آه! هذه هواية سيدنا الشاب. إنه يعرف العديد من المصورين، لأن صديقه يدير استوديو تصوير».

تسارعت خطواتي بلهفة. ربما بقليل من الحظ، سأعثر قريباً على المصور الذي جاء من موكدن.

اتضح أن وجهتنا كانت متجرّاً للأدوية الصينية. اجتاحت أنفي رائحة حادة ومُرة من بعيد: كرائحة «الدانغ غوي» لعلاج اضطرابات الدورة الشهرية، والجينسنغ، والتمر الأحمر، وأعشاب أخرى تُغلى مع أقدام الخنازير أو خيار البحر لتحضير حساء طبي. شُيّد المبنى من الطوب الرمادي، وتوّج بسقف يكسوه البلاط المنحني، وزُيّنت حوافه بمصارف مياه مزخرفة على أشكال الحيوانات. بدا المتجر مزدهراً من واجهته الواسعة وتدفق الزبائن الذين خرجوا حاملين أوراقاً مطوية تحتوي على أعشاب وجذور مجففة. وخلف واجهة المتجر المهيبة ذات الطابقيين، لاحت أسقف الأفنية الداخلية ومساكن العائلة.

حُصّص المدخل الأمامي للزبائن، وليس للقرويين البائسين الذين يحملون الإوز، لذا دخلنا من بوابة جانبية. طُلب مني إطلاق الإوز في حظيرة كبيرة للدواجن خلف المطبخ. وقد حلّت رائحة لحم بطن الخنزير المطهو من

المطبخ محلّ رائحة الأعشاب الطبية المُرّة. قَرقر بطني جوعًا بينما أخبرتني الخادمة أن أنتظر في الفناء. بعد قليل، عادت مع سيدتها، وهي المرأة التي رأنتي أول مرة مع الإوز. كانت ترتدي ثوبًا من الحرير والقطن الفاخر، يُناسب زوجة تاجر ثري. وعلى إصبعها خاتم من اليشم الأبيض الباهت، يشبه قطعة من دهن الخروف.

تفحصتني السيدة بعناية. كان وجهها ممتلئًا وناعمًا، وكان شعرها الأسود مدهونًا بالزيت. انثنت التجاعيد بين حاجبيها وزوايا فمها المنخفضة فذكّرتني بثنايا التوفو بعد أن يُعصر في الخِرَق.

- سمعتُ أنك من كيرين. هل تبحثين عن عمل؟ إنه عمل سهل جدًّا؛ ستخدمين سيدة عجوز.

- كم عمرها؟

- ناهزت الستين.

كتمت ضحكتي. فالستون ليس عمرًا متقدمًا في تقديري. عند الستين، يبدأ البشر في فهم أن الطقس لن يطيعهم أبدًا؛ وأن الحبّ الحقيقي قد يطرق بابك مرتين في الحياة على الأكثر؛ وأن قول «نعم» في شبابك قد يقيّدك بحماقة لا تعنيك. لكنّ هذا لم يكن ذا أهمية الآن.

- لماذا أنا؟

غالبًا، لا ينتقي الناس خدمهم من بائعي الدواجن المتجولين في الشوارع. لم تبدِ هذه المرأة بلهاء؛ فزوايا فمها المنخفضة أوحّت أنها من النوع الذي لا يغفل عن عدّ جميع أزواج عيدان الطعام في المطبخ.

قالت: «حماتي متطلبة جدًّا بشأن من يخدمها. لكن إن كنتِ من الشمال فقد توافق. إنها من تلك المنطقة أيضًا». وزمّت شفتيها. لا بدّ أن هناك ما هو أكثر من ذلك في القصة، لكنّ هذا العرض سيحل مشكلتي العاجلة في العثور على مأوى أثناء مطاردة عدوي، لذا أومأت بالموافقة.

- لكنها سترغب في رؤيتك قبل أن تقرر.

قبل المقابلة، وافقوا على تزويدي بملابس نظيفة، وحمام ساخن، ووجبة جيدة. لا بدّ أنهم كانوا يائسين تمامًا لتقديم مثل هذه الشروط، وبدأتُ أتساءل عن طبيعة العمل المروّع الذي قد يكونه.

- يجب أن تكون أول مقابلة لها معك في الليل. هذا أحد شروطها قبل
توظيف أي شخص.

رفعتُ حاجبيَّ. والآن، وأنا أقف في هذا المنزل المثير خلف متجر الأدوية،
أكاد أشم رائحة الغموض تتسلل عبر الممرات المتعرجة. أو ربما كانت رائحة
لحم بطن الخنزير المطهو فحسب.

بعد الحمام الساخن، قدموا لي ملابس نظيفة ووعاءً من الأرز المخلوط
بالشعير، يعلوه لحم البطن المطهو والخردل الأخضر. كان الوقت متأخرًا،
حيث سَكَن البيت تمامًا عندما قادتني الخادمة أخيرًا عبر الممرات ثم صعدت
بي درجًا شديد الانحدار مصنوعًا من الخشب المصقول. كانت الدرجات
مصممة للأقدام الصغيرة المقيدة، فلم يكن عرض كل درجة يتجاوز كف اليد،
وقادتنا تلك الدرجات إلى جناح النساء.

في الأعلى، هناك غرفة معيشة مع شرفة تطل على الفناء. شُرِّعت النوافذ
لتسمح بدخول هواء الليل الربيعي، وأضاء مصباح بجانب كرسي من خشب
الورد. جلست عليه امرأة عجوز ضئيلة الحجم. كان جلوسها المستقيم يذكرني
بالكلاب الصغيرة التي تجلس بجوار النوافذ: يقظة لكنها مرتبكة. فاجأني هذا
الارتباك. فمن حديث السيدة توقعتُ أن تكون امرأة متسلطة تدير المنزل،
لكنها بدت خائفة. وعندما تلاقت أعيننا، اتسعت عيناها.

4

عندما كان باو طفلاً، أخذته مربيته العجوز إلى مزار ثعلب في الجزء الخلفي من منزل جيرانهم. أخبرته وهي تضمُّ يده الصغيرة في يدها الخشنة الحمراء: «إنه إله».

كان الإله الثعلب يعيش في مزار صغير مظلم، بالكاد يشبه صندوقاً مفتوحاً من الأمام، خلف منزل الجيران. بُني قبل نحو خمسين عاماً، بعد مرض شديد كاد يؤدي بحياة جدّ تلك العائلة.

قالت مربيته: «كان ضعيفاً جدّاً، وكان الابن الوحيد. فتضرّعت أمه إلى «الهُوشين»، روح الثعلب، وفي إحدى الليالي رأت حلماً».

دخلا عبر بوابة صغيرة خلفية. وبدا له أن مربيته العجوز كانت معتادة على زيارة هذا المزار بتواطؤٍ ضمني مع خدم المنزل الآخر. أضفى ذلك على الزيارة جَوْاً من الغموض المكتوم. كانت عائلة باو صارمة في التزامها بالتعاليم الكونفوشية؛ فلم يكن والده ليقبل بعبادة الحيوانات، وكان يشتكي دائماً بأنها عبادة القرويين. في شمال الصين، يُعتبر الثعلب والقنفذ وابن عرس والجرذ والثعبان التي تُدعى الودامين، أو العائلات الخمس العظيمة، آلهة ثانوية للثروة والازدهار. واعتبر والده ذلك سخيّاً. فكيف يمكن لروح الثروة أن تزحف على بطنها أو تعيش في جحور رطبة؟ وافقه باو في هذا المنطق، لكنه شعر بوخزة من الدهشة وهو يتبع مربيته في ذلك اليوم.

سألها: «ما كان ذلك الحلم؟ الحلم الذي حلمت به والدة الجد؟»

- أوه، إذن كنتِ تُصغي حقّاً؟

ضحك بخجل، وشد قبضته على يدها. شعر بعدم الارتياح للتسلل إلى حديقة جيرانهم الخلفية، رغم ودية العلاقة بينهم.

قالت: «في ذلك الوقت، كان مجرد صبي صغير مثلك، لكنه كان يصاب بنوبات صرع ويخرج الزبد من فمه. رأت والدته في منامها رجلاً عجوزاً

يرتدي الحرير وقال لها إنه إذا أقامت مزارًا له في الجزء الخلفي من منزلهم، سيُشفى ابنها. وقد شُفي حقًا! ما زال يتذكر الابتسامة في صوت مربيته، لكن ملامح وجهها تلاشت تمامًا من ذاكرته: «لذا اليوم سنصلي إلى الهُوشين ليصرف عنك...»

من الغريب أنه لا يستطيع تذكُّر ما كانت تصلي من أجله تحديدًا. بدت الكلمات ضبابية، كأنها صوت مبهم، أو ربما لم يكن يُنصت جيدًا. كان صغيرًا جدًا حينها، صغيرًا بما يكفي ليصل إلى يدها، وبالكاد بلغ طوله مزلاج البوابة الخشبية. لكنه يتذكر الأوراق التي غمرتها أشعة الشمس، وسيقان الخيزران الضخمة التي كانت تنمو في حديقة الجيران الخلفية. كان باو يقضي وقته في التجول بين تلك الأشجار، يلتقط الأوراق ويقفز فوق البراعم الصغيرة، بينما كانت مربيته منشغلة في مزار الثعلب.

كان المزار صندوقًا مظلمًا بسقف مائل، مفتوح من الأمام ومصنوع من خشب رمادي مهترئ. وداخل المزار، تمثال حجري صغير نحيل ومنتصب. بدا أشبه بقطة أكثر من كونه ثعلبًا، كما أشار باو حينها. فردَّت مربيته بسرعة: «هُس»، واعتذرت للإله عن وقاحته. لا يزال يذكر ارتعاشة يديها المضمومتين وهي تقدم عيدان البخور.

والآن، عندما يسترجع باو تلك اللحظات، يدرك أنه بعد تلك الزيارة بالذات، بدأ يميِّز الحقيقة من الكذب. ما الذي جرى له بالضبط في ذلك الصباح المشمس تحت أوراق الخيزران؟ ثم تلاشت الذكرى، وعاد باو بأفكاره إلى الوضع الراهن.

عُثر على جثة امرأة في الثلج.

دفعت موجات المجاعة القرويين إلى قصد المدينة، حيث يموتون في أزقتها أو يتجمدون في ملاجئها المؤقتة. ومع ذلك، كانت هذه الجثة لامرأة شابة، لم تكن جائعة ولا رثة الثياب. وكما أشار غو، صاحب المطعم، ربما كانت غانية من حي المتعة. من اللاتي يُستدعين لإحياء الحفلات؛ ليغنين ويعزفن على أوتار آلة التشين، ويتودَّدن إلى الضيوف برقة أثناء سكب النبيذ. أما الضيوف المهمون، فيختارون الفتيات ليرافقنهم إلى منازلهم كما لو كنَّ حلوى ختامية أو إضافات ثانوية.

تنهّد باو بعمق. استعادة النساء الهاربات ليست عملاً يفضلُه عادة، لكنه شعر أن هذه الفتاة المجهولة تستحق أن تحظى بجزالة لائقة. كانت ملابسها الخفيفة وغياب معطفها أمراً محيراً. لقد كانت تلك الليلة قارسة البرودة، كما أخبره غو. باردة لدرجة أن الثلج كان ينزلق من على أسطح البلاط المنحني في زوايا ناعمة. لماذا استسلمت للنوم في الثلج وسط نشوة من السعادة الغامرة؟ أصرت زوجة غو على أن هذا من صنيع الثعالب. وعندما سمع باو ذلك، شعر بقلبه ينبض بقوة غريبة، وكأنه عاد طفلاً يتقافز بين سيقان الخيزران الهامسة. لطالما شعر باو برابط غامض بين الثعالب وقدرته الغريبة على تمييز الحقيقة من الكذب... وهو لغز ظل يشغل خاطره معظم حياته.

أسرع في خطواته نحو حيّ المتعة، في حين كان حذاؤه المصنوع من اللباد ينزلق على جليد الشارع المرصوف. هنا في الشمال، شُيّدت المباني من الطوب والحجر الرمادي، وبدأت أسقفها المغطاة بالبلاط لامعة وداكنة بفعل ذوبان الثلوج. تتدلّى الفوانيس الحمراء في صفوف بين المباني وعبر الشارع، وتضاء مساءً لتغمر الحيّ بوهج وردي وجوّ من التفاؤل. لكن الأمر مختلف في الصباح؛ إذ تكسو الأرصفة الرطبة المبللة بقايا الأقمشة الممزقة والأوراق المتناثرة.

حقّق باو مع العاملين في بيوت المتعة، سائلاً إن كانت ثمة نساء قد اختفين مؤخراً. أخبره أحد المحاسبين أن امرأتين في الحي توفيتا بالسُّل، وأن فتاة أخرى هربت. توقف المحاسب لبرهة، ويده معلقة فوق خرزات العداد الأسود الثقيل وقال: «الفتاة التي اختفت كانت من جناح العنقاء».

- هل سمعت أي شائعات عن الثعالب؟

رفع المحاسب نظره بدهشة: «الثعالب؟ تعني العادية أم الهوليجينغ الثعالب الروحية؟»

- كلاهما. هل ذكرها أحد؟

- أقسم أحد الحمالين أنه رأى ثعلباً أبيض خارج دار شاي⁽¹⁾ في وقت متأخر من الليل. سمعتُ بذلك عندما جاء لتلقي أجره في نهاية الشهر.

- وأيُّ يوم كان ذلك؟

(1) دار الشاي: مكان اجتماعي تقليدي في الصين يقدم الشاي وأحياناً عروضاً ترفيهية، ويُستخدم للاجتماعات والحفلات. (المترجم)

فتح المحاسب دفتر حساباته وذكر تاريخًا تطابق مع الليلة التي وُجدت فيها جثة المرأة على عتبة باب غو الخلفية.

زفر باو، وشعر بتقلص أمعائه: «أكان واثقًا أنه رأى ثعلبًا؟»

«ظننتُ في البداية أنه ربما رأى كلبًا أبيض، لكنه أصر على أن الذيل كان لثعلب حقيقي. طلب أجرًا إضافيًا ليتمكن من الذهاب إلى المعبد لطرد الأرواح الشريرة. وبالطبع، رفضتُ طلبه». ثم ألقى نظرة فاحصة على باو: «إذا كنت مهتمًا بالثعلاب، فعليك التحدث إلى بكتو نيكان».

- ومن يكون؟

- مصورٌ منشوري، استأجرته بعض بيوت المتعة لتصوير الغانيات من أجل إعداد كتيب صوري. مرّ من هنا عندما سمع أن حمّالنا قال إنه رأى ثعلبًا أبيض. إنه رجل غريب، بنظرات مريبة. حتى الفتيات لم يرتحن له كثيرًا.

- لماذا كان يسأل عن الثعلاب؟

بدت على وجه المحاسب علامات الضيق وهو يجيب: «أراد فرو ثعلب أبيض. قال إن الناس سيدفعون أموالًا طائلة ليتصوروا به».

يعلم باو أن الثعلاب تُخشى وتُعبد بمثابة الآلهة. فهي أيضًا تسرق أنفاس البشر، أو ما يُعرف بالتشي، تلك القوة الحيوية التي تبعث الحياة في الجميع. قال العالم الشهير جي يون، الذي كان مولعًا بالثعلاب: **يختلف البشر عن الكائنات الأخرى، بينما تقف الثعلاب بين هؤلاء وهؤلاء؛ فالظلام والنور يسلكان دروبًا مختلفة، والثعلاب تقف بين الظلام والنور.**

بين الظلام والنور تنشأ الظلال؛ العالم الغامض الذي يعيش فيه المؤمن القَلِق. يتساءل باو أحيانًا ما إذا كان ينتمي لهذه الفئة. بالتأكيد، لم يملك قط إيمان مربيته العجوز، التي كانت تخطو بخطى ثقيلة نحو مزار الثعلب كل أسبوع حاملة قرايين صغيرة من الكعك أو الفاكهة. لم تكن تملك شيئًا تقريبًا. بل لم تكن تملك غرفة خاصة، إذ تكتفي بالنوم على الأرضية بجوار سريره مُد أن كان طفلًا رضيعًا. كانت فلاحَة عنيدة تؤمن بالخرافات، لكنها أحبته حبًا جمًّا. ولا يمكنه إنكار ذلك.

ثم عاد يتذكر طفولته واليوم الذي اكتشف فيه لأول مرة أن بإمكانه سماع الأكاذيب.

5

نحن الثعالب نمتلك مظهرًا يثير مشاعر قوية في نفوس البشر. هذه السمة بتحديد هي التي تجعلنا نُحبَس في صناديق أو يُحكم علينا بالموت. لذا حين اتَّسعت عيننا العجوز عند رؤيتي، شعرتُ بالقلق على الفور.

يمتلئ شمال شرق الصين بالقرويين الذين ما زالوا يتعبدون في مزارات الثعالب، ويستشيرون الوسطاء الروحانيين الذين يدَّعون أنهم يستحضرون أرواح الثعالب، ويستدعون طاردي الأرواح لطردها. إنها علاقة حبٍّ وكراهية. كانت تُعتبر الثعالب مقدَّسة، لكن بعد أن كنا موقَّرين، أصبحنا الآن مذمومين باعتبارنا مخادعين فاتنين. في الظاهر، بدت ربة عملي المحتملة جدَّة تقليدية؛ ضئيلة الحجم، منتصبية القامة، ذات مظهر لطيف، رغم وصف زوجة ابنها لها بأنها صعبة الإرضاء. لكنني علمتُ أن الأمر أعمق من ذلك. تلك النظرة في عينيها، والمزيج بين الدهشة وشبه الإدراك، جعلاً أذني ترتعشان. كانت تلك نظرة المُصدِّقين؛ شخص سبق له أن واجه واحدًا منا، حتى وإن لم تدرك ذلك بنفسها.

قالت الخادمة المسنة: «سيدتي، هذه هي الشابة».

أملت العجوز رأسها قليلًا وقالت: «اقتربي إلى النور».

كان صوتها هادئًا ورصينًا، مما جعلني أتوخى الحذر أكثر؛ فهي لم تبدُ مجنونة. (بالمناسبة، الجنون مفيد لنا. فالناس الذين يتصرفون كالمجانين نادرًا ما يُؤخذون على محمل الجد. وعبارة: «مجنون كالثعلب» نفتخر بها كثيرًا).

خطوتُ إلى دائرة الضوء الأصفر الصادر عن المصباح. حاولتُ أن أقنع نفسي أنه لا يوجد ما يستدعي الخوف، رغم تسارع نبضات قلبي. كانت مجرد

عجوز، وليست طاردة أرواح طاووية⁽¹⁾، رغم أنني قاومت التفكير في سبب إجراء مقابلات العمل «ليلاً فقط».

سألتني: «هل أنت من الشمال؟»

«نعم، فورن». ناديتها باحترام مستخدمة لقب «فورن»، وهو يعني سيدة الدار. كنت قد جهّزت قصة كاملة عن قدومي من الريف للعمل في تربية الأطفال، وكيف وقّعت ضحية لقواد بغايا (وكلها حقائق)، لكنها لم تسألني عن شيء منها.

واكتفت بسؤالي: «هل حلّ الربيع في السهول؟»

«طيور الزقزاق تغرد، وعشب الأغنام يُخرج براعمه الخضراء». كدت أشتّم رائحة الأرض الخصبة، مما أثار في نفسي حزناً عميقاً لا يمكن تفسيره.

- هل يمكنك أن تستديري من فضلك؟

استدرتُ وقد ساورتني الحيرة. بدت لي الخادمة العجوز قلقة على نحو غريب.

قالت العجوز: «لديكِ ظل».

- كل شخص لديه ظل، فورن.

- لا، ليس الجميع. وظلك جميل متجانس.

التقت عينا الخادمة بعيني وسعلت بحرج. لكنني أدركتُ على الفور ما كانت تفعله العجوز. كانت قلقة بشأن الأرواح. شعرتُ برغبة في الضحك. إذا كان هذا هو السبب، فلا مشكلة في قبولي لوظيفة كهذه، فأنا بالتأكيد كائن حي.

غير أنني لم أضحك. بدوت جادة، فبدأ أن ذلك أَرْضِي ربة عملي المحتملة وقلت: «أنا لا أخاف الأشباح».

وهذا صحيح تماماً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) الطاوية أو الداوية (Taoism): ديانة وفلسفة صينية قديمة تعتمد على الانسجام مع الطاو (Tao)، (الطريق أو النهج) الذي يحكم الكون. ينشغل أتباعها بالعيش ببساطة وتوازن مع الطبيعة، وتستخدم في ممارسات روحية مثل طرد الأرواح الشريرة. (المترجم)

وهكذا حصلت على وظيفة في خدمة والدته صاحب متجر الأدوية الأرملة. انتهت المقابلة في وقت متأخر جدًا، حتى أنني تضررت جوعًا مجددًا. في الخارج، اشتريتُ أسياخ لحم الضأن من رجل ممثلي كان يشويها على موقد فحم. وعلى عهدة بائع الأسياخ، كان متجر الأدوية مشهورًا بازدهاره، وقد أسسته عائلة من أطباء الهان الصينيين من موكدن. لكن، على الرغم من براعتهم في علاج أمراض الآخرين، فإنهم لم يعمّروا طويلًا.

قال بائع الأسياخ: «وارث المنزل يموت شابًا دائمًا. يقال إن الابن الأكبر لا ينجو أبدًا. في الواقع، الرئيس الحالي هو الابن الثاني».

قال رجل آخر: «إنهم منحوسون، لكنهم يعالجون الآخرين بمهارة». وكان يرمقني بنظرة شهوانية، فغادرت على الفور، متسلقة بضعة جدران لتجنب الملاحقة.

لن أخوض في التفاصيل، لكنَّ التحول من ثعلب إلى امرأة والعكس ليس شيئًا يحدث بشكل عشوائي، لذا كان من الضروري إيجاد مكان آمن لقضاء الليل. لقد امتننتُ لهذه الوظيفة التي ستوفر لي مأوى أثناء مطاردة بكتو نيكان. لم أنسه ليوم واحد، ولا حتى لساعة. صورة جسد طفلي الصغيرة المكسور كانت تطاردني؛ ولم أسمح لها بالتلاشي.

احتفزتُ تحت شجيرة في فناء منزل مهجور شبه مكتمل، وانكمشتُ على نفسي. عليك دائمًا اختيار المكان الذي يبدو أكثر رعبًا، ويتجنبه الآخرون. وتُعدُّ المقابر الصينية الخيار الأمثل. لهذا السبب يعتقد الناس أن الثعالب تسكن المقابر.

في الصباح الباكر، قدّمت نفسي في متجر الأدوية. كان يجب أن أخاطب ربة عملي الجديدة بلقب «تاي فورن»، أو السيدة الكبرى، لتمييزها عن زوجة ابنها، التي كانت زوجة المالك الحالي. هذه السيدة -المدام هوانغ- الشاحبة صاحبة الفم الذي يشبه التوفو، والتي رأيتها أول مرة على الطريق، استقبلتني في المنزل الرئيسي.

سألتني: «ما اسم عائلتك؟»

فأجبتها: «هو». هناك اسم آخر يُنطق هوو ويشبه في معناه كلمة ثعلب، لكنه يُكتب بحرف مختلف. هذا هو الاسم الذي نستخدمه غالبًا للتخفي.

- وما اسمك الشخصي؟

نحن الثعالب نميل إلى اختيار أسماء بسيطة جدًا. لا شيء متكلف؛ في الواقع، كنتُ أعرف ثعلبًا تعيش الحظ اسمه «نقطة». فعندما تعيش طويلاً، من الأفضل أن تُبقي الأمور بسيطة.

«اسمي سنو». ويعني ثلج، أو «شيويه آر» بالصينية: «تساس» بالمنغولية؛ «نيمانجي» بالمنشورية، و«يوكي» باليابانية. إنه اسم جميل وشاعري، ولم أسأم منه أبداً.

«سنو؟» قطبت مدام هوانغ جبينها وهي تنطقه في ضوء الصباح الخافت الذي تخلّل النوافذ المنحوتة والمبطنة بالورق المُشَمَّع لمنع البرد، بدا واضحاً أنها رأت اسمي جذاباً أكثر مما ينبغي لخدمة: «ليس سنو. سندعوك آه سان»، وهو يعني رقم ثلاثة بالصينية. لم يكن لدى الكثير من الفلاحين أسماء حقيقية؛ لذا كانت الأرقام شائعة، وكذلك أسماء الحيوانات مثل آه نيو (بقرة) وآه غو (كلب)، لدرء الشرور.

- كل ما عليك فعله هو الاهتمام بحماتي.

يبدو أنهم استغنوا عن المرشحات السابقات بعد فترة قصيرة من تعيينهن. لم تبدُ مدام هوانغ راضية تماماً. ولم تذكر السبب بوضوح، سوى تكرارها أن حماتها صعبة الإرضاء، ولكن نظراً لحب زوجها الشديد لوالدته، لم يكن هناك حل سوى الاستمرار في تعيين الخدم وإقالتهم.

إلى جانب الخادمة المُسنّة تينغ، هناك العديد من الخدم والخادِمات في المتجر. كان المكان واسعاً جداً لدرجة أنه كان يُسمّى «دار الأدوية»؛ احتلّ مساحة كبيرة يتردّد فيها الصدى، وتغمرها العتمة والغموض، وتصطف على جانبيها المناضد، ومن خلفها تكدّست مئات الأدراج الخشبية الصغيرة، في كلّ منها جذور مجففة ومكونات نادرة. امتلأت الأرفف بجرار الجينسنغ والفطر المجفف، بما في ذلك فطر اللينغتشى⁽¹⁾ الشهير. تسلّل الضوء الخافت من أعلى القاعة ذات الطابقيين، وتدلّت الفوانيس الحمراء المغبرة على طول الشرفة العلوية.

(1) لينغتشى (lingzhi): نوع من الفطر الطبي يُستخدم في الطب الصيني التقليدي. يُعتقد أن له خصائص تقوي جهاز المناعة وتعزز الصحة العامة، ويُعرف أيضاً باسم "فطر الخلود" بسبب فوائده الصحية المفترضة. (المترجم)

قالت تينغ، وهي تُحدِّث عن سيدتي الجديدة: «لقد أصبحت أكثر حذرًا من الناس مؤخرًا».

في الواقع، كان تردُّد السيدة العجوز سببًا في تقاعدها مؤخرًا، وهو أمر مؤسف، إذ كانت نصائحها وحنكته المالية عماد هذا المتجر لعقود. لقد وصلتُ في الوقت المناسب، كما قالت تينغ مبَّرة. فانتقال السيدة الكبرى إلى الفناء الخلفي لا يعني أنها فقدت أهميتها.

تكوَّنت غرفتها الجديدة من فناء صغير مع ملحق بغرفتين كانتا تُستخدمان للتخزين. وهي غُرف مظلمة تفوح منها روائح الفجل المجفف والغبار الأصفر القادم من السهول. لم أكن أمانع الظلام؛ فأنا أرى فيه بيسر. أسرعَت تينغ بالابتعاد، وشفطتها مشدودتان كأنها قالت أكثر مما كانت تنوي. يفعل معظم الناس ذلك إذا تركتهم يتحدثون لفترة طويلة دون مقاطعة. إذا كانت سيدتي الجديدة تشعر بأي حزن أو أسف على تهميشها، فإنها لم تقل شيئًا. في الواقع، عندما نكون وحدنا، نتحدث غالبًا عن طفولتها في الشمال البعيد. إن شمال الصين مزيج من قبائل عدة، بما في ذلك المغول، والمانشو، والكوريُّون، والخيتان⁽¹⁾ الذين انقرضوا الآن. هذا دون احتساب توسُّع روسيا واليابان. ورغم كلِّ ذلك، فإنني أرى أن الناس متشابهون بشكل لافت، لا سيما في مخاوفهم.

معظم الرجال يخشون الظلام، تمامًا كما يخشون تقهقر قواهم البدنية، والنساء القاسيات، والأطفال الذين ليسوا من أصلابهم، وما هو أكثر من ذلك، رغم أنهم يبذلون قصارى جهدهم لإنكار تلك المخاوف. بصراحة، لطالما اعتقدتُ أنَّ الاعتراف بالخوف هو الخطوة الأولى لتجاوزه. لكن بالطبع، أنا لستُ رجلًا.

كنت أرغبُ في البحث عن بكتو نيكان في أسرع وقت، لكن لم يسمح لي أحد بالخروج لمدة أسبوع. كانت المداخل والبوابات الخارجية تُغلق ليلاً، وهناك حارس يتجول في الخارج؛ لمنع السرقة إذ العديد من المقويات

(1) الخيتان (Khitan): شعب قديم عاش في شمال شرق الصين، أسسوا مملكة لياو (907-1125 م). ثم انقرضوا بعد هزيمتهم على يد جيوش سلالة جين في القرن الثاني عشر، لكن تأثيرهم الثقافي استمر في المنطقة. (المترجم)

والأدوية النادرة كانت أثمن من وزنها ذهبًا كما زعموا. رغم نفاد صبري، فقد شعرت بالارتياح لوجود مكان آمن للنوم وكميات وفيرة من الطعام. لقد كنت وحيدة لفترة طويلة لدرجة أن أحاديث هذا المنزل الكبير والحيوي كانت تبعث فيّ الدَّفء.

كان هناك الكثير من الفتيات الشابات، بمن فيهن القريبات والخالات وصديقاتهن، وكُنَّ يقضين بعض الوقت في هذا المنزل. وبينما كنت أنتظر سيدتي، التقطتُ بعضًا من أحاديثهن.

- هل الفتاة في الخارج خادمة الجدة الجديدة؟

- إنها جميلة بشكل مريب، كالثعالب.

اهتزت أذناي بحذر. لا، لا، إنها مجرد دعاة شائعة.

- يجب ألا نسمح لبوهاي برؤيتها. أو ربما علينا أن نفعل!

وتعالت ضحكاتهن. لم يكن بإمكانني لومهنَّ على سُخْفهن، فهنَّ كالطيور المحبوسة في الأقفاص. في تلك اللحظة، ظهرت سيدتي العجوز على الشرفة. وبشيء من الإحراج، برَّرت قائلة: «حفيدي بوهاي، يدرس الطبَّ الحديث في اليابان».

سافر العديد من الشبان الصينيين إلى اليابان بعد أن شهدت تحديثًا سريعًا واعتناقًا للعلوم الغربية. وفقدوا الثقة في سلالة تشينغ المتدهورة وبيروقراطيتها التي باتت فاسدة بشكل متزايد. تراجعت الامتحانات الإمبراطورية الأدبية القديمة للمناصب الحكومية، ولم يعد أحد يعرف ما يخبئه المستقبل.

- سمعتُ أن حفيدك يعرف جميع المصورين الجدد في المدينة.

ابتسمتُ وقالت: «التصوير شغفه. هل ترغبين في أن أسأل بوهاي إن كان هناك أي مصور جديد في المدينة؟»

نعم، بالتأكيد، أود ذلك. أما بوهاي، ابن العائلة الوحيد، فقد علمتُ أنه أعزب في الثالثة والعشرين من عمره، ومن المقرر أن يعود إلى اليابان بصفته طالب طب عند نهاية هذا الشهر. كان من الغريب وجود هذا العدد الكبير من الشابات في العائلة، بينما لا يكاد يوجد رجال. تذكرتُ حينها كلمات بائع أسياخ اللحم، بأن الابن الأكبر للعائلة دائمًا ما يموت شابًا.

قالت سيدتي: «بما أنك تسألين كثيرًا عن المصورين، فقد حان الوقت لالتقاط صورتني قبل أن أموت».

يحبُّ كبار السن في الصين الحديث عن أعمارهم. ففي العديد من القرى، يُعدُّ شراء الأبناء تابوتًا خشبيًا منحوتًا لوالديهم علامة على برهم. يحتفظون به في غرفة خلفية، وتساءلت فجأة إن كان هناك تابوت خشبي في أحد هذه الملحقات ينتظر رحلتها الأخيرة.

كان قرار سيدتي العجوز بأن تلتقط صورتها مفيدًا للغاية في بحثي عن بكتو نيكان. لم يكن بإمكانه الذهاب بعيدًا إذا استمر في مزاوله مهنته. وحينها، كُشِّرت عن أنيابي.

قالت سيدتي، متفاجئة: «تبدين شرسة جدًا يا آه سان. هل أزعجك أحدهم؟»

كلمة «إزعاج» لا تكاد تلامس الحزن والغضب المتأجج في قلبي، لكنني اكتفيت بالقول: «يبدو أن المطر قادم».

بعد أن تأكدتُ من أنها تدثَّرت جيدًا، قالت: «أخبري تينغ أنني أود أن يرافقني بوهاي».

6

بعد فترة قصيرة من أخذ مربيته العجوز له لمزار الإله الثعلب، أصيب باو بحمى شديدة؛ شحب جلده، وآلمته معدته، وبكى لساعات طويلة. اصفرَّ بياض عيني باو كأضواء الفوانيس، وخشي والداه وقوع الأسوأ. لكنَّ مربيته العجوز واصلت الصلاة بحرارة، فكانت تذهب إلى مزار الثعلب يوميًا. وفي كل مرة تعود، تجلبُ معها هديةً صغيرة لباو: كورقة خيزران، أو حصاة على شكل تجويف عظمة حوض دجاجة. لم يكن متأكدًا أكان ذلك لإثبات زياراتها للمزار أو لتلهيه عن البكاء.

قال الطبيب الذي فحص باو: «لديه كمية كبيرة من الحرارة والرياح⁽¹⁾. الطحال والمرارة مسدودان... هل ترى الاصفرار في عينيه؟» وصف له الطبيب الشيخ الطُّفيلي وفطر البوريا مع خليط من الأعشاب. فشرَب باو الدواء المر، والدموع تنهمر من عينيه.

تردَّدَت همسات من الغرفة المجاورة. ثم دخل والده، الذي كان مسؤولًا حكوميًا، ليعوده. جلست والدته، التي كانت عادةً تهتم بشقيقه الأكبر، بجانبه وعيناها محمرتان من البكاء.

قال والده وهو يلقي نظرة سريعة على الأوراق والحصى بجانب سريرهِ: «ما هذا الهراء؟ تخلصوا منها إنها قذرة».

كنستها والدته، وانحنيا فوقه معًا.

سأل باو: «هل سأموت؟» آخر مرة رأى والده ينحني بهذه الهيئة المهيبة كانت على فراش موت جدّه.

قالت والدته: «لا تقلق، لا أحد يموت من مرض كهذا».

(1) الحرارة والرياح: مصطلح من الطب الصيني التقليدي يشير إلى عدم التوازن في طاقة الجسم، حيث ترتبط «الحرارة» بالحمى والالتهابات، و«الرياح» بالتغيرات المفاجئة أو الاضطرابات الداخلية. (المترجم)

ثم سمع ذلك الصوت؛ طنين غريب، مرتفع النبرة، رافق كلمات والدته. فزع باو ونظر حوله، ناسيًا بؤسه للحظة.

قال والده: «بالطبع. لا داعي للقلق».

ومرة أخرى، رنَّ الطنين. كان يتبع حركة شفتي والده بدقة. وحدّق إليه باو بفم مفتوح من شدة الدهشة.

قال والده بحدة: «ما بال الصبي؟ هل أصاب عقله شيء؟» ثم اختفى الطنين.

قالت والدته وهي تضع يدًا واقية على رأس باو: «إنها الحمى فقط». كان يعلم أن رأسه مهم للغاية لهما. فدائمًا ما كان مدار حديثهما؛ كم عدد القصائد التي حفظها، أو مدى سرعته في إجراء الحسابات على العدّاد. كان والده قد اجتاز الامتحانات الإمبراطورية في شبابه، وحصل على منصب رسمي في هذه البلدة الشمالية النائية. قال مرة: **لو لم أُصَبْ بالألم في معدتي يوم الامتحانات، لحققت نتيجة أفضل.** تبادل باو وأخوه الأكبر نظرات خاطفة حينها، وعلمَ باو من العبوس السريع والذعر على وجه أخيه أن الأمر كان خطيرًا.

مثلما كان مرضه الآن، بصرف النظر عن كلام والدته المطمئن. كان الألم في بطنه حادًا لدرجة أنه أراد أن يتقيًا، لكن لم يكن هناك شيء في معدته، سوى الجفاف المرير الذي غطّى لسانه.

في النهاية، تقلّص انتفاخ بطنه، وتلاشى الألم في أطرافه تدريجيًا. كانت الدراسة أو الحفظ أمرًا مستحيلًا؛ فقضى أيامه مستلقيًا في السرير، يراقب أوراق الأشجار تتراقص تحت أشعة الشمس في الفناء الخارجي. كان الصيف على الأبواب... الصيف القصير والحر بشكل مفاجئ في الشمال، والذي يأتي مع سحب من الغبار الأصفر. غنّت حشرات الزيز تذكّره بالطنين الذي كان قد سمعه في أصوات والديه.

بعد بضعة أيام، سمعه مجددًا عندما كانت الخادمة تتحدث من وراء الجدار. نادى على طبّاخ الجيران قائلة إن البيض قد نفذ وليس لديهم ما يكفي لهذا اليوم. كانت تلك كذبة بلا شك؛ إذ كان بجانبها وعاء البيض الطازج الذي وضعته دجاجاتهم للتو. حينها أصابت الدهشة باو.

قال لها: «كرريها مرة أخرى».

- ما هو؟

- إن البيض قد نفذ.

لكنها رفضت، إذ ظنّت أنه يسخر منها، ولاحقًا في ذلك اليوم، كرر التجربة مع مربّيته.

- دعينا نلعب لعبة. قل لي شيئًا، وسأخبرك إن كان صحيحًا أم خطأ.

كانت مربّيته العجوز الوحيدة التي حافظت على رباطة جأشها أثناء مرضه. في الواقع، لا يزال يتذكّر بلا وضوح كيف عاتبتها والدته ذات ليلة عندما ساءت حالته للغاية، قالت لها: «أيتها المرأة القاسية، ابني قد يموت!» ثم جاء ردها المكتوم الذي لم يتمكن من فهمه.

- كم عمري؟

- سبع سنوات.

- وكم عمر أخي؟

- أحد عشر عامًا.

قال بانزعاج: «لا، لا، ليس هكذا. عليك أن تكذبي!»

«حسنًا. أخوك عمره أربع سنوات». كانت تمازحه، لكنه سمع الطنين؛ كهمهمة خفيفة منبّهة.

- قل لي شيئًا لا أعرفه.

- غسلتُ سروالك الأزرق بالأمس.

- غير صحيح.

- عندما كنتُ طفلة، أعطيت طعامي لمتسوّل فضربتني أُمي.

قال: «صحيح!» وتلألأت عينا باو.

نقرت مربّيته بلسانها؛ لم تكن تريد أن يُجهد نفسه كثيرًا: «الأخيرة».

- هل كنتِ قلقة عندما مرضت؟

- لا.

- لماذا؟

أشاحت بنظرها بعيدًا. عجيبٌ كيف بعد كل هذه السنين، حتى في ذاكرته، لا يستطيع تذكر وجهها. لم يتذكر سوى الرائحة الحادة لزيت الزهرة البيضاء

الذي كانت تستخدمه لالتهاب المفاصل. قالت: «لأن الإله الثعلب أخبرني أنك ستعيش حياة مديدة بالتأكيد».

لقد أصبح باو في الثالثة والستين من عمره الآن. وتساءل عمًا إذا كانت مربيته ستعتبر ذلك عمرًا مديدًا. ربما هو في عمرها الآن، أو ربما أكبر؛ يصعب تحديد ذلك، ففي ذكرياته الطفولية، كان جميع البالغين يبدوون كبارًا في السن. ما يزال باو مرتابًا بشأن الإيمان بالثعالب. فعند المتعلمين، تُعتبر الثعالب خرافات شعبية، رغم أنه لا يستطيع إنكار الشوق الغريب الذي يشعر به كلما سمع كلمة «هوليجينغ»، أو روح الثعلب. كما لو كان صدره عودًا مجوفًا ترتعش أوتاره بفعل نسيم خفي. ومؤخرًا، أصبح هذا الشعور أقوى، وكأن الوقت يداهمه قبل لقائه الإله الثعلب.

ذكر أمين الحسابات في حيّ الضوء الأحمر أن فتاة اختفت من جناح العنقاء. عندما تهرب النساء، غالبًا ما يتكتمون على الخبر حتى لا يُشجّع ذلك المزيد منهنّ على الهرب. يموت بعضهن بالمرض أو يقتلن أنفسهن. ولا يوجد إحصاء رسمي للجثث في هذه المنطقة، حيث يُرشى رجال السُلطات بشكل دوري.

بوضع ذلك في الاعتبار، توجه باو إلى جناح العنقاء، حيث سأل عن تشيولان، أو زهرة الخريف. وهي امرأة قدّم لها خدمة من قبل. كان الوقت بعد الغداء بقليل، وفاحت في الغرفة رائحة الباباوي؛ الخضراوات المخللة.

كانت تشيولان امرأة مكتنزة، وبدأ جمالها الذي كان لافتًا من قبل في التلاشي. لم تكن بارعة في المحادثات أبدًا، لكنها عوّضت ذلك بروحها المرحّة. لذلك، عند تنظيم الحفلات، يظهر اسمها عادةً بعد رابع خيار أو خامس. في كل مرة يلتقيان، تبدو تشيولان أكثر حزنًا وكآبة. كان أحمر شفاهها ملطخًا تمامًا بشكل يشبه ساق أنبوب الأفيون النحيل، وعندما رأت باو اليوم، بالكاد استطاعت أن تبتسم.

قالت: «العم باو»، مستخدمةً اللقب الودي المألوف الذي يُطلق على الأكبر سنًا، رغم أنهما ليسا أقارب: «ما الذي أتى بك اليوم؟»

وضع على الطاولة هدية من اللاوڤو بينغ، وهي معجنات هشة محشوة بالبطيخ الشتوي المسكّر. كانت عينا تشيولان تبدوان متعبتتين ومنتهختين. خشي باو أنها ستضطر قريباً إلى التقاعد أو قد تُصرف.

- أودُّ أن أعرف عن امرأة اختفت قبل ستة أسابيع. ربما من بيت متعة راقٍ.
- وما الذي يجعلك تعتقد أنني قد أساعدك؟ هل أبدو لك امرأة من طبقة راقية؟

لن يكذب. هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يحتمل باو سماعه من شفّتيه، طنين الكذب الخافت، كمنحلة هائمة، لذا ظل صامتاً. ضحكت تشيولان ضحكة قصيرة وقالت: «حسناً، لم يبقَ لي وقت طويل في هذه المهنة على أي حال». لم يسأل باو إن كانت قد سدّدت ديونها. فمعظم الفتيات اللاتي يُبعن إلى بيوت الهوى يُجبرن على تحمل تكلفة سجنهن بأنفسهن، ويُضاف إلى ذلك سعر الفائدة القاسي وأجرة المسكن والمأكل على مدار الأشهر. حتى طلب الخدم لشراء الوجبات الخفيفة أو دبابيس الشعر يستلزم دفع إكراميات للحفاظ على العلاقات الودية. هناك طرق كثيرة يُستنزفن بها. وبينما كان باو يحني رأسه، أمعن في سطح الطاولة الخشبي. يراقب نملة تزحف فوقه، مسافرة صغيرة دون وجهة.

قالت، بنبرة تجمع بين المزاح والجدية: «اسمع، سأخبرك بما أعرف إذا سدّدت ديني». كلاهما يعرف أنه لا يستطيع تحمل ذلك. بالإضافة إلى أن علاقتهما لم تكن من ذلك النوع.

«أنا في عمر يكفي لأكون جدك». كان هذا هو الرد الذي يكرّره لها باستمرار.

قالت تشيولان بنبرة يائسة: «لا أبالي. سأصبح زوجة صالحة. ألا تريد ابناً يحمل اسم عائلتك؟» كانت ملامح جمالها تتلاشى، وروحها المرحّة بالكاد تتماسك تحت أنبوب الأفيون. أحياناً عندما تسعل، تبقع نقاط الدم الزاهية البلغم.

قال بلطف: «لن أتزوج مرة أخرى».

«من هي التي لا تزال تفكر بها؟» من وقت لآخر، كانت تشيولان تتبنّى سلوكاً مغناًجاً، كالأساليب التي تستخدمها مع زبائنّها، رغم أنها تبدو كأنّها

تريد معرفة جميع أسرارها. لقد سئمت من حياتها، ويرعبها المستقبل، لذا تقضي وقتها في محاولة استفزازه عندما يمرُّ من حين لآخر.

هزُّ باو رأسه. إنه يعرف هذه اللعبة جيدًا. فتشيولان تتاجر بالمعلومات الشخصية. لكنها مفيدة، فهي تجيد العزف على التشين؛ القيثارة الصينية، وتُدعى إلى العديد من الحفلات، حيث لا تسرق الأضواء من كبار الغواني. كما أنها صادقة.

- قل لي، هل سبق لك أن وقعت في الحب، عمي باو؟

- نعم، فعلت.

تألّقت عينا تشيولان. غريب كيف أن شائعات الحب، رغم خيبتها الشخصية، ما زالت تثير اهتمامها.

- كان ذلك منذ زمن بعيد. كنا أصدقاء طفولة، لكنها تزوجت رجلًا آخر، وأنا أيضًا تزوجت امرأة أخرى.

كسرت تشيولان قطعة من المعجنات الهشة. وبدأ أن حاجبها المشدودين يقولان: **يا لها من قصة مملّة.**

تنهّدت مجيبة على سؤاله الأول: «كانت فتاةً جديدة، اسمها تشونوها». شعر باو بانزعاجها تحت مظهرها الخارجي الهش: «هل كنتِ قريبة منها؟»

- ذكرتني بنفسى عندما كنت أصغر. كنت متلهفة لإسعاد الجميع، على أمل أن يقع أحدهم في حبي ويشترى حريّتي. لماذا تسأل عنها، على أي حال؟ كنتُ أظن أنك لن تتعامل مع بيوت الهوى أبدًا.

- أنتِ محقة، زبوني شخص آخر.

- هل هو السيّد وانغ؟

عندما لاحظت دهشة باو، قالت: «إنه رجل ثري، غالبًا ما يستأجر فنانات محترفات لفعاليات أعماله. في الواقع، اختفت تشونوها خلال آخر حفلة له في دار شاي». ثم ذكرت مكانًا يبعد ميلين من مطعم غو.

سجّل باو العنوان. رأى أن المسافة قابلة للمشي، لكنها مزعجة في ليلة شتاء قارسة دون معطف. لن يغامر عاقل بخوض مثل هذه الرحلة بلا داع، لا سيما امرأة بمفردها.

عند عبوسه، قالت تشيولان فجأة: «لقد حدث لها شيء، أليس كذلك؟»
قال باو: «عُثر على جثة شابة متجمدة عند أحد المداخل. طُلب مني أن أجد اسمها الحقيقي حتى تُقام لها مراسم عزاء».

تحرك حلق تشيولان لأعلى وأسفل وهي تحاول جاهدة ألا تبكي، وإن بدأت الدموع تغمر عينيها: «هل كانت تشونوها؟»

- لا أعلم. لقد دُفنت مُسبقًا، وبما أنها كانت خارج حيّ المتعة، ربما لم يصلهم الخبر.

وتجنب إخبارها بأن غو تسترّ على الحادث برشوة المسؤولين: «لا أملك سوى وصف غير دقيق من الشخص الذي عثر عليها؛ طولها متوسط، ترتدي ملابس حريرية بلون المشمش الفاتح الخفيف. على رأسها زينة شعر فاخرة. وهي في أوائل العشرينيات؟»

قالت تشيولان بلهجة دفاعية: «قد ينطبق هذا على أي أحد، ليس هنا فقط. يحتفظ العديد من التجار بعشيقات. وتشونوها كانت في التاسعة عشرة».

- هل تتعرفين على الملابس؟

- لا أعرف ما كانت ترتديه تلك الليلة. كان أسبوعًا حافلًا، إذ كان معظم الفتيات مريضات. لم يكن ليختاروها لذلك العشاء لو لم تكن نعاني من نقص في عدد الغواني. السيد وانغ زبون مهم. دائمًا ما يطلب مغنيات وعازفات محترفات، حتى لحفلاته الصغيرة.

- هل بدت متحمسة أو مكتئبة بأي شكل؟

- لم يلاحظ أحد ذلك. لم تكن مغنية أو عازفة بارعة كما يفضل السيد وانغ، لكنها كانت شابة مرحة. كانت تعرض القيام بمهام صغيرة لي، وأشياء بسيطة من هذا القبيل. عندما تُدرك الفتيات الأخريات، أنك في طريقك للخروج، لا يرغبن بالتعامل معكِ. لكنها كانت طيبة القلب. كنا نتفاهم جيدًا.

وابتلعت ريقها.

- هل كان لديها أي عيوب؟

حدّقت تشيولان في الإطار المزخرف خلفه. وفوق رأسها طنّت ذبابة مترنحة: «لم تكن تتعاطى الأفيون، لكنها كانت ضعيفة أمام الرجال الحسان.

هكذا انتهى بها الحال هنا. جلبها أحد القوادين بالطريقة المعتادة، بعود عن الحب والزواج. تعرف القصة». وتنهدت: «أمل ألا تكون هي. بالمناسبة، كان هناك ضيف جذب الانتباه تلك الليلة. كان حديث الفتيات عندما عُدن إلى المنزل. لم يلاحظ أحد غياب تشونوها إلا بعد مرور بعض الوقت، إذ اعتقدن أنها عادت مبكرًا. وفي صباح اليوم التالي، لم تكن قد عادت بعد، وحينها بدأ القلق. لا أحد يتسامح هنا مع اختفاء النساء».

كان ذلك تهوينًا للأمر، كما أوحى نظرة تشيولان المنكسرة. لا يزال باو يواجه مشكلة؛ لا يملك طريقة للتأكد من أن المرأة المخفية كانت تشونوها، رغم أنها تبدو الحالة الأكثر احتمالًا. للأسف، كان وصف صاحب المطعم وصفًا عابرًا، لكن على الأرجح، منعت الصدمة من تفحصها بدقة. تُعتبر الجثة مستودعًا لطاقة اليين السلبية، وبالتالي فهي شديدة النحس. لا عجب أن غو كان مذعورًا في الأسابيع الأخيرة.

- هل تشونوها اسمها الحقيقي؟

- لا.

تشونوها تعني زهرة الربيع، كما أن تشيولان تعني زهرة الأوركيد الخريفية. إنها من الأسماء الرقيقة الزاهرة التي تُمنح عادةً لنساء أحياء المتعة. وغالبًا ما يكون هناك نمط محدد، يختاره أصحاب بيوت المتعة.

- هل تعرفين اسمها الحقيقي؟

هزت تشيولان رأسها: «بيتنا لا يحتفظ بتلك السجلات لتجنب المشاكل مع الأقارب».

سأل: «هل التقط لها أحد صورة من قبل؟» إذا كان الأمر كذلك، فيمكنه أن يطلب من غو تأكيد ما إذا كانت هي المرأة التي عثر عليها. التصوير فنٌ جديد، ورغم أن البعض يخشى أن تُسلب أرواحهم إذا التُقطت صورهم، فإنه يزداد شعبية. حتى الإمبراطورة الأرملة التقطت لنفسها صورًا، وهي ترتدي زي إلهة الرحمة.

- نعم. صوّر المالك بعض الفتيات لأجل كتيب صوري. كانت تشونوها

في الصورة الجماعية التي التقطها رجل منشوري يُدعى بكتو نيكان».

إنه الاسم الذي ذكره أمين الحسابات. ذلك الذي سأل عن الثعلب الأبيض الذي رآه أحد الحمالين.

قالت: «لم تُطبع الصورة الجماعية التي كانت فيها. عليك أن تسأل بكتو للحصول عليها». ثم أضافت تشيولان وهي تخفض عينيها: «هناك شائعة تدور حول أن السيد وانغ ربما أخذها إلى قُيْلَتَه الريفية. في إحدى الحفلات السابقة، ذكر أن تشونوها تشبه واحدة من مغنيات الأوبرا المفضلات لديه، مما أثار غيرة بعض الفتيات. لهذا السبب لم يرغب في اختيارها للحفلة الأخيرة التي اختفت فيها. سمعتُ أن السيد وانغ يملك جناحًا سرّيًّا في قُيْلَتَه الريفية حيث يحتفظ بالنساء. ماذا لو لم تكن ميتة؟ ماذا لو كانت هناك؟»

دَوَّنَ باو هذه المعلومات في دفتر ملاحظاته. كانت تشيولان تُفضِّل أن تفكر في صديقتها حية في منزل رجل ثري، بدلًا من أن تكون متجمدة عند عتبة باب. ومع ذلك، كلاهما يعرف أي الخيارين هو الأرجح.

ثم قالت: «إذا كنتَ تريد معرفة اسم تشونوها الحقيقي، فقد أخبرتني أنها جاءت من قرية وُو التي تقع غرب المدينة. كانت عائلتها تتاجر في الأقمشة القديمة. وقعت في حب قواد وهربت معه». وتدلّت كتفها وهي تتابع: «كان لها أخت صغرى لم تجرؤ على التواصل معها. قالت إنها كانت تشعر بالخجل. كما قلتُ لك، لقد ذكَّرتني بنفسِي عندما كنت صغيرة. يا لها من فتاة غبية».

وانهمرت الدموع من عينيها. ولم يكن باو متأكدًا مما إذا كانت تشيولان تبكي على صديقتها المفقودة، أم على نفسها.

وهكذا وقفتُ أنا وسيدتي العجوز، ننتظر بوهاي أمام متجر الأدوية حتى يرافقها لزيارة المصورين. وفي النهاية، فُتح الباب وخرج السيد الشاب. كدتُ أنفجر ضاحكة، فقد بدا بوهاي مثل بيضة؛ وجهه بيضاوي شاحب، وعيناه صغيرتان، وشعره الرقيق مصفّف بعناية في فرق جانبي عصري. وفوق ذلك كله، كانت تعلوه نظرة مريبة، وكأنه متصلّب وجاد. قال بصوت مرتفع قليلاً: «جدتي، ستُصابين بالبرد. هل يجب عليك حقاً التقاط الصورة اليوم؟» ورغم تذرّره، فلم يَخَفْ حبُّ بوهاي لها. عندما وصلت العربية، ساعدها في الصعود على قَمَته المتمايله، وتبعها بعد ذلك.

نظرت سيدتي إلي بقلق وقالت: «أريد أن تأخذ آه سان معي أيضاً». قال: «يمكنها المشي»، فأجبرتُ على الهولة خلفهم. لكن لم أكتث لذلك. فالهواء البارد كان يلسع وجنتي، وغُمرتُ بسعادة شديدة؛ كنتُ أقترُب أكثر من يكتو نيكان. لقد أفلت مني مرة، في قرية نائية في الشمال عندما سمعتُ كذباً أنه مات. ومؤخراً، أفلت مرة ثانية عندما تتبعته إلى موكدن.

ومما سمعته أثناء ركضي خلف عربة الريكشا، أن المصور الذي سنزوره يابانيّ يسمى أودا. سألتُ سيدتي حفيدها: «هل هذا هو متجر صديقك؟» أجاب بوهاي: «نعم. جدتي، خادمك الجديدة. ألم تلاحظي شيئاً غريباً بشأنها؟» ارتجّت العربية قليلاً فوق مطب، ففاتني جزء من رد سيدتي: «...بوهاي، أريدك أن تكون حذراً جداً. تعرف السبب».

كان استوديو التصوير مرتباً ومزدهراً؛ من الواضح أن هناك طلباً كبيراً على هذا الفن الجديد، الذي يخلد صورتك للأبد. أعطت خلفية مرسومة إيجاء بمنظر طبيعي بعيد، مع مجموعة من الأثاث للجلوس أو الوقوف بجوارها. شعرتُ بقشعريرة في مؤخرة عنقي؛ فوسط رائحة ملمع الأثاث، ومواد

التحميض الكيميائية، وباقية الزهور الشمعية الكبيرة، كان هناك عبق مسكي خافت جعلني أشعر بعدم الارتياح. هذه هي مشكلة العيش طويلاً. لا يمكن للمرء تجنب مصادفة معارفه القدامى.

تصفّحت سيدتي ألبوم الصور الذي قدمه أودا، صاحب المتجر. كانت لغته الصينية ممتازة، رغم حديثه باليابانية مع بوهاي.

قال: «إذا أردت، فيمكنني التقاط صورتكِ اليوم بخضم خاص للأصدقاء». وكان هذا كافياً لجعل سيدتي تبتسم وتوافق.

سأل بوهاي وهو ينظر إلى ستارة المدخل في الجزء الخلفي من المتجر: «أين شيراكاوا... ألا يقيم معك؟»

- ليس هنا اليوم.

«أوه». رد بوهاي بخيبة أمل غريبة، وشعرتُ بمعدتي ترتعش كحالة إنذار. شيراكاوا يعني النهر الأبيض، وهو اسم ياباني شائع. ومع ذلك، فإن أي اسم يتضمن الحرف المكتوب «أبيض» يثير شكوكي على الفور. وكذلك الحال مع «أسود». لكن سأتطرق إلى ذلك لاحقاً.

رفع أودا عينيه عن الكاميرا ونظر إلى بوهاي قائلاً: «كُن حذراً في الليل؛ لا تخرج للشرب مع رفاق غرباء. لقد حدثت وفاة أخرى».

قالت سيدتي بنبرة تحمل قلقاً واضحاً: «من مات؟»

«طالب. وُجد في زقاق. أخبرني شيراكاوا بذلك». ربما اعتقد أودا أنه كان ينقل خبراً فحسب، لكن من ارتجاف شفيتها، بدا أن سيدتي كانت قلقة. أَلقت نظرة على بوهاي وبدأت تعقد يديها في حجرها. وبعد استذكاري للأقاويل حول كيفية موت الأبناء البكور لعائلة متجر الأدوية في شبابهم، تساءلتُ إن كان ذلك يفسر قلق بوهاي الواضح وتوتره. حتى أنا كنتُ في حالة تأهب شديد. فالوفيات المفاجئة الغامضة دائماً ما كانت تثير اهتمامي.

عند مغادرتنا، تريثت قليلاً لسؤال أودا عما إذا كان قد سمع عن مصور منشوري يُدعى بكتو نيكان. انتفض بتوتر وقال: «ليس لدي أي فكرة عما تتحدثين عنه». ثم استدار فجأة وخرج إلى حيث كانت سيدتي وبوهاي ينتظرانه. ضيقتُ عينيّ بشك. أودا واستوديو التصوير الخاص به زادا قلقي؛ وأصابني شعور مزعج بأنني قد فوت شيئاً ما. ربما ينبغي لي أن أعود مرة أخرى. بمفردي.

لم أكن الوحيدة التي شعرت بالرَّيبة. حين عدنا إلى المنزل، سألتني سيدتي: «بدا وكأنك تفهمين حديث أودا وحفيدي في المتجر. هل تتحدثين اليابانية؟» عندما تعيش طويلاً، تتعلم العديد من اللغات، لكنني أعطيتها القصة الغامضة التي استخدمتها من قبل: «جئْتُ من دار أيتام في الشمال، حيث كان هناك مستوطنون يابانيون وروس. وكذلك كوريون ومنغوليُّون».

سألت: «هل كان الأمر صعباً عليك؟» بدت على وجهها علامات القلق. وهذا ما بدأت أحبه فيها؛ لم يكن هناك سبب يدعو أرملة ميسورة مثلها للقلق، لكنها كانت تملك قلباً طيباً.

أجبتُ: «أحياناً» وتنهَّدْتُ بطريقة مدروسة تضع حدّاً للأسئلة، بينما عدنا لتمشيط خيوط التطريز. بالمناسبة، أنا أكره التطريز. لكنه واحد من تلك الفنون النسائية التي يجب أن تتحملها المرأة كي تُقبل بصفتها سيدة محترمة. سألتني: «لماذا لستِ متزوجة؟»

- لقد تزوجتُ من قبل. ولا أهتم بالزواج مرة أخرى.

أومأت سيدتي قليلاً وقالت: «فهمت». ربما افترضتُ أنني ترملت أو هربت. ثم أضافت: «بما أنك تفهمين اليابانية، فهل يمكنك أن تقدمي لي خدمة؟ أودُّ منك أن تراقبي صديق بوهاي، شيراكاوا. أخشى أنه يستغل بوهاي. أحياناً، يبدو وكأنه مسحور».

حافظت على ملامح وجهي بلا تعبير. كلمات مثل «مسحور» تحمل أخباراً سيئة للثعالب. ففي النهاية، لا يستغرق الأمر طويلاً حتى تشعل الشائعات عن الشيطنة حملات صيد الثعالب⁽¹⁾. لكنني كنت فضولية بشأن هذا الشيراكاوا، خاصة بعد ذكر المصور أودا لحالات الوفاة المفاجئة.

وهكذا قرَّرت سيدتي إقامة عشاء صغير لحفيدها وبعض أصدقائه. كان التجمع الحميمي يحوي: بوهاي، وثلاثة من أصدقائه، وجدَّته، ووالده، صاحب متجر الأدوية. أما والدته، المدام هوانغ، فقد امتنعت عن الحضور. مقدمة أعذاراً

(1) ذات مرَّة، قضيتُ خمسة أشهر مختبئة في قبو لتخزين اللفت في المدينة القديمة المسورة بينغ ياو، عندما فتكت الأمراض بثلث السكان الذكور، وانتشرت الشائعات بأن أرواح الثعالب الفاسقة هي السبب. (المؤلفة)

مبهمة، لكنني اشتبهت في أنها أرادت منع الفتيات الشابات في المنزل من التجسس. كنّ في سن الزواج الحرجة؛ ولم يكن من اللائق أن يتورطن في علاقة عاطفية غير مناسبة. لطالما أدهشني كيف يقيد الناس حرية بناتهم، بينما يتركون أبناءهم أحرارًا. لو فرضوا القيود نفسها على الشبان، لقلّت المشاكل كثيرًا. لكن من أنا لأتدخل؟ أنا هنا فقط لأمضي في طريق انتقامي الهادئ.

أقيم العشاء في غرفة الطعام الرئيسية، حيث استقرت مائدة دائرية ضخمة مصنوعة من خشب الورد تُستخدم في المآدب الرسمية. وكان من المفترض أن أحضر إلى جانب سيدتي. لم تكن هناك أي قيود تمنع حضور الخادمت وسط الرجال. فقد كنا نُعتبر من طبقة دنيا لا تُفرض عليها مثل هذه القيود، وكان من المتوقع أن يُسمح للسادة باختيار الخادمت إن أرادوا. كشرت عن أسناني قليلًا.

إضافةً إلى ذلك، طلبت مني سيدتي أن أتنصّت على شيراكاوا. كما شرحت لي: «غالبًا ما يتحدث حفيدي معه على انفراد باليابانية، وأريد أن أعرف ما الذي يتحدثان عنه».

انشغل الطاهي طوال فترة ما بعد الظهر. تُعرف مدينة داليان الساحلية بمأكولاتها البحرية الشهية. فالأسماك والمحار وقنافذ البحر تنمو ممثلة لذيدة في مياهها الباردة، لذا كان هناك محار ملفوف في عجة رقيقة بالثوم المعمر، وأسماك الكروكر الحلوة التي قُلّيت قليلًا قبل أن تُطهى مع الثوم والفاصوليا السوداء المخمرة. كما كان هناك طبق الدجاج المُسكّر، الذي طُهي بالبخار، ثم تمَلّح قبل أن يُغمّر بنبيذ الأرز، مع شرائح رفيعة من البصل الأخضر التي تعلو جلده الذهبي اللامع.

كان الغسق قد حلَّ عندما وصل ضيوف العشاء، وأُضيئت غرفة الطعام بمصابيح الزيت. كان الضوء قويًا لدرجة أن القادمين من الممر المظلم كانوا يرمشون. وهكذا راقبتُ كلّ واحد منهم وهو يدخل، مغمض العينين بعض الشيء ومنبهزًا بالضوء. كان مشهدًا غريبًا، تضاعفت غرابته بفضل الظلال الحادة التي ألقى بها الضوء.

بدا والد بوهاي مرهقًا ومتعبًا. ألقى نظرة مستفسرة على سيدتي العجوز، وكأنه يتساءل عن سبب ترتيبها لعشاء كهذا. تلا ذلك دخول بوهاي برفقة صديقيه: لُوو دونغ وتشين جيانِي. كان لُوو طويلًا جدًّا ونحيفًا، بشفة مائلة إلى الأسفل تشبه شفة الجمل. أما تشين فكان تقليديّ الملامح لدرجة صُعبت

وصفه؛ متوسط الطول، ووجهه متوسط العرض. لقد مررتُ بألف شخص مثله من قبل، من الأمراء إلى بائعي البطيخ.

لاحظتُ وأنا أقف بهدوء خلف كرسي سيدتي كيف انحنت للأمام لتدقق النظر في الشبان. كانت تهتم بظلالهم أكثر من وجوههم. كلُّ ظل كان واضحًا شديد السواد، وحادًا كرقائق السكر، فرأيت كتفها تسترخيان.

قالت: «لكن أين صديقكم شيراكاوا؟»

أجاب بوهاي بفضاظة بعض الشيء: «سيتأخر قليلًا. أرسل اعتذاراته». بدأت أفهم بوهاي بشكل أفضل. لم يكن يقصد أن يكون فظًا؛ بل كان متوترًا ببساطة. لكن والده عبس.

- من هو شيراكاوا؟ منذ متى تعرفونه؟

كانت الأجوبة محيرة. بدا أن لوو وتشين يعرفان شيراكاوا أيضًا، لكن رواياتيهما كانتا غامضتين ومتضاربتين. قال أحدهما إن شيراكاوا كان زميلهم في المدرسة، بينما قال الآخر إنه قدّم لهم جميعًا خدمة عظيمة في الماضي. الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه هو أنه جذاب ومثقف، وربما أذكى شخص قابلاه على الإطلاق.

شعرتُ بقشعريرة تسري تحت جلدي. ذلك الوخز التحذيري الذي يراودك عندما تلتقي بشخص تفضل تجنبه، متمنيةً أن يكون الوصف مجرد صدفة. ولماذا لا يكون؟ كل ما في الأمر أنه يملك حرف (白)؛ «أبيض» في اسمه، وهناك آلاف، لا، بل مئات آلاف يحملون أسماء مشابهة.

سألت سيدتي: «متى ستعودون إلى اليابان؟»

يبدو أنهم سيفغادرون في غضون بضعة أسابيع. إذ يبدأ العام الدراسي في اليابان في أبريل، وكان الشبان الثلاثة طلابًا في الجامعة. قال تشين: «لا أستطيع الانتظار حتى أبتعد عن والدي».

رد بوهاي مازحًا: «من الأفضل أن تتأكد أنه لا يعرف ما كنتَ تفعله». لكن المزحة لم تلقَ قبولًا. فضحك الشبان بخرج.

قال لوو: «بالحديث عن المشاكل، هل تذكرون يكتو نيكان، المصور المنشوري الذي التقط الصور لعمّ تشين؟» شهقتُ بحدة.

وظهر توتر طفيف، وكأنه يبعث برسالة تحذير لأصدقائه قائلًا: «سمعتُ أنه انتقل إلى يوكوهاما، لذا قد نراه مرة أخرى».

ثم تغير حديثهم إلى أمور أخرى، لكنني كنت أمسك ظهر الكرسي بقبضة مشدودة وفي داخلي شعور بالانتصار الشديد. لم يكن واضحًا لماذا كان الشبان متوترين بشأنه، لكنني فرحت لإقامة سيدتي لهذا العشاء. عرفتُ الآن أين هو يكتو نيكان، وكل ما تبقى هو معرفة كيفية الوصول إليه. يُقال إن الثعالب تخاف من الماء الجاري، لكنَّ هذا غير صحيح، وإن كُنَّا نعاني بشدة من دوار البحر؛ إلا أن هروب يكتو إلى اليابان سيكون مصدر إزعاج كبير.

أنساني الغرق في أفكاري أن أنتبه إلى شعور القلق الذي راودني سابقًا. لو كنتُ يقظة، لكان يجدر بي الاستئذان والذهاب للوقوف في الممر بصمت. عندما تعيش معتمدًا على حذرك وحسك، فلا شيء يُعدُّ حذرًا مفرطًا. كنتُ في غاية السعادة لأنني عثرت على أثر يكتو (وفي غرفة طعامنا، تحديدًا!) لدرجة أنني وقفت مكاني مبتسمة كالبلهاء. حتى نسيت تمامًا أمر صديق بوهاي الذي تأخر عن الحضور.

وقف بوهاي قائلًا: «شيراكاوا!» وكذلك فعل الآخرون. ألقى الابتسامات وقَدِّم الأعذار، مع هدية من نبيذ فاخر وبعض الكعكات الصغيرة. سحر الجميع، بمن فيهم والد بوهاي المتذمر وسيدتي، الجميع باستثنائي.

لا أدري كيف أصف ذلك الشعور بالانزعاج واليأس عندما يدخل شخص لم تتوقع حضوره ولم ترغب برؤيته مجددًا إلى الغرفة؟ كان شيراكاوا تمامًا كما أتذكره. له عيانان ضيقتان تحملان لمحة من الفكاهة وبشرة بيضاء، ويدان ماهرتان تتحركان برشاقة. لقد امتلك طبيعة مزدوجة غريبة؛ يمكنك أن تقرأ مشاعر متناقضة على وجهه في اللحظة نفسها. عندما يبتسم، تلتوي شفتاه، لكنَّ عيانه -الفاتحتان بلون الشاي وبؤبؤاهما الحادان- تبقيان جادتين تمامًا. إنه أمر يثير التوتر بشكل مستفز؛ وأغلب الناس يستجيبون لذلك بضحكة متوترة.

«شيراكاوا» كان بالطبع اسمًا مستعارًا؛ فاسمه الحقيقي هو «أبيض»، أو «شيرو» باليابانية. لقد أخبرتكُ أن الثعالب تحمل أسماء بسيطة. وأخبرتكُ أيضًا، أنني عادة ما أتحاشى الذكور من بني جنسي.

جلس باو على مكتب غرفته المستأجرة: وهي غرفة معيشة كبيرة ضيقة وذات سقف عالٍ في مبنى تجاري سكني ذي طابقين. كان مالك العقار خياطاً يحتفظ بباقي المنزل الطويل الضيق لعائلته. عاش باو سنواته الثلاث الماضية فيها مستمتعاً بضوء الشمس الصافي الذي يتسلل عبر النوافذ في الصباح. ومن أجل هذه المتعة وحدها، قبل باو تولي المزيد من المهام. مثل هذه المهمة. فتح دفتر ملاحظاته ودون:

1. المرأة الشابة التي وُجِدَت مجمدة عند العتبة هي على الأرجح تشونخوا، غانية من جناح العنقاء، اختفت في تلك الليلة بعد حفلة أُقيمت على بُعد ميلين. لكن إذا كان الأمر كذلك، كيف انتهى بها الحال عند باب غو الخلفي؟
2. تشونخوا ليس اسمها الحقيقي. فقد جاءت من قرية وُو خارج المدينة.
3. أسرع طريقة لإثبات هويتها هي من خلال الصورة الجماعية التي التقطها المصور بكتو نيكان.
- بدأت تتشكل هذه القضية كخيوط دخان يتلوى لتصبح أشبه بقصة غامضة تُهمس في أواخر الليل: امرأة مجمدة عند عتبة باب، وروح مضطربة. تسلل ارتعاش إلى فروة رأس باو وهو يتذكر كلمات غو: **هذا من صنيع ثعلب**. فأضاف ملاحظة أخرى:
4. بكتو نيكان كان يبحث عن فرو ثعلب أبيض.

ارتدى باو معطفاً مبطناً بخيوط حريرية ناعمة؛ هدية شقيقه الأكبر الذي تقاعد من منصبه الحكومي. في زرقاء السماء البعيدة، استشعر باو قدوم الربيع في هذه المنطقة الشمالية، رغم أن الرياح لا تزال حادة كالسكاكين.

ساوره شعور بالاضطراب؛ فالشائعات عن الثعالب تدفعه للتقدم، مع شعور غريب بأن هذه قد تكون آخر قضاياءه.

لقد تفقد المنطقة القريبة من المطعم سابقًا، رغم أن غو أكد له أن أحدًا لم يرَ شيئًا. قال وقد بدا مذنبًا: «لقد سألتُ بنفسِي». لا شك أنه كان يخشى وجود شهود على نقله للجنة. واليوم، سيبدأ باو من دار الشاي حيث شوهدت تشونخوا آخر مرة. ويأمل أن يجد شاهدًا على الطريق بين دار الشاي ومطعم غو.

كانت المنطقة متاهة من الشوارع والأزقة، مزيجًا من المطاعم والحانات والمساكن المتواضعة ذات الباحات الخلفية. استفسر باو عما إذا كان أحد قد رأى امرأة شابة ترتدي حريزًا مشمسي اللون في وقت متأخر من الليل، لكنَّ استفساراته قوبلت بالنظرات الفارغة وهزات الرؤوس. من يمكنه أن يتذكر ما حدث قبل أكثر من شهر؟ لكن أخيرًا، أومأ صبي يكنس أمام إحدى الأبواب وقال: «نعم، رأيتهَا».

لم يكذب باو يُصدق حظه: «هل كانت وحدها؟»

- لا، كانت تسير مع رجل وسيم.

كان الصبي هزيلًا فخمَّن باو أنه خادم مرهون، باعه أهله الجوعى لعدم قدرتهم على إطعامه. برزت أصابع قدميه المتشققة من حذائه القشي.

انحنى باو ووضع قطعة نقدية في يد الصبي الباردة. وقال بلطف: «هذه لك، اشترِ بها شيئًا طيبًا تأكله».

وضع الصبي القطعة النقدية داخل جيبه بخجل: «كان ذلك في وقت متأخر من الليل، لهذا أتذكرهما. لم يكن أحد بالخارج بسبب البرد القارس».

- كيف عرفت؟

- أنا أنام عند الباب، على الأرض بالداخل. في تلك الليلة كان الجو باردًا فأيقظني.

يعامل الكثيرون خدمهم كالكلاب، ويجعلونهم ينامون عند المدخل لتحذير المنزل من أي لصوص. شعر باو بشفقة شديدة تجاه الصبي. على الأقل كان هذا الطفل بالداخل، لكنَّ ذلك لم يكن كافيًا في يوم ثلجي، حيث يتسلل الهواء المتجمد عبر الفجوات.

- سمعتُ ضحكاتها، فقمْتُ ونظرتُ من خلال شق الباب. كانت تبدو سعيدة.

- هل تعني أنها كانت مخمورة؟

- بل متلهفة، كأن شيئاً جيداً قد حدث لها. كانا يسيران في الشارع معاً، متشابكي الأذرع. حمل الرجل مظلة ورقية مُشمَّعة. وتطايرت الثلوج الخفيفة من فوق الأسطح، فبدا المشهد كله بالأسود والأبيض. بدا المشهد لباو شاعرياً يثير الفضول: «كيف كان مظهرهما؟»

قال الصبي: «كان الرجل يرتدي ملابس بيضاء، تبدو غالية الثمن. أما السيدة فكانت ترتدي تشانغي رقيقاً وسروالاً... لم أستطع تحديد اللون في ضوء القمر، لكنه كان فاتحاً».

- هل بدت غانية محترفة؟

تغيرت ملامح الصبي متفكراً بتردد: «كانت ترتدي الكثير من الزينة في شعرها. ولم يكن عليها معطف. اعتقدتُ أنها تشعر بالبرد، لكنها كانت تضحك وتتعلق بذراعه. كانت جميع المتاجر مغلقة ونوافذها مظلمة. لم يكن هناك أحد في الشارع، لا شيء سوى القمر المتلألئ فوقهما والثلج الفضي المتطاير حولهما. شعرتُ بأنني في المكان الخطأ أو في زمن مختلف. في الحقيقة، عندما استيقظت في الصباح، ظننتُ أنني كنت أحلم».

«هل قلتُ إن الرجل كان وسيماً؟» فكر باو في الحفلة التي أخبرته عنها تشيولان، حيث كانت الفتيات يتهاوسن بلهفة بشأن ضيفٍ وسيم: «كم كان عمره؟»
- بدا شاباً. عندما مرَّ، أثارت الريح زوبعة من الثلج، فنظر إليّ مباشرة، وكأنه رآني أراقبه من خلال الشق، لكنني لا أعلم كيف استطاع رؤيتي في الظلام.

- هل شعرتَ بالخوف؟

«نعم... لا». وتوقف الصبي قليلاً: «لقد ابتسم لي. ابتسامة حادة، بأسنان بيضاء لامعة. شعرتُ وكأن شيئاً كان يناديني لأفتح الباب. أعتقد...» وتردد صوته من الخجل: «...أعتقد أنه كان ثعلباً».

أراد باو أن يسأله عن سبب وصوله لهذا الاستنتاج الغريب، لكن قاطعه رجل ضخم الرأس بنظرة غير ودية. عرَّف باو عن نفسه موضعاً أنه يبحث عن فتاة مفقودة.

هزَّ الرجلُ كتفيه وقال: «البنات يخنفن دائماً. الخادِمات اللاتي لا يحتملن العمل أو اللاتي يحبِلن. الأمر لا يعنيني».

ثم أمر الرجلُ الصبيَّ بالدخول بنظرة غاضبة، فواصل باو سيره. هبَّت ريح باردة، صجبتُّها إبرٌ جليدية لسعت وجهه. أضفى تعليق الصبي عن الرجل الذي حمل مظلة ورقية مشمَّعة على المشهد مصداقية غريبة. لكن لماذا وصفه بالثعلب؟ بقيت تلك الكلمات في ذهن باو تحمل نبرة واضحة من الصدق، رغم أن تعبير الصبي: «أعتقد»، يعقد المعنى.

وبينما كان باو يُغرق ذقنه في ياقة معطفه، تخيَّل ليلة شتوية حيث يراقب طفلُ أرقُّ من مدخل بيته، متسائلاً إن كان يرى رجلاً أم مخلوقاً على هيئة إنسان. إن كان هناك وقت لظهور الأشباح والثعالب، فهو الآن. حكمت سلالة تشينغ الصين لثلاثمائة وخمسين عاماً؛ وهي سلالة أجنبية يرأسها شعب المانشو غير الصينيين، لكنها تعيش الآن لحظاتها الأخيرة. إذ يخطِّط المتآمرون لإسقاطها، ويتوافد الشباب المتعلمون إلى اليابان للانضمام إلى الخلايا الثورية.

كل سلالة تظهر وتنهار مع دلائل ما. في الماضي، كانت الثعالب السوداء والبيضاء تُعتبر نذراً تُرسل إلى الإمبراطور في صورة هدية. أما الآن، فالإمبراطور الصغير الحالي قيد الإقامة الجبرية، والإمبراطورة الأمثلة تحتضر، وهي محظية سابقة تمكنت من السيطرة على مقاليد الحكم لعقود. بينما يحوم أمراء الحرب والأجانب حول البلاد كالذئاب. هذه القضية، بذكرها المتكرر للثعالب، حرَّكت مشاعر باو. شعر بعدم الارتياح كأنه منجذب إلى إيمان مشكوك فيه. أليس هو نفسه قد عاش لفترة طويلة مع قدرة سرية لا يستطيع تفسيرها، سواء لنفسه أو للآخرين؟

اكتشف باو قدرته على سماع الأكاذيب، حتى حين يتعلق الأمر بكذباته، وذلك بعد وقت قصير من رحيل مربيته العجوز. لم تكن والدته تُحبها قط، فقد ورثتها عن عائلة بعيدة من جهة والده، ولم تكن من جماعتها، بل كانت امرأة مسنَّة من قرية نائية تتحدث بلهجة خشنة يصعب على زوجة مسؤول أن تفهمها.

كان لمرض باو في طفولته تبعات أخطر مما كان يمكن أن يتخيل أحدهما. فعندما اصفرَّ جلده وانتفخ بطنه، اتهمت والدته مربيته بأنها امرأة شريرة قاسية القلب لأنها لم تبك أو تظهر حزنًا على مرض طفلها. لكنَّ باو كان يعرف الحقيقة، فقد تلقت مربيته تأكيدًا من الإله الثعلب بأن باو سيعيش حياة طويلة، لكنَّ ذلك لم يُنقل إلى والدته قط. ولماذا كان ينبغي أن يُقال لها؟ فوالده كان يعارض تلك «الترهات الخرافية». وهكذا، بعد شهر من تعافي باو من مرضه، عاد إلى المنزل ليكتشف أن مربيته العجوز قد رحلت.

- لماذا؟ أين ذهبت؟

بكي باو لأيام. وقدمت له والدته تفسيرًا تلو الآخر، كلها محض أكاذيب تساقطت من شفيتها. كانت كثيرة لدرجة أن باو سمع همهمة سمومها تتردد عبر جدران غرفته الصغيرة. قالت إن مربيته استدعت لرعاية قريب مريض. وإنها أصبحت مسنة لدرجة لا تسمح لها برعاية طفل كبير مثل باو. وأخيرًا، أخبرته أنها مرضت وتوفيت. جاءت هذه الأخيرة كصرخة غير مقصودة من والدته عندما لم يتوقف باو عن أسئلته المتواصلة.

قالت: «لا بد أن تلك العجوز قد سحرت! كيف يمكن لطفل أن يستجوبني هكذا كلَّ يوم؟»

أكاذيب، كلها أكاذيب.

كلما زادت أكاذيب والدته، ذات اليدين الناعمتين والبشرة المحمية التي أظهرت أنها زوجة مسؤول لم تُجبر على العمل يومًا، زاد بكاء باو على مربيته العجوز البائسة. لكن دموعه لم تؤثر في والدته قط. بل زادت من إصرارها. قالت لوالده: «فكّر في ما كان سيحدث لو تركته تحت رعاية تلك المرأة لفترة أطول»، كان همس كلماتها الغاضبة يُغذي ألمها ومرارتها بسبب رفض باو لها. وكذلك النظرة الغاضبة التي وجهها إليها، مدرّكًا أنها تخفي الحقيقة عنه. ولماذا كانت تهتم أصلًا؟ كان لديها شقيقه الأكبر، المفضل المثقف. أما باو فكان الزائد.

قالت له والدته: «استمع إلي. لن ترى تلك المرأة مجددًا. لكنني سأحضر لك رفيقًا لتلعب معه بدلًا منها».

تبين أن الرفيق الذي وعدته به لم يكن الجرو الضال الذي رغب به باو، حين رآه يلعب وحده في الغبار بجانب الطريق، بل طفلة؛ فتاة صغيرة تعيش

في أحد الشوارع القريبة. ابنة محظية رجل ما، ولم يكن لباو أن يلتقي بها لولا أن والدته بحثت بياس في الحي عن رفاق لعب مناسبين.

كانت الفتاة الصغيرة في عمر باو، لكنها كانت ضئيلة الحجم وذات عينين لامعتين. لم يرغب بوجودها. لم يكن لأي رفيق أن يعوضه عن فقدان مربيته العجوز، ذات اليدين الخشنتين الدافئتين وظهرها الأهدب الذي حمله مُد كان رضيعًا. عندما أحضروا له الفتاة ذات صباح، أغلق باب غرفته في وجهها. الغرفة التي كان يشاركها مع مربيته العجوز، ذات الجدران المطلية بالأبيض، والحصيرة التي كانت تنام عليها عند نهاية سريره منذ أن كان طفلًا. والآن لم يبقَ شيء، حتى فراشها الرفيع. لقد جُمع وطُرح معها بعيدًا. تخيل باو مربيته العجوز وهي تخطو بثناقل، وقد انحنى ظهرها تحت حمل الفراش، فبلّلت دموعٌ جديدة وجنتيه. لم يكن لأي فتاة أن تحل محلها.

وقفت الفتاة الصغيرة في الفناء الخارجي لفترة طويلة. لم يكن واضحًا أكانت قد تلّقت تعليمات بأن تقف وتنتظر حتى يخرج، لكنها فعلت ذلك بوفاء، لأكثر من ساعة، حتى شعر باو بالفضول وأطلَّ عليها. كانت تبدو كسنباب صغير في ملابسها البنية. وبدت أكثر بؤسًا منه.

صرخ بها: «أذهبي!»

هزت رأسها بعناد، فارتجفت صفائر شعرها المعقودة في حلقات كبيرة فوق أذنيها. وفي اليوم التالي، عادت مجددًا، وعندما خرج باو ليطردها، وقفت في مكانها بثبات.

قالت: «لا يُسمح لي بالمغادرة حتى تلعب معي».

- أنتِ تبدين كطفل رضيع. أنتِ صغيرة جدًا.

اعتدلت في وقفتها وقالت: «عمري يقارب السبع سنوات. مثلك تمامًا. اسمي تاغتا».

- ما هذا الاسم الغريب؟ لا يبدو حتى صينيًا.

«إذا خرجت، سأكتبه لك». وكتبت الاسم على التراب بعصا صغيرة بخط منغولي مائل.

تاغتا تعني حمامة أو يمامة.

قال باو: «لا أريد اللعب معك». ثم توقف في دهشة عندما شعر بطنين كذبة يهتز على لسانه.

عبر تلك الغرفة المضيئة بمصايحها المتألقة (والتي كانت إضاءتها ساطعة كأنها مسرح عرض أوبرا)، حدّقتُ إلى شيرو، وبادلني التحديق. بطبيعة الحال، لم تتغير تعابير وجهه، ولا تعابيري، أو هكذا كنتُ أمل. ربما ارتعشت عضلة فكّه، بشكل طفيف جدًّا، من فرط المتعة.

ذهنيًّا، كنتُ أرسل له نظرات كالخناجر: ارحل. لماذا أنت هنا؟ لكن للأسف، لا تستطيع الثعالب قراءة الأفكار، وإن أيقنتُ أن شيرو كان يعرف تمامًا ما أفكر به. حسنًا، اللقاءات غير السارة جزء من الحياة. أوشكتُ الأطباق الباردة الأولى على الانتهاء؛ وهي دجاج مخمر، وقنديل بحر شفاف مُقدّم في النبيذ، ولحم خنزير بارد مُزين بالثوم النيئ اللاذع ورذاذ صلصة الصويا. كنتُ منشغلة للغاية في توجيه نظراتي الغاضبة إلى شيرو لدرجة أنني لم أدرك أن سيدتي العجوز كانت تتحدث إلي.

«آه سان، هل يمكنكِ تقديم الطعام لحفيدي والسيد شيراكاوا؟» علمتُ أنها تريد مني التنصت على حديثهما. وكنتُ قد وافقت سابقًا، دون أن يخطر ببالي من سأقف خلفه. أحيانًا أظن حياتي لن تنتهي بكشف حقيقتي أو بالتعرّض للخيانة، كأن أدفع من على جرف أو أن أصاب بسهم (مثل نهايات حزينة حدثت لعدة ثعالب أعرفها)، بل ستنتهي بمسرحية منزلية سخيفة وبسيطة كهذه.

لكن لم يكن بوسعي رفض طلبها، فذهبتُ لتأدية واجبي بعبوس. قدّمتُ الحساء ونزعتُ عظام السمكة المطهّنة على البخار التي قدّمت لهما، وفمها مفتوح على طبق ضخم، متظاهرة بالانشغال بصمت. كما قدّمتُ الطعام للسَيِّدين الشابَّين الآخرين، لـوو وتشين، اللذين جلسا على مقربة. وبعد أن نظر إلي لـوو عدة مرات، لامست يده فخذي، فابتعدتُ عنه فورًا.

في منتصف الوجبة، استأذن والد بوهاي للخروج بسبب أشغاله. ومع مغادرة مضيفهم، أصبح الشبان أكثر حماسًا. هذا الحماس أمر شائع في

وجود ثعلب، خاصةً إذا كان يستعرض سحره. تحدث شيرو ببراعة عن الشاعر لي باي وأمسيات الربيع. محض هراء بالطبع، فأنا أعلم أن شيرو لا يقرأ حتى قائمة الطعام إذا استطاع إقناع شخص آخر بقراءتها له، لكن الثعالب بارعة في تقمص الأدوار.

أُسَمِّي هذا الدور «الصهر المثالي»، حيث يصبح الثعلب صديقًا مقربًا من أحد الطلاب، ويقسم على الإخاء وربما يتزوج من بنات العائلات الثرية. بطبيعة الحال، يحتوي هذا الدور على مخاطر إذا بدأ الناس بالتحري لمعرفة ما إذا كان هذا الغريب الوسيم يملك خلفية محترمة. اضطرت الكثير من الثعالب للهرب وذيولها بين أرجلها أو طُردت من قبل كلب عائلة يقظ.

لم يحتفظ متجر الأدوية بأي كلاب، ولكن في لحظة ما، تمنيت لو كان لديهم، حتى لو أدى ذلك إلى طردي أنا أيضًا. هتف بوهاي بإعجاب: «شيراكاوا، رؤيتك مذهلة حقًا!»

أومًا الآخران بالموافقة. واستقرت يد تشين اللعوب على ساقي، ثم بدأت تنزلق باتجاه وركي. أخذت خطوة جانبية سريعة، لأجد قدم لوو تحتك بكاحلي بتوؤد. وعندما نظرت إليه، ابتسم بتكتم. لم يكن أمامي خيار سوى الانتقال مجددًا لأقف خلف بوهاي وشيرو مباشرة.

سأل شيرو بصوت منخفض: «كيف كنتَ تشعر مؤخرًا؟»

- أستطيع التحمل. لكنني أحيانًا أشعر بتلك الأعراض مجددًا.

كانا يتحدثان بصوت منخفض باليابانية. توقعت أن يكون شيرو حذرًا مني، لكن لدهشتي، استمر في الحديث مع بوهاي: «كالأعراض التي شعرت بها في المرة السابقة؟»

- نعم. غثيان، وقشعريرة. لا تخبر جدتي، لن تسمح لي باستئناف دراستي أبدًا. أتمنى لو تأتي معنا يا شيراكاوا! أشعر بتحسن حين تكون بجانبني؛ أنسى همومي.

ضحك شيرو، وكان يملك ضحكة غناء جميلة. إذا تخيلت أضواء ملونة تتصاعد بلطف، فهذا هو التأثير الذي تتركه ضحكته. لكني لا أحبذ هذه الأساليب المبهرجة.

سأل تشين وهو يشير إليّ لأسكب له المزيد من النبيذ: «ما الذي تناقشانه بهذه الجدية؟»

أجاب شيرو بسلاسة: «كنتُ أروي لبوهاي قصة». ثم استدار قليلاً ليتمكن الجميع من الإعجاب بملامحه الجانبية.

- أوه! نريد سماعها أيضاً.

قالت سيدتي: «نعم من فضلك. لقد سمعتُ الكثير عن قصصك، سيّد شيراكاوا». قال شيرو: «حسنًا، إنها قصة عن الثعالب. كما تعلمون، يمكنكم سماعها في كل مكان من كوريا إلى اليابان، لكن هذا الجزء من شمال الصين هو موطنها الأصلي».

قال لوو: «قرأتُ حكايات بو سونغلينغ ولطالما تمنيتُ مقابلة إحدى النساء الثعالب الجميلات».

ابتسم شيرو وقال: «ربما ستكون محظوظًا... الليلة؟»

فضحك الجميع.

أردتُ أن أغمر رأس شيرو في وعاء حساء الفاصوليا الحمراء الحلوة الذي وُضع أمامه للتو. القاعدة الأولى للثعالب: «لا تتحدث عن الثعالب». أما القاعدة الثانية... حسنًا، سأخبركم بها حين نصل إلى ذلك الجزء. لكنني كنت غاضبة جدًا في تلك اللحظة لدرجة أنني كدت أغادر. وربما كان عليّ فعل ذلك. أن أستدير وأتلاشى في الليل المعطر برائحة المطر، تاركة شيرو مبتسمًا وسط تلك الوجوه الحاملة، حيث صنعت مصابيح الزيت الدافئة هالة ساحرة وسط الظلام. لكن الفضول كان دائمًا نقطة ضعفي. وهذا هو الحال مع معظم الثعالب، ولهذا نتوقف غالبًا، متسائلين عما يخطط له ذلك الفلاح بمذراعه، أو ما إذا كان رأس أحدنا سيتناسب حقًا مع تلك الجرة. هذا جزء من سرعة بدهتنا وجاذبيتنا الساحرة وإهمالنا. هذه الطريقة التي نعيش بها، دائمًا على الحافة، نجري فوق الجدران الحجرية والأسوار، بين الحضارة والطبيعة.

بقيت بالطبع. وكان شيرو يعلم أنني سأبقى.

كما أردتُ أن أعرف المزيد عن بكتو نيكان، الذي ذكره أحدهم في بداية هذا العشاء. لم أكن لأسمح لشيرو بحرمانني من تلك المعلومات. لذا بقيت، رغم أن تشين، متظاهرًا بإسقاط منديله، مال باتجاهي وقرصني برفق في ردفني الأيسر.

- القصة التي سأرويها لكم عن الثعالب التي تعيش بيننا. هناك ثعالب حتى في مدينة جديدة مثل داليان. تأتي من الأرياف، تحفر تحت البيوت المهجورة، وتعيش في أفنية المنازل. من بين كل هذه الثعالب، هناك القليل -القليل جدًا- يمكنها التحول إلى نساء جميلات.

لاحظتُ أنه تجنب بعناية ذكر الثعالب الذكور. لكن في تلك اللحظة قال لوو: «أليس هناك أيضًا رجال ثعالب؟ هناك ثعلب أغرى زوجة تاجر من تشو وكان يزورها كل ليلة».

قال شيرو: «لَمْ لا تروي لنا قصتك أولاً، وإذا كانت قصتي أفضل، فسوف تدين لي بخدمة».

«اتفقنا». ثم قال لوو بعد أن تنحَنح قليلاً: «كان هناك ثعلب شرير يتلبَّس زوجة أحد التجار. تمثَّل لها الثعلب في هيئة شاب، فتسلَّل إلى غرفتها كل ليلة حتى استنزف طاقتها تمامًا».

سأل تشين: «هل كانت الزوجة جميلة؟»

- أشك في ذلك. أعني أن زوجها لم يكن يهتم بها، والثعالب في النهاية مجرد حيوانات.

ضحك الجميع، ورأيت شفة شيرو تتقلص قليلاً باستهزاء.

- على أي حال، استمر الثعلب الخبيث في مضايقتها. وكلما عاد زوجها، يهرب الثعلب من الباب الخلفي ويدخل زجاجة كبيرة على هيئة دخان. وفي أحد الأيام، بعد هروب الثعلب بهذه الطريقة، هرعت الزوجة وأغلقت الزجاجة بإحكام. ثم وضعتها في قدر كبير من الماء وجعلتها على النار. عندما بدأ الماء بالغليان، صرخ الثعلب: «أخرجيني!» واشتدَّ صراخه أكثر فأكثر حتى ساد الصمت. وحين فتحت المرأة الزجاجة، كانت مليئة بالفراء والدماء.

أطلق الحاضرون أنيناً وارتعشوا مشمئزِينَ، فقال شيرو ساخرًا: «يا لها من قصة مثيرة».

ضحك لوو وقال: «لنرى إن كان أحد يستطيع أن يروي قصة أفضل من هذه!»

قال شيرو: «غَيَّرْتُ رأيي. أعتقد أنني سأروي قصة أخرى، لكنها أيضًا عن الثعالب».

سمعتُ ضحكات مكتومة في الممر؛ كانت الفتيات الشابات في المنزل يختلسن النظر ويعلقن بلهفة حول وسامة شيرو وكيف أنهن «سيّمتن» لو رآهن حقًا، ففكرتُ في نفسي: ليس لديهن أدنى فكرة عمّا يتعاملن معه. قد يمتن حرفيًا. بدأت أشعر بالقلق على سيدتي العجوز؛ فمن يدري ما الذي قد يفعله شيرو بعائلتها إذا كان في إحدى نزواته المتقلبة؟

رفع شيرو كأسه بأناقة وقال: «كان هناك رجل ثري يدعى لوو، من البلدة القديمة كاوتشو في مقاطعة شاندونغ».

قال لوو بدهشة: «حقًا؟ هذا موطن جدي الأكبر».

«يا لها من صدفة». وابتسم شيرو مجددًا، تلك الابتسامة المائلة التي تبدو ساحرة لكنها لعبوية: «امتلكتُ أسرة لوو أرضًا كبيرة، ترك نصفها مهملاً. كانت قطعة أرض جيدة، يتخللها جدول وبستان من أشجار الصنوبر».

ظهرت ملامح الدهشة على وجه لوو الذي يشبه الجمل، وقال: «وكذلك أرض جدي الأكبر كان بها أشجار صنوبر وجدول ماء».

انحنى بوهاي إلى الأمام، وحتى سيدتي العجوز بدت متفاجئة.

- في إحدى الأمسيات، جاءه رجل عجوز وطلب استئجار الجزء المهمل من الأرض، مع المنزل الريفي المتهالك المهجور. قال: «سأدفع لك مئة سبيكة فضية». وكان لوو رجلًا يعرف كيف يعقد الصفقات، فأصر على دفع الإيجار مقدمًا.

قطب لوو جبينه وقال: «لا أذكر أن شيئًا كهذا حدث مع جدي الأكبر».

أكمل شيرو بسلسلة: «وكما وعد، جاء الرجل العجوز في اليوم التالي ومعه الفضة، وجلب العديد من العمال لإعادة بناء المنزل الكبير المهجور حتى أصبح يَضاوي قصر لوو. وفي كل مرة يزوره فيها لوو، كان الرجل العجوز يعامله بكل لباقة. لكنّ لوو لم يكن سعيدًا. ربما لأن ثروة المستأجر كانت أكبر من ثروته. أو ربما لأن زوجته...» وهنا توقف.

غرسْتُ أظافري في راحتيّ. وبدأ الاحمرار يتصاعد على وجه لوو.

سأل تشين: «ماذا عن زوجته؟».

قال شيرو: «زوجته... آه، كانت شديدة الإعجاب بالرجل المسن، وتستشيريه في كل شيء».

تنهد الجميع وكأنهم يتنفسون الصعداء، لكنني كنت أعلم ما يجري. شيرو بارع جدًا في الفتنة بين الناس. على حد علمي، تسبب في اندلاع ما لا يقل عن خمس حروب صغيرة.

تابع شيرو قصته: «وهكذا ظنَّ لوو أنَّ الرجل المسن وعائلته الكبيرة من الأبناء والبنات المجتهدين ليسوا سوى ثعالب. فمثل هذه الثروة المفاجئة لا بد أن تكون من صنع مخلوقات شريرة». ولمع بريق في عيني شيرو تحت ضوء المصباح. قال لوو بتردد: «حسنًا، هذا سيكون استباقًا إلى استنتاجات».

- بالفعل. لكن هذا ليس ما ظنَّه جدك... عذرًا، أقصد، ما ظنه لوو. اشترى أجولة من البارود ووزعها سرًا حول أرض جاره. وعندما نام الجميع، أشعلها. دوى انفجار هائل، وتصاعدت ألسنة اللهب في ظلام الليل، مصحوبة بصراخ الآلاف، صغارًا وكبارًا، وهم يحترقون أحياء. استمر الحريق يومًا كاملاً تقريبًا حتى انطفأ، وعندما ذهب لوو ليتفقد الأمر، وجد مئات الثعالب الميتة، متفحمة في أشكال مشوَّهة. بعضها كبير وبعضها صغير، وحتى الجراء غارقة بوجوهها في البرك المزخرفة تبحث عن أمهاتها.

فجأة، اجتاحت ذهني صورة مختلفة: جسد صغير مكسور ملقى في حفرة. شعرت بالاختناق؛ رغم أنني كنت أعلم أن شيرو يلعب بمشاعرنا جميعًا. ساد الصمت على المائدة، وحملق الجميع به.

تابع شيرو بصوت هادئ وفاتر: «وبينما كان لوو يتأمل هذا الخراب، اقترب منه الرجل العجوز المكلوم قائلًا: ما الأذى الذي ألحقناه بك؟ لقد دفعنا لك أكثر بكثير مما تستحقه ممتلكاتك عديمة الفائدة! كم هو قاس أن تدمر عائلتي». قالت سيدتي: «هذا فظيع».

تململ لوو في مكانه بضيق، وقد احمر وجهه الطويل. كان على وشك أن يقول شيئًا ما عندما قاطعه تشين: «لكنهم كانوا ثعالب، أليس كذلك؟ لم يكن من الخطأ قتل تلك الوحوش».

«لا»، أجاب شيرو بهدوء: «لا أعتقد أنك ستجد أحدًا يدَّعي أنه ارتكب خطأ». كانت ابتسامته كالسكين. هذا هو الشيء الرهيب في شيرو: كلما زادت نواياه فتكًا، زادت جاذبيته. سمعتُ صوت ارتطام مكتوم من الممر. لا بد أن واحدة أو اثنتين من الفتيات الشابات قد أغشي عليها من شدة الإعجاب.

فكّرت بغضب: شيرو! توقف عن هذا فوراً!!

عرفت القصة التي كان يرويها؛ إنها «ملك الجبال التسع»، وهي تصف كيف انتقم الثعلب العجوز بخداع مالك الأرض ليبدأ تمردًا، وينتهي الأمر بإعدام مالك الأرض بتهمة الخيانة ضد الإمبراطور. كان شيرو قد أعاد سرد القصة بقصد واضح لإهانة لoo، ولو استمر الحديث، لتفاقت الأمور وانهارت الصداقة في تلك الليلة. ولأجل ماذا؟ لأن لoo حكى قصة عن الثعلب لم تعجب شيرو؟ حسنًا، لم تعجبني القصة أيضًا، لكنني كنت أعقل من أن أدمر علاقات الناس بلا اكتراث. خاصةً وأنا على وشك اكتشاف المزيد عن بكتو نيكان.

لذا، التقطت وعاء حساء الفاصوليا الحلوة ورميته على شيرو.

كانت الفوضى التي أعقبت ذلك مرضية للغاية. قفز الجميع، وتعالى الصراخ والزعيق، وتحطمت الأجواء... تلك الأجواء الحريرية الخطرة التي كان شيرو يُذكيها. كان شيرو مغطى بالحساء، لكنه بدا جذابًا ولطيفًا على نحو غير متوقع، وأخبر بوهاي وسيدتي أن اللوم يقع عليه لأنه تحدث أكثر من اللازم. قال ضاحكًا: «إنه عقابي. لقد خسرت مسابقة القصص».

احمرَّ وجه بوهاي، وأراد أن يرسلني للخارج لأقف في الفناء: «طوال الليل، إذا لزم الأمر!» لكن تشين، الذي كان يمسك معصمي بطريقة مريبة، قال إن هناك طرقًا أفضل لتأديبي.

قالت سيدتي: «إنها خادمتي، سأتعامل معها».

انفضت حفلة العشاء، وكان لا بد من العثور على ملابس لشيرو، فقاده بوهاي مع الشَّابَّين الآخرين إلى جناحه. كنت أمسح حساء الفاصوليا الحمراء المسكوب (اللزج والحلو جدًّا؛ والذي سيكون تنظيفه مهمة شاقة) عندما أخبرتني سيدتي أن أرافقها.

سألتنى بصوت منخفض: «لقد فعلتَها عن قصد، أليس كذلك؟ أحسنتِ يا فتاة».

لقد فعلتُ ذلك لأنني أردت التخلص من شيرو، لكن لا بدَّ أنها اعتقدت أنني كنت أحاول الحفاظ على السلام.

- لولو وحفيدي أصدقاء طفولة. أنا سعيدة أنك أوقفتهما. لو تشاجرا، لوقف بوهاي في صف شيراكاوا رغم أنه لم يعرفه إلا مؤخرًا.

أدهشتني بصيرتها غير المتوقعة. وكما خمنتُ أول مرة رأيتها، فقد كانت من الذين لا يندفعون بالثعالب تمامًا. وقعت لطخة من حساء الفاصوليا الحمراء على سترة القطنية الخشنة. لذا عندما عدنا إلى جناحها، بدأت سيدتي تبحث في الأمتعة حتى أخرجت فستانًا طويلًا على الطراز المنشوري.

قالت: «ارتدي هذا، لقد كان لابنتي».

اعترضتُ بأنه فوق ما أستحق، لكنها أمرتني بالإسراع قبل أن يغادر شيراكاوا والآخرون.

سألتنى بينما كنا نسرع بالعودة: «عمّ كانا يتحدثان خلال العشاء؟»

- قال حفيدك إنه يشعر بالمرض، وأن شيرو... أعني شيراكاوا يجعله يشعر بتحسن.

- ما نوع المرض؟

«غثيان، وقشعريرة». حاولت تذكر ما قاله بوهاي أيضًا: «لا يريدك أن تعرفي عن مرضه».

توجهنا إلى جزء آخر من المنزل لم أدخله. كان قسمًا خاصًا بالرجال، يضم فناءً أوسع وغرفة استقبال للضيوف. وعندما اقتربنا، فجأة فتح بوهاي الأبواب الخشبية المنقوشة.

قال لجذته: «شيراكاوا سيغادر». وبدأ مستاءً حيال ذلك، ورغم الاحتجاجات التي طالبت ببقائه، فقد استعدَّ شيرو للمغادرة بالفعل.

قال: «أرجو المَعذرة. لدي موعد مبكر غدًا».

كان يرتدي إحدى أفضل حلل بوهاي؛ ورأيتُ سيدتي تلاحظ ذلك وهي تودعه بأدب قائلة: «أعتذر عن خطأ خادمتي. سنغسل ملابسك المتسخة ونعيدها لك».

ثم تبادلوا الابتسامات والانحناءات. بمجرد أن اتخذ قراره بالمغادرة، لم يكن هناك ما يثنيه. في وقت قصير جدًا (أقصر مما أراده بوهاي كما بدا من نظراته الخائبة)، أغلق الباب الأمامي الثقيل خلف ظهر شيرو المستقيم.

وبعد أن عدتُ حتى المئة، انطلقت في أثره.

10

الشهادة الوحيدة التي حصل عليها باو هي حكاية الفتى الخادم عن امرأة ترتدي الحرير الخفيف في شارع مغطى بالثلج ليلاً. من المحتمل أن تكون هي المرأة التي وُجِدَت مجمّدة عند عتبة مطعم غو، لكن يبقى إثبات أنها هي الغانية المعروفة باسم تشونخوا أمراً أصعب.

لإثبات ذلك، يحتاج باو إلى الصورة الجماعية التي ذكرتها تشيولان. لكن تحرياته عن المصور وصلت إلى طريق مسدود؛ فقد غادر بكتو نيكان المدينة دون أن يترك عنواناً.

قال صاحب العقار، عابس الوجه، الذي أجّر المصور غرفتين: «لست الوحيد الذي يبحث عنه. لقد جاء محصلو الديون أيضاً. لا يزال يدين لي بإيجار شهر كامل».

تجول باو في الغرفتين اللتين بدتا فارغتين وكأن المستأجر السابق لم يكن ينوي العودة أبداً. بدت إحداها بسيطة ومتهاكة، قد استُخدمت كغرفة حميض. لا تزال رائحة المواد الكيميائية الحادة عالقة في الأثاث الرطب وجدران الجص. تملّكه شعور بالإحباط؛ لن يكون من السهل تحديد هوية المرأة الميتة، فضلاً عن معرفة اسمها الحقيقي.

عندما علم صاحب العقار أن باو محقق خاص، بدأ يتحدث بحماسة، على أمل أن يساعده في العثور على مستأجره المفقود. قال: «لم أكن أعلم أنه رحل إلا عندما حاولتُ تحصيل الأجرة. لقد أحبّ بكتو التفاخر بمعارفه، لكنه كان مجرد شخص تافه هرب في منتصف الليل».

- ما نوع المعارف الذين كان يدعي معرفتهم؟

- كان يدّعي أنه قريب بعض الأثرياء. كما أنه كان مصور السيد وانغ الخاص، صاحب القिला البستانية في حي الصفصاف.

عديداً من الرجال يحملون الاسم وانغ، لكن يبدو أن هذا هو رجل الأعمال الثري الذي استأجر فنانات لحفلته؛ الحفلة التي اختفت منها تشونوها فجأة. سأل باو متذكراً وصف الصبي للرجل الذي رافق الفتاة في الشارع المكسو بالثلج: «هل كان يكتبو وسيماً؟»

نخر صاحب العقار ساخراً وقال: «لا، بل كان رجلاً ضخماً، اعتاد المصارعة في شبابه. عيناه صغيرتان وأذناه تشبهان زهرة القرنبيط. أحياناً كان يبدو عليه الثراء؛ في العام الماضي، اشترى لي ولزوجتي ست سرطانات مشعرة، لكنه كان مفلساً معظم الوقت».

السرطانات المشعرة، التي تُربط كالحُزَم الأنيقة وتُبخر لاستخراج بيوضها الحمراء الدسمة وشحمها الذهبي، تُعتبر من الأطايب وتُغمس في صلصة الخل البارد. تذكرُ ذلك خُفٌّ من حدة تعابير صاحب العقار قليلاً. قال: «تراكمت عليه الديون بسبب مرض والدته. وعندما توفيت، كانت عليه جبال من الفواتير. بصرف النظر عن عيوبه، كان ابناً صالحاً».

- سمعتُ أنه حاول الحصول على ثعلب أبيض في إحدى المناطق النائية.
- في قرية وُو، في الغرب. كاد يموت عندما عاد من تلك الرحلة قبل عامين. أصيب بالتهاب رئوي. لكنه لم يكن يخشى الثعالب، بل على العكس، في الحقيقة... كان الأمر يبدو وكأنه يحاول إثبات شيء ما.
بدت قرية وُو مألوفة. تذكر باو وجه تشيولان الناعم الممتلئ، والكلمات التي قالتها عن صديقتها المفقودة في بيت الهوى. وتذكر أن تشونوها كانت من قرية وُو.

سأله باو بفضول: «هل تخاف من هذه المخلوقات؟»

ضحك صاحب العقار ضحكة قصيرة، ومالت عيناه في الغرفة الخالية نحو النافذة المفتوحة حين مرَّ ظلُّ غراب مصحوباً بنعيق حاد.

قال: «الثعالب تجلب الحظ السيئ. إن كان هناك من هو مفتون بها، فهو السيد وانغ. قال يكتبو ذلك بنفسه. لقد كلّفه السيد وانغ بتصوير مجموعته من التحف والنباتات النادرة، لذا كان يكتبو يقيم أحياناً في فيلته الريفية». ثم تردّد صاحب العقار قليلاً: «إذا كنتَ تبحث عن شيء مريب، فقد ذكر يكتبو أن السيد وانغ احتجز نساءً هناك».

قفزت أفكار باو إلى الغانية المفقودة من المطعم. هل من الممكن أن السيد وانغ قد أخذها، وأن تشيولان كانت محقة بالفعل؟ «لماذا ظنَّ ذلك؟» حكَّ صاحب العقار الشامة على خده: «قال إن هناك جناحًا مغلقًا في تلك القفلا، لا يُسمح لأحد بدخوله. وكان السيد وانغ يتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة، وكأن ثعلبة سحرته».

يُستخدم مصطلح «ثعلبة» لوصف أي امرأة خبيثة متلعبة، لذا من الصعب على باو معرفة ما إذا كان صاحب العقار يشير إلى كائن خارق أم مجرد امرأة جشعة. **هذه القضية مليئة بالثعالب.**

- إذا كان يكتو يقيم أحيانًا في قفلا السيد وانغ، فهل من الممكن أن يكون هناك الآن؟

- القفلا البستانية المطوّقة بحراسة مشددة هي أول مكان سأذهب إليه إذا كنتُ أهرب من الدائنين. لقد حاولتُ البحث عنه بنفسي، لكنهم لم يسمحوا لي بتجاوز البوابة.

من المؤسف أن يكتو قد هرب، وأخذ معه جميع صوره، لكن ذلك لم يثبط عزيمة باو. اختراق قصور الأثرياء ليس بالأمر السهل، لكنَّ هناك دائمًا طرقًا للدخول. بينما كان يسرع باو في خطاه متفكرًا في خياراته، انقضَّ عصفور بشجاعة على بعض الحبوب المتناثرة. ابتسم باو لشجاعته. فالناس عادةً لا يأبهون إلا للطيور اللافتة للنظر كالنسور والبجع التي تحمل معاني ميمونة، أو الإوز، وبط الماندرين، والحمام التي ترمز إلى الوفاء.

الفتاة الصغيرة التي حملت اسم تاغتا؛ أي حمامة، والتي أصرت والدته على إحضارها لتحل محلَّ مربيته، كانت هي الأخرى وفيه. كانت تزوره يوميًا، وتنتظر في الفناء لتلعب معه. وحتى هذا اليوم، يجهل باو كيف تمكّنت والدته من تدبير ذلك، فتاغتا لم تكن خادمة، بل ابنة أسرة من الجيران. بحلول اليوم الثالث، بدأ باو يترقّب قدومها، رغم أنه لم يرغب في إظهار حماسه. كان ذلك أقل ارتباطًا بتاغتا وأكثر بوالدته. جزء منه، ذلك الجزء العنيد الغاضب الذي لا يزال يشعر بالاستياء من والدته لإبعادها مربيته، لم يكن يرغب في منحها أي شعور بالرضا.

في أحد الأيام، سألتها تاغتا: «لماذا تكره والدتك لهذه الدرجة؟»

- من قال ذلك؟

كانا يلعبان داخل أجمة الرندرة⁽¹⁾ الضخمة، حيث يتيح تفريق الأغصان والحفر العميق الوصول إلى فجوة مخفية في قلبها. في تلك الفجوة، إذا التزم المرء الصمت، يمكنه البقاء طوال اليوم دون أن يكتشف أحد مكانه. كانت هذه الأجمة ثاني أفضل مكان للاختباء عند باو، وقد اعتبر إطلاع تاغتا عليها بادرة مودة خاصة منه.

- والدتك تقول ذلك.

في ظلال الأغصان المبرقشة، عبس باو. كان يعرف تمامًا ما كانت تشير إليه، شكاوى والدته: «الطفل لا يستمع إلي. بات يكرهني الآن». كان يفهم أن هذه طريقتها في التعبير عن مشاعرها تجاهه. لاحقًا، من منظور البالغ بعد سنوات طويلة، تفهّم شعورها بالإحباط، لكن في تلك اللحظة كان استياؤه يغلي بداخله.

لأن ما قالته والدته كان محض أكاذيب.

بات يكرهني الآن. تسرّبت الكلمات من شفثتها، تهتز في الهواء مثل بعوضة تحمل لدغة سامة صغيرة. حتى هي لم تصدقها، لكن بعد فترة، أصبحت تلك الأكاذيب واقعًا.

كانت تاغتا، ذات السنوات السبع، هادئة بجداول شعرها المصفورة، ولبقة بما يكفي لتلتزم الصمت. ركّزت على الحجارة التي كانا يجمعانها في الفجوة الصغيرة وسط الأجمة. ثم سألت: «ماذا نصنع؟»

بعد أن شرعا دون خطة واضحة، شعر باو الآن بوجوب الرد: «مزار».

- لمن؟

- الإله الثعلب.

هذا صحيح. لم يَعد إلى ذلك المزار الصغير في باحة جاره الخلفية منذ رحيل مربيته، رغم أنه كان ينظر بشوق إلى بستان الخيزران خلف الجدار. يتمايل في الريح، مثل ستارة حية غامضة من السيقان الخضراء والأوراق الخشخشة.

(1) أجمة الرندرة: تجمّع كثيف من نباتات الرندرة المزهرة، وهي شجيرات كبيرة تنمو في المناطق الجبلية الباردة، بأوراق عريضة وأزهار ملونة زاهية. (المترجم)

لو كان بإمكانه العودة إلى الإله الثعلب، لطلب عودة مربيته. لكن لو كان صادقًا مع نفسه، لاعترف بوجود فترات لم يعد يفتقدها فيها بشدة كما كان سابقًا. وذلك بفضل صداقة تاغتا الصغيرة الوفية. ورغم أنها كانت علاقة مفروضة عليهما، فإنها تطورت بشكل مفاجئ إلى الأفضل. كان هذا ما خطّط له والدته، لكن باو رفض أن ينسب لها الفضل.

«الإله الثعلب؟» جلست تاغتا بأريحية على عقبيها؛ ذكّرت باو بانطباعه الأول عنها كأنها سنجاب منشوري صغير. أشاح بنظره، خشية أن تسخر منه، لكن تاغتا قالت ببساطة: «هذا جيد».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- هل تعرفين عن الهُوشين؟

- نعم. رأيتُ واحدًا منهم من قبل.

«حقًا؟» ارتعشت أعصاب باو من فرط الإثارة. رأت واحدًا! «هل كان رجلًا مسنًا؟» فهكذا وصفت مربيته حارس مزار الثعلب عند جارهم.

«لا، لم يكن مسنًا». كانت عينا تاغتا بنيتين داكنتين صافيتين. حتى بعد كل هذه سنوات، ما زال يتذكرهما بوضوح.

- أين رأيته؟ ومتى؟

- عندما كنتُ صغيرة.

فتح باو فمه ليقول إنها ما زالت صغيرة، لكنه تدارك نفسه. فلا أحد يحب أن يُسخر من حجمه.

أسندت تاغتا رأسها على ركبتيها كما لو كانت تفكر في مقدار ما ستخبره به. ثم رفعت أصابعها الخمس: «عندما كنت بهذا العمر».

- كيف عرفت أنه ثعلب؟

«عرفتُ فحسب. وأيضًا...» تمتمت بخجل: «لم يبدُ شخصًا عاديًا».

اقترب باو وعيناه تلمعان من الإثارة، لكن في تلك اللحظة سمعا نداءً: «تاغتا! تاغتا، والدتك هنا!»

لقد حان وقت رحيلها؛ مرّت فترة ما بعد الظهر بسرعة، ككل الأوقات التي قضياها معًا. نهضتُ وبدأتُ تتراجع بحذر خارج الأجمة. لم يكن مناسبًا أن يراهم الكبار يتسللون من مكانهم.

«انتظري!» أمسك بكمّها.

فابتسمت تاغتا ابتسامة خفيفة. في تلك اللحظة، بدت ناضجة وحملت له بعينيتها بعض الشفقة، وكأنها فهمت كل اعتراضاته حول والدته. هذه طبيعة الفتيات، كما قالت مربيته؛ ينضجن بسرعة أكبر مقارنة بأعمارهن.

«هل ستعودين؟» تردّد باو فجأة، متذكراً كيف كان يرفضها بفضاظة يوماً بعد يوم، بل حتى صرخ فيها وهي تقف في الفناء.

لكنها أومأت برأسها وقالت: «لنصنع مزاراً للإله الثعلب».

انطلقتُ خلف شيرو، بعد أن همستُ لسيدتي العجوز أنني سأتابع أثره. لم توقفني، بل اكتفت بالقول إنها ستترك البوابة الخلفية دون إيراد. كان الشارع مظلمًا كجوف ذئب، ولم يكن معي مصباح، سوى هالة القمر الجليدية التي انعكست على البرك الصغيرة. كان الجو باردًا أيضًا؛ فليالي الربيع في شمال الصين لا يُستهان بها. حسنًا، لا مفر من ذلك إذا كنتُ أريد اللحاق بشيرو.

كان بإمكانه أن يسلك عدة اتجاهات، لكن حدسي قال لي إنه سيتجه إلى مشغل أودا للتصوير. كان الأمر بمثابة مقامرة، لكن هذه هي طبيعة المطاردة؛ كلُّ من انتظر أمام جُحر لاصطياد حيوان سمين كالغريز يعرف هذا الشعور. لذا عبرت عدة أزقة خلفية للوصول إلى متجر أودا بأسرع وقت ممكن. وهناك سبب آخر دفعني للإسراع؛ فالمرأة الوحيدة في الشارع فريسةً للجنود السكاري والمتسولين والشبان الباحثين عن المتعة.

يصعب على بعض الرجال أن يفهموا كيف يمكن لفعل بسيط، كالسير في شارع مظلم أو لفت انتباه الشخص الخطأ، أن يكون خطيرًا جدًا على النساء. لقد سئمتُ محاولة الشرح. وبدلاً من الخوض في ذلك، تدبَّرتُ أمري بنفسي، وذلك بتسلق الجدران والتسلل عبر ممتلكات الآخرين. وبهذه الطريقة، سرعان ما بلغتُ الفناء الخلفي لمتجر أودا. كان كل شيء هادئًا ومعتماً، باستثناء مصباح وحيد يومض من وراء ستارة القصب في الخلف. رأيتُ نبتة وستارية⁽¹⁾ متينة تتسلق نحو شرفة الطابق الثاني. خلعتُ حذائي القشي المبلل، وتسَلَّقتُ بهدوء قدر استطاعتي. وفي منتصف تسلقي، تذكرتُ أنني أرتمي ثوبًا مستعارًا (وكان جميلًا إلى حدٍّ ما)، لكنَّ الألوان كان قد فات.

(1) الوستارية: نبتة متسلقة مزهرة، تُعرف بجمال أزهارها المتدلية العطرة، وتُزرع عادة لتزيين الجدران والأعمدة في الحدائق. (المترجم)

معظم الناس لا يُحَكِّمون إغلاق نوافذ الطابق العلوي. دفعتها لأففتحها، فشعرتُ ببرودة ألواح الزجاج الأخضر المتموج في أطراف أصابعي. سابقًا، في الأيام الخوالي، كانت النوافذ تُغطَّى بورق مشمَّع، مما جعل فتحها في غاية السهولة. وبالطبع، لم يكن الناس يعيشون طويلًا في تلك الأيام. قرفصتُ على حافة النافذة، ونظرتُ داخل غرفة نوم؛ كان ضوء القمر ينعكس على أغطية السرير المجددة وبعض أدوات النظافة الرجالية على طاولة جانبية. تقدمتُ بحذر على أطراف أصابعي فوق الأرضية الخشبية. وعند الباب، توقفت قليلًا ثم فتحتُه فجأة، لأرتطم بصدر شخص ما.

بالمناسبة، الرجال يصرخون أيضًا، وهذا الرجل لم يكن استثناءً. امتلأتُ صرخته بالمفاجأة والذعر. لا بد أن أعترف أنني صرختُ أيضًا. لم أكن أتوقع هذا؛ لا بد أنه كان قد وضع يده للتوّ على الباب عندما فتحته فجأة.

كان ذلك أودا، وعيناه مثقلتان بالنوم والرعب. بدأ يصرخ في وجهي باليابانية: «من أنت؟ ماذا تفعلين هنا؟»

بدا الهروب والقفز من النافذة كوصفة جيدة لكسر عنقي. وفوق هذا، كان أودا قد أمسك بمعصمي.

قلت بتلعثم: «أبحث عن شيراكاوا. كنت أنتظره، في سريره».

صرخ: «هذا ليس سريره، إنه سريري!» ثم أخذ ينظر إليّ بتمعن وهذا روعه.

- أليس الفتاة التي جاءت مع بوهاي في ذلك اليوم؟ خادمتها؟

كان لا يزال ممسكًا بمعصمي. حاولتُ التملص منه، لكن دون جدوى.

- كيف تتحدثين اليابانية بهذه الطلاقة؟ ولماذا أنت هنا؟

أطبقتُ فمي وأشحت وجهي.

قال: «مهلاً، مهلاً». كانت رائحة الشوتشو؛ المشروب الكحولي المصنوع من البطاطا الحلوة والشعير، تفوح من ملابسه، ممزوجة برائحة البول. من المحتمل أنه كان عائدًا من المرحاض الخارجي: «إذا كنت تريدين اللعب مع شيراكاوا، فيجب أن تعلمي أنه ليس بمفرده. أنا وحيد أيضًا».

قلتُ متظاهرة بالدلال: «حسنًا، أنا آسفة لأنني أخفكتك. هل ستتركني الآن؟»

بدلاً من ذلك، جذب خصري بكلتا ذراعيه، ودسَّ وجهه غير المحلوق في عنقي، وقال مترنخاً: «لماذا يأتين جميعاً من أجل شيراكاوا؟ إنه لا يستحق». «أعرف!» صرختُ وأنا أضربه بمرفقي في صدره: «إنه لا يستحق ذلك على الإطلاق». مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ

«أهذا ما تظنُّينه بي؟»

كنا نصدر جلبة كبيرة، ونحن نتعارك ونتجادل، لدرجة أنني لم ألحظ ظهور شيرو الهادئ عند أعلى الدرج. بدا سعيداً، وهذا دائماً فال سيئ. - أودا، دعها وشأنها. من فضلك.

أطلقني أودا بتردُّد. فعُدلتُ ثيابي وحاولت أن أبدو بمظهر لائق. قال أودا، وهو يفرك وجهه: «آه، آسف على إفساد لقائكما». كنتُ متأكدة أنه سينسى هذه الحادثة غداً.

قال شيرو بنبرة جادة: «على الإطلاق، أنا آسف لأنها أزعجتك». ثم فتح الباب المقابل للدرج وسحبني إلى الداخل، ليقذفني بعنف على السرير. في الداخل، أشعل مصباحاً زيتياً. فارتعشتُ السنة اللهب الأصفر، تاركة الظلال ترقص وتختفي على السقف. ضيقتُ عيني من سطوع الضوء وقلت: «أطفئه».

- لا. أريد أن أنظر إليك. لقد مرَّ وقت طويل. - لا تكن سخيّاً. لقد رأيته قبل نصف ساعة لا أكثر. ابتسم شيرو نصف ابتسامة ماكرة وقال: «ظننتُ أنني سأضطر إلى زيارتك في يوم آخر. كم هو مريح أنكِ وفرتِ عليَّ العناء».

- ما علاقتك ببوهاي؟

- ولماذا ينبغي أن أخبركِ؟

«حسناً، إذن». ونهضت استعداداً للذهاب.

«هل ستخرجين من النافذة؟ هذه ليس بها وستارية» ثم أسند جسده على الباب وطوى ذراعيه معاً: «سمعتكِ تتسلقين. كنتُ قد دخلت للتو من

الباب الأمامي عندما سمعت حفيفاً في الخلف. وعلمتُ أنه أكبر من أن يكون سنجاباً».

لم يكن بمقدوري الخروج من الباب بينما كان يتكئ عليه، لذا قررتُ الانتظار. لكنَّ شيرو لم يكن صبوراً. خمس دقائق هي فترة طويلة ليظلَّ فيها صامتاً. سمعتُ حركاته المتململة، فجلست مجدداً على السرير الضيق.

- أليس لديك ما تقولينه لي؟

أجبتُه بضحكة ساخرة وأدّرت ظهري له. وقد كان هذا خطأي. قفز شيرو على السرير، مثبتاً جسدي بالحائط، ولف شعري في يده. لقد ذبح الكثيرون بهذه الطريقة: بقبضة ملتوية وضربة سيف سريعة. شددتُ عنقي، لكن شيرو اكتفى بتضفير شعري بإحكام حول أصابعه.

همس في أذني: «أريد أن أعرف أيضاً ما الذي تفعلينه في بيت بوهاي».

- ذهبتُ لبيع الإوز، فعرضت عليّ الجدة وظيفة.

«حقاً؟» حدّق شيرو في وجهي ليتأكد مما إذا كنتُ أقول الحقيقة. ثم انفجر ضاحكاً، حتى تركني. وقال: «أنتِ فقط من قد يفعل هذا. كنتِ تبيعين الإوز؟»

- الإوزتان في فناء المطبخ لي. لم أتقاضَ ثمنهما بعد.

سردتُ له بإيجاز تفاصيل وصولي، متجاهلة الأجزاء المهمة بالطبع. وجد شيرو القصة مسلية للغاية، لدرجة أن الدموع سالت من الضحك. هذه إحدى صفاته الأخرى؛ إنه يتشتت بسهولة. في النهاية قال إنه سينزل إلى المطبخ ليعد لي وجبة خفيفة من الحبار المجفف. قلتُ له إنني سأذهب أيضاً. إذا بقيت طويلاً في فراش شخص ما، فقد يفهم الأمور بشكل خاطئ.

لكنني كنت جائعة جداً.

الثعالب معروفة بشهيتها الزهمة، وتأكل عدة وجبات في اليوم إن أمكن. للحفاظ على أنفسنا، نحتاج طاقة التشي، أو قوة الحياة. هذه الطاقة موجودة في كل مكان، في براعم النباتات الخضراء التي تدفع نفسها خلال التربة، وفي عروق الحيوانات النابضة، وفي فراشات الليل التي تحلق في السماء. بالطبع، يُعتبر التناسل وسيلة فعّالة لجمع كمية هائلة منها، وهذا ما أكسب الكثير من الثعالب سمعتها الشهوانية.

مع ذلك، ينبغي للثعلب الحكيم أن يتجنب هذه الطرق السهلة، لا سيما أن الإفراط في جمع الطاقة يؤدي إلى الموت. عادةً ما أكتفي بتناول كميات كبيرة من الطعام، مثل فطائر لحم الخنزير، وأسياخ الضأن، والفطائر المقرمشة المحشوة بشراب السكر الساخن. التعامل مع الناس مزعج، خاصة في مدينة تنتشر فيها الأخبار بسرعة. بالإضافة إلى أنني لم أرغب في إضافة المزيد إلى خطاي.

كان الطابق السفلي من المنزل ضيقًا ومظلمًا، يتألف من بضع غرف خلف استوديو التصوير. أما المطبخ، فكانت أرضيته طينية، وبه موقد ضخم من الطوب يدعى الكانغ، وهو نوع شائع في الشمال. جزء منه مسطح يتيح لك النوم عليه خلال الشتاء، مستمتعًا بالهواء الساخن المتدفق عبر قنوات الطوب. كانت الجمرات لا تزال تتوهج في إحدى فتحات الموقد، فأخذ شيرو شواية معدنية ووضعها فوقه. ثم بحث في مخزن أودا وأخرج بعض الحبار المجفف الكبير. وضع أحدها على الشواية ليشويها، وفتح جرة من نبيذ الأرز. قال وهو يناولني كوبًا فخاريًا ممتلئًا: «نخب الأصدقاء القدامى!»

لسنا أصدقاء قدامى.

وعن نفسي لم أعتبره صديقًا يومًا. أما رأي شيرو بي، فلا يهمني. لكنني أخذت الكوب وجلست بحذر على الجزء المسطح من الكانغ. حيث تسربت دفعة من الدَّفء المريح إلى ملابس الرطبة. امتلأ المطبخ برائحة الحبار المشوي، بينما استخدم شيرو عيدان الطعام لتقليبه. لاحظت أنه لم يشرب من نبيذه، لذا سكبتُ نصف الكوب في دلو الرماد عندما أدار ظهره.

قال: «أنا لا أفهمك حقًا. ما الذي يجعلك تعملين لدى جدة بوهاي؟»

- قلتُ لك، لقد كانت صدفة. وأنت لم تخبرني لماذا تتسكع حول بوهاي.

قال مبتسمًا: «نحن أصدقاء. كما أنه حين أكون معه، لا يخاف من الأشباح».

هذا صحيح تمامًا. رغم أن الناس غالبًا ما يخلطون بين الأشباح والثعالب، فإن الفرق بينهما كبير. فالأشباح تنتمي إلى عالم الموتى وبالتالي تمثل «اليين»، أو الطاقة السلبية. ويظن البعض أن الثعالب مشابهة لأننا نجمع

التشي، أو طاقة الحياة، لكن الحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك. نحن كائنات حية، مثلكم تمامًا، لكننا في الغالب أجمل.

أقول هذا بلا اعتزاز خاص، إذ هي مجرد وسيلة للبقاء. فعدنا قليل ونُضطهد باستمرار. وقعت أسوأ الفترات خلال عهد سلالة سونغ في زمن الإمبراطور هويتسونغ، عندما كان معلمو الطاوية في أوج شهرتهم؛ وكان كل واحد منهم يرغب في إثبات قوته بقتل اثني عشر ثعلبًا. حين يواجه البشر شيئًا غريبًا وجديدًا، يكون رد فعلهم الأول قتله.

لكن تعليق شيرو عن الأشباح ذكّرني بمخاوف سيدتي العجوز. سألته: «وماذا تستفيد من هذا؟»

- سمعتُ أن لدى بوهاي أربع شقيقات.

قلتُ بقلق: «اثنتان منهن مخطوبتان بالفعل».

ضيّق شيرو عينيه العسليتين، وابتسم ابتسامة ملتوية: «يسرّني أنك قلقة بشأني، لكنّ الزواج من عائلة تعمل في متجر أدوية، مهما كان مزدهرًا، ليس فكرة ممتعة لي».

حاولتُ ألا أظهر ارتياحي. يا لسيدتي المسكينة. ارتجفتُ من مجرد التفكير في الفوضى التي قد يسببها شيرو بين الشقيقات الأربع.

قال: «بوهاي عرض عليّ تذكرة باخرة إلى اليابان. لقد حان وقت رحيلي». لم أسأله عن السبب. فلجوء أمثال شيرو إلى مغادرة المدينة أمر يتكرر. بل سألته إذا كان يعرف يكتو نيكان، المصور الذي تحدثوا عنه خلال العشاء.

- لقد غادر إلى يوكوهاما مؤخرًا. لماذا تسألين؟

- أنا أبحث عنه.

- حقًا؟ كنت متأكدًا أنك هنا لتسأليني عن شخص آخر. وليس عن مصور منشوري من الدرجة الثانية.

احمرّ وجهي. لم أشرب سوى نصف كوب من نبيذ الأرز، لكن استفزازات شيرو بدأت تؤثر فيّ، أو ربما كان ذلك بسبب دفء الكانغ الذي كنتُ أجلس عليه. قلت بتعب: «ليس لدي أي فكرة عما تتحدث عنه». ثم غمرتني موجة من الإرهاق. ولم أكن مستعدة للعب المزيد من الألعاب مع شيرو. كنتُ لا

أزال جائعة. ولم تكن قطع الحبار المجفف كافية. سحبتُ ساقِيَّ نحو صدري
وأسندت رأسي على ركبتَي.
قال شيرو بقلق: «مهلاً!»
أغمضت عينيَّ.
- هل حقًا ستنامين الآن؟

الشيء الرهيب هو أنني غفوت فعلاً. هناك، على الكانخ، في منزل أودا.
نادرًا ما أفعل شيئًا كهذا؛ فقد يكون النوم في مكان غريب حكمًا بالإعدام.
لكنني كنتُ مرهقة بشدة، ليس جسديًا فحسب، بل من حمل أحزاني وآلامي
عبر أميال طويلة وشاقة. ورغم أنني لا أثق بشيرو تمامًا، فإنه يبقى من بني
جنسي. العيش بين البشر مع التظاهر الدائم قد يكون أمرًا موحشًا للغاية.
لهذا أفضل المروج.
وقد حلمت.

حلمتُ بأشعة الشمس تتخلل رؤوس البذور المتمايلة. برائحة طفلي
العذبة، ووزنها اللطيف الثابت على صدري. وبملامح شريك حياتي الجامدة،
وأنفه المرفوع اليقظ. هبت الرياح عبر نصال العشب اللامعة، تحمل معها
عبق أوائل الصيف. وكانت الألوان زاهية وهائلة، أكثر إشراقًا من الحياة
نفسها. امتلأت بفرح وحزن لا يُحتملان؛ حتى انسابت الدموع على وجهي،
وتسللت بين صدري، فلم أعد أعلم، في هذه الغفوة الساحرة، أكنتُ أَرْضع
طفلاً أم كنتُ غارقة في المشاعر لا أكثر.

لا بد أنني غفوت لنصف ساعة أو نحوها، فقد استيقظتُ بفزع مفاجئ.
ترى كم مرَّ من الوقت؟ كانت النار كما هي، والليل وراء النوافذ نصف المفتوحة
كان صامتًا كبركة حبر. أيقظتني رائحة الزيت الساخن والبصل الأخضر
المحمَّر. كان شيرو يولي ظهره لي، ويقلبي الشعرية في قدر فخارية. علمتُ
من الرائحة أنه كان يقوم بعمل جيد للغاية. بقيت مستلقية أراقبه، شاعرة
ببيل على وجنتي وأحاول كبخ دموعي. لقد مضى وقت طويل منذ أن غفوت
بصحبة شخص آخر، وقد فاجأني هذا حقًا.

عندما انتهى من تحضير الشعيرية، وضع القدر الفخارية الساخنة على الطاولة الخشبية في المطبخ (بالطبع، دون أن يكلف نفسه عناء وضع أي عازل تحتها... لا بد أن أثاث أودا سيوسم بحلقات محترقة فظيعة) وضع طبقاً وزوجاً من العيدان. ثم قال دون أن ينظر إلي: «كلي بينما لا يزال ساخناً».

مسحت وجهي بكم ثوبي وجلستُ على الطاولة بخجل. كانت الشعيرية -الطرية المغمورة بزيت ساخن وفلفل السيشوان- لذيذة بشكل غير متوقع، رغم أنه ربما لم يكن عليّ أن أفاجأ. فعندما يقرر شيرو فعل شيء ما، يكون شديد الإتقان في تنفيذه. كنتُ قد أكلت معظم ما في القدر عندما أدركت أنه لم يتناول لقمة واحدة.

نظرت إليه، لكنه هز رأسه قائلاً: «ليست مسمومة».

كان على وجهه تعبير غريب؛ ولو لم أكن أعرفه جيداً، لقلتُ إنه بدا حزيناً بعض الشيء. حسناً، هو الخسران، أكملت تناول الشعيرية. وحين شعرت بتحسن، نهضت.

قال شيرو: «لم تسأليني بعدُ عن أسود». استخدم الكلمة اليابانية «كورو»، للحرف «黒».

قلتُ متجاهلة سؤاله: «شكراً على الشعيرية. أدين لك بوجبة».

قال مشيراً بذقنه نحو الطابق العلوي: «يمكنك أن تدينني لي بسرير أيضاً. اذهبي للنوم، تبدين مرهقة».

- ستقلق سيدتي العجوز إن لم أعد قريباً.

عند التفكير في الأمر، قد تكون بانتظاري في هواء الليل البارد. على أي حال، لم أكن أنوي النوم في سرير شيرو، مهما كانت عروضه سخية، لذا ودّعته على عجل وغادرت من الباب الخلفي.

ثم ركضتُ عائدة إلى المنزل.

12

وفقًا لمالك العقار، قد يكون يكتو نيكان مختبئًا من الدائنين في فيلا السيد وانغ الريفية خارج المدينة. وبعد التحري، تبين أن السيد وانغ ينحدر من عائلة مرموقة. يبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا وله زوجتان رسميتان وستة أطفال. أكد التَّحَقُّق من العنوان أن السيد وانغ هو بالفعل من أقام الحفلة التي اختفت منها الغانية تشونوها.

الوقت ينفد، ويدرك باو تمامًا أنه لم يكتشف بعد الاسم الحقيقي للجنة التي وُجدت على عتبة باب مطعم غو، وإن كاد يجزم بأنها هي ذاتها. ربما يكتفي محقق آخر بإعطاء غو اسمها المستعار في بيت الهوى، لكن باو يأبى الكذب. هو شديد التمسك بالصدق، بل يكاد يكون مجبورًا عليه، إذ يجعله طنين الأكاذيب الخافت يشعر بالغثيان فعليًا.

الحقيقة له أشبه بحديقة خضراء مسورة بسيقان الخيزران، لا محيص عنها. وأحيانًا يحسد الذين يعيشون بلا قيود من هذا النوع، فسماع الأكاذيب أمر مؤلم وموحش، لا سيما عندما يكون الوحيد الذي يسمعها. شعر باو بانقباض يتزايد في صدره في الآونة الأخيرة، وهذا ذُكره بفنائمه. إن كانت قدرته هذه سببها ثعلب، فما الذي عليه أن يفعله بها؟ شعر أنه يقترب من نهاية ما، لكنه غير واثق إن كانت نهاية مسيرته المهنية أم حياته.

في صباح رمادي يتخلله رذاذ خفيف، وصل باو إلى فيلا السيد وانغ مرتديًا معطفًا قشياً كما يفعل القرويون لدرء المطر، واعتمر قبعة من الخيزران. كان قد رتب ليعمل بُستانيًا ليوم واحد.

«لماذا أحضرت هذا الرجل العجوز؟» تذمَّر المشرف عندما فتح البوابة. فاكتفى البستاني المعتاد (وهو رجل قليل الكلام وافق على جلب باو مقابل أجر) بهزّ كتفيه مدعيًا أنه عمه.

خفض باو رأسه وتبع البستاني عبر ممرات ملتوية مزينة بفسيفساء من الحصى على شكل عملات معدنية مثقوبة، تجلب الحظ عند المشي عليها. تأخذ الحقائق المتكشفة هيئة مناظر طبيعية مصغرة؛ حيث تحاكي بركة اللوتس شكل بحيرة تايهو الجنوبية، وتمثل الصخور المتآكلة سلسلة جبلية ما. صُممت هذه الحقائق لتعكس أسلوب الحياة الأنيق للنُخب الأدبية الصينية، مثل قصور هانغتشو الشهيرة. وامتلاً فناء آخر بصفوف من أشجار البنجينغ والبونساي الموضوعة على طاوولات خشبية منخفضة ليتأملها الناظرون، رأى باو الأشجار القزمة، المرتبة في أوعية ضحلة لتشبه الصنوبرات المتمايلة والقيقب القديم، ولاحظ أنها عتيقة جداً وبالغة الروعة. كان حجم المجموعة وقيمتها الكبيرة يلامسان حد الهوس.

تفحص باو المكان بعناية أثناء عمله. كانت الفيلا هادئة لدرجة أنها بدت مهجورة؛ فلم يُسمع سوى صوت مقص التشذيب وصوت مجرفة الحصى. وعند استراحة الظهيرة، جلسا لتناول فطائر البصل الباردة التي أخرجاها من جيوبهما. سأله البستاني، الذي أعجب بجدية باو في العمل: «ما الذي تبحث عنه؟»

- مصور منشوري يُدعى بكتو نيكان. سمعتُ أنه يقيم هنا أحياناً.

قال البستاني: «إذا كنتَ تريد معرفة أخبار الضيوف، فعليك أن تسأل إحدى الخادِمات. إنها من قريتي».

عرّفه البستاني بامرأة متوسطة العمر بوجه ناعم يشبه خبزة مطهوءة على البخار. وكحال البستاني، كانت مستعدة للمساعدة مقابل أجر.

قالت: «ذلك المصوّر أقام عندنا عدة مرات، لكنه ليس هنا الآن. كان يصور مجموعة السيد من النباتات النادرة والتحف لإعداد كتيب صوري».

شعر باو بخيبة أمل: «ألم يكن هنا خلال الشهر الماضي؟»

- لا، كان يأتي ويذهب كما يشاء. ولستُ أوّل من يسأل عنه.

- من أيضاً كان يبحث عن بكتو؟

أجابت: «مؤجّره، لكن البوّاب لم يسمح له بالدخول. وقبل ذلك...» وعقدت حاجبها تحاول التذكر.

- هل أحضر السيد وانغ فتاة تُدعى تشونهاو؟

زَمَّت الخادمة شفتيها وهزَّت رأسها نفياً حين وُضَّح لها أنه يبحث عن غانية مفقودة. ثم لمع بريق في عينيها، بريق الرضا الذي تشعر به من تعدُّ نفسها محظوظة. كأنها تقول: ربما أكون مجرد خادمة، لكن على الأقل لم يُباع جسدي في حي المتعة. فكَرَّ باو: هكذا حال البشر، نشعر بالرُّضا ما بقينا أفضل حالاً من غيرنا.

- السيد متطلب جداً في اختيار فنانات لحفلاته الخاصة في الفيلا. ويُفضل دائماً المطربات والعازفات المتميزات.

لم يكن ذلك يتناسب مع وصف تشونخوا، الفتاة الجديدة التي لم تشتهر بمهاراتها: «هل احتفظ بأي من النساء؟»

قالت: «أتقصد عشيقات غير رسميَّات؟ كان هناك ثلاث خلال السنوات الخمس التي قضيتها هنا، لكنه كان حذراً. فزوجته الأولى من أسرة تشين الثرية، وهي حساسة وسريعة الغضب».

قال باو: «وماذا حدث للنساء اللاتي احتفظ بهن؟»
- سأريك.

سارا عبر ممشى مُظلل تحت تعريشة الوستارية الجرداء التي تُبشِّر بظهور براعمها قريباً. كانت الفيلا غارقة في سكون هش تحت أشعة شمس الربيع الباهتة. لطالما مجَّد العلماء الصينيون الخلوات الريفية، رغم أن القليل من أكواخ الجبال أو أكواخ الصيد التي يتحدثون عنها كانت بدائية بالفعل، كما رأى باو. إنها إنشاءات مصطنعة، تماماً كما يحب أن يتوهَّم أصحاب هذه الممتلكات أن الفتيات الشابات اللاتي جلبوهن من محظيات أو فنانات قد همن حباً بهن.

عمَّ السكون ثقيلًا لدرجة أن باو استطاع سماع صوت خطواتهما على الحصى وزقزقة طائر بعيد. عندما تأتي زوجتا السيد الرسميتان في الصيف، تجلبان معهما حاشيتهما من الخدم الموثوقين. أما في الوقت الحالي، فتتولى مجموعة صغيرة من الخدم العناية بالأجنحة الفارغة وباحات الحدائق الخضراء. توقفوا عند باب خشبي مثبت في جدار من الطوب. أدخلت الخادمة مفتاحاً في القفل، وفي الداخل رأى جناحاً صغيراً به مجموعة من الغرف.

- كان يحتفظ بهن في هذا المكان.

إذًا، هذا هو الجناح السري الذي ذكره بكتو نيكان لمؤجّره. استقبلهما الصمتُ المُشْبَعُ برائحة الغبار. تذكر باو تشيولان في بيت الهوى، وأملها الحزين في أن تكون صديقتها على قيد الحياة في منزل السيد وانغ. سيتعين عليه إخبارها بأنه لا يوجد أحد هنا. ألقت الخادمة نظرة سريعة وقلقة حولها وهي تدفع الباب المؤدي إلى الغرفة الخالية. وبمحاذاة أحد الجدران اصطفت عدة صناديق خشبية كبيرة، بدت لباو أشبه بالتوابيت.

يعلم باو أن هناك من يزعم أن الثعالب تسكن المقابر أيضًا. وهناك حكايات عن ثعالب تكتسب هيئة بشرية بوضع جماجم بشرية على رؤوسها ساجدة للقمر في منتصف الليل. صورة مرعبة، تجمع بين كل ما يخشاه الصينيون: التحلل، والظلام، وضوء القمر. سأل باو مربيته العجوز ذات مرة عن هذا الأمر، مستغربًا من أنها كانت تُبجّل هذه المخلوقات. لكنها أجابت أن ذلك غير صحيح. ربما تقوم بعض الثعالب بمثل هذه الشعائر، لكن ليس الهُوشين الذي كانت تُكرّس عبادتها له.

يمكن للكلمة «شين» أن تعني «كائن خالد، أو روح سامية» أو حتى «جنية». لكن هناك أسماء أخرى للثعالب أيضًا، تتراوح بين «هوجينغ» (روح الثعلب) و«هوياو» (ثعلب شيطاني) و«هوشن» (الإله الثعلب). يبدو أن الثعالب، مثل البشر، تتعدد أصنافها وتتنوع في طيف واسع من الدلالات.

اتّخذ الهُوشين الذي كانت مربيته تتضرع له، حسبما أخبرته، شكل رجل نبيل عجوز، يداوي المرضى ويجلب الثروات للبيت. لكن سرعان ما تراجعت حظوظ جيرانهم. كانت الشائعات تقول إن السبب يعود إلى أن الثروات التي يجلبها الثعلب زائفة. أو ربما أهملوا المزار الصغير في بستان الخيزران، فغادروهم الإله الثعلب.

فتحت الخادمة الصندوق الأقرب. وداخل أعماقه المظلمة بدا ما يشبه رأس وجذع إنسان مبتور. شهق باو، قبل أن يدرك أنها ليست إلا زياً مسرحياً: تاجًا متقن الصنع لأوبرا صينية موضوع فوق درع مسرحي.

قطب وجهه بتعبير حزين أشبه بوجه كلب، الذي منحه ثقة الآخرين، وقالت الخادمة: «السيد وانغ جامع تحف».

- وماذا عن النساء اللاتي احتفظ بهن؟ من يكن؟

- الأولى كانت مغنية أوبرا، وعندما رفض السيد وانغ أن يتخذها محظية رسمية، جاءت فرقتها القديمة وأثارت جلبة أمام القيلا حتى اضطر إلى إطلاق سراحها خوفاً من الفضيحة. أما الثانية فقد ماتت بالحمى. والثالثة... الآن تذكرت، لقد كانت الشخص الآخر الذي سأل عن بكتو نيكان.

- لماذا؟

قالت: «لم تُفصح عن السبب، لكنَّ أول ما سألتُ عنه عندما جاءت كان: هل يقيم هنا مصور يُسمَّى بكتو نيكان؟ كانت ذكية وحادة النظرات. اسمها كان...» وعقدت حاجبيها محاولة التذكر: «ياللعجب، لا أستطيع تذكره. لكنني متأكدة من أنه لم يكن تشونخوا. لم تمكث طويلاً. بل لم تكمل شهراً».

فرك باو فكه، شاعراً بأنه وصل إلى طريق مسدود؛ إذ لم يجد بكتو أو تشونخوا في فناء السيد وانغ السري. ومع ذلك، كان فضولياً حول من قد يبحث عن المصور أيضاً. فسأل: «ماذا حدث لها؟»

- اختفت ذات ليلة. من داخل غرفة مغلقة.

رفع باو رأسه فجأة، ربما كان مخطئاً بعد كل شيء.

13

كما خشيت، كانت سيدتي لا تزال مستيقظة حين عدتُ متأخرة في تلك الليلة. تجلس في سريرها تحت وهج مصباح زيتي خافت: «آه سان! هل أنت بخير؟»

لا بد أنني بدوتُ في حالة مزرية؛ كانت هناك لطخة سوداء على جانب وجهي بسبب نومي على الكانغ، واتسخت ملابسي إثر تسلُّقي كرمة الوستارية. كما أنني تركت حذائي القشبي في ساحة منزل أودا الخلفية.

- نعم، لقد عرفتُ أين يقيم شيراكاوا.

بدت قلقة، كعصفور صغير في عش مضطرب: «هل أمسك بك؟»

لم أشأ تعقيد الأمور بشرح معرفتي السابقة بشيرو، لذا قدمت لها سردًا مختصرًا عن ملاحقتي له إلى منزله وتسلق شرفة للتنصت: «يبدو أنه يخطط للذهاب إلى اليابان».

- فهمت. شكرًا لك.

توقعت أن تكون مسرورة لسماع خبر رحيل شيرو، لكنها بدت أكثر قلقًا. أما أنا، فكان ينتابني القلق أيضًا. إن كان يكتو نيكان قد غادر إلى يوكوهاما، فعليَّ أن أجد وسيلة للوصول إليه.

في صباح اليوم التالي، كنت في المطبخ أساعد الطاهية على تبديل السلطعون النيئ في نبيذ الأرز وصلصة الصويا، عندما استدعيت فجأة إلى صالة استقبال النساء. كانت الصالة بسيطة وأقل ترفًا من صالة الرجال، مؤثثة بكراس من خشب الورد القاسي بظهور منتصب، كما لو صُممت لتثني الضيوف عن البقاء طويلًا. جلست سيدتي على أحد الكراسي، وعلى الكرسي المقابل جلس تشين من حفلة العشاء. أحسستُ بارتباكك عند دخولي.

قالت سيدتي: «آه سان، هل تتذكرين السيد تشين؟»

«نعم، تاي فُورِن». وانتابني شعور سيئ حيال هذا. هل تعرّض تشين للحرق عند إلقائي حساء الفاصوليا الحمراء على شيرو، وجاء الآن ليطالب بالتعويض؟ عندما تلاقت نظراتنا، احمرّ وجهه. لم يكن هذا ما توقعته من شخص قضى نصف العشاء يحاول التحرش بي.

- يبحث السيد تشين عن خادمة لعمته، وقد طلبك خصيصًا.

حدّقتُ إليه. كانت تلك كذبة واضحة. بدا تشين أكثر ارتباكًا وقال: «أعجبتُ بسرعة وبراعة خادمك. عمتي بحاجة إلى خدماتها، وسأدفع أجرًا سخياً».

«لا، شكرًا». من الجليّ أن الشخص الوحيد الذي كان بحاجة إلى خدمات امرأة كان هو. نظرتُ إلى سيدتي، فأومأت لي إيماءة طفيفة.

قالت: «أرأيت؟ لقد أخبرتك. سأحترم رغبات آه سان في هذا الشأن».

عندما غادر تشين، سألتني سيدتي: «هل أنت راضية برفضك؟»

في الواقع، دهشتُ أنها سألتني عن رأيي.

قالت: «كان سيدفع أجرًا أعلى، لكنه ربما كان يقصد عملاً من نوع آخر».

أدركتُ تمامًا نوع العمل الذي يبغيه. يعتبرُ العديد من أصحاب العمل الخادِمات فرائس سهلة. ورغم أنه غالبًا ما تُطرد الخادِمات اللاتي يحبلن، فإن بعضهم يرضين بهذا؛ إما بوقوعهن في الحب وإما لاعتقادهن بتيسّر أحوالهن. وفي بعض الأحيان، كانت الأمور تسير لصالحهن.

قلت: «لا، لا، لا».

بدا عليها الارتياح، لكنني شعرت بوخز من الذنب. إذا غادرتُ فجأة إلى يوكوهاما بحثًا عن بكتو، فقد تشعر بالحزن الشديد.

انتشر عرض تشين المفاجئ في جميع أرجاء المنزل خلال نصف ساعة. حتى شقيقات بوهاي علمن بالأمر، واضطرتت لإحضار الشاي وخيوط التطريز فقط ليتسنى لهن طرح كلِّ ما لا يليق من الأسئلة، مثل ما إذا كان تشين قد أغواني بالفعل أو إذا كنتُ حُبلى.

كانت أسئلتهن سخيفة، لكنها منحتني لمحة عن عالمهن المكبوت، حيث يتلهّفن إلى الحب والنميّة رغم حبسهن في طابق المنزل العلوي. لتزجية

أوقاتهن، يقرأن الروايات العاطفية، بما في ذلك بعض الروايات ذات الطابع الإباحي الضمني المكتوبة على ورق أصفر، والتي تصف ملذات الجسد بعبارات غير واقعية على الإطلاق. كنَّ أنيقات وممثلات، ذكَّرنني بالصيصان الصغيرة. كان بإمكان ثعلب مثل شيرو افتراسهن جميعًا.

أمطرتني الخادمة التي كانت تساعد في تنظيف السلطعون في المطبخ بالأسئلة كذلك. كان اسمها آه ليان، ومن المقرر أن تتزوج قريبًا: «لماذا رفضت الذهاب مع السيد تشين؟»
أجبتها: «لأنه أحمق».

«أوه!» قالت متعجبة، ثم اعترفت: «لا رغبة لي في الزواج. لم أقابل خطيبي قط. كان من المفترض أن يتزوج ابنة عمي، لكنها ماتت بالحمى العام الماضي».

- هل هو من قريبك الأصلية؟

- كانت أصول عائلته كذلك. لكن عليَّ الذهاب بعيدًا، إلى مالايا. لا أعرف حتى أين تقع.

كانت مالايا مستعمرة بريطانية تضم عددًا كبيرًا من الصينيين المغتربين. رأيتها على الخريطة، تبدو كحبة بطاطا حلوة تتدلى من طرف سيام⁽¹⁾.

قلت لها: «فهمت». كان الكثير من الرجال يطلبون العرائس من الصين؛ وآه ليان المسكينة لم تكن تملك خيارات أخرى، خاصةً مع إصرار عائلتها.

- أفضل الذهاب مع السيد تشين.

- لا، لن تفضلي ذلك. إنه يلهو فحسب.

قالت مبررة: «يقولون إن عائلة تشين ثرية للغاية، رغم أن والده رجل مخيف. لكنني لا أريد الذهاب على متن سفينة بمفردي. لا أستطيع النوم؛ تراودني كوابيس مخيفة بشأنها». وبدت حقًا متعبة من شدة الخوف.

قلت لها: «انتظري هنا». ثم انطلقت مسرعة، وأخذت ورقة وكتبت عليها رمزًا واحدًا.

قلت لها: «تفضلي».

(1) سيام: هو الاسم القديم لدولة تايلاند الحديثة. كان يُستخدم هذا الاسم للإشارة إلى تلك البلاد حتى عام 1939، عندما تغيّر رسميًا إلى «تايلاند». (المترجم)

«ما هذا؟» لم تكن آه ليان تستطيع القراءة، فأخبرتها أنه الرمز «مو» 𐎎𐎌، وهو اسم حيوان «التابير»⁽¹⁾.

وفسّرت لها: «المو كائن يأكل الأحلام، ضعي هذه الورقة تحت وسادتك عند النوم، واذكري اسمه ثلاث مرات ليأكل كوابيسك. لكن إن دعوتَه كثيرًا، سيلتهم آمالك وأحلامك أيضًا».

بدا عليها الفرح: «كيف عرفتِ هذا؟»

قد يؤدي تلاعبي بالأقدار إلى عواقب وخيمة، لكنني قلت: «إذا كان لديك طفل يعاني من الكوابيس، فيمكنك إعطاؤه هذا الرمز».

قالت: «إذا رُزقت ولدًا، سأسميه شين، بمعنى «الأمانة»، لأنني أتمنى أن يكون زوجي وفيًا لي».

لا أدري لماذا أضفت تلك الملاحظة عن الطفل الذي يعاني من الكوابيس. لم تُعان طفلي منها قط، على حد علمي. كانت صغيرة جدًا. عندما تنام، كانت تحلم، وتضرب بقدميها أحيانًا. كنت أمل أن تكون أحلامها سعيدة، وليست كوابيس. ما زلت أتذكر صيحاتها الصغيرة، ودفء احتضانها. رفضتُ أن أنسى، متخيلة أنها لا تزال معي. الآن، كانت لتتهادى بخطوات غير ثابتة عبر العشب، أو تجثو لتراقب ضفدعًا. لكن كل تلك اللحظات لم تتحقق قط. بل انقطعت عندما حفروا بجوار مخبئها في الثلج وانتزعوها مني.

أغمضت عينيَّ بشدة. إذا كان على آه ليان أن تتزوج برجل بعيد في مالايا، فأمل أن يكون زوجًا صالحًا، وأن تُرزق بطفل يعيش طويلًا بعدها.

في تلك الليلة، جاءنا زائر آخر. لكن بوهاي كان في المنزل هذه المرة؛ سمعناه يهرول نزولًا على السلالم وينادي بترحيب. وبعدها بقليل، أرسل في طلب جدته.

- يرغب شيراكاوا في التحدث معك.

(1) التابير: حيوان ثديي عاشب يشبه الخنزير بأنف طويل، يعيش في الغابات الاستوائية والمناطق العشبية في أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا. (المترجم)

أوه لا. كنت أمل أن يتركنا شيرو وشأننا، لكن يبدو أنني لم أكن الوحيدة التي تحشر أنفها في ما لا يعنيتها. هذه هي مشكلة الثعالب؛ لا تقاوم التدخل في كل شيء، حتى وإن انتهى بها الأمر إلى الوقوع في الفخ.

بدا بوهاي مستاءً من أن شيرو جاء لرؤية جدته وليس لرؤيته هو. جلس بجانبها متجهماً وعاقداً ذراعيه. بينما وقفتُ في الرواق الخارجي، فلم أكن لأفوت أمراً كهذا.

كانت الغرفة ممتلئة بالظلال والعت الذي جذبته مصابيح الزيت. رفرفت أجنحتها المتربة راسمة أشكالاً غريبة على جدران الجص البيضاء. وبين الحين والآخر، تطير عثة نحو اللهب لتحترق، تاركة خلفها رائحة كريهة. كانت وسامة شيرو أكثر بروزاً في هذا الضوء الخافت، وتساءلتُ بتهكم عما إذا كان يعتمد زيارة الآخرين ليلاً بدافع الخلاء حصراً. لكن لا، على الأرجح أنه قضى معظم يومه نائماً في منزل أودا، يأكل طعامه ويحرق فوق أثاثه الدوائر بلا مبالاة. وشعرت ببعض الشفقة تجاه أودا.

كان قد أعاد الملابس التي استعارها من بوهاي في الليلة السابقة، ولكن من الواضح أن هذا كان مجرد ذريعة. ماذا لو قرر شيرو-رغم تحذيراتي- أن يطلب يد إحدى أخوات بوهاي؟ دار الحديث حول الربيع البارد على غير العادة، وتبادل شيرو وسيدتي المجاملات السطحية. بدأت أشعر بالارتياح قبل أن أسمعه يقول بجدية: «والآن، أود شراء خادمك».

- ماذا؟

- تلك التي سكبت عليّ حساء الفاصوليا الحمراء.

بدت الصدمة على وجه بوهاي: «لماذا؟»

- لقد أعجبتني. من فضلك، بعها لي.

مال شيرو إلى الأمام، واضعاً قدماً أنيقة فوق الأخرى. ورأيتُ بوضوح كيف يفرط في تسليط سحره. ظهرت ملامح الحيرة على وجه بوهاي وهو يقول: «حسناً...»

قالت سيدتي: «هي ليست للبيع. ليست مملوكة بعقد». لكن حتى صوتها كان متردداً.

- إذاً، امنحوني إياها هدية. سأحسن معاملتها.

قالت سيدتي وهي في حيرة واضحة مما يجب فعله: «نادِها». فدخلت مباشرة إذ كنتُ واقفة في الردهة بالفعل.

قال شيرو: «نعم، هذه هي. سأخذها معي».

قلت بحزم: «لن أذهب».

كيف يجرؤ على محاولة شرائي كما لو كنت قطعة لحم؟ رغم أن النساء كنَّ يُشترين ويُبعن كل يوم، وأحياناً بثمن أقل من ذلك، فيمكن القول إن تشين حاول فعل الشيء ذاته في ذلك الصباح، لكن ما أثار غضبي هو أنني لو حاولت شراء شيرو (شخص آخر بلا مأوى، يعتمد فقط على جماله ولا يملك عائلة تدعمه)، لسخر الجميع مني. في الواقع، لا يمكن لامرأة أن تستأجر عشيقاً دون أن تلاحقها الشائعات لخمسمائة سنة قادمة. لم ينسَ الناس حتى الآن قصة الإمبراطورة وُو وعُشاقها الرجال.

قال بخبث: «لا.. حتى لو كان إلى اليابان؟»

آه، لقد أمسك بي. لقد هرب بكتو نيكان إلى يوكوهاما، وكنت أتساءل عن كيفية الوصول إليه. سأحتاج إلى المال لركوب سفينة، بالإضافة إلى التعامل مع كافة التعقيدات البيروقراطية من أوراق وتصاريح.

ظهر علي التردد، وقال بوهاي بفرح: «هل قررت أخيراً أن تأتي معي إذن؟» وبدأ مبتهجاً كأنه تخلص من استيائه بالكامل.

قال شيرو: «نعم، أعتقد أنني قد انتهيت تقريباً من عملي هنا».

في خضم فرحة بوهاي المفاجئة، نسيني الجميع للحظة. فألقيت نظرة سريعة على سيدتي.

قالت بهدوء: «آه سان، هل ترغبين في الذهاب مع السيد شيراكوا؟»

لم أملك قلباً لأخذها. ليس في تلك اللحظة: «بالطبع لا، تاي فورن».

عندها قالت: «إذن، هل تذهبين معي؟»

توقف الحديث فجأة.

- جدتي، ماذا تقصدين؟

- أريد السفر معك إلى اليابان، يا بوهاي.

- لماذا؟

- إنها أمنيّتي الأخيرة. لقد فكرتُ ملياً في الأمر، وإذا صاحبك السيد شيراكوا، فسأشعر بطمأنينة أكبر خلال الرحلة.

أثار هذا الأمر جلبة كبيرة حتى أرسلوني لإحضار السيد، لذا لم أحظُ بسماع نهاية الحوار. ومع ذلك، كنتُ في غاية الدهشة. منذ متى كانت تفكر في هذا، ولماذا؟

جاءت الإجابات جميعها، ولكن بعد فترة طويلة من رحيل شيرو، مصطحباً معه بوهاي. كانا متجهين للقاء بعض الأصدقاء، ولم يكن واضحاً إذا ما كانت ستشمل الجلسة خمراً أو بطة مشوية أو دار شاي فاخرة، غير أن وجه بوهاي المحتقن والعبوس أوحى بعدم رضاه عن اقتراح جدته. ومع ذلك، اتفقت الأحاديث المنزلية على أن أغرب ما في الأمر هو قبول السيد لذلك، بل إنه بدا غير متفاجئ من طلب والدته.

حتى زوجته، المدام هوانغ، التي كانت قد استأجرتني، اعترضت في البداية: «كيف ترسل والدتك العجوز إلى اليابان مع بوهاي؟» قالت ذلك بصوت عالٍ لدرجة أن كلماتها انتشرت في الأفنية وتسلت إلى آذان الصبية الذين يقومون بالأعمال، حتى انتشرت أخبار الخلاف العائلي في متجر الأدوية إلى بائع أسياخ اللحم وبائع التوفو.

كانت الكونفوشية تقتضي احترام كبار السن والبر بالوالدين، ولذلك بدا إرسال سيدة عجوز على متن سفينة إلى بلد أجنبي كأنه أمنية بالموت. لكن السيد اكتفى بالقول إنه ناقش الأمر مع والدته.

- لماذا؟ ما الذي يمكن أن يجذب والدتك في اليابان، ذلك البلد المروع الذي يُصرُّ بوهاي على الدراسة فيه؟ إن توفيتُ في الطريق، سيقول الجميع إننا أرسلناها إلى حتفها.

من المرجح أن المدام هوانغ شعرت ببعض الذنب بعد انتقال السيدة العجوز مؤخراً من المنزل الرئيسي إلى سكن أصغر. لم أسمع رد السيد، لكن زوجته خفضت صوتها، ولم يُسمع أي شيء آخر من حديثهما. وفي غضون ذلك، بدأت سيدتي في التحضير. طلبتُ من أحد الخدم أن يحضّر صندوقين من الخيزران المنسوج من المخزن. وعندما دخلتُ حاملةً كومة من الملابس، وجدتُها منحنية مثل الجندب، تمسح الصندوقين بخرقه مبللة. رغم أنني

شعرت بسعادة خفية إذ كان ذلك مريحًا لي (فالسفر مع سيدتي كان أفضل بكثير من تدبير وسيلة أخرى)، فإن الوضع كله بدا مريبًا. ولم أكن أثق بشيرو. سألتها: «لماذا سنسافر إلى اليابان؟»

فابتسمت وقالت: «لقد كان اليوم مليئًا بالمفاجآت، أليس كذلك؟ لكنني أشعر أن القدر أرسلك إليّ. كنتُ أنتظر خادمةً كفؤًا مثلك، لتسافر معي لحماية بوهاي».

- ولماذا يحتاج إلى حماية؟

- ربما سمعت أن الابن البكر في هذه العائلة يموت شابًا. إنها لعنة تيقنتُ الآن أنها حقيقية.

مرَّ ظل من الكآبة على وجهها. ورغم أن خططها للسفر إلى اليابان كانت تتوافق مع بحثي عن بكتو نيكان، فإنني شعرتُ بالقلق فجأة. وخزنتني أذناي بشعور مشؤوم ينذر بمشاكل تلوح في الأفق.

14

- اختفت من غرفة مقفلة؟

شعر باو بتسارع نبضه وتدفق الدم إلى رأسه. امرأة أخرى مفقودة. روت الخادمة حكايتها بحماسة: «كانت محبوسة هنا في ذات ليلة، وفي الصباح التالي لم يبق لها أثر»

- لماذا كانت محبوسة؟

أجابت: «بسبب مغنية الأوبرا التي كان السيد وانغ يحتفظ بها سابقًا. استطاعت تلك المغنية أن تهرب بعد أن دفعت فرقتها القديمة لإثارة جلبه كبيرة بالخارج، حيث كانوا يقرعون الطبول ويهتفون عند البوابة. لم يرغب السيد وانغ في تكرار ذلك، فأمر أن تُحبس الأنس...» وعندها، شابّت نظرة الخادمة لحظة من الفراغ العجيب: «...أن تُحبس السيدة الشابة في هذا الفناء كل ليلة».

- والمرأة، هل رضيت بذلك؟

«لقد جاءت للبحث عن بكتو نيكان. هذا ما بدا لي على أي حال. عندما وصلت أول مرة ولم يكن هنا، شعرتُ بخيبة أمل شديدة. لكن السيد وانغ لم يلاحظ ذلك، فقد كان مفتونًا بها تمامًا. في الحقيقة، كلنا كنا كذلك، إلى حد ما». وتوردت وجنتا الخادمة الممثلتين.

- من أين جاءت؟ هل كانت مغنية محترفة؟

«طلب السيد بعض الفنانات لإحدى حفلاته، وجاءت معهم». وذكرت الخادمة اسم بيت متعة أفخم من البيت الذي فيه تشيولان: «أما الشيء الآخر الذي أذكره، فهو أنها كانت تسأل عن الثعالب».

«ثعالب؟» تنفس باو بحدة: «ماذا عنها؟»

- كانت تسأل إذا كان بكتو نيكان قد جلب جلود ثعالب من قبل. أخبرها المشرف أنَّ بكتو لم يكن من أفراد الأسرة، بل مجرد مصوّر استأجره

السيد لتصنيف مجموعته. قال السيد إنه إذا كانت ترغب في شال من الفرو، فسيحضر لها واحدًا. عندها شحِب وجهها وكأنها كانت على وشك الإعياء.

- متى اختفت؟

- قبل أكثر من شهر. اضطر السيد وانغ للعودة إلى المنزل الرئيسي، وهذا يجعلني أتساءل إذا كانت قد خططت لذلك مسبقًا. لا أعتقد أنه لمسها حتى... فقد قالت إنها لن تكون له إلا بعد زفاف رسمي، لذا كان منشغلًا كالمجنون، بطلب الأثاث والملابس. ويهذي عن الثعالب والغزلان والثلج. لكن الشيء الوحيد الذي كان صارمًا بشأنه هو وجوب أن تُحبس كل ليلة. قال لنا بلهجة صارمة: تأكدوا من بقائها هنا.

- هل التقت المصور في النهاية؟

تجعد جبين الخادمة بحيرة وهي تجيب: «لا أستطيع التذكُّر. أليس هذا غريبًا؟ أشعر كأنها كانت هنا لوقت طويلة، لكنه كان قصيرًا في الآن نفسه» وضحكت بخجل: «لكنني أتذكر جيدًا ذلك الصباح حين فتح المشرف هذا الباب».

تفحص باو القفل، ولم يجد أي علامات تدل على كسره. كانت جدران الفناء بارتفاع ثماني أقدام، والنوافذ داخل الجناح محصنة بالقضبان باستثناء نافذة صغيرة على شكل قمر، تقع أعلى من مستوى رأسه: «هل كان باب الجناح الداخلي مقفلاً أيضًا؟»

- نعم، الجناح والغرفة، كلاهما كان مقفلاً. لكن السيدة لم تشتك أبدًا من حبسها كل ليلة. ما زلتُ أذكر كيف كانت عيناها تلمعان. تتألقان في الظلام كأعين الحيوانات.

حيوانات. نظر باو إلى النافذة العالية الوحيدة. حول عتبتها الخشبية، حيث ظهرت علامات خدوش خفيفة. كان من المستحيل تقريبًا- حتى لمؤدية محترفة- أن تتسلق الجدار وتنحسر عبر تلك النافذة الصغيرة، ثم تجري على طول قمة جدار الفناء. تذكر باو شغف السيد وانغ بالأوبرا الصينية، التي تشتهر بحركاتها البهلوانية المذهلة.

ليس غريبًا أن تصيب الحيرة خدم هذه القُيلا. ومع ذلك، كيف تتوافق هذه الحكاية الغريبة مع اكتشاف الجثة المتجمدة عند عتبة مطعم غو؟ ربما

لا تتوافق. شكر باو الخادمة قائلاً: «أخشى أن هذه ليست المرأة التي أبحث عنها».

دفع باو لها الأجر الموعود. وبينما كانت تقوده إلى الخارج، لاحظ أن هذه القبيلة الأنيقة كانت كبيرة بما يكفي لتأوي خمسين فلاحاً، لكنها تبقى فارغة لإرضاء نزوات رجل غني بين الحين والآخر: «سمعتُ أن بكتو نيكان قد غادر مقر إقامته في المدينة... هل هناك أماكن أخرى قد يكون قد توجه إليها؟»

- قرية وُو كانت إحدى الوجهات التي أحب تصويرها. وهي على بعد نصف يوم من هنا. تطل على وادٍ جميل.

قرية وُو هي المكان الذي ذكره صاحب مسكن بكتو، حين زعم أنه حاول شراء فرو ثعلب أبيض فيه. كما أنها مسقط رأس تلك الغانية، تشونخوا. فتساءل باو عن هذه المصادفة.

أضافت الخادمة: «سمعتُ أن بكتو كان أحياناً يبحث عن فتيات لبيوت الهوى. لقد كان يتردد على القرى النائية، وإذا وجد فتيات جميلات، كان يبلغ الوسيط مقابل عمولة».

قال صاحب مسكن بكتو إنه كان ابناً باراً، وإن ديونه تراكمت بسبب مرض والدته. تأمل باو في التناقض بين رجل يمكن أن يكون وحشاً مع بنات الآخرين، وباراً بأسرته.

عليه أن يحقق في قرية وُو، فقد يكون بكتو مختبئاً فيها من دائنيه. وقد أثار فضوله تكرار ذكر الثعالب أيضاً. شعر باو بالدهشة من أن الخادمة لم تلاحظ عدد المرات التي ذكرتها فيها، وكذلك من حالات النسيان غير المبررة التي تصيبها عند الحديث عن السيدة التي اختفت. ومع ذلك، فإن أجزاء أخرى من قصتها كانت واضحة وحادة، كأنها شظايا زجاج ساطعة.

قادته الخادمة إلى الخارج عبر بوابة جانبية وسألته: «هل ستبحث عن السيدة التي اختفت؟»

- لا، أنا أحقق في أمر آخر.

- أعتقد أن السيد يرغب في العثور عليها. هل تريدني أن أذكر اسمك إذا طلب الاستعانة بمحقق؟ لن أذكر أنك جئت اليوم.

لم يتوقع باو شيئاً من هذا، لكنه أعطاها بطاقته.

أضافت: «أتساءل إن كانت ستعود يوماً ما».

ذَكَرَتْه نظرتها الحاملة بالفتى الذي أخبره عن الرجل الغامض وسط الثلوج. كان قد قال له: **أُردتُ أن أفتح الباب، وكأن شيئاً ما كان يناديني.** آثار كلا التفاعلين شعوراً غريباً لدى باو. شعوراً كافياً ليوظ فيه حاسة تحذيرية تُشير إلى أسرار دفيئة، وإلى أتباع قد مسَّتْهم هالة من السمو الإلهي. وتذكر فتاة، منذ زمن بعيد، أخبرته مرة عن لقائها بإله.

في الحكايات القديمة، تُعتبر الثعالب سادة التقلُّب والخداع، حيث تخفي طبيعتها الوحشية خلف وجوه ساحرة وقصور فاخرة مليئة بالأكواب الذهبية التي لا تعود ملكيتها إليها. تُكافأ العائلات التي تتعبد الثعالب بسلع مسروقة تُجلب خلصةً من مخازن الآخرين. نعم، تمد آلهة الثعالب عطاياها، ولكن بطرق ملتوية؛ ولهذا، لا يعتبرها البعض آلهة حقيقية. لكن تجارب باو في طفولته مع مزار الثعلب خلف منزل جيرانه غرست فيه رهبة عميقة. كانت بساطة المزار الخشبي البالي تحت أوراق الخيزران الهامسة تثير إعجابه. سرّية حميمة. ليست كتماثيل بوذا الضخمة المخيفة، التي تعلو طابقيين في معبد المدينة. في الواقع، أقام باو وتاغتا مزار ثعالب خاصاً بهما في قلب أجمة الرندرة وأمضيا الصيف كله في تجهيزه، يجمعان الحجارة ويختاران قطع الخشب بعناية. قالت تاغتا إن عليهما أن يضعاً أزهاراً جديدة عليه كل يوم.

«لماذا الأزهار؟» ظنَّ باو أن الثعالب قد تفضل القرايين من التوفو المقلي، الذي يُقال إنه طعامها المفضل.

قالت بثقة كبيرة: «إنهم يحبون الأزهار». فأوماً باو على مضض. الأزهار إذن.

قال: «أخبريني عن الثعلب الذي قابلته، أعدكِ ألا أسخر منك».

انحنّت تاغتا فوق مزارهم وبقيت صامتة. كانت قد أحضرت ثلاثة براعم ممثلة من زهور الزنبق النهاري الصفراء، وبدأت ترتبها بعناية، وتكسر سيقانها الخضراء الطرية. لم يكن لديهم وعاء ماء لوضع الزهور فيه، لذا كانت تذبل كل يوم. كان هذا جزءاً من جاذبية المزار والمسؤولية المترتبة على رعايته.

قالت أخيرًا: «حدث ذلك حين ضللتُ طريقي. أخذتني أُمِّي لزيارة أقاربنا في منغوليا الداخلية».

- كم كان عمرك حينها؟

مدت يدها بخمسة أصابع كأنها نجم البحر: «أخبرتكَ بذلك المرة الماضية». بالطبع، تذكر باو، لكنه كان يتحقق فحسب، وإن لم تكن ثمة حاجة لذلك. فأذناه، اللتان اعتادتَا حديثًا على هذه القدرة الغريبة التي تكشف الأكاذيب، أبلغته بأنهما لم تكن تكذب.

- ذهبنا في نزهة عائلية. أو ربما كنا في طريقنا لزيارة أحدهم. لا أذكر بالتحديد، إلا أننا توقفنا في السهول لتناول الطعام. ثم ضُعت.

- كيف ضُعتِ؟

احمرَّ وجهها وقالت: «قلتُ إنك لن تسخر مني!»

«لا أسخر، لكن لا أفهم كيف يمكن أن تضيعي وأنتِ تتجولين في العشب». تخيل باو صورة من أحد كتب أخيه: مرجًا واسعًا ومسطحًا تملؤه الأزهار البرية تحت سماء زرقاء لبنية.

«الأمر ليس كما تتصور! بعض المناطق تعجُّ بالأشجار والشجيرات، وهناك منخفضات وتعرجات، وكل شيء يبدو متشابهًا. إذا ابتعدتَ كثيرًا وكان العشب طويلًا، ستضل طريقك» وأغلقتَ تاغتا فمها بانزعاج، فخشي باو أن تجرده الحديث عن الثعلب.

قال باو: «عذرًا، أنا آسف حقًا».

نظرت إليه سريعًا من تحت غرتها: «أنت الفتى الوحيد الذي يعتذر لي. إخوتي غير الأشقاء وأبناء عمومتي لا يعتذرون البتة».

أدخل هذا الاعتراف السرور إلى قلب باو حين شعر برضى تاغتا عنه، لكنه خشي أن يكون قد أضعف رجولته أمامها بطريقة ما.

«إذن، كنتِ تائهة»، قال ليحثها على المتابعة.

- مشيت ومشيت. كنا قد توقفنا لتناول طعامنا، وكان الكبار يستريحون. خفتُ أن يرحلوا ويتركوني.

عبس وجهها الصغير، ذو البشرة البنية الناعمة، عند استرجاعها للذكرى. وشعر باو بوخزة من الرعب المتعاطف. لقد ضاع من قبل، عندما أخذه والده

إلى معبد المدينة للعبادة في رأس السنة، وتذكر الزَّحَام الشديد، والرجال بممصانهم المقلَّمة بالفرو وأحذيتهم، ورائحة البخور المحترق التي أدمعت عينيه. ارتفع الخوف بداخله ككتلة خانقة في صدره عندما أفلتت يده يد والده، وانهمرت الدموع من عينيه بخجل حتى عُثر عليه. وكلُّ ذلك كان في مدينة؛ لذا، لم يستطع أن يتخيل كيف شعرت تاغتا وحدها في السهول الواسعة.

قالت: «عندما ظننتُ أنهم قد يتركونني، أصابني الذعر، فركضتُ وركضتُ حتى انزلقتُ قدماي في جُحر غرير. التوى كاحلي، فجلست. وأصابني العطش حتى بدأت أبكي. وحينها ظهر الثعلب».

اعتدل باو في جلسته، وسرى شعور من الإثارة في جسده: «أي نوع من الثعلب؟»

- رأيته يقف على مقربة وسط الأعشاب. ربما كان يراقبني لبعض الوقت. كان ثعلبًا أسود.

- لا يوجد شيء كهذا!

- بلى، يوجد! لقد رأيته بوضوح كما أراك الآن. كان داكنًا جدًّا، بخُطم مدبب وعينين لامعتين. وكان طرف ذيله أبيض.

«حسنًا، ربما هناك ثعلاب سوداء». والآن عندما فكر باو في الأمر، تذكر أن أخاه ذكر أن العثور على ثعلب أسود أو أبيض، كان يُعتبر نذيرًا ويُقدَّم عطية للإمبراطور: «وماذا فعل الثعلب؟»

- نظر إليّ طويلًا، ثم مشى مبتعدًا. فتبعته.

- لماذا؟

- أرادني أن أتبعه. وجعل يلتفت إليّ من فوق كتفه، مثل الكلب.

فتح باو فمه كحلقة من الدهشة: «هل أوصلك إلى حيث كنت؟»

- لا، لم أستطع السير كثيرًا. قلت لك، لقد التوى كاحلي. كنتُ أجلس باستمرار، وخفتُ أن أفقد أثر الثعلب. وفعلاً، اختفى في الأعشاب الطويلة حتى لم أعد أراه.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بدأتُ أبكي مجددًا، لكنه عاد.

- عاد؟

- عاد الثعلب في هيئة رجل.

تورّدت وجنتا تاغتا، وتلألأت عيناها وهي تستعيد ذكرى هذا الحدث: «كان رجلاً طويلاً. نظر إليّ فعرفتُ أنه الثعلب ذاته. ثم حملني على ظهره، وعاد بي».

- هل قال لك شيئاً؟

- لا.

- كيف عرفتُ أنه الثعلب نفسه إذن؟

قالت بعناد: «عرفتُ فحسب. كما تعرف أخاك من مشيته. لقد كان الثعلب، لكن في هيئة رجل».

تحيرَ باو، فقد أراد بشدة أن يصدقها، لكن الجزء المنطقي في عقله اعترض. فسألها: «ماذا كان يرتدي؟ كيف كان شكله؟»

أمالَت تاغتا رأسها وهي تفكر: «ملابس سوداء أو رمادية داكنة. بدت قديمة الطراز بعض الشيء. ولم يكن شعره مخلوقاً من الأمام كعادة رجال المانشو، بل كان شعره» وعبست متفكّرة: «طويلاً، مثل صور رجال سلالتي مينغ أو تانغ؛ مربوطاً من الخلف. لقد بدا مظهره غريباً بعض الشيء».

- ربما كان خارجاً عن القانون أو قاطع طريق؟

قالت معترفة: «فكرتُ في ذلك أيضاً فيما بعد، لكن لم يكن هناك أحد آخر حولنا. لا خيام، ولا أناس، ولا خيول. لا شيء على الإطلاق. على أي حال، حملني على ظهره. كانت ملابسه مغطاة ببذور العشب والشوك، ورائحته كرائحة التربة ممزوجة بعيق المسك».

«كان بإمكانه أن يختطفك!» وتخيّل باو قطاع الطرق يعيشون في مخيمات المتمردين: «أو كان من الممكن أن تُباعي. ألم تشعرني بالخوف؟»

- لا، لم أشعر بالخوف. ربما لأنه كان إلهاً. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً للعودة؛ فقد كان يمشي أسرع مني بكثير. تجاوزنا عدة تلال، ثم سمعتُ أصواتهم. كان أقاربي لا يزالون يكملون وجبتهم ويستعدون للمغادرة، ولم يلاحظ أحد حتى أنني اختفيت. أنزلني الثعلب عندما كنا ما نزال بعيدين عنهم. ثم أوماً برأسه نحوهم، فعرفتُ أنه أرادني أن أذهب وحدي. أمسكت بيده؛ كنت أريد أن تراه أُمي، لكنه رفض أن يأتي. ربما لم يكن يريد هم أن يروه.

- هل أنت متأكدة أنه كان إلهاً؟

«نعم، أو نوعاً من الشين أو الأرواح. أنا واثقة». احمرّ وجه تاغتا مرة أخرى، وعادت إليها تلك البهجة كلما تحدثت عن الثعلب.

- ما الذي يجعلك واثقة إلى هذا الحد؟

«لأنه...» وبدأت عليها علامات الحرج: «...كان مختلفاً. عيناه صافيتان كأعين الكلاب. كنت أعلم أنه قصد أن ينقذني».

- أليس من المفترض أن تكون الثعالب مأكرة؟

شدّت فكها الصغير: «هذا لم يكن كذلك. ثم إنه...» وانخفض صوتها لتهمس: «...كان وسيماً للغاية».

بدأ هذا متوافقاً مع الحكايات التي سمعها باو. فالثعالب تتمتع بمظهر ساحر. ولسبب ما، شعر بوخزة في صدره بينما تابعت تاغتا قائلة: «لم أرَ أحداً يمثل هذا الجمال، رغم أنه كان يرتدي ملابس قديمة وشعره مملوء بالأوراق والعشب».

تذكّر باو اللوحات الجدارية التي صوّرت الآلهة وهم يركبون قوارب من السُّحب، مع حوريات نحيلات بشفاه كرزية وغلّمان يرافقون ملكة السماء الأم. كانت الجداريات مزخرفة بورق الذهب، ووجوه الآلهة محاطة بهالات، وأعينهم نصف مغمضة باسمّة تخفي في طياتها أسراراً دفيئة. لم يكن ذلك يشبه وصف تاغتا لهذا الثعلب الغريب: «هل كان وجهه يلمع؟»

- لا. في الواقع، كان وجهه متسخاً بعض الشيء. وهناك لطخة عليه، لكنني متأكدة أنه لم يكن بشراً.

وبهذا، لم يكن أمام باو إلا أن يقنع بما سمع.

15

أنا لا أؤمن باللعنات.

لكن البشر مولعون بحبّ الأنماط، وإضفاء المعاني على العشوائية. في نظرهم، الماضي يرسم المستقبل، وتصدّع قوقعة سلحفاة في النار قد ينبئ بظهور ملك مستقبلي. أو شيء من هذا القبيل.

كانت سيدتي واثقة جدًا من وجود لعنة تحيط بمتجر الأدوية، مما أثار فضولي. هذه نقطة ضعفنا معشر الثعالب. مثل السحرة الهواة، نتساءل دائمًا عن حيلة جديدة يمكن تعلمها.

قالت: «اسمعي يا آه سان، سأروي لك تاريخ هذه العائلة السري. حينها ستفهمين سبب قلقي على بوهاي».

«كنتُ في السابعة عشرة عندما أرسلت إلى هذا المنزل. لم أكن خيارهم الأول. في الواقع، الزوجات الأولى، والثانية، والثالثة قد توفين جميعًا. أولاهنَّ أثناء الولادة، والثانية بتسمم الدم، والأخيرة بالجدري عندما ذهبَتْ لزيارة والديها. في الأصل، كان متجر الأدوية هذا فرعًا صغيرًا في داليان؛ أما المتجر الرئيسي فكان في موكدن، وكان مشهورًا جدًا. اكتسب المتجر سمعة سيئة بعد فقدانهِ ثلاث كِنات بهذه السرعة. خاصةً أنهم لم يملكوا عددًا كبيرًا من الأحفاد.

تمتلك معظم العائلات العديد من الأطفال، مما يشتت ثروتهم، لا سيما إذا كان هناك الكثير من البنات لتزويجهنَّ أو أبناء يتنازعون على الميراث. لكن هنا، في هذا المتجر، الأمر مختلف. قال البعض إن ذلك يعود إلى صفقة أبرموها. تأسس هذا المتجر قبل خمسة أجيال، عندما كان مؤسسه مجرد بائع متجول يبيع الأعشاب والعلاجات. وبحسب ما يُروى، فقد كان ناجحًا جدًا. ولم يكن لديه سوى ولدان وابنة واحدة.

وما يزيد الأمر عجبًا، أن كل جيل تلاه في هذا المتجر حظي بولدين وبنت واحدة فقط. فيموت الابن الأكبر شابًا، بينما يرثه الابن الثاني. ومع مرور

الأجيال، بدأت الشكوك تتسلل إلى نفوس الناس. فليس من الطبيعي أن تنجب الأسرة دائماً ولدين وبناتاً ما لم تكن تختار عمداً أي الأطفال سيعيش. ومع ذلك، ازدهر المتجر، وأصبح مشهوراً في الشمال الشرقي. لكن الأبناء الأكبر سناً بدؤوا يموتون في أعمار أصغر، ولم يعيش أي منهم بعد سن الرابعة والعشرين». في الجنوب، الرقم «أربعة وعشرون» يُعتبر في اللغة الكانتونية صوتياً مرادفاً لعبارة «يموت بسهولة». وفي اليابانية، يبدو وكأنه «ستموت». كما أن بوهاي يبلغ الثالثة والعشرين هذا العام، وهذا قد يفسر قلقه الدائم.

ثم أردفت: «بحلول الجيل الرابع، بدأت الشائعات تنتشر بعد وفاة ثلاث زوجات مبكراً. وبدأ الناس ينظرون بريبة إلى الأدوية التي تبيعها العائلة، زاعمين أنها مصنوعة من عظام الموتى وشعورهم، وهو ما منحها تلك القدرة العلاجية العجيبة».

قلت: «العظام والشعر لا يشفيان أحداً». فالتعالب لا تذهب إلى المقابر لجمع القوة الحيوية؛ التشي. بل على العكس تماماً.

ابتسمت سيدتي فجأة وقالت: «أنا سعيدة بوجودك معي، آه سان. عندما تكونين هنا، لا أشعر بالخوف».

كان هذا تماماً ما قاله شيرو عن تعلق بوهاي به. فبدأت أشعر بعدم الارتياح. تابعت سيدتي قائلة: «كنتُ الزوجة الرابعة. في العادة، لم يكن يُفترض أن أكون زوجة رسمية. كانت والدتي منغولية، وقدمي لم تكونا مربوطتين وفق تقاليدها. كان بإمكانهم أن يأخذوني محظية فحسب، لكن حماتي المستقبلية فضلت تزويجي رسمياً حتى يكون أبنائي ورثة شرعيين. أظن أنها كانت تعتقد أنني لن أعيش لأكمل العام. كان زوجي يكبرني بكثير؛ يزيد على الأربعين، ولديه طفلان بالفعل. ولد من الزوجة الأولى، وفتاة صغيرة من الزوجة الثالثة. كانت الفتاة صغيرة جداً لدرجة أنها أرسلت إلى أقاربها ليرعوها بعد وفاة والدتها».

ثم أطرقت رأسها، ومن خلال النافذة المفتوحة، رأيت طائراً يتأرجح على غصن رقيق.

«لم أستوعب في البداية سبب قلقهم الشديد بشأن الأطفال. فقد كان لديهم ابن بالفعل، ولد جميل في التاسعة من عمره. ولأن الفارق بيننا كان ثماني سنوات فحسب، فقد كان لي أقرب إلى أخ صغير منه إلى ابن. في البداية، لم

يقترب مني كثيرًا، لكنني كنت معتادة على التعامل مع الفتیان. إذ كنتُ أحظى بأربعة إخوة غير أشقاء، بالإضافة إلى فتى الجيران صديق طفولتي. كنتُ ألعب مع ابن زوجي، ندور النحلة، ونلعب الشطرنج، بل حتى لعبة الجيانزي، التي نتبادل فيها ركل الريشة الطائرة. لم يكن زوجي يحب ذلك، لأن اللعبة أظهرت قدمي غير المربوطتين، لذا لم نكن نلعب إلا عندما يكون خارج المنزل. ومع مرور الأيام، لاحظتُ أنهم كانوا قلقين جدًا بشأن ابن زوجي الصغير. كما أنهم كانوا يتحققون باستمرار ما إذا كنت قد حبلت بعد. وعندما حدث ذلك أخيرًا، غمر الجميع شعور غريب بالارتياح الممزوج بالهوس. لم يعد يُسمح لي بالجري مع ابن زوجي في الخارج. كان طفلًا مسكينًا، لطيفًا جدًا معي. لكنه قال شيئًا غريبًا: «إذا أنجبتِ ولدًا، فلن أعيش طويلًا».

سألته: «لماذا؟»

«هذا ما يقولونه». وبدا عليه الحزن، فقلت له إنني سأنجب له أختًا صغيرة بدلًا من ذلك.

فقال: «أوه لا. إذا هي لن تعيش أيضًا. لن يسمحوا لها بذلك. لدي أخت بالفعل».

سألتُ زوجي عن الأمر. كنتُ أخشاه قليلًا لأنه كان في عمر والدي. فقال لي ألا أستمع لمثل هذا الهراء، لكنني أذكر النظرة التي بدت على وجهه، والظلمة التي مرت خلفهما.

الأمر الآخر الذي لاحظته هو أنه مهما كان ابن زوجي ذكيًا أو حسن التصرف، لم يكن زوجي يمتدحه أبدًا. بدا وكأنه لا يريد أن يتعلق به كثيرًا. وكذلك كان الحال في المنزل بأكمله؛ جميعهم كان يرتقب، يرتقب شيئًا ما. وكنت أنا أيضًا أرتقب؛ الولادة. ومع اقتراب الوقت، ازداد خوفي. توسلت إليهم أن يسمحوا لي بالعودة إلى منزل أُمي لألد الطفل، لكن زوجي رفض. قال إن آخر مرة ذهبتُ فيها إحدى الزوجات السابقات لزيارة عائلتها، أصيبت بالجدري وماتت.

الولادة أمر مرعب، فالعديد من النساء ينتقلن من الحياة إلى الموت في غضون ساعات قليلة دامية. تذكرتُ الألم والفرح المخيف المرتبط بها، وأغمضت عيني بإحكام.

قالت سيدتي: «نسيْتُ أنكِ أنجبتِ طفلًا من قبل. أنا أعتذر».

- لا عليك، تابعي.

قالت: «وهكذا انتظرنا في ذلك المنزل في موكدن. المنزل الرئيسي، وليس هذا. لاحقًا أغلق زوجي ذلك المتجر. ومع اقتراب موعد ولادتي، انتفخ بطني وتورّمت قدماي، فلم أكن أستطيع النوم إلا قليلا. ولم يتمكن ابن زوجي الصغير من النوم أيضًا. قال لي إنه بدأ يراهم».

سألته: «مَن؟»

كنا نجلس تحت شجرة في الفناء، وقد عاد للتو من المدرسة، ووجهه شاحب ومرهق تحت قبعته.

- أولئك الناس الذين بلا ظلال.

ما الذي كان يقصده بذلك؟ يبدو أن «أولئك» كانوا ذوي ظلال باهتة لا تكاد تُرى. في وضوح النهار، لم يكن بالإمكان ملاحظتهم لأنهم يتحركون. لكن في الليل، كان ضوء المصباح الساطع من مصدر وحيد هو أفضل طريقة لملاحظتهم. لا أعلم من أين جاءت هذه الأفكار، لكنها جعلتني أرتجف، رغم أن ذلك اليوم كان شديد الحرارة. وحشرات الزيز صرصرت بلا انقطاع، وكانت الأحجار في الفناء ساخنة يصعب لمسها، ومع ذلك شعرت بقشعريرة وكأن الحمى أصابتني.

سألته: «ما طبيعة أولئك الناس؟»

فأجابني أنهم: «من جميع الأصناف» كان يعتقد أنهم قد ماتوا مؤخرًا، وأنهم يجمعون المزيد من الأشخاص كنوع من العمل لتخفيف عقوباتهم في العالم السفلي. احتضنا بعضنا. وأمسكتُ بيده، فقبض عليها بشدة، بشدة كبيرة. وقال: «أنا خائف».

قلت: «لن يحدث لك شيء». وحاولت أن أواسيه، حين رأيت كم كان مذعورًا. حتى الخدم بدؤوا يتركوننا وحدنا. إذا أنجبتُ فتاة، فمن المحتمل أن تموت. وإذا أنجبتُ ولدًا؛ الابن الثاني، فإن مصير ابن زوجي المسكين سيكون محتومًا. ومع ذلك، لم يقل أحد شيئًا. كان مجرد شعور رهيب بالانتظار، كضغط يتراكم قبل العاصفة.

ضغطتُ سيدتي على يدي، ناسية للحظة أنني لم أكن ابن زوجها قبل ما يقارب خمسين عامًا. كانت يدها صغيرة وجافة.

«لكن هناك أقدار لا يمكن تجنبها...» وخفت صوتها حتى صار همسًا.

بالتأكيد. الولادة موعد لا يمكن التخلف عنه. لحظة ولادة الطفل هي أيضًا اللحظة التي تقترب فيها الأم بشكل خطير من الحد الفاصل بين الحياة والموت.

أخيرًا، حان وقت ولادتي. كانت ولادة عسيرة جدًا. حتى ظننت أنني سأموت. علق الطفل؛ فقد كان وركاي ضيقان جدًا. استمرت الولادة لساعات حتى شعرت بالإرهاك، وبُح صوتي من الصراخ. كانت القابلة تغفو بين الحين والآخر. وفي وقت لاحق، علمتُ أن حماتي فقدت الأمل، وقالت لزوجي إنه سيكون من الصعب العثور على زوجة أخرى إن مت.

وبعد يوم ونصف، أنجبتُ ولدًا. شعر الجميع بالارتياح والفرح، أما أنا فانفجرت في البكاء. وقلت: «كنت أريد فتاة»، متذكرة ابن زوجي، ومدى الرعب الذي سيشعر به عندما يسمع الخبر.

قالت القابلة: «يا لك من حمقاء! لديك ابن الآن. وارث. لماذا تريدين فتاة؟ كنتُ سأغرقها من أجلك». كانت متعبة هي أيضًا، وإلا لما كانت لتقول شيئًا بهذه القسوة.

سألتها: «ماذا تعنين؟»

فأشارت إلى حوض الماء عند طرف السرير: «هذا كان للفتاة».

بعد ذلك، أصابتني حمى شديدة. وبقيت مريضة لأسبوع، ومر كل شيء كأنه حلم.

قلتُ: «وماذا حدث بعدها؟»

«آه». قالت ورمشت بعينيها: «هذه قصة ليوم آخر، يا آه سان. أنا متعبة الآن من التفكير في الماضي. أحيانًا أشعر أنني عشت طويلًا أكثر مما ينبغي». بدت ضئيلة الحجم وهشة. وبينما كنت أعدها للنوم، قالت بصوت حزين: «هل سترافقيني إلى اليابان؟»

- نعم.

لم أكن أنوي التورط في أسرار متجر الأدوية، لكن يبدو أن بحثي عن بكتو نيكان يتجه نحو اليابان، إلى جانب كل المخاوف التي كانت تحملها بشأن بوهاي. لذا ربَّتُ على يدها مرة أخرى وأخبرت سيدتي العجوز ألا تقلق. سأعني بها قدر استطاعتي. وقد كان ذلك وعدًا صادقًا.

16

نزل باو من عربة ثور، ثم صعد إلى عربة الريكشا⁽¹⁾ التي استأجرها
لآخر مرحلة من رحلته إلى قرية وُو. وفقًا لما أخبرته الخادمة، شُغِف بِكُتُو
نيكان بجمال القرية الخلاب وكان يتردد عليها كثيرًا لالتقاط الصور. ربما
يكون مختبئًا فيها هربًا من دائنيهِ. ابتسم باو بمرارة وهو يتخيل المصور
الضخم المنشوري متكورًا في كوخ رطب. بذل باو جهدًا كبيرًا للعثور على
صورة بِكُتُو التي التقطها للغانية تشونهاو حتى يتمكن من تحديد هوية الجثة
المجمدة التي وُجدت على عتبة المطعم.

هذه القضية، بما تحمله من إحياءات عن الثعالب والفتيات المفقودات،
تملأ باو بشعور غريب من العجلة. لديه إحساس غير مريح بأنه يسير في
عالم غامض. لم يعد طفلًا، بل هو الآن رجل تقدمت به السنون، ينطلق في
غابة مجهولة من الأكاذيب وأنصاف الحقائق. وفي مكان ما داخل هذا الدغل
يكن اسم المرأة التي ماتت على عتبة المطعم.

كان حامل الريكشا رشيقيًا معقود العضلات كحبل قديم. يُقال إن العمر
المهني لرجال الريكشا لا يتجاوز الخمس سنوات. فالأفضل منهم يستطيع
الجري أربعين ميلًا في اليوم؛ إلا أنهم في المقابل يموتون فجأة بسبب أمراض
القلب والرئة. حاول باو ألا يفكر في ذلك. فإن لم يستقل الريكشا، فلن يكون
أمامه خيار سوى السير على قدميه، ومَن هو ليحرم رجلًا من مصدر رزقه؟
ألقي باو نظرة حوله. كان الطريق غير المعبد أبيض مغبرًا. وانتشرت حقول
الشعير والذرة تحت السماء الفسيحة، وتناثرت من بعيد منازل الرجال
الأثرياء.

(1) ريكشا: عربة صغيرة تُجرُّ بواسطة إنسان، وتُستخدم كوسيلة نقل تقليدية في بعض
الدول الآسيوية. (المترجم)

سأل حامل الريكشا بينما واصل المسير في الطريق الوعر: «أذهب إلى قرية وُو؟»

- أبحث عن مصور منشوري التقط الصور هناك.

عدّل الرجل عصيّ الريكشا: «لقد نقلته من قبل. رجل ثقيل، يحمل معدات كثيرة».

- أما زال في قرية وُو؟

ضحك الرجل كاشفًا عن أسنانه السوداء: «لا، قال إن لديه دائنين يلاحقونه. أنت لست أحدهم، أليس كذلك؟»

شعر باو بخيبة أمل، لكنه كان يملك أسئلة أخرى. فقد قيل إن الغانية المعروفة باسم تشونوها جاءت من هذا المكان أيضًا: «هل هناك أي فتيات غادرن القرية خلال العام الماضي؟»

- هل تبحث عن فتيات؟ لا تبدو وسيطًا.

هناك دائمًا وسطاء يبحثون عن شابات للعمل في الخدمة أو في المواخير. وغالبًا ما تكون اللعبة مزيّجًا من الإغراء والخداع. هزّ باو رأسه قائلاً: «أحاول التعرف على شابة قد تكون هربت إلى المدينة».

سكت حامل الريكشا، متوقعًا أن الأخبار لن تكون طيبة. ثم قال بعد برهة: «هناك فتاتان غادرتا العام الماضي. تنتشر الأخبار بسرعة في مكان صغير كهذا. لكن إحدهما ذهبت للزواج، والأخرى عادت مؤخرًا، لذا لا يمكن أن تكون إحدهما هي المقصودة».

- من التي لم تعد؟

- ابنة بائع الأقمشة المستعملة.

تحتوي قرية وُو على طريق رئيسي غير معبّد، وعدة أزقة جانبية تحيط بها بيوت من الطوب ذات أسطح مائلة مغطاة بالبلاط التقليدي، مائلة ومنتصبة بجانب بعضها بأسلوب متداخٍ يُشبه البيوت التجارية الصينية. تجرى الأعمال في الطابق الأرضي، حيث تفتح الأبواب المنزلقة لعرض السلال والبضائع الجافة والمسامير الحديدية، بينما تعيش العائلات في الطوابق العلوية. وكما

ابتعد الماشي عن الشارع الرئيسي، ازدادت المنازل تداعياً، حتى تنتهي بالأكواخ الصغيرة المتهاكة المنتشرة باتجاه التلال العشبية.

تنتشر تجمعات من أشجار البتولا على مسافات متباعدة بين حقول بذور اللفت. ويقف معبد صغير قرب نهاية الشارع، حيث تنظر التماثيل الخشبية الحارسة بتجهم تحت الطلاء المتقشر. كان المعبد مكرساً لبوذا، رغم إحساس باو بوجود مزارات الثعالب في هذا المكان.

بدا متجر بائع الأقمشة المستعملة مظلاً بعد شمس الظهيرة الساطعة. لدرجة أن باو رمش بعينه مرتين قبل أن يتمكن من الرؤية. اصطفت صفوف من قماش القطن تغطي الجدران؛ وتغطت الأرضية بكومة ضخمة من الخرق. جلست امرأة بوجه متجعد وحزين على مقعد صغير، تقص الخرق وتعيد تعبئتها لتُباع قطعاً لحشو الأغذية. عندما قدّم باو نفسه، انكمش وجهها فجأة بقلق: «ابنتي؟ ما حلّ بها؟»

شرح باو، بلطف قدر استطاعته، أنه يحاول تحديد هوية جثة فتاة شابة من المدينة تجمدت حتى الموت. قال: «صاحب المطعم الذي عثر عليها عند عتبة يرغب في إقامة شعائر جنازية لأجلها».

هزت المرأة رأسها بشدة وقالت: «لا! تلك ليست ابنتي».

بدت مضطربة؛ وشعر باو بالأسف لإحضاره مثل هذه الأخبار: «هل كان لابنتك أي علامات جسدية مميزة؟»

- كانت مثالية، بلا علامات على الإطلاق. جميلة وممتلئة الوجنتين، وصاحبة شخصية قوية. هربت مع بائع متجول معسول الكلام من جيلين، لذا لا يمكن أن تكون قد ماتت الآن.

- كم كان عمرها؟

«تسعة عشر عاماً. كنتُ مخطئة في توبيخها. قلتُ لها إن ذلك الرجل لا يُناسبها، وأنه من الأفضل أن تبقى في المنزل». وعضت شفتها بشدة: «تلك الفتاة التي وُجدت، ما الذي يجعلك تعتقد أنها ابنتي؟»

- كانت تعمل في حيّ المتعة. قال أحدهم إنها جاءت من قرية وُو.

لم يكن هناك طريقة لتلطيف هذه الحقيقة، وقد كان التأثير، كما خشي باو، فورياً. تضرّج وجه المرأة بالحُمرة، وأسقطت المقص بصوت مكتوم.

- هناك قرى أخرى تحمل أسماء مشابهة، إلى جانب ذلك، كانت هناك فتاة أخرى من هنا ذهبت إلى المدينة قبل ثلاث سنوات. ابنة العجوز وُو؛ هي التي أصبحت بغياً. أما ابنتي فهي متزوجة في جيلين. توجهت عيناها إلى الجزء الخلفي من المتجر حيث أزيحت الستارة المتسخة عن الباب، فظهر رجل غاضب بعينين قاسيتين: «لقد سمعتُ ما يكفي! نتحدث عن المواخير والبغايا... كيف تجرؤ على نشر قصص عن عائلتنا؟»

قال باو: «ألا تخبرني باسم ابنتك على الأقل؟» لكن وجه الرجل تجهّم بحنق.
- اخرج!

توقف باو خارج المتجر. ومن خلف المصاريع الخشبية، سمع نحيباً طويلاً متهدجاً. كانت المرأة تبكي، بينما كان زوجها يصرخ. عبس باو؛ فالوخزة التي شعر بها في صدره سابقاً ازدادت سوءاً. وأخذ أنفاساً قصيرة حتى خف الألم. لم يكن يحب التنصت، لكنه قطع كل هذه المسافة ولم يعرف بعد الاسم الحقيقي لابنتهما. وبينما كان يسير على طول جانب المتجر الطويل والمظلم، مال إلى النافذة. وتسلفت إليه مقتطفات من المحادثة.

«...من الأفضل أن تتأكدي أنها ليست هي.»

علا صوت الأم مشحوناً بالتوتر: «أنا متأكدة أنها ليست هي. لا يمكن أن تكون!»

«إنه بسبب ذلك الثعلب. آه يان!» رفع الرجل صوته موجهاً كلامه لشخص آخر: «قلت لك ألا تجلبيه إلى المنزل! كان يجب أن أقتله بنفسي.»

ثم سمع صوت صفعة. تلاه بكاء مكتوم، وخطوات سريعة تجري. فُتح الباب الخلفي بعنف، واندفعت فتاة إلى الخارج، بدت في الثالثة عشرة من عمرها، بشعر مصفور غير مرتب ووجه منتفخ ومبلل بالدموع. وعندما رأت باو، اتسعت عيناها، وأمسكت بكمه وجذبتة بعيداً عن المنزل.

«عمي!» خاطبته بصفته كبيراً في السن: «ما الذي حدث لأختي؟»

عبس وجه باو بأسى. ربما كان وجهه البسيط الصادق هو ما جعل الفتاة تجرؤ على سؤاله. سارا بصمت بعيدًا عن المتجر، عبر طريق متعرج يقود إلى منطقة مهمة وممتلئة بالأعشاب. كانت الفتاة تتنفس بصعوبة، تحاول كبت شهقاتها. وعندما ابتعدا عن الشارع الرئيسي، توقفت. وخلف تعبيرها المتوتر، استطاع باو أن يلمس خوفها الكامن.

- هل تعتقد أنها أختي؟

«ليس لدي الكثير من المعلومات لأعتمد عليها». تنهد باو وجلس على صخرة. من المحتمل أنها سمعت كل ما دار من حديث في المتجر. قالت الفتاة: «لقد هربت أختي العام الماضي. ولم نسمع عنها شيئًا منذ ذلك الحين».

يتشابه الأطفال والحيوانات البرية من نواحٍ عديدة؛ إذا جلست، سيقترّبون منك ببطء. قال: «اسمي باو. لقد استأجرني صاحب المطعم للتحقيق في هذا الأمر».

«أنا آه يان». ثم نظرت بعيدًا وأردفت: «ليس هناك الكثير لأخبرك به. وقعت أختي في حب بائع متجول يبيع أشربة الزينة ودبابيس الشعر. كانت تكره العيش هنا، خاصة بعد أن حاول أبي تزويجها بجزار الخنازير. إنه رجل طاعن في السن، وتفوح رائحته كأنها لحم متعفن. قالت أختي إنها لن تتزوجه أبدًا. كانت دائمًا هائمة بأحلامها العاطفية، وكانت تريد رجلًا وسيماً».

تأملت آه يان في الأغصان الرقيقة فوق رأس باو. لم تكن الأوراق قد نمت بعد، فكانت تلقي بظلال خافتة ترتعش مع النسيم: «كانت أجمل فتاة في المنطقة. لو كان هناك من يستحق زواجًا سعيدًا، لكان يجب أن تكون هي، لكن لا يوجد الكثير من الشباب في هذه القرية. فقد رحلوا إلى المدينة بحثًا عن عمل. أما من بقي هنا، مثل جيانغ، فقد ارتبط بالفعل».

- من هو جيانغ؟

- صياد. كان من المفترض أن يتزوج أختي. كانت تحبه، لكنه خطب صديقتها بدلًا منها. تمتلك عائلتها بعض الأراضي، لذا لا بد أنه اعتبرها صفقة أفضل. حينها تحطّم قلب أختي وأصبحت متلهفة للزواج وترك هذه القرية، لكن لم يكن هناك الكثير من الخيارات هنا. لا أعتقد أن

البائع المتجول كان وسيماً جداً، لكنه كان ليّن الكلام. رفض أبي الأمر، ووافقته أمي على ذلك. ولم يعتقد أحد أنها ستهرب.

- هل كنتِ تعلمين؟

هزّت آه يان رأسها: «لم تقل لي شيئاً. لكن في الليلة التي سبقت رحيلها، أخرجت ثاني أثوابها المفضلة وأعطتني. ثم مشطت شعري وضفّرت. كانت متقلبة المزاج أحياناً، لكنني أفنقتها. أمل أن تكون قد تزوجت في مكان ما وأنجبت طفلاً. أنت لا تعتقد أنها هي، أليس كذلك؟»

رأى باو أن هذه التفاصيل تتطابق بشكل مقلق مع ما أخبرته به تشيولان عن الغانية تشونهو التي جاءت من هذه القرية، بعد أن باعها أحد القوادين. أقلقت تعابيره الحزينة الفتاة التي بدأت تعض شفتها حتى ابيضّت.

قال بصدق: «لا أعلم، لكنني سأبذل قصارى جهدي لمعرفة الحقيقة».

- أبي يقول إن الخطأ خطأي، لأنني سمحت للثعلب بالدخول إلى البيت. الثعالب مجدداً. انحنى باو نحوها وقال: «هل لهذا علاقة بالمصور المنشوري الذي كان هنا؟»

اتسعت عينا آه يان: «كيف عرفت؟»

- سمعتُ أنه حاول شراء فرو ثعلب في هذه القرية.

- هناك ثلة خلف القرية تُسمى ثلة الثعالب. منذ زمن بعيد، كانت تظهر هناك ثعالب سوداء وبيضاء. يتجنب معظم السكان المحليين الذهاب إليها، لكن المصور قال إنه سيدفع بسخاء مقابل ثعلب. ولم يقبل أحد عرضه سوى جيانغ.

- الذي لم يتزوج أختك؟

عبست وقالت: «نعم. كان ذلك قبل شتاءين. ذهب جيانغ للصيد، لكنه لم يتمكن إلا من استخراج جرو ثعلب من جُحره. فأحضره إلى النُزل حيث كان يقيم المصور وألقاه على الطاولة. كنت هناك مع أختي حين ذهبَت لشراء الشعيرية، لكن في الحقيقة أعتقد أنها كانت تودُّ رؤية جيانغ. ففي ذلك الوقت، كانت لا تزال تأمل أنه يبادلها الإعجاب».

أوماً باو برأسه متعاطفاً. وتذكّر عندما كان شاباً، وكيف كانت لمحة من وجه إحداهن كفيلة بجعل قلبه ينبض بشدة.

أكملت: «لم يكن الموسم مناسبًا لجراء الثعالب، لذا لا أعلم كيف حصل عليه. قال المصور إنه لا يستحق المال لأنه لم يكن أبيض، لكن جيانغ قال إن جميع الثعالب تولد داكنة. كانوا يتعاملون معه بقسوة، يتقاذفونه ذهابًا وإيابًا». واحمرَّ وجهها المربع غضبًا: «حصل جيانغ على أجره، لكن أقل مما كان يأمل. وخشيتُ حينها أن يموت الجرو. كان فراؤه ناعمًا كالحرير وكان يرتجف. انفجرتُ في البكاء، فقالت لي أختي ألا أثير الجلبة. جاء المصور ليتحدث إليها. وكما قلتُ لك، كانت جميلة، وكانت تعرف ذلك. في النهاية، قال إنه سيعطيني الجرو إذا سمحت له بالتقاط صورة لها».

أنصت باو باهتمام. إذن، ربما كانت الشائعات صحيحة وأن يكتو كان يبحث عن الفتيات أحيانًا للعمل في المواخير. من المحتمل أن البائع المتجول الذي أخذها في العام التالي كان قد تلقى توصية منه، لكن باو لم يرغب في ذكر ذلك لآه يان.

سأل بلطف: «ماذا حدث لجرو الثعلب؟»

ارتجف صوت آه يان وهي تقول: «هل تعتقد أن إحضاري له إلى البيت كان نذير شؤم؟ الجميع قالوا ذلك عندما هربت أختي لاحقًا. وحدثت أشياء غريبة أخرى أيضًا، مثل السيدة التي جاءت من أجل الجرو، وأيضًا سوء حظ جيانغ».

- عن أي سيدة تتحدثين؟

«أخذتُ الجرو إلى المنزل ووضعتُه في صندوق خشبي بجانب الموقد. وعندما عاد أخي الثاني، فحصه وقال إن ساقيه مكسورتان. ثم قال إن أحد أصدقائه التقى بامرأة غريبة تمشي من المروج الشمالية باتجاه قريتنا. كان ذلك وقت الغسق فلم يتعرف عليها. قالت له: «أبحث عن حيواني الأليف. هل سمعت عن أحد أخذ جرو ثعلب؟»

أجابها أن جيانغ قد أخذ جروًا من جُحره سابقًا، لكنه لا يمكن أن يكون حيوانها الأليف لأنه كان ثعلبًا بريًا. بعد ذلك، لا بد أنه أغمي عليه، لأنه وجد نفسه مستلقيًا في الثلج بمفرده. وخشيتُ أمي أن تكون تلك المرأة هوليجينغ؛ روح الثعلب. كنتُ محظوظة أن والدي لم يكن في المنزل تلك الليلة، وإلا لكان قد ألقى بالجرو في الثلج. قال أخي الثاني إن صديقه ربما كان مخمورًا، وضحك الجميع. لكنني لم أجد الأمر مضحكًا، ليس في الليل، مع تساقط الثلوج».

تخيل باو هذه القرية الريفية في ليلة شتوية. حيث تعصف الرياح الباردة بقوة؛ ويمتلئ الهواء برقائق الثلج المتطايرة. وتكتسي النوافذ بالورق، وتُغلق المصاريع لإبعاد الظلام.

«في اليوم التالي، كان البرد قارسًا. كنت أحفر لاستخراج جرة من المخللات من الأرض الفارغة حيث ندفنها، عندما سمعت صوت الثلج يتكسر تحت خطوات شخص يقترب. لدهشتي، كانت امرأة شابة لم أرها من قبل. ترتدي سترة قطنية محشوة تعود لرجل، وسروالين غير متطابقين. لم تكن تنتعل حذاءً، حتى في الثلج. لم أستطع التوقف عن التحديق فيها. لم أر شخصًا مثلها من قبل. كانت عيناها داكنتين لامعتين، وملامحها جميلة، وأهدابها كأهداب الغزال.

ابتسمتُ لي ابتسامة باهتة، وكأنها كانت تبكي. قالت: «أبحث عن جرو ثعلب. سمعتُ أن هناك من لديه واحد في هذا الحي».

لو لم تبدُ حزينة كما كانت، لشعرتُ بالخوف. لقد حذرتني عمتي من الغرباء الذين يتحدثون عن الثعالب، لأنه لا يمكن معرفة ما قد يكونون. سألتها: «لماذا تريد أن تعرفي؟»

- إنه لي، إنه... حيواني الأليف. سمعتُ أنه مصاب.

وكما أطلت النظر إليها، ازداد تسارع نبضات قلبي. قلت بحذر: «لدينا جرو ثعلب في منزلنا. أنقذته من المصور».

كانت تعابير وجهها مزيحًا من الرعب والأمل. لم أر أحدًا يرغب في شيء بهذا القدر من قبل. بدا الأمر أشبه بشعلة خلف عينيها. توسّلت: «أرجوك، أرجوك، أحضره لي».

تحدثتُ بلغة مهذبة لكنها قديمة. لسبب ما، لم ترغب في دخول منزلنا. لذا ركضتُ إلى الداخل، تاركَةً إياها واقفة في الثلج، تلوي يديها بقلق. كانت يداها نحيفتين ورقيفتين، دون خواتم أو مجوهرات.

وتمنيت في سرّي: «أرجوك، لا تمت أيها الجرو»، بينما أخرجه من الصندوق. كان يبدو واهنًا للغاية، وشعرتُ برغبة في البكاء، وكأن كل ذلك كان بسببي. لففتُ الجرو المسكين في وشاحي. وبينما كنتُ أحمله للخارج، أوقفتني أُمي: «إلى أين تذهبين بهذا الحيوان، ملفوفًا في وشاحك الجيد؟»

- لقد جاءت سيدة من أجله. تقول إنه حيوانها الأليف.

عبست أُمي وقالت: «أليس هذا جرو ثعلب بري وُجد في جُحره؟ من هي هذه السيدة؟»

تبعنتني أُمي إلى الخارج. وما إن رأت السيدة اللفة بين ذراعي حتى أطلقت صرخة وتقدمت نحوي. ثم رأت والدتي وقالت: «سيدتي، شكرًا لك على إنقاذ جروي».

خشيتُ أن تبدأ أُمي في طرح أسئلة محرجة، لكنها توقفت بفم فارغ، ووجه فارغ. ولما بدا من قلق على وجه السيدة، سلمتها الجرو ملفوفًا بوشاحي. بدت وكأنها ستبكي وهي تحتضنه بحنان رغم إحكام قبضتها عليه.

قلتُ لها: «أنا آسفة حقًا»، وشرحتُ لها عن المصور المنشوري بكتو نيكان. استمعت باهتمام شديد وطلبت مني وصفه. وبعد أن شكرتنا مرة أخرى، غادرت وهي تحمل الجرو بحنان وتمشي بخطوات سريعة ثابتة لدرجة أننا بقينا نحدق إليها وهي تبتعد. في وقت لاحق، قالت أُمي إنها لا تستطيع أن تتخيل من أين جاءت».

قال والدي: «لماذا تنادينها بالسيدة؟»

توقفت أُمي بوجه خالٍ من التعبير وقالت: «لا أعلم، لقد شعرت أنها كذلك». قال: «ربما تكون روح ثعلب؛ قلت لك إن إحصار هذا الجرو إلى البيت لن يجلب خيرًا!» ثم تجادلا مجددًا. وقال إخواني إنها ربما كانت وسيطة محتالة خدعتني لأعطيها الجرو. غضب والدي وقال إنني كان يجب أن أطلب المال. فنظرتُ إلى أُمي، لكنها أشاحت بوجهها عني، وكأنها بدأت تنسى. لكنني لم أنسَ.

صمتت آه يان، وعيناها تلمعان.

ذُكره وجهها المتأثر بصديقة طفولته، تاغتا، ولقائها مع الإله الثعلب. شعر باو بوخزة غيرة لا يمكن تفسيرها في صدره.

سألها: «لقد ذكرتُ أن شيئًا ما حدث لجيانغ، الصياد الذي جلب جرو الثعلب، أليس كذلك؟»

«نعم». قالت وتغيرت تعابيرها إلى الخوف: «لقد مات».

بمجرد أن قررت سيدتي مرافقة بوهاي إلى اليابان، تسارعت وتيرة الأحداث. مُلئت رُزم من الأوراق الرسمية وخُتمت. لطالما كنتُ حذرة من الوثائق الرسمية؛ فالثعالب مثلنا ترتعب من البيروقراطية لأننا مشرّدون بلا وثائق. تساءلتُ كيف تمكّن شيرو من إعداد هويته الحالية بصفته «شيراكاوا». ربما استولى عليها من ضحية متوفاة أو ربّحها في مقامرة. أثارت أفكارى عن شيرو العبوس في وجهي. كنتُ أمل أن يغيّر رأيه ويذهب إلى مكان آخر، لكنه بدا مصمماً على البقاء بجانب بوهاي كما فعلت سيدتي العجوز.

«آه سان»، قالت وهي تشير إلى الموظف الرئيسي: «عليه أن يملأ بياناتك الشخصية».

كنتُ أخشى هذه اللحظة.

- مكان الولادة؟

- تشيتشيهار.

وهي أبعد حتى من كيرين؛ معظم الناس لم يسافروا إليها.

- العمر؟

كم أبدو من العمر؟ قلت: «اثنان وثلاثون»، ثم خفضت الرقم عندما لمحت نظرة الدهشة على وجه الموظف: «أعني، ثلاث وعشرين. ها ها...» يالأسف، فالثانية والثلاثون أفضل بكثير من الثالثة والعشرين في نواحٍ عديدة.

لاحظتُ أنه كتب «عزباء» ولم أكرث لتصحّحه. بدلاً من ذلك، نظرتُ إلى الأوراق التي قد فرغ من ملئها. كانت أوراق سفر سيدتي، ووفقاً للوثائق، بلغ عمرها ثلاثة وستين عاماً. لمحتُ ملاحظة إلى جانب اسمها الرسمي بالصينية: اسمها بالمنغولية «تاغتا».

«تاغتا»، تعني «حمامة». يا له من اسم غير مألوف. تساءلت أكانت والدتها هي من سمّتها بهذا، ولم احتفظتُ به طوال هذه السنين.

قال الموظف الرئيسي: «ما اسمك؟» وبدأ عليه نفاد الصبر، فأدركت أنه قد سألني مرتين.

ترددت للحظة: «آه سان»، وهو الاسم الذي قررت زوجة صاحب متجر الأدوية أن تناديني به عندما وظفتني، ويعني ببساطة «الرقم ثلاثة». كرهت فكرة الصعود على متن سفينة كرقم. لربما كان هذا آخر سجل لوجودي؛ لذا من الأفضل أن أستخدم اسمي الحقيقي في حال انقلبت بنا السفينة وغرقنا. أخبرتك سابقاً أن الثعالب تكره المياه المفتوحة.

قلت: «سنو».

تم تأكيد رحلتنا على متن باخرة متجهة من ميناء آرثر إلى اليابان. سنمر عبر مرفأ موجي، الواقع في الطرف الشمالي من فوكوكا والذي طُوّر لشحن الفحم. تفاجأت لسماع هذا. لماذا لا نتجه مباشرة إلى يوكوهاما؟ يبدو أنها فكرة بوهاي.

قال بوهاي: «سنزور صديقاً في موجي لمناقشة بعض الأمور التجارية». كان بوهاي قد اتخذ وقفة العالم التقليدية؛ قدماه متباعداً ويداها مشبوكتان خلف ظهره أثناء حديثه. لم أتمالك نفسي عن الضحك، فعبس في وجهي.

سأل بوهاي: «كم ستبقين في اليابان يا جدتي؟»

- «ما دُمت تحتاج إلي».

كنت أستمع إليهما خلصة. وأثار هذا التأخير في الوصول إلى يوكوهاما قلقي. فبعد كل شيء، قيل إن يكتو نيكان قد ذهب إلى هناك، وكنت أرغب في إنهاء مسألتني معه بسرعة. ورغم أنني لم أستطع رفض هذه الرحلة المجانية. فإنه لم يرق لي الكثير من المتغيرات غير المتوقعة.

كان من الواضح أن السيد لم يكن سعيداً بسفر والدته. علمت ذلك حين وقفت خارج نافذة غرفة مكتبه المفتوحة، متظاهرة بسقي بعض النباتات.

قال السيد: «أمي، دعيني أبقى بوهاي في المنزل، عندها لن يحتاج أي منكما إلى السفر».

قالت: «منذ أن أخبرتني عن الطفل، كنت تعلم أن الأمر سيصل إلى هذا».

- إذا كانت فتاة، فلا بأس.

«لكن إذا كان صبيًا... ألم تخبر جينغوا بعد؟» جينغوا اسم زوجته.

ساد الصمت. ووقفتُ على أطراف أصابعي لأقترب من النافذة.

- إذا، كلما أسرعْتُ في المغادرة مع بوهاي، كان ذلك أفضل. أنت تعلم أنها ستكون غاضبة.

- أمي! ألا تساعدني في التعامل معها؟

ردَّت سيدتي: «أنتَ رجل بالغ الآن. لكنني سأعتني ببوهاي قدر استطاعتي».

ثم سمعتُ صوت إغلاق باب المكتب على إثر خروجها، فتراجعتُ سريعًا وتظاهرتُ بسقي النباتات. يبدو أن لدى الجميع أجندة سرية لهذه الرحلة.

أكره توضيب الأمتعة، لكنه شيء آخر دربت نفسي على القيام به سريعًا. وُضِبَت ملابس سفر سيدتي واحتياجاتها الأخرى بعناية في صندوق من الخيزران. أما أنا، فلم يكن لديّ سوى القليل. طقمان من الملابس القطنية، وزوج من الأحذية القشّية. إلى جانب بعض الفراشي، والحبر، وورق الكتابة لهذه اليوميات. اتَّسعت كل أمتعتي في سلة الخيزران، التي أهدتني إليها سيدتي، بعد أن أصيبت بالذهول عندما علّمت أنني كنت أخطط لوضع كل شيء في مفرش قديم.

قالت بتنهيده: «أنتَ حقًا لا تبالين بمظهرك»، ثم أضافت: «هل أنت متأكدة أنك لا تمانعين مرافقتي؟»

- بالطبع لا! أريد الذهاب إلى اليابان.

لم أكن أمزح. لقد مر وقت طويل منذ زيارتي لأرض ياماتو. من الرائع أنني حصلت على رحلة مجانية على متن باخرة، لكن كان سيكون أفضل بكثير لو لم يكن شيرو في الرحلة أيضًا. أرجو أن يقع عن جانب السفينة ويغرق.

البخرة التي سنستقلها تُدعى شينانومارو. كانت بريطانية الأصل، ثم بيعت لشركة شحن يابانية وأعيد تجهيزها. طُلّي قاع السفينة بالأحمر الداكن، ثم بالأسود إلى خط أبيض يمتد على ارتفاع ثلثيها. لم أركب سفينة بهذا

الحجم من قبل. كانت السفن الأخرى التي ركبناها أقرب إلى أحواض غسيل بالمقارنة، وقد أدهشني خلوها من الأشعة.

وصلنا الميناء في صباح مشرق تفوح منه رائحة الأعشاب البحرية والسمك المتعفن. إلى جانب بوهاي، كان من بين ركابنا تشين ولوو، وهما طالبان عائدان أيضًا إلى اليابان. احمرَّ وجه تشين عندما تلاقت أعيننا؛ فلم يمض وقت طويل منذ أن عرض عليّ «العمل» في خدمة عمته. وكما هي العادة، جاء بعض الأقارب لتوديعهم، فتبادلوا المصافحات وقطعوا الوعود بالبقاء على تواصل. كان الشبان متحمسين للرحيل، ومن بينهم شيرو.

لخيبة أُملي الكبيرة، ظهر شيرو ومعه صندوقان ضخمان، وحاشية من النساء المتيّمات لتوديعه. كانت إحداهن أرملة تاجر مرموق، وأخرى سيدة ذات مظهر شغوف ترتدي الفراء، أما الثالثة فكانت عشيقة ممول روسي. ترتدي حذاءً جلدًا لامعًا مع أشرطة بأزرار عند الكاحل، وعندما ظننت أن لا أحد ينظر، انزلت يدها تحت سترته المفصّلة وضغطت على خصره بحزن. يا لها من مسكينة. أو ربما يجب أن أقول «مسكينات». على أي حال، جميعهنّ نساء ناضجات، وقلوبهنّ مسؤوليتهن. أو على الأقل، كنّ ما يزلن على قيد الحياة.

تشارك بوهاي وجدته مقصورة من الدرجة الثانية، وكذلك تشين ولوو أما أنا، فكانت لي حجرة في الدرجة الثالثة، لكن لم أتمكن من الاستمتاع بتذكري المجانية، إذ سرعان ما أصبتُ بدوار البحر الشديد بمجرد أن أبحرت السفينة. للأسف، من المعروف أن الثعالب تتأثر بالماء بشكل خاص. وكل ما كنت أفكر فيه، بينما أراقب فطائر البصل الأخضر التي تناولتها في الإفطار تختفي فوق حافة السفينة في رغوة المياه المتلاطمة، هو أنني لن أتمكن أبدًا من اجتياز الرحلة التي تستغرق يومين إلى موجي.

اقتربت سديتي وسألتني: «آه سان، هل أنت بخير؟»

طمأنتها بأنني أعاني من دوار البحر، ثم ترنحتُ عائدة إلى حجرتي. كانت الدرجة الثالثة مقسمة إلى رجال عازبين، وعائلات، ونساء عازبات، حيث فصلت السفينة بين الجنسين من باب الحفاظ على الأدب. مرّ اليوم وأنا أخوض معركة مع دوار البحر والغثيان. ومع ذلك، بحلول وقت العشاء،

شعرتُ بجوع شديد ينهش أحشائي. أُجبرت نفسي على النهوض من سريري الضيق وابتلعت بمرارة كل ما وضعوه لي في صالة الطعام المشتركة. لكن بعد عشر دقائق، هرعت مرة أخرى إلى السطح لأتقيأ كل شيء.

بعدها بقيت متكئة على الحاجز، مكتئبة. كان الغسق يقترب، فبدا بحر الصين الأصفر داكنًا ومتجمعًا كملاءة منتقعة بالعرق.

- لا يُسمح لركاب الدرجة الثالثة بالتواجد على هذا السطح.

لم أكلف نفسي عناء الالتفات: «انصرف يا شيرو».

- سأفعل. إلى مقصورتي في الدرجة الأولى.

- لحسن حظك. من الذي دفع ثمنها؟

تجاهل سؤالي، وقال: «هل تناولت شيئًا؟ آه، نسيت، لقد تقيأت كل شيء مجددًا».

- وأنت كذلك، على الأرجح.

- لكن بإمكانني طلب خدمة الغرف.

شعرتُ بالضيق. فقلة الطعام تشكل خطرًا على الثعالب.

قال شيرو: «تعالى إلى مقصورتي. لدي عرض لك».

كل شيء كان أفضل في الجزء المخصص للدرجة الأولى من السفينة، بدءًا من الممرات (الأوسع)، والأرضيات (ذات خشب الجوز مع بساط مثبت بمسامير نحاسية)، والإضاءة (من مصابيح أنيقة بظلال زجاجية). كانت مقصورة شيرو بحجم مقصورتي في الدرجة الثالثة، ولكن دون الأسرة الطابقية الثمانية. بل كانت تحتوي على سريرين صغيرين وطاولة طعام مع كرسيين، وكلها مغطاة بديباج فاخر. لكن أكثر ما أسعدني هو الكوة الدائرية، التي يمكن فتحها.

سألته بينما كنتُ أحاول التعامل مع القفل الصلب: «أين رفيق مقصورتك؟»

همس شيرو بإغراء في أذني: «ليس لدي رفيق... حتى الآن».

وأسند ذراعيه على جانبيّ ودفع النافذة بقوة. فُتحت النافذة مع هبة من الهواء البارد المالح. فجعلني الهواء النقي أشعر بتحسّن كبير، مما أتاح لي التملص من تحته والجلوس إلى الطاولة.

قلت: «شيرو، كف عن التصرف كزير نساء رخيص. دعنا نطلب خدمة الغرف وندخل في صلب الموضوع».

تنهد وهو يفتح قائمة الطعام أمامي: «اطلبي ما تشائين».

اخترنا شرائح اللحم وقطع الضأن المشوي وسمك الحفش ولحم الخنزير المشوي، ثم سألته: «ما الذي تريد مناقشته؟»

قال رافعاً حاجبيه: «ألا تريدين الدردشة قليلاً أو السؤال عن أحوالي؟»

«ذكر أودا أن الناس كانوا يموتون بطرق غامضة في الأزقة. هل لذلك علاقة بك؟» راودني شعور سيئ تجاه تلك الإشاعة منذ سمعتها. لا ينبغي للثعلب الفاضل أن يفترس البشر؛ فمثل هذا التصرف هو ما يجعلنا نُطارَد ونُسلخ.

قال: «يا للوقاحة! وكأنني سأكون مهملاً إلى هذه الدرجة». بالطبع كان سيفعل. لا يجب أبداً الوثوق بشيرو، لا سيما عندما يبدو مسترخياً. كما أنه بارع في تغيير المواضيع، مما زاد من شكوكي: «سمعتُ أن تشين حاول توظيفك مؤخراً».

- نعم، من أجل «عمته».

- إنه مفتون بك جدّاً. أريدك أن تقنعي تشين بالتخلي عن دراسته في طوكيو والبقاء معنا في موجي.

- ماذا؟ ألسنا جميعاً ذاهبين إلى طوكيو؟

اتكأ شيرو إلى الخلف، معجباً بانعكاس صورته في نافذة الكوة. كان الظلام قد حلّ في الخارج، ولم يبقَ سوى رائحة البحر الحادة وصوت محركات السفينة المنتظم الذي يذكّرني أننا في رحلة. قال: «لن نذهب. قرّر بوهاي، وتشين، ولوو التخلي عن دراستهم. يخططون ليصبحوا ثواراً، يدعمون الإطاحة بحكومة تشينغ الإمبراطورية».

قلتُ غاضبة: «ألم تحاول إيقافهم؟» سينفطر قلب سيدتي إن علمت بذلك.

«إذا أرادوا بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل مجتمع جديد، فأقصى ما أستطيع فعله هو تقديم نصيحتي». ونظر إليّ بتمعن: «أعدك أن أحسن التصرف. اقتربي من تشين، وأقنعيه بالبقاء مع بوهاي ولوو بدلاً من تغيير رأيه، فهو متردد. عائلته هي الأكثر ثراءً بينهم، لكنه يخاف والده، السيد تشين الكبير».

- وماذا سأجني من ذلك؟

«يكتو نيكان». وانتظر شيرو ليرى إن كنتُ سألتقط الطعام: «تشين ولوو أيضًا يعرفانه. ألا تريدان معرفة كيف يعرفون بعضهم؟ أستطيع إحضاره لك في موجي... إذا أردت».

ثم طرّق الباب.

قال شيرو: «حان وقت الطعام». وابتسم بشراهة، فتذكرتُ أنه يجب ألا أقلل من شأنه.

سأل باو: «جيانغ، الصياد الذي أحضر جرو الثعلب، مات؟»

أومأت آه يان بتوتر: «اختفى خلال رحلة صيد. قبل مغادرته، كانت هناك شائعات بأن غريبًا سأل عنه... ظنَّ جيانغ أنه مُحصِّل ديون، لذا ذهب إلى البرية ليصطاد حيوانات السمور. لكنه لم يعد أبدًا. عثرت فرقة بحث على جثته بجوار نار مخيم خامدة وكان هناك قتالًا قد دار. لقد قُتل جيانغ بسكين صيده. لم يُسرق شيء، ولا حتى جلود السمور الثمينة التي كان قد نشرها. قال والذي إنه ربما يكون قد تعرَّض لهجوم من قُطَّاع طرق، أو ربما كان تسوية حساب قديم بينه وبين أحدهم، لأن جيانغ كان رجلًا لعبًا. لكنني تساءلت أكان للمرأة الغريبة التي جاءت من أجل الجرو علاقة بالأمر، لأنها سألت عن الذي اصطاده، فأعطيتها اسم جيانغ وبكتو نيكان. شعرت بالذنب الشديد! قال أخي الثاني إن جيانغ كان قويًا ومتمرسًا. لا يمكن لامرأة أن تتغلب عليه أو تثبته بسكينه، لكن ماذا لو كانت شين؟»

شعر باو بالانبهار من هذه القصة الغريبة. لكنه اتفق مع الرأي القائل إن القاتل كان صيادًا آخر له ثأر مع جيانغ: «يجب ألا تلومي نفسك. لقد قمت بعمل جيد بإنقاذك جرو الثعلب».

ارتسمت الراحة على وجهها المبلل بالدموع: «وأختي التي هربت؛ أنت لا تعتقد أنها ماتت، أليس كذلك؟ ربما لم ترسل أي رسالة لأنها تخشى والدي». لم يثق باو في قدرته على الرد. فالتفاصيل التي قدمتها تشيولان عن صديقتها المفقودة من بيت الهوى تتطابق بشكل مريب: ابنة بائع أقمشة مستعملة؛ أغراها قواد بحلو الكلام؛ حتى إنها لم ترغب أن تُعلم أختها الصغيرة. لم يعد باو بحاجة إلى التحقق من الصور التي التقطها بكتو. غمره شعور بأن الفتاة التي يبحث عنها هي بالفعل الفتاة المفقودة.

بدت آه يان قلقة وهي تسأل: «ما الخطب، يا عم؟ هل تشعر بالمرض؟»

قال باو وهو ينهض متنهّدا: «آه، لقد بدأتُ أشيخ، هذا كل ما في الأمر». وضغط بيده على صدره، ذلك الألم مجدداً: «سأبذل جهدي لمعرفة ما حدث. بالمناسبة، ما اسم أختك الحقيقي؟»

- فينغ. اسمها فينغ. هل تظن أنها سعيدة، أينما كانت؟

تذكر باو وصف غُو للجنة التي وُجدت عند عتبة بابه، وتعابير الفرحة الغريبة التي ارتسمت على وجهها المتجمد. فأوماً لها بعطف.

كانت رحلة العودة من قرية وُو طويلة ومرهقة؛ أمضى باو وقته في قراءة كتاب شعر. لم يكن يرغب في التفكير بالفتيات الميتات اللاتي جذبتن الحياة الغرورة بعيداً عن القرى أو بالأخوات الصغيرات اللاتي لا يزلن ينتظرنهن. بعد أن نقع جسده في ماء ساخن في الحمام العام (حيث يمكنك مقابل رسوم بسيطة أن تستحم، وتحلق، وتسترخي على حصيرة من القصب بينما تستمع إلى غناء الطيور المغردة في الأفقاص) شعر باو أنه مستعد للخوض في أفكاره. لا يزال استنتاجه من حديثه مع آه يان قائماً؛ فشقيقتها، على الأرجح، هي نفسها المحظية تشونهاو التي وُجدت ميتة ومجمّدة. وهو يعرف الآن اسمها الحقيقي: فينغ.

فينغ تعني «العنقاء»، بينما آه يان تعني «السنونو». ليس من المستغرب أن تُسمى الشقيقتان بأسماء الطيور، وإن كان من المفارقة أن تنتهي سبل فينغ في بيت هوى يُدعى جناح العنقاء. هل وجدت في ذلك فألاً مريزاً، أم أن الأمر زادها رغبة في إخفاء ما آل إليه مصيرها عن عائلتها؟ مهما كان ما حدث في العام الذي مرّ منذ مغادرتها قرية وُو، تمنى باو أن تكون قد وجدت السلام الآن. ذكّرت أسماء الفتيات أيضاً بصديقة طفولته، تاغتا، التي كان اسمها يعني «الحمامة». كانا مقربين لسنوات طويلة، أطول مما توقعت والدته. في ذهنه، ما زال يراها صغيرة لكنها كانت تكبر يوماً بعد يوم. كانت بشرتها السمراء الناعمة تشع بصحة، مثل نضارة بيضة طازجة. وعيناها الصغيرتان اللامعتان تضحكان ببُسر. قالت والدته بعد مغادرة تاغتا ذات يوم: «تلك الفتاة داكنة جداً، كالفلّاحين. لا بد أن هذا بسبب دمائها المنغولية».

قال باو فجأة: «أعتقد أنها جميلة»، وندم على ذلك فوراً. التفتت والدته إليه بحاجبيها المرسومين ونظرتها الحادة. غضب باو من نفسه؛ كان عليه أن

يدرك أنه من الأفضل ألا يمدح تاغتا أمام والدته. فالآن وقد أصبحا في الثانية عشرة من العمر، ستجد ذريعة لفصلهما عن بعضهما بالتأكد. فكرة أن تنشأ بينهما علاقة كانت مثل دودة قلق تتلوى في ذهن والدته. كيف يمكن لباو، الابن الثاني لقاضي المنطقة، أن يتزوج ابنة محظية منغولية؟ لم يكن الأمر متعلقاً بمكانة والد تاغتا -فقد كان تاجراً ميسور الحال- لكن والدتها لم تكن زوجة رسمية. بل لم تكن حتى من قومية الهان الصينية.

علم باو كل هذا، حتى دون قدرته على سماع الأكاذيب. من يحتاج إلى تلك القدرة عندما يستطيع قراءة عقل والدته بوضوح؟ كانت أفكارها تتأرجح بين أخيه الأكبر؛ أمل العائلة الأكاديمي، وباو؛ الابن الاحتياطي. ولم يكن مسموحاً لأي من الابنين أن يرتكب خطأ.

لذا تظاهر باو بأنه غير مهتم بتاغتا إلى حدٍّ ما، رغم أنه لم يستطع إخفاء سعادته حين قدموها. كانت أعز أصدقائه وإن لم يعترف بذلك قط. كانت مشاعره نحوها مضطربة، مليئة بالشوق المكبوت والخوف من المستقبل.

في بعض الأحيان كانا يترددان على مزار الثعلب الذي أنشأه معاً، متوارياً داخل أجمة الرندرة. لقد كبرا بما يكفي ليصبح المكان ضيقاً عليهما، لكنه ظل ملاذهما. تلقى مزار الإله الثعلب بين الحين والآخر زهوراً من تاغتا. أما هو، فلم يكن معتاداً على تقديم القرابين بانتظام. ودون أن يعرف السبب تماماً، نسب ذلك إلى اعترافها بلقائها الإله الثعلب. بقيت تلك الحكاية عن الثعلب الأسود الذي عاد في هيئة رجل عالقة في ذهن باو. ولم يدرك إلا بعد سنوات أن شعوره المتضارب كان بسبب احمرار وجنتيها عندما همست: «كان وسيماً جداً».

ما الذي يتطلبه الأمر لتصف تاغتا باو بالطريقة نفسها؟ جعلت هذه الفكرة باو يشعر بالحماسة والارتباك في آنٍ واحد. وهكذا، في ذلك اليوم بينما كانا يجلسان متقاربين في قلب أجمة الرندرة، لامست كتفه كتفها. لكنها لم تلاحظ، إذ كانت منشغلة بالمزار. وضعت عليه وردة بيضاء من حديقة والدته، من النوع المعروف باسم «شوي ميرين»، أو «الجمال النائم»، وهو نوع مهجّن يعود إلى عهد سلالة تانغ. وحينها رأى شفتي تاغتا تتحركان بصمت.

سألها باو: «لأجل ماذا تصلين؟»

غضت طرفها وقالت: «يتحدثون عن تزويجي».

- لكنك لم تتجاوزي الثانية عشرة!

- أعلم، إنها مجرد أحاديث.

كان باو يعلم أن الحديث عن الزواج قد يبدأ قبل سنوات، لكنه شعر بشيء يخنقه. أخذت تاغتا دبوسًا من عظم السلحفاة من شعرها ووضعتة على المزار الصغير. وتمت بصوت خافت: «أرجوك، أرجوك دعني أجد شريكًا جيدًا». عندما رحلت، انتظر باو ليضع الدبوس في جيبه. لاحقًا، لم يعرف لماذا فعل ذلك. لكن دبوس شعر تاغتا (وأمنيته) كانا شيئًا أراد به باو لنفسه بشدة.

ماذا حدث لذلك الدبوس؟ احتفظ به باو لسنوات، مدسوسًا في القماش الذي يلف فرش الكتابة. وفي وقت ما، اختفى فحسب، مثلما توقف عن التفكير في تاغتا لعقود طويلة. أثارت هذه القضية بداخله مشاعر قديمة، بما تحمله من فتيات مفقودات وهمسات عن الثعالب.

السيدة التي جاءت من أجل جرو الثعلب، هل يمكن أن تكون هي نفسها المرأة التي اختفت من قبلا السيد وانغ قبل شهر؟ جلس باو فجأة، متأثرًا بهذه الفكرة. لا، هذا غير منطقي. هناك فجوة زمنية تقارب العامين بين الحدثين، لكنه لا يستطيع التخلص من فكرة ارتباطهما. فبعد كل شيء، وصفت الخادمة في القبلا تلك السيدة بأنها ذات عينيْن لامعتين ساحرتين... وكانت مهتمة بـبكتو نيكان بشكل مريب.

التفَّ باو في معطفه ليتَّقي برد الربيع، ثم شرع في العودة إلى منزله بعد خروجه من الحمام العام. تنمَّلت بشرته من حرارة المياه، وارتخت كتفاه المتيبَّستان. فكَرَّ: **عامان**. إذا كانت هي المرأة نفسها، فما الذي يُفسر تلك الفجوة الزمنية؟ ربما فقدت أثر بكتو وعثرت عليه لاحقًا. لكنَّ باو هزَّ رأسه.

غداً سيذهب ليقدم تقريره إلى غو، صاحب المطعم. سيخبره بأنه اكتشف الاسم الحقيقي للفتاة التي توفيت، حتى يتمكن من إقامة شعائر جنازية لروحها. يؤمن الصينيون بأن من يموت دون أن يُعرف أو يُحزن عليه يتحول إلى شبح جائع، محكوم عليه بالتجول الأبدي في هذا العالم. وعندما يمضي بعض الوقت، سيعود إلى قرية وُو لإبلاغ عائلتها بطريقة لائقة.

ربما بحلول ذلك الوقت، سيكونون قد تقبلوا رحيلها.

19

طلب شيرو مني البقاء، بعد أن التهمتُ عشاءً ضخماً وهممتُ بالمغادرة.
- فقط إن أخبرتني المزيد عن بكتو. لقد قلتُ إن تشين ولوو يعرفانه
أيضاً.

«هل قلتُ ذلك؟» وضعتُ يدي على الباب، فقال شيرو: «حسنًا، لكنك لم
تقولي لي بعدُ لماذا تبحثين عنه».

- لأردُّ دَيْنًا.

- دَيْن من؟

«دَيني». وهو ما كان قريبًا بما يكفي من الحقيقة. لا ينبغي للثعلب الفاضل
أن يسعى للانتقام، لكن هناك ما يُسمى بالشرف والمبادئ. أو هكذا كنتُ أمل.
قال شيرو: «إن كان الأمر يتعلق بك، سأخبرك بما أعرف». ومنحني نظرتَه
الجدية، تلك التي تجعل الفتيات الصغيرات يقعن في حبه. فانتظرتُ بصمت
جامد.

- قام بكتو ببعض الأعمال المستقلة لاستوديو أودا، بين رحلاته إلى
موكدين للحصول على عمولات من رعاة أثرياء. لكن حدثت بينهما
خلافات، والآن لا يريد أودا أن يكون له أي علاقة به. وهكذا تعرّف
بكتو على بوهاي وتشين ولوو. في الواقع، هو مشهور ببعض الصور...
الغريبة.

وتابع شيرو مراقبتي بابتسامة خفيفة على وجهه: «هل صادف أن التقطُ
صورة لك؟» وانحنى فجأة إلى الأمام.

لهذا أكره التعامل مع شيرو. نصف معلوماته قائمة على تخمينات ذكية:
«نعم، فعل».

«لا أستطيع تخيل كيف كنتِ مهملة لهذه الدرجة. ظننتُ أنكِ كنتِ تنوين
البقاء في السهول للأبد، يا سنو». الكلمة التي استخدمها لاسمي كانت «يوكي»،

والتي تعني «الثلج» باليابانية. بطبيعة الحال، أنا وشيرو لسنا يابانيين أو صينيين أو منغوليين. نحن فقط نُشبه هؤلاء الأقوام بما يكفي لنتحدث لغاتهم ونعيش بهدوء بينهم.

- أخطط للعودة.

- ولكن لا أريدك أن ترحلي. ألا تشعرين بالوحدة ليلاً؟

اخترقت كلماته قلبي كأنياب حادة. فأغمضت عيني. وخلفهما كان الظلام حالاً، كسواد ليلة شتوية متأخرة في قرية شمال شرق الصين. تتساقط فيها الثلوج كثيفة كستار من البياض العاصف. والبيوت الخشبية، بأفاريزها المائلة، أغلقت نوافذها أمام الرياح الآتية من السهول. لم يكن ثمة ما يتحرك بينما كنت أزرع المكان ذهاباً وإياباً بياس، أصغي لصوت طفلي الخافت، مجرد أنين لتخبرني أين هي.

لكنني لم أكن لأبوح بأسراري لشيرو. لستُ بهذه السذاجة.

- لا تشفق عليّ، أستطيع الاعتناء بنفسِي.

سمعنا طرقاً على الباب. فانتفض كلانا.

قال صوت خافت: «إنه أنا، بوهاي».

دفعني شيرو خلف الباب قبل أن يفتحه جزئياً: «كيف أستطيع مساعدتك؟» اختلستُ النظر من خلال فجوة مفاصل الباب، وتساءلتُ ما الذي جاء ببوهاي الآن. كانت رائحة النبيذ تفوح من أنفاسه. قال لشيرو: «لم أرك على العشاء».

- كنتُ أشعر بدوار البحر.

- وكذلك خادمة جدتي. تلك الفتاة لازمت الفراش منذ صعودنا على متن السفينة وقد أهملت واجباتها.

«حقاً؟» حملت نبرة شيرو بعض السخرية وأدركتُ أنه كان يسخر مني. تمتم بوهاي: «جدتي طيبة القلب حقاً، ولا أريد أن أقلقها، لكن الأمر يحدث مجدداً».

- تقصد عديمي الظلال؟

«نعم، عند الغروب، كان هناك رجل على سطح السفينة...» وخفتُ صوته: «أنا قلق للغاية؛ لا أستطيع النوم على الإطلاق». وأطلق بوهاي أنيناً بائساً

أشعرني بالشفقة تجاهه، لكن أنفي اشتَم رائحة الفضول. وبضبايئة عادت إلى ذهني قصة سيدتي عن ابن زوجها الصغير حين اشتكى من مثل هذه المخلوقات. وبينما كنتُ مضغوطة خلف الباب، أخذتُ أفكر فيما أعرفه عن الأشباح.

سحرت الثعالب والأشباح الناس على مرّ القرون؛ وقد ملأ الكاتب پو سونغلينغ كتابًا كاملاً بحكايات عن التلاعب بالأرواح، والثعالب، وحوريات الزهور، وجميعهن يظهرن وكأنهن متلفعات لأن يكنَّ عشيقات للرجال. أستمتع بقراءة هذه القصص السخيفة لأنها تجعلني أضحك. من الواضح أنها خيالات رجل بائس. فـ«پو سونغلينغ» نفسه لم ينجح أبدًا في الامتحانات الإمبراطورية. وأشك أنه التقى أحدًا من عشيرتنا، لكن بفضل ارتباط الثعالب والأشباح في مخيلة العامة، رغم أنهما كائنات مختلفة تمامًا.

على أي حال، أنا شخصيًا لم أرَ شبحًا من قبل.

قال شيرو: «لنبحث عن هذا الرجل على سطح السفينة».

بدا بوهاي متكدّرًا؛ ولا ألومه حقًا. البحث عن الأشباح في ساعة متأخرة من الليل لم يكن شيئًا مغريًا، مهما كان قد شرب من نبيذ. لكن لم يبدُ شيرو قلقًا. في الواقع، نادرًا ما رأيته خائفًا. فعادةً ما يكون هو من يرعب الآخرين.

قال بوهاي بتردد: «ربما ينبغي أن أستأجر شخصًا ليتبعهم في المرة القادمة. لمعرفة إن كانوا أشخاصًا حقيقيين أم أنني أفقد عقلي».

- يمكن لخادم كتوم أن يقوم ببعض التحري. في الواقع، لدي شخص في ذهني يناسبك. لكن الآن، دعنا نذهب ونطارِد عديمي الظلال هؤلاء.

أمسك شيرو بذراع بوهاي وقاده في الممر، مغلقًا الباب خلفه. كنت أعلم أنه فعل ذلك ليتيح لي الفرار بهدوء، لكن بما أنه تركني وحدي في مقصورته، طفقتُ أفتش أمتعته سريعًا. إلا أنني أجد شيئًا يثير الاهتمام باستثناء رواية تحريات يابانية في الدُرَج بجوار سريره.

تساءلتُ إن كانت هذه الرواية قد زرعت في رأس شيرو فكرة التحري. ولم أستبعد ذلك؛ فهو يتأثر بسهولة بأحدث الصيحات، رغم أن جميع الثعالب مغرمة بالخداع وحكايات الصيد. أعدت كل شيء إلى مكانه بعناية. لم أجد ما يشير إلى كيفية اتصال شيرو بـبكتو. ولا دفتر ملاحظات يحتوي على عنوان

في يوكوهاما. يا للأسف، كنتُ أنوي إنهاء عملي مع بكتو بسرعة. فقد مرَّ عامان على ذلك.

أه. كم يؤلمني التفكير في ذلك الوقت. كان جرحًا مؤلمًا للغاية، أشبه بانتزاع الأمعاء. شعرتُ كأنني أموت بدوري. لا ينبغي للأمهات أن تدفن أطفالها؛ إنه شعور مؤلم، رغم أن العديد من الصغار يموتون في الطبيعة. قلت لنفسي إنه لا يجب أن أغرق في هذا الدوامة مجددًا؛ يجب أن أوجّه حزني نحو غايات أفضل.

بعد إلقاء نظرة أخيرة في مقصورة شيرو، تسللتُ إلى الخارج. وبينما كنتُ أغلق الباب، ظهر بوهاي في الممر، بعد أن تخلص من جرّ شيرو له. قال بريية: «ماذا كنتِ تفعلين في غرفة شيراكاوا؟»

دفعتنى رائحة النبيذ في أنفاس بوهاي إلى أن أشيح بوجهي، مع أنني اشتبهت في أنه لم يكن ثملًا بقدر ما يوحي مظهره. كانت إضاءة الممر خافتة؛ وفي الظلال المتراقصة، اشتدت قبضته على ذراعي: «من أنتِ حقًا؟ إنك لا تتصرفين كباقي الخادومات، وجدتي متعلقة بك بريية. كما أن أودا قال إنك تتحدثين اليابانية».

إذًا، لقد ثرثر أودا عن تلك الليلة التي ضبطني فيها أتسلق الوستارية إلى غرفة نومه الخلفية. يا له من أمر مزعج!

قلت له: «أنا لست خادمة حقًا. أنا محققة». بالطبع، كنت واقفة خلف الباب مباشرة عندما اقترح شيرو توظيف محقق، لكن بوهاي لم يكن يعلم أنني سمعت حديثهما: «طلب مني شيراكاوا أن أعنتي بك وبجدتك، لأنه كان قلقًا بشأن عديمي الظلال».

عند هذا، شحب وجه بوهاي الببضاوي. وقال: «فهمت... هذا لطفٌ كبير منه».

لم يكن للأمر علاقة باللفظ، لكنني استغللت تدفق الثقة المفاجئ هذا (وربما كان تأثير الشراب قد بدأ يظهر عليه)، فأوصلت بوهاي المنكسر إلى مقصورته. ثم عدتُ إلى حجرتي الرخيصة لألقي بنفسي على سريرتي الضيق القاسي وأفكر بعمق. عديمو الظلال.

لم ألتق قط مثل هؤلاء خلال كل تجوالي. لقد سمعتُ الكثير عن الذين يملكون ظلالًا كثيفة، والذين يخشون أنهم غارقون في الظلام، والذين لا يستطيعون النوم إلا بإشعال المصابيح، ويشعرون بالرهبة من القمر وكل الأشياء المشؤومة المليئة بطاقة «الين» الشبحية. في الواقع، يعتبر الصينيون، تقليديًا، أن الظلال جزء من الروح. فالإساءة لظل شخص ما، سواء بتثبيته على الأرض أو دوسه، يُعتبر ضررًا روحيًا على الشخص. بالطبع، لا شيء من هذا صحيح حقًا. لكن العقل قادر بالتأكيد على التأثير في الجسد.

أوه، أستطيع أن أحدثك عن ذلك التاجر التركي الضخم في المدينة المسورة لويانغ، والذي تأكل جسده من الرعب المحض بعد أن غرس عدوه خنجرًا في ظله. وبالمناسبة، لم تكن لي يد في هذا. فقد كنت أعمل راقصة لأجمع تكاليف العودة إلى الشمال، وصدف أن كنتُ إحدى خادمت الرجل البائس تلك الليلة. حاولتُ أن أوضح له أن عليه أن ينتبه للسم، خصوصًا من شريكه في التجارة، لكن للأسف لم يصدقني.

عمومًا، فإن ما يخشاه الناس غالبًا هو كثرة الظلال. بعضهم يرتاع حتى من فتح المظلات، خشية أن تفتح ظلالها بابًا إلى العالم السفلي. ومن هنا، وبالمنطق، ينبغي أن يكون الأشخاص الذين لا ظلال لهم عكس ذلك -كائنات سماوية، أو هكذا افترضت- وفي هذه الحالة، يفترض أن يثيروا بهجة الناس، لكن هذا لم يبدُ على بوهاي إطلاقًا.

كان شيرو محققًا؛ الثعلب مؤهل بشكل خاص للتحري عن مثل هذه المخلوقات، فالثعلب نهمة لا يشبع فضولها ولا يسهل خداعها. إضافةً إلى ذلك، بدا خضوع بوهاي الهادئ أشبه بجرو صغير يسير ورائي ببراءة. وبما أنني قد نصّبت نفسي حامية له، شعرتُ بقدر من المسؤولية تجاهه.

مساعدة الآخرين، بالمناسبة، هي إحدى واجبات الثعلب الفاضل. ومن الواجبات الأخرى الامتناع عن الكذب وغسل الأموال وقتل الناس. جميعها جزء من مسيرة السعي نحو التنوير. أما أنا، فقد سلكت دربي الخاص، المكتظً بالأشواك، وإن كنتُ أخشى نهايته أحيانًا. فالانتقام كأس مرعب حين تتجرعه؛ يلتهمك من الداخل، مهما قالوا إنه يُقدَّم باردًا.

وكما يقول المثل الصيني: «لا يُعد الرجل النبيل متأخرًا في أخذ ثأره، ولو بعد عشرة أعوام»⁽¹⁾. لكنك تعلم كما أعلم أن الطعام البارد لا بد وأن يسبب اضطرابًا في المعدة.

بحلول عصر اليوم التالي، لاح مرفأ موجي في الأفق. تراحم الركاب على الحواجز بشوق للحصول على لمحة عن اليايسة. بعد أن تعافيت من دوار البحر، انشغلتُ بخدمة سيدتي. ولحسن الحظ، بدت غير مدركة لمغامرات بوهاي ليلة البارحة، أما بوهاي نفسه، فكان يقف على مقربة من شيرو والشبان الآخرين، وتعامل معي بلباقة لم أعدها من قبل. بدا متوترًا وهو يرمق الركاب الآخرين بنظرات حذرة. ومع اقترابنا السريع من الأرصفة، بدأت رائحة اليايسة تتسلل إلينا تحت وهج شمس أواخر الربيع. أغمضت عيني واستنشقت عبق أشجار الصنوبر وماء البحر. لقد مضى وقت طويل منذ زيارتي لأرض ياماتو.

بدت موجي حديثة ومنظمة للغاية، بمبانيها ذات الطراز الأوروبي ودار الجمارك المبنية من الطوب الأحمر. وكأنه مرفأ لعبة يتلأأ تحت الشمس بين الأمواج البرونزية. ومع استعداد السفينة للرسو، نظرتُ إلى الحشود المنتظرة في الأسفل؛ موظفو الجمارك وعمال الأرصفة، وأقارب يلوحون وينادون في كل مكان. تسمَّرت فجأة. لقد كان هناك، يقف من بعيد كأنه يراقب، طويل عريض الكتفين، مألوف على نحو مؤلم.

همستُ بغضب، وأنا ألتفت إليه: «شيرو! كيف تجرؤ!»

قال بحُزن مصطنع: «ماذا؟ حسبتُ أنك ستسعدين برؤيته مجددًا... صديقنا القديم، أسود».

(1) 十君子不報晚仇 (المؤلفة)

20

في تلك الليلة، حلم باو.

وجد نفسه واقفاً في فسحة موحشة مغطاة بالأعشاب البرية حيث أخبرته آه يان عن شقيقتها الهاربة والسيدة الغريبة التي جاءت لتستعيد جرو الثعلب. لكن هذه المرة، كان الشتاء في أوجهه والثلج يكسو الأرض. وكان القمر محاطاً بهالةٍ جليدية. في حلمه، شعر باو بالارتياح لعدم وجود آه يان هنا. بدا له المكان غير ملائم لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها، بل وحتى له هو.

وبينما تلفت باو حوله، باحثاً عن أضواء قرية وُو، خشي فجأة أن يصادف الصياد الميت جيانغ، مسنوداً بشكل مخيف بجوار نار مهجورة في الغابة. أو يلقي صندوقاً خشبياً يئن داخله جرو ثعلب صغير، بأرجل مكسورة وأضلعٍ تهتز. ملأته رياح عاوية من اليأس، وهدده حزن جامح بابتلاعه.

استيقظ فجأة، ضاغطاً بيده على وخزة حادة في صدره. فكر باو في السيدة التي جاءت تبحث عن جرو الثعلب. ربما تأثر بالقصة حتى تخيلها في الثلج ليلاً، تتجول في قرية صامتة. رغم أنه لا يعقل أن يكون الصياد جيانغ ميتاً. لأن ذلك حدث لاحقاً، كما حدث هروب أخت آه يان. الأمور متشابكة، كما هي الأحلام غالباً. وحين جافاه النوم، نزل بهدوء إلى المطبخ الصامت وغلى ماءً لتحضير الشاي. ثم انتظر قدوم الفجر الرمادي بينما يحتسيه.

أرسل باو خبراً إلى صاحب المطعم بأنه وجد اسم الجثة التي تركت عند عتبة بابه. اتفقا على اللقاء مرة أخرى مبكراً في المطعم بسرية. متأثراً بنسيم ربيعي حاد، طرق الباب المغلق. استقبله غو، صاحب المطعم، بنظرة قلقة.

سأل باو: «كيف تسير الأعمال؟»

أجابه غو: «لا بأس بها». وأسدل عينيهِ، فبالرغم من كلِّ محاولاته الحثيثة، فقد تسربت الأقاويل بأن جثة وُجِدَت بالقرب من المكان. ثم أضاف على عجل: «لكن ليس على عتبة بابنا».

جلسا على الطاولة الفارغة التي جلسا عليها المرة السابقة، وشرح باو ما توصَّل إليه ثم قال: «كما ترى، أعتقد أن المرأة التي وجَدْتَهَا كان اسمها فينغ، تُعرف أيضًا باسم تشونهاوا، من جناح العنقاء».

قال غو بإعجاب: «سمعتُ أشياء جيدة عنك، لكن لم أتوقع أن تجد اسمها بهذه السرعة. سأحضر راهبًا لإقامة شعائر جنازية للميتة». ثم نهض بفرح مفاجئ وقَدَّم لباو طبقًا من آذان الخنزير الباردة المقطعة إلى رقائق، والمغموسة في زيت الفلفل الحريف؛ «مالا»، إلى جانب أجره على خدماته. وعندما غادر باو من الباب الجانبي -المدخل الذي استقرَّت عنده جثة الشابة- توقف ليلتو صلاة قصيرة. وتمنى في نفسه: **آمل أن تكوني سعيدة، أينما كنتِ.** متذكرًا الابتسامة على وجهها.

لماذا كانت هناك أساسًا؟ ما الذي دفعها لمغادرة دار الشاي مع ضيف وسيم، ولماذا تخلَّى عنها في الزقاق؟ كلما اكتشف باو المزيد، تناثرت الأسئلة كمسارات تتلوى في غابة مظلمة. وكذلك هناك السيدة الثعلب التي أخبرته عنها آه يان. تذكر باو حلمه والحزن العارم فيه. ولاحقه وصف المرأة الغريبة، لكنه تساءل أكان ذلك بسبب افتتانه بالثعالب منذ طفولته. حسنًا، من المحتمل أنه لن يسمع عنها مجددًا.

وكما جرى، فقد كان باو مخطئًا في هذا.

وجد خطابًا ينتظره عند عودته إلى مسكنه، أوصله ساع خاص. قرأه باو بسرعة: **بعد سماعنا عن مواهبك، يود السيد وانغ مقابلة بك بخصوص أمر ذي أهمية شخصية كبيرة.** طبيعة الخطاب الموجزة والمستعجلة تشير إلى أنه كُتِبَ شخصيًا، وليس بإملاء على كاتب. كان العنوان على الخلف في المدينة، لكنه عرفه فورًا؛ إنه مقر إقامة السيد وانغ الذي حقق باو في أمره سابقًا.

بالتأكيد، لا يمكن أن يكون ذلك محض صدفة. فقد طلبت خادمة القِلا بطاقة أعمال باو، مشيرة إلى أن سيدها منزعج بشدة من اختفاء إحدى

السيدات. هل يمكن أن تكون هي المرأة التي ذهبت لاستعادة جرو الثعلب في قرية وُو؟ تسارعت نبضات باو. كان الاحتمال مثيرًا بما يكفي ليجلس ويكتب ردًا للسيد وانغ على الفور، موافقًا على مقابله.

بعد ذلك، قصد حلاق الشارع. لقد مضى عام منذ أن قصَّ باو شعره. لم يعلق أحد على ذلك في هذه المدينة الشمالية التي تعج بالأجانب، ومنهم الكوريون واليابانيون. يعود الشبان الذين يدرسون في الخارج بشعر مقصوص وأحلام بالثورة.

شعر باو بالارتياح عند تخلصه من الضفيرة الطويلة الثقيلة، رمز السيادة المانشوية. لو كان شابًا، لرغب في السفر إلى الخارج للدراسة. لكن ليس لدراسة الكلاسيكيات الأدبية الصينية، عماد الامتحانات القديمة، بل ليتعلم عن الكهرباء والجسور المشيَّدة من الحديد الصلب. فمن يكثرث بعدد الأبيات الشعرية التي يستطيع سردها؟ هذا السؤال المزعج هو ما أثار استياء شقيقه الأكبر عندما تحدثا آخر مرة.

قال شقيقه: «نحن بحاجة إلى حاكم جديد». فقد وضعت الإمبراطورة الأرملة الإمبراطور الإصلاحى غوانغشو تحت الإقامة الجبرية، واستمرت في الحكم كما لو أنها لن تموت أبدًا، رغم الشائعات التي تقول إنها مريضة جدًا هذا العام.

رد باو: «ليس حاكمًا، بل ملكًا دستوريًا. لا مزيد من الأباطرة».

اتسعت عينا شقيقه: «لا تقل مثل هذه الأمور في العلن».

فكَّر باو: لقد أصبحت متمرّدًا في شيخوختي. لماذا لم أتحدّ بالشجاعة أكثر عندما كنتُ شابًا؟

بعد حلاقة سريعة على جانب الطريق، صعد باو الدرج الضيق المظلم إلى غرفته الأمامية. كانت رائحة الأسياخ المشوية وقطع الزلابية المقلية تتسلل من الشارع. ضمن إقامته، يحصل على وجبة يومية من مالك البيت، لكنه اليوم لا يشعر بالرغبة في مشاركتهم. ليس لأنهم غير ودودين؛ بل على العكس تمامًا: «لا بد أنك من عائلة محترمة!» هكذا كانت زوجة المالك تقول مرارًا، مشيدةً بأدب باو أمام أطفالها. فيكتفي باو بالتبسم. نعم، كان من عائلة محترمة. حتى إن والدته كانت لتُصاب بالهلع لمجرد فكرة أن ابنها الأصغر مقيمًا في محل خياط في شيخوخته.

كان الطريق الذي خططته له مطابقاً تماماً للذي سلكه شقيقه الأكبر: دراسة دؤوبة، ونجاح في الامتحانات الإمبراطورية، وترقية إلى رتبة رسمية تفوق رتبة والده. كانت تتوقع أن تراه في مثل هذا العمر مستقراً في منزله الخاص، مع زوجة أو ثلاث، وحفنة من الأحفاد. وفي ميلاده الستين، الذي يمثل اكتمال دورة كاملة من الأبراج القمرية الاثني عشر، كان ينبغي أن تُقام احتفالية تقدّم فيها كعكات على شكل خوخ ترمز إلى طول العمر. وتُحمل سمكة حية ضخمة في طست مطلي بالميّنا ممتلئ بالماء ليُعرض على الضيوف، ثم تُطهى لاحقاً بالبخار ببراعة وتُزين بصلصة الصويا والزنجبيل.

لقد حدثت كل تلك الأمور بالفعل قبل بضع سنوات... لشقيق باو. حضر باو ضيفاً، كما كان دائماً. لعب مع الأحفاد (الذين لم يكونوا أحفاده)، وتبادل الحديث بأدب مع الزوجات (اللاتي لم يكنّ زوجاته). ثم استفرد به شقيقه الأكبر، وسأله بلهجة متحفظة إن كان بحاجة إلى المال.

- أنا بخير.

- تقول ذلك، رغم أنك تعيش في مسكن مستأجر.

«ما زلتُ أملك منزلاً». وذلك حق، كان منزلاً صغيراً عاش فيه باو مع زوجته في الريف.

- هل تؤجّره؟

فكّر باو في أن لا يعترف لأخيه بالحقيقة، لكنه قرر ألا يفعل. فشعور الخدر الذي يصاحب الكذبة ما زال يزعجه بعد كل هذه السنين.

- لا، هناك مشرف يأتي من وقت لآخر.

قال: «لو أجّرتَه، لكان لديك دخل. ولما اضطررت إلى القيام بهذه الأعمال». كانت ملامح الامتناع من مهنته بادية على وجه أخيه، إذ قطّب حاجبيه: «لماذا لا تعود إلى التدريس؟»

- أخي، لا داعي للقلق. لقد كنتُ دائماً خير معين لي.

كان شقيقه الأكبر قدوة يُحتذى بها، إذ تحمّل عبء توقعات الأسرة ونجح بقدر من التواضع في عمله مسؤولاً محلياً. ومن خلال الدراسة الدؤوبة، حصل على رتبة تفوق قليلاً رتبة والده. ولهذا، غَضَّ الطرف عن إخفاقات باو.

كان باو، أيضاً، طالباً في يوم من الأيام. بل إن معلمه قال لوالدته ذات مرة: «أعتقد أن الابن الأصغر أكثر موهبة من الأكبر». استرق باو السمع إلى

حديثهما وشعر بالدهشة من هذا الإطراء، لا سيما وأن كلمات معلمه كانت صادقة تمامًا.

«حقًا؟» قالت والدته، والنصر يتردد في صوتها، لكنه مشوب بغضب غريب: «لماذا إذا لا يجتهد أكثر؟»

- شعره جيد، وأفكاره مبتكرة. لكنه سريع التشتت.

- إنها تلك الفتاة.

كان باو، الجاثم تحت الشرفة المرتفعة، عاجزًا عن رؤية وجه والدته، لكنه استطاع أن يتخيل تقطيب شفثيها. وشعر أن هذا الحديث يسير في اتجاه سيئ.

- تلك التي تأتي للعب... ابنة محظية الجار. رغم أنها كبرت على ألعاب الطفولة، وكذلك باو.

غرس باو أظافره في راحتيه. كلا، كلا.

- باو متعلق بها كثيرًا. وهو لا يرغب في مغادرة المنزل لدراسته، كما فعل أخوه.

قال معلمه: «كثيرًا ما تنشأ بين اليافعين روابط لا تدوم»، ثم استرسل في الحديث عن البرقوق الأخضر وخيول الخيزران: إشارة إلى قصيدة لي باي حول عُشاق الطفولة. ولعل ذلك ما دفع وجنتي باو إلى الاحمرار خجلًا. كان الحديث عنه بهذه الطريقة مُهينًا، لكن الأسوأ من ذلك كان معرفة الجميع بمشاعره تجاه تاغتا. لقد ظن أنه أخفاها بإحكام.

- حسنًا، لنأمل أن تُزوج تلك الفتاة قريبًا. وباو أيضًا. إنه ليس صغيرًا جدًا ليفكر في الزواج.

في تلك اللحظة، أقسم باو بصمت أنه لن يحقق أحلام والدته أبدًا. بل لن يترشح للامتحانات؛ ولن يتزوج الفتاة التي تختارها له من عائلة مرموقة. وبالطبع، أخطأ في كل تلك التوقعات.

عند تذكره لذلك الآن، لا يسعه إلا أن يبتسم لحمقه الطفولي. فقد جلس للامتحانات بالفعل، لكنه لم يحقق النتائج المرجوة، بعد أن أصابته الحمى في ذلك اليوم. وتزوج شابة من عائلة مرموقة، وعاش معها سنوات طويلة حتى وفاتها قبل تسعة أعوام.

أما تاغتا، فقد أمضى العقود يدفعها إلى مؤخرة ذاكرته، إذ لم يرد أن يجرح زوجته. كانت امرأة حساسة وخجولة. وعندما اقترح أقاربه أن يتركها لأنها لم تُنجب أطفالاً، عارضهم باو. لم تخطئ زوجته بشيء؛ وإن لم تكن هي من اختارها قلبه، فلم يكن ذلك خطأها.

في الواقع، كان الخطأ خطأ باو.

كانت هناك لحظة -فرصة عابرة- حينما كان يمكن أن تكون تاغتا له. وهو جالس الآن على مكتبه، يسترجع تلك الذكرى ويتأملها، مستحضراً ظهيرة يوم قائظ خانق، يئزُّ بأصوات حشرات الزيز.

كانت تاغتا تجلس قبالة في جناح حديقتهما: وهو بناء يبدو جميلاً من بعيد، لكنه نادراً ما كان يُستخدم بسبب العناكب التي تتدلى من سقفه. كانت زياراتها قد قلّت مؤخراً. وعندما تأتي، تكون برفقة خادمة، ولحسن الحظ، تربطها صداقة بطباخ باو، لذا كانت تتركهما وحدهما.

قالت تاغتا وهي تقضم خوخة: «لا أعرف لماذا يزعجون أنفسهم». كان الوقت في أواخر الصيف، والحر لا يكاد يُطاق. وامتلأ الهواء بأسراب الذباب التي تتكاثر على روث الحمير في الشوارع. قال باو: «لأنك أصبحت أنسة الآن».

ضحكت تاغتا. وانحنت عيناها على شكل هلالين؛ كانت بشرتها تشع بنضارة نقية. وتناثر النمش الخفيف على وجهها، كالْبُقْع الباهتة على قشرة بيضة شعر باو برغبة في لمسها. لكنه لم يفعل. ستنتهي كل لقاءاتهما إذا لم يواصل لعب دور صديق الطفولة.

في الغالب، لم يكن ذلك صعباً. كان من السهل التحدث مع تاغتا لأنها مراعية بطبيعتها. بينما كانت حياة باو أكثر إثارة، حيث الدروس والنزهات إلى كل أنحاء المدينة مع والده وأخيه. بالمقارنة، كانت حياتها مقيدة داخل أسوار منزلها، وقسوة إخوتها غير الأشقاء، وزيارتها العرضية إلى المعبد. ورغم ذلك، فلم تكن تاغتا سخيفة أبداً. كما أنها لم تكن تكذب.

يعلم باو الآن مدى ندرة ذلك. فالجميع يكذب. حسناً، الجميع تقريباً، الكلمات السهلة تنساب من ألسنتهم. حتى باو يكذب، رغم أنه يحتقر نفسه لذلك. ذات مرة، في إحباطه من هذه الهبة الغريبة، قرر ألا يتلفظ إلا بالكاذيب

من الصباح إلى المساء. والنتيجة كانت لسانًا متورمًا، وشفيتين مخدرتين، وشعورًا بالاشمئزاز.

سألت تاغتا: «بماذا تفكر؟» فأدرك أنه كان يحملق في جبينها العريض وحاجبيها المنسابين.

ارتعشت الكلمات على لسانه: **ما رأيك بي؟** لكنه كان مرعوبًا من سماع الإجابة. فقد كانت جلية من قبولها الهادئ له.

سألها: «هل هناك أخبار عن زواجك؟»

هزّت رأسها. كان شعرها، بضفيريته المميزتين الملتفتين فوق أذنيها، لامعًا وناعمًا: «انتهت مناقشات العام الماضي دون نتيجة. بالإضافة إلى ذلك، أنا مجرد ابنة محظية. سأكون محظوظة إذا أراد أحد الزواج بي».

انحنى باو إلى الأمام. وأراد أن يعترف: **أنا أريد ذلك**، لكنه قال بدلًا من ذلك: «حسنًا، أنتِ على وشك أن تصبحي في الرابعة عشرة».

- وأنت أيضًا. والدتك بدأت بالفعل تتحدث مع عائلة تشو.

- كيف عرفتِ؟

«الجميع يعرف». وضحكت تاغتا. ضحكة بريئة، لا تحمل ظلًا من الغيرة. كان باو بارعًا في اكتشاف الغيرة لأنه هو نفسه يعاني منها بصمت. ومع ذلك، لم يستطع أن يعلن عن مشاعره.

جزءٌ من ذلك يعود إلى تردد باو نفسه. ما هو الحب، على أي حال؟ الشعور الذي يكنه لها هو شعور طبيعي: «تعلق طفولي»، كما وصفه معلمه. تاغتا هي من يرغب دائمًا في رؤيتها. ودونها يشعر بالضياح. تمتلئ الكتب التي قرأها باو عن الحب بالاستعارات الأدبية واللغة المهدبة. وتتمحور حول حجم أقدام المرأة، أو إغمائها، أو مشيتها المتهادية بشكل فاتن. لكن لا شيء منها يتحدث عن النمش أو القدرة على الإنصات بجدية. ربما ما يشعر به تجاه تاغتا ليس حبًا، بل هو شيء آخر.

لذلك، أبقى فمه مغلقًا، ولم يخبرها قط عن الإثارة التي تنتابه كلما صرَّ الباب الرئيسي وسمع نداء البواب من مكانه: **شياو بنغيو لاي له!**... «صديقتك الصغيرة قد جاءت». من الناحية العملية، هما أكبر سنًا من أن يستمرا في الاجتماع بهذه الطريقة، لكن بعد كل هذه السنوات، لا أحد يعلق. ومع ذلك، شعر باو بأن الأمور تقترب من نهايتها.

تشبّع الهواء بطنين الحشرات. وبقيت تاغتا صامته لفترة طويلة. ثم قالت: «أتمنى لو لم أُجبر على الزواج». وأطرقت رأسها، فعرف باو أنها تنظر إلى قدميها.

قدما تاغتا غير مربوطين، على الطريقة المنغولية. رفضت والدتها ربطهما عندما كانت في الخامسة من عمرها، ولأنها ابنة محظية، لم يجبرها أحد على ذلك.

قالت: «هل يمكنني أن أخبرك سرًا؟»

انحنى باو إليها، وقلبه ينبض بعنف. هل أدركت فجأة أنها تحبه أيضًا؟
- لم ترفض والدتي ربط قدمي فقط لأنها كانت تشفق عليّ بل فعلت ذلك لأنها خطّطت لتزويجي بأحد أبناء أقاربها.

فهم باو الآن، فلا يمكن لأي رجل من الهان الصينيين ذوي المكانة الرفيعة أن يتزوج فتاة بقدمين غير مربوطتين. هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكن أن تمارسه والدتها المنغولية للتأثير على مصير ابنتها. وفي تلك اللحظة، أدرك أيضًا لماذا سمحت والدته باستمرار صداقتهما الطفولية. لم يتوهم أحد قط بأن تاغتا يمكن أن تكون زوجة مناسبة لباو. يا لغبائه! كان الأمر واضحًا أمامه طوال الوقت، لكنه لم يفكر فيه أبدًا، ولم يكثر بتفاصيل الملابس والأزياء والإشارات السرية التي تنطوي تحتها.

- هل سيرسلونك بعيدًا؟

- ربما. لقد غضب والدي عندما أدرك الأمر، لكن كان الأوان قد فات. لذا، أُمي سعيدة الآن. وكذلك الزوجة الأولى في منزلنا. إذ لن أنافس أطفالها أبدًا.

- إذن كيف سأراك؟

- لن تراني. من المحتمل ألا نلتقي مجددًا.

حدقت تاغتا إليه بعينيها الصافيتين، ورأى باو حزنًا مشوبًا بنوع غريب من الإثارة. ربما كان الأمر كله شاعريًا بالنسبة لها، إحساسًا بالبهجة لأن شيئًا يحدث في حياتها أخيرًا. اشتعلت عيناه بالدموع؛ وخفق قلبه باضطراب: «كلا!»

- وماذا بوسعنا أن نفعل؟

كانت تلك لحظته. اللحظة التي كان يمكنه فيها الانحناء نحوها والإمساك بيدها. لاحقاً، تخيل أنه جرها معه إلى مكتب والده، حيث طالبه بخطبتها. وقال: أعدك أن أحقق أعلى الدرجات في الامتحانات الإمبراطورية، إذا سمحت لي بالزواج من تاغتا.

لكن ما حدث حقاً هو أن باو شهق بلا كلمات.

قالت تاغتا: «في الربيع المقبل، سأعود على الأرجح إلى أهل والدتي. سأفتقدك بالطبع»، واختطففت نظرة إليه: «لكن مرّت سنوات عديدة منذ زرناهم».

- عندما رأيت الإله الثعلب.

احمرّ وجه تاغتا فجأة. احمرّ وجهها الصغير مثل زهرة الفاوانيا. وبينما كان يراقبها، وقلبه يعتصر بمزيج من اللوعة والارتباك، بدأ باو يفهم.

- ما زلت تفكرين به؟ ذلك الثعلب الأسود؟

«من الغريب أنني لم أنسه أبداً. ما زالت ملامحه واضحة في ذهني». وتوقفت قليلاً. ثم قالت: «ربما يبدو الأمر سخيّاً، لكن لدي شعور بأنني سألتقي به مرة أخرى يوماً ما».

«ربما كنت مسحورة». وعض باو شفته: «هذا لا يعني أن خطيبك سيبدو مثل الإله الثعلب، حتى لو ذهبت إلى منغوليا الداخلية».

قالت: «أعلم. لكن الفتاة تستطيع أن تحلم. وهل أملك غير ذلك؟»

ثم منحته ابتسامة حزينة. كانت ناضجة بشكل مقلق، وأدرك باو أن لا شيء مما سيقوله، رغم كل محاولاته ليبدو هادئاً وعقلانياً، سيغير الواقع المريع الذي يتكشف أمامه: فطوال هذه السنوات، بينما كانت مشاعر باو تنمو ببطء، كانت تاغتا ترعى ذكرى غريب وسيم في قلبها. يا إلهي! إنه أكثر مما يمكن تحمله. ومع ذلك، لم تخرج أي أكاذيب من شفيتها.

21

بالطبع، لم أكن سعيدة برؤية «أسود» مجددًا، أو باسمه الياباني «كورو». لو لم نكن جميعًا محشورين عند ذلك الحاجز، لصفعتُ شيرو بقوة حتى أسقطته في المحيط. لكن لأنني كنتُ أحمل ثاني أفضل سترة مبطنة لسيدتي، لم أفعل شيئًا من هذا القبيل. ومع ذلك، تخيلتُ الرذاذ الكبير يتناثر بينما يهوي جسد شيرو الوهمي إلى حتفه المائي.

قالت سيدتي، وعيناها تلمعان: «انظري، يا آه سان! أليست المباني رائعة؟ هناك الكثير من الناس».

لانت مشاعري أمام حماسها؛ لم يكن يجدر بي أن أسبّب لها الكوابيس بافتعال حادث. لذا، بقيت بجانب سيدتي، أوّمن لها ممتلكاتها الشخصية وأمسك ذراعها بحذر ونحن ننزل من الممر الزلق.

بعد أن نزلنا جميعًا، قال شيرو لبوهاي: «أود أن أقدم لك صديقي، كوروساكي».

هذا الاسم يُكتب باستخدام «كورو» الذي يعني «أسود»، مع «ساكي» الذي يعني «شبه جزيرة». ومع معرفتي بما أتوقعه، حافظتُ على ملامح وجهي محايدة عمدًا.

قال بوهاي: «آه، هذا هو الصديق الذي ذكرته سابقًا».

قال شيرو: «كوروساكي يتحدث الصينية بطلاقة، وأيضًا المنشورية والمنغولية».

استدار بوهاي إلينا وقال: «جدتي، هذا هو صديق شيراكاوا، الذي سنقيم في منزله».

منزل؟ تجنبتُ بعناية النظر إلى كورو، كما لو كنتُ مجرد خادمة لا تفهم أمور الرجال، ولكن عند ذكر المنزل، لم أستطع منع نفسي من رفع حاجبي

بدهشة. كورو، الذي لم يُظهر أي اهتمام بامتلاك منزل من قبل، يملك بيتاً؟
ياله من أمر مضحك.

التفت كورو إلينا وقال: «إنه ليس منزلي حقاً، بل هو لأحد أساتذتي، لكنني
سعيد بأن أجعله متاحاً لكم».

صوت كورو، الذي كان مألوفاً لي في الماضي، ألمني سماعه الآن. ذلك
الصوت الهادئ، العميق، بنبرته الجادة. شعرت سيدتي بالتعب، وهي تحذر
إلى كورو بدهشة، فلم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة عليه.

صدّمت أنا أيضاً. امتدّت ندبة عبر وجهه، من حاجبه الأيسر إلى عظام
وجنته. كانت هذه الإصابة بارزة، وقد كادت أن تصيب عينه. هذه علامة مميتة
بالنسبة للثعالب.

نحن نعيش عن طريق خداع الناس، ونختفي عندما تكثر الشكوك حولنا.
في الأيام القديمة، كانت تُصوّر الشخصيات بالرسم والحبر، وكما نعلم جميعاً،
هذا التصوير كان يخلو من الدقة. أما الآن، فقد ظهرت الصور الفوتوغرافية،
والتي أخشى أنها ستسبب لنا المشاكل، لكن ذلك لا يُقارن بالندبة على وجه
كورو. عندما نتعرض لعقوبة رسمية، نطلب أن نُضرب على باطن أقدامنا أو
أظهرنا، أو أي موضع يكون أقل لفتاً للانتباه. نحرص بشدة على ألا نتعرض
لإصابات في وجوهنا ما دام بالإمكان تجنب ذلك.

لكن تعابير كورو لم تتغير. ربما كان قد اعتاد على نظرات الدهشة التي
تُلقى إلى وجهه. وهو أيضاً لم ينظر إلي مباشرة، بل ركز عينيه على سيدتي.
قال لها: «أهلاً بكم في موجي. أتمنى أن رحلتكم كانت مريحة».

انتفضت سيدتي، وكأنها تذكرت آداب التعامل. ومع الانشغال بتجميع
الأمثلة، استغرق الأمر بعض الوقت حتى تمكنا من تنظيم أنفسنا، لكن في
النهاية كانت مجموعتنا الصغيرة تنتقل على الطرق، كانت الطرق جيدة
ومستقيمة بالقرب من الميناء، ثم أقل جودة كلما ابتعدنا.

موجي مرفأ جميل، يعج بالحركة والنظام: «حديث»، بمعنى أنه أوروبي،
مع دار جمارك مبنية من الطوب الأحمر، وواجهة بحرية توفر المناظر الجميلة،
وحتى نافورة لسقي الخيول على الرصيف. تقع موجي بالقرب من مضيق
كانمون الضيق، الذي يفصل بين جزيرتي هونشو وكيوشو. تلك المضائق
لها تاريخ طويل ومضطرب، بما في ذلك غرق الإمبراطور الطفل أنطوكو في

معركة (دان-نو-أورا). قلتُ في نفسي ونحن نتحرك في العربة الريكشا: **يالها من قصة حزينة.**

كانت سيدتي شاردة الذهن. وأنا كذلك، لكنني تعلمتُ كيف أخفي مشاعري. في الواقع، أحياناً أعتقد أن من الأفضل ألا يكون للمرء مشاعر على الإطلاق. يجب أن تبقى الجروح القديمة مغلقة، وإلا تفاقمتم. قالت: «ألا تعتقدين أن صديق شيراكاوا غريب؟»

قلتُ كاذبة ببراعة: «أتعنين كوروساكي؟ إنه يبدو شخصاً عادياً تماماً». بالطبع، لا يبدو كورو عادياً. لا أحد منا يبدو كذلك. واجتماع ثلاثتنا في مجموعة صغيرة كهذه لا بد أنه يلفت الأنظار، حتى من المارة العشوائيين. كان هذا تصرفاً متهوراً بكل بساطة. وأضفت في ذهني علامة أخرى على لائحة خطايا شيراكاوا.

قالت: «حقاً؟» ثم صمتت.



كان المنزل الذي نزلنا فيه يقع بجوار تلٍّ في حي قديم تتخلله أشجار الأرز الجميلة والطرق البيضاء العريضة. استنشقتُ الهواء بعمق. انعكاسات الشمس على سطح البحر، ورائحة الأشجار، وحتى الأعشاب البرية على جانب الطريق، كلها بعثت في نفسي شعوراً عميقاً بالحنين. اللون الأخضر الكثيف هنا كان مختلفاً تماماً عن اللون الذي أعرفه في شمال الصين القاحل.

كدتُ أموت فضولاً لمعرفة الترتيبات التي أعدّها شيرو بالتفصيل، وما إذا كانت هناك أسباب خفية وراء عدم توجيهنا إلى طوكيو، حيث كان من المفترض أن يدرس بوهاي وتشين ولوو الطب. أي نوع من التضليل هذا، ولماذا بدا الشبان متحمسين؟ أمل بصدق ألا يكون هدفنا الانضمام إلى مجموعة ثورية معادية للإمبراطورية، لكن مع شيرو، لا يمكنني استبعاد شيء. عندما نزلنا من العربة، التقطتُ نظرةً مرحّةً من شيرو، وألقى نظرةً سريعةً نحو تشين، بمعنى: **تذكّري أن تقتربي منه.** إذا أردتُ من شيرو أن يجلب بكتو، فوجب علي أن أتعاون معه.

بُني المنزل على الطراز الياباني التقليدي، وهو مختلف عن العمارة الصينية، لكنه مألوف في نفس الوقت. ولجنا مدخلاً مسوّراً، أشعرنا بالدخول إلى أرض خاصة، رغم أن كل شيء كان مصنوعاً من الخشب لا الحجر.

كالشرفات الخشبية المظلمة، أو ما يُدعى بالإنغاوا، مع ستائر القصب المعلقة، والممرات الضيقة ذات الأبواب المنزلقة، وغرف التاتامي. كان المنزل قديمًا، يكتظُ بالخشب والظلال، تبرقشها أوراق شجيرات الكاميليا في الحدائق الداخلية، ورائحة الأرز النفاذة مع رائحة غامضة عصيٍّ عليٍّ تحديدها، كرائحة الأسرار.

خصّصت لنا مدبرة المنزل المسنة غرفًا في ملحق المنزل، بينما جلب الخادم الشاب أمتعتنا. يبدو أن هذا المنزل يعود إلى كاتب أجّره لكورو، ولهذا هناك قلة في عدد الموظفين. أومأت لي مدبرة المنزل بوجه عابس لأقّدم المساعدة. العزلة المحيطة بالمنزل وشعور الأسرار العابق في الهواء جعلاً أنفي يختلج بينما أُسرع وراءها. همست المدبرة لنفسها: «لو علم السيد القديم عدد الأجانب هنا، لندم بالتأكيد على تأجير منزله».

بطبيعة الحال، لم تكن تعلم أنني أفهمها، وأنا أطيع تعليماتها القاسية والإيماءات التي أمرتني بها أن أساعد في تحضير الشاي والمرطبات للضيوف، في المطبخ الحديث ذي الحوض المبلط والموقد الذي يعمل بالفحم. حسنًا، لا ألوم مدبرة المنزل على قلقها؛ فقد تضاعف عملها من رعاية رجل أعزب إلى التعامل مع مجموعة من الزوار. في ظل حكم توكوغاوا، كانت اليابان مغلقة أمام الأجانب لعدة قرون، إلا أن هذا لم يمنعني وأمثالي من الدخول والخروج. ورغم انفتاح الحكومة الميغية مؤخرًا على التأثيرات الخارجية، فلا يزال الأجانب نادرين نوعًا ما.

بعد أن انتهت سيدتي من تفرّغ أمتعتها واستحمّت، قدمتُ لها عشاءً مبكرًا من الأرز والمخللات وحساء الميسو والسّمك المشوي.

قالت لي: «سأرتاح الليلة. هلاً أخبرت بوهاي أنني لن أشاركهم، وأن ينقل تحياتي إلى مضيفنا؟»

أومأت برأسي وأنا جالسة على الطاولة المنخفضة التي أحضرتها من أجل طعامها.

- آه سان، لا تذهبي بعد. هذا المنزل يبعث فيّ شعورًا غريبًا للغاية.

بالطبع، فهذا المنزل يستضيف ثلاثة ثعالب تحت سقفه الليلة. وهذا يكفي لإثارة جنون معظم الناس، لكنني تجنبت الموضوع بحذر. قلت لها: «تاي فورن، هل أخبركِ قصة؟»

- هل هي قصة عنك، أه سان؟

«هل تريد أن تسمعي قصة عني؟» تعجبت في سرّي. لم تطلب ذلك من قبل، فقد كانت مهتمة بمشاعري كوني يتيمة من تشيتشيهار. وشعرت بضميري يطعنني.

ابتسمت وقالت: «نعم، أود ذلك. وأيضًا عن السهول».

حلّ الغسق على هذا المنزل الخشبي ذي الأفاريز المظلمة. وفي الخارج، كانت الزنابق تنمو في الحديقة. لا يزال الضوء كافيًا للسير دون فانوس، لكنه كان أشدّ ظلمة من أن يُسهّل التعرف على ملامح شخص ما. إنها الفترة المفضلة لدينا نحن الثعالب.

- ليست كل أجزاء السهول متشابهة. العشب نفسه يختلف، من حشائش الماعز إلى عشب الريش وعشب الأراك والشيح. إذا ترعرعتي هناك، فستفهمين كيف تنمو هذه النباتات لتغذي الخطوم الخمسة.

- الخطوم الخمسة؟

«الخيول، والأغنام، والماعز، والإبل، والثيران»، ثم تداركت فورًا: «أو الجواهر الخمس، إذا كنت تفضلين».

ضحكت سيدتي وعيناها تلمعان: «نعم بالطبع! لم أسمع هذه الكلمة منذ طفولتي. تابعي، من فضلك».

كان بإمكانني أن أمضي المساء كله في الحديث عن أنواع السهول والتايغا⁽¹⁾ المختلفة. لقد طلبت مني قصة، وهذه هي الأشياء التي نعلّمها لصغار الثعالب. كيف نستشعر الرياح، وأي النباتات نمضغ عندما نشعر بالأم المعدة، وكيف ننجو من شتاء طويل جليدي عندما يدفن الثلج الأعشاب الميتة. لكن بينما كنتُ أتحدث، شعرت بالظلال تمتدّ من حولي.

ظلال الماضي. في تلك الأيام التي كنتُ أُرِضُ فيها طفولتي وأنا مستلقية على العشب راضية. والشمس تنساب على وجهها الجميل. كلما تحدثتُ، شعرتُ بالحزن يتزايد. وفجأة، أدركتُ أن سيدتي كانت تحدّق إلي بصبر وأنني توقفت تمامًا عن سرد القصة.

(1) التايغا هي منطقة بيئية تتميز بالغابات الشمالية الشاسعة، وتتكون أساسًا من الأشجار الصنوبرية مثل الصنوبر والتنوب والأرزية. (المترجم)

قلت بمرح: «أين كنت؟ آه، لا تقعي في الحب على السهول، فلن يجلب ذلك إلا الحزن».

- لماذا تقولين ذلك؟ بسبب زوجك؟

كنت قد نسيت أنني ذكرت زواجي من قبل، فأومأت برأسي.

- هل كنتِ تحبينه؟

«نعم. حب يشبه الجنون». تذكرت الرياح التي تهب عبر الأعشاب وتنهت. ولأنها دائماً ما تكون متفهمة، قالت: «لم أقصد التدخل. ولكن هناك شيء شاعري حول السهول. حتى أنا...» وتوقفت عن الكلام.

سألتها: «هل قابلت زوجك في منغوليا الداخلية؟»

- أوه، لا. كان زواجاً مدبراً.

- ظننتُ أنكِ عرفتِه منذ الطفولة.

ابتسمت وقالت: «كان لدي صديق، جار صبي ترعرعت معه. لكنني لا أعتقد أنه كان مهتماً بي يوماً. كنا رفاق لعب، وكان مقدراً له أن يصبح عالماً عظيماً. أتساءل ما الذي حدث له في النهاية؟»

«أخبريني المزيد... عن ابن زوجك، وعن أولئك الذين بلا ضلال، لكنني لم أقل ذلك بصوت عالٍ. كانت ليلة من تلك الليالي التي تتكشف فيها الأسرار، عندما يكون المرء مرهقاً في بلد غريب ويشعر بالحنين.

قالت: «عندما كنتُ في الخامسة من عمري، أخذتني أُمِّي لزيارة أقاربها، وكان ذلك عندما رأيت السهول أول مرة». وتوقفت كأنها كانت على وشك أن تقول المزيد: «ثم، عندما بلغت الرابعة عشرة، أرسلتني أُمِّي مجدداً إلى أقاربها، على أمل أن تجد لي زوجاً. كنت مجرد ابنة محظية، لذا لم تكن لدي آمال كبيرة. رفضت أُمِّي أن تربط قدمي، كما ترين».

- هل وجدتِ والدتكِ لكِ زوجاً من منغوليا؟

«لقد حاولت. وضعتُ أحد أبناء عمومتها في الاعتبار؛ فتى يكبرني بأربع سنوات. ولكن عندما التقيناه أخيراً، كرهته». وابتسمت سيدتي بحزن: «لأشهر قبل اللقاء، كانوا يتحدثون عن مدى ملاءمة هذا الزواج. ولكنه كان شاباً قاسياً بلا مبرر. في أول مرة التقيته، كان يسلم خروفاً حياً لأنه نطحه».

أصابتنى الرعدة. إنها واحدة من التعذيبات القديمة في منغوليا، أن يُجلد الإنسان حيًّا.

- أوقفه الكبار قبل أن ينهي فعلته. كانوا غاضبين، وحقُّ لهم. تقيأت وأنا مرتدية أفضل ملابس على أمل مقابلة خطيبي المستقبلي.

يا لها من مسكينة، أرسلت إلى أقارب بعيدين لتكتشف أنها وُعدت بوحش.

- لم أكن أريد أن أخيب أمل أمي. لقد حاولت آملة ترتيب زواج جيد،

وبالطبع لم يخبرها أحد بالكثير عنه. كان قويًّا وماكرًا وراكبًا جيدًا،

لكن لم ترغب أي فتاة في الزواج به. ولم أرغب كذلك، رغم أن خالي

صفعني لهذا. كانت صدمة لي، إذ ترعرعتُ على حنان أمي.

- وماذا حدث؟

- بعد أشهر من البكاء والتوسل، أعادوني عندما هددت بقتل نفسي. قالوا

إنه إذا لم أتزوج ذلك الفتى، فلن أتزوج غيره. في الأيام التي كنت أشعر

فيها أنني سأختنق من هذا، كنتُ أخرج وأتأمل بحر العشب الفسيح،

أملًا في أن ينقذني أحدهم، كما فعل هو من قبل.

- من فعل؟

- رجل غريب، عندما كنت صغيرة. (ثم سكنت قليلًا) آه سان، هل تؤمنين

بوجود أناس لا يشيخون؟

قلتُ بحذر: «الجميع يكبر في السن»

- أنا أتحدث عن أناس يبدوون على ما كانوا عليه بعد مرور ستين عامًا.

شعرت بقشعريرة في فروة رأسي حين تذكرتُ النظرة التي ألقتها علي

سيدتي عندما قابلتني أول مرة. تلك النظرة التي وشت بمعرفتها جعلتني

أتساءل إن كانت قد قابلت أحدًا من بني جلدتنا من قبل.

قلت: «بعض الناس يشبهون أسلافهم تمامًا، عرفت صبيًّا كان نسخة طبق

الأصل من جده، كما قال الجميع. ها ها!» وبسرعة جمعتُ الأطباق عن الطاولة.

قالت متنهدة: «ربما تكونين محقة».

عندما عدتُ من الملحق حاملة صفيحة الطعام، مررت بمفترق المنزل

الرئيسي. كان الممر مفتوحًا من جانب واحد على الحديقة ونسيمها المعطر

بالخضرة المنعشة. توقفت، متيقظة. ثم لمحت لفافة على الأرضية الداكنة، معقودة كحال الرسائل التي تسلم باليد في الماضي. مكتوبة بالمنشورية، ذلك الخط العمودي المتدفق الذي لا يستطيع معظم صينيي الهان قراءته. كانت من شيرو: **سيتنزه تشين بمفرده بعد العشاء**. لم يخل شيرو قط في الترويج لمؤامراته. وبما أنني كنت بحاجة إلى مساعدته لإحضار بكتو نيكان، كان علي أن أبدأ بالأمر.

عندما خلدت سيدتي للنوم في المساء، خرجتُ إلى الحديقة. كان الظلام قد حل، لكنه كان مظلمًا بشكل مريح. شممتُ رائحة السمك المشوي العالقة في الهواء. ومن بعيد سمعتُ ضحكًا؛ كان الشباب قد أنهوا العشاء وانتقلوا إلى شرب نبيذ الأرز. قد يصل الأمر إلى ترديد بعض القصائد، وهم يشعرون بالتيه في أرض أجنبية. بهدوء، خلعتُ حذائي القشّي المضفر وتركته خلف فانوس حجري. ثم تسلقت جدار الحديقة. هناك أشياء كثيرة أنوي القيام بها الليلة.

22

- زوجتي يتلبسها ثعلب.

كان هذا أول ما تفوّه به السيد وانغ عندما وصل باو للقائه، شعر باو بالدهشة، لكنه تمالك نفسه، فقد يكون هذا ما يتوقعه الأثرياء؛ وكأن على الجميع أن يكونوا على دراية بمشاكلهم.

كان السيد وانغ في الأربعينيات، نحيل الكتفين ببطن بارز. وتُبرزُ الياقة العالية لسترته المانشوية ملامحه الشاحبة وعينه الضيقتين. غرّدت الطيور على أشجار البتولا في هذا القصر الريفي. ليس القصر ملكاً للسيد وانغ، كما أوضح بعناية، بل هو لأحد أصدقائه. وتساءل باو لماذا حرص السيد وانغ على إبقاء هذا الاجتماع سرّاً عن أهل بيته.

شُيّد القصر على الطراز الجنوبي للصين، بجدران بيضاء ونوافذ متقنة التصميم وأفنية داخلية جذابة. تتشابك النقوش الرمادية والسوداء على الأرضية الرخامية، متناسقة مع لوحة السُحب المرسومة على الحرير المعلقة على الحائط، وشُرّعت الأبواب الخشبية الطويلة للاستمتاع بإطلالة على بركة اللوتس. كان الجو ربيعياً في بداية موسمه، لكن رغم ضوء الشمس الخفيف، شعر باو بالبرد.

- ماذا تقصد. يتلبسها ثعلب؟

أخرج السيد وانغ بطاقة عمل باو؛ البطاقة التي أعطاها للخادمة في القصر الريفي، ووضعها على الطاولة بينهما. قال: «سمعتُ أنك تتعامل بسرية ولديك سمعة طيبة. وأنا أريد شخصاً يأخذ هذه الكائنات على محمل الجد». صدرت هذه الكلمات الغريبة من فم السيد وانغ. وبدا كأن الزمن قد عاد ألف عام، حيث يجلس هو وباو كأنهما سيدان يتحدثان في غابة عن الطوالع والندارات. قد يعني أن تكون زوجته «ممسوسة من ثعلب» أنها تخونه. هناك العديد من القصص المشابهة، عن زوجة يغويها رجل غريب جذاب يتردد على

غرفة نومها رغم أن الأبواب تكون مغلقة بإحكام. يقال عن هؤلاء النساء إنهن يصبحن مضطربات وشهوانيات وغير واعيات. بالطبع، يفكر باو بسخرية، لا شيء سوى الجنون قد يدفع زوجة مطيعة إلى التوق نحو عاشق شاب وسيم. كان حريصًا على أن يبقى تعابير وجهه جامدة، رغم فضوله الخاص. سأل باو: «هل تقصد أنها ترتبط بشخص... غريب؟»

هزَّ السيد وانغ رأسه: «ليس الأمر كذلك. هي تعتقد أنها شخص آخر».

- هل عرضتها على طبيب؟

- بالطبع. لكنها ذكية جدًا ولا أحد غيري يشك في شيء.

- عذرًا، لكن ألا تعتقد أن هذه مسألة روحية تتطلب راهبًا أو طارد أرواح؟

نظر السيد وانغ إلى ما وراء الأبواب المنحوتة. كان لون السماء أزرق باهتًا، تمامًا كلون كأس نبيذ من الخزف الثمين: «لقد اختفت. أريدك أن تجدها».

كان هذا بشأن المرأة التي هربت من الجناح السري. حتى باو أراد معرفة قصتها. قال: «هل تريدني أن أتحقق من خلفيتها؟» إذا كان الأمر كذلك، فهو يشتبه في أنها قد ظهرت في قرية وو قبل عامين، تبحث عن جرو ثعلب. تسارعت نبضات قلبه؛ من الغريب أن يصبح مهتمًا شخصيًا بهذه القضية لدرجة أنه سيتابعها حتى لو لم يدفع له أحد.

لكن السيد وانغ تجاهل عرضه: «ماضيها لا يعنيني؛ في الواقع، يجب أن تكون حذرًا حتى لا يصل الخبر إلى زوجاتي الرسميات».

- متى هربت؟

«منذ شهر، لكنني لا أعرف السبب. لقد وفّرت لها كل ما تحتاجه. طلبتُ أثاثًا جديدًا وجهاز الزفاف». وبدا كأنه مظلوم.

- هل يمكنك وصفها؟

- طولها متوسط. بشرتها صافية. إنها جذابة جدًا. لا يمكنك أن تخطئها أبدًا.

- أتملك صورة لها؟

تردّد السيد وانغ قبل أن يخرج صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود من جيبه. ظهرت المرأة في الصورة شابة ترتدي ملابس بسيطة، وهو لا يتناسب مع ما يُتوقع من زوجة رجل ثري؛ إذ يُفترض أن يكون شعرها

مصنفًا بأسلوب معقد وصلب، يعكس طراز المانشو التقليدي المرتبط بأسرة الحكم. يوحي الضوء في الصورة بوجود ثلوج، مما يضيف عليها جواً غامضاً ومتألقاً. حاجباها مستقيمان وسميكان، ونظرتها الواضحة موجهة إلى يسار الكاميرا. كانت الصورة أخاذاً.

تفحص باو الصورة بعناية، وقلبه ينبض بسرعة. ربما التقطت هذه الصورة بواسطة المصور المرتبط بالمطعم وقرية وو. قلبها ليرى إن كان هناك ختم. نعم، يكتو نيكان.

قال مشيراً بوضع الصورة في جيبه: «هل لي بذلك؟»

عقد السيد وانغ حاجبيه، ولم يكن يرغب في التخلي عنها لكنه أدرك أنه مضطر. قال بلهجة محذرة: «أريدك أن تعيدها مجدداً عندما تجدها».

مضت المقابلة بتردد وسرية محرجة. لم يتوقف الأمر على رفُض العميل السماح لباو بتفحص المنزل الذي فرت منه تلك المرأة، بل إنه أيضاً لم يبلغ السلطات كما يبدو. وكلما ألحَّ عليه باو، يحيد السيد وانغ بنظره ويعطيه إجابات متقطعة:

1. اختفت من جناح مغلق.
2. في آخر مرة شوهدت فيها، كانت ترتدي ملابس أنيقة، تونك فاتح اللون يُعرف بالتشانغبي مطرّز بأشكال الطيور والزهور، وسروال داكن فضفاض.
3. لا، لا يستطيع باو مقابلة الخدم في منزله.

كان باو يفضل استجواب جميع أفراد المنزل بشكل رسمي. فثمة الكثير مما يعرفه الخدم، خاصة فيما يتعلق بأي تلميح للإخلال بالنظام. في الوقت نفسه، سيوفر عليه ذلك صعوبة تفسير مهمته السابقة في القيلا وهو متخفٍ. قال باو متسائلاً: «نظرًا لملابسها الخفيفة، هل من الممكن أن تكون قد اختُطفَت؟»

ساد الصمت. وبدأ أن السيد وانغ يكافح مشاعره، إذ تكونت قطرات عرق رقيقة على جبهته، وارتعش وخذه الشاحب. تساءل باو إذا كان السيد وانغ مريضاً، وتذكر كلمات الخادمة في القفلا: **لم يكن السيد على طبيعته لفقرة**. ربما السيد وانغ هو من بحاجة للمساعدة، وليس المرأة التي اختفت. فكر باو في فينغ، المعروفة أيضاً باسم تشونخوا، التي عُثر على جثتها المتجمدة على عتبة أحد المطاعم على بعد ميلين. وقال باندفاع: «هل لي أن أسألك عن الحفلة التي استضافتها في بيت شاي قبل أكثر من شهر؟ أعتقد أن إحدى العاهرات اختفت في منتصفها».

بدت ملامح الحيرة على وجه السيد وانغ. وعندما قدم له باو المزيد من التفاصيل، هز كتفيه بلا مبالاة: «آه، تلك الحادثة. لقد سمعت من بيت المتعة لاحقاً. كان الأمر مزعجاً بعض الشيء لأنها غادرت، إذ كنا بحاجة إلى فتاة أخرى لتقديم المشروبات، ولكنهم أعادوا المبلغ المدفوع».

- هل كان هناك شبان وسيمون في الحفل؟

- لا. كان عشاء عمل، لكن الغرفة الخاصة المجاورة كانت محجوزة لبعض طلاب الطب. كنت أعرف بعضهم؛ أبناء معارف، وقد مروا لتحيتي. إذا كنت تبحث عن شاب ما، فربما جاء من تلك الحفلة.

لم يُبدِ السيد وانغ اهتماماً كبيراً، إذ كان تركيزه منصباً فقط على السيدة التي هربت من قبيلته. لم يُلق على باو أسئلة أخرى كما يفعل الناس عادةً، بل تصرف كمشغوف تملئ عيناه بالذهم الشديد. وعندما دخل خادم إلى الغرفة، رفع السيد وانغ نظره، وكأن المرأة التي يبحث عنها قد تظهر فجأة. بدت بشرته الشاحبة مشدودة على عظام وجنتيه.

«بخصوص خطيبتي»، لاحظ باو صوت عميله الممسوس، ورأى كيف يفتح قبضته ويغلقها: «أريد استعادتها».

سأله باو مرة أخرى: «لماذا تظن أن ثعلباً يتلبسها؟»

- لا يوجد سبب آخر لاختفائها. لقد أعطيتها كل ما يمكن أن تتمناه. ثم إنها كانت مهتمة بشكل غير عادي بتلك الكائنات، حتى إنها طرحت الكثير من الأسئلة حول المصور الذي اشترى جرو الثعلب. (وانخفض صوته ليصبح همساً): عند الغسق، كانت عيناها تلمعان بشكل غريب،

وشعرت أن قلبي نبض بالرهبة والرغبة. يظن مشرف منزلي أنني مسحور؛ ويتهامس العبيد ويشيحون وجوههم.

تفاجأ باو بتدفق المشاعر المفاجئ هذا، فرمش مرتين. ضحك السيد وانغ فجأة، ثم عاد وجهه ليكتسي بتعبير متجمد وهو يقول: «أعلمني إذا وجدتتها».

بعد أن أخذ باو إذنه بالانصراف، ذهب في نزهة لتجميع أفكاره. لقد تجاوزت امتدادات مدينة موكدن جدرانها الأصلية التي بدأت في التهاوي، حيث أخذ الناس يفككون الطوب تدريجياً لاستخدامه في تدعيم منازلهم. وبينما كان باو يسير تحت ظل الجدار الضخم المتداعي، أخذ يفكر في عميله الجديد والظلام الذي يحيط به. عيناه ضيقتان وحاجباه رقيقان، وبشرته شاحبة كالشمع الذي لم يمسه نور الشمس. رجل مثل هذا مليء بالأسرار. اللغة العاطفية المتدفقة التي استخدمها السيد وانغ في نهاية حديثهما ذكّرت به آه يان، وكيف تسارعت كلماتها أيضاً عندما وصفت السيدة الثعلب. وكأن مشاعر عميقة تفيض من داخلهما، دؤوبة كنبع يفيض بلا توقف. يتساءل باو أحياناً إن كانت موهبته في سماع الأكاذيب قد أزاحت جزءاً من ذاته: إذا كان الإله الثعلب، بعد أن شفاه قد ترك مساحة يملؤها الآخرون بشكاواهم ورغباتهم (ولماذا لا يتذكر ما قالته له مربيته العجوز؟ دعوتُ الإله الثعلب أن يصرف عنك...؟).

توقف باو تحت شجرة الصفصاف ليتأمل الصورة مرة أخرى، متسائلاً إلى أي مدى يمكن أن يكون السيد وانغ مجنوناً. كلماته «زوجتي يتلبّسها ثعلب» حملت طينياً خافئاً من الخداع، لكنها لم تكن كذبة كاملة أيضاً. هل كان ذلك لأنه استخدم كلمة «زوجة»، وهو ما يعرف باو أنه غير صحيح، أم أن الأمر متعلق بكلمة «ثعلب»؟ لم يستطع فك اللغز؛ كان السؤال ينهشه من الداخل، كما كانت أرواح الثعالب قديماً تأكل كبِد الإنسان.

ربما تكون هذه المرأة وسيطة روحية، واحدة من أولئك الذين يدّعون أن روح الثعلب تتلبسهم. يُحيط شعور الاحتقار بهؤلاء الممارسين، فهم ليسوا آلهة بأنفسهم بل مجرد مؤولين مدّعين. ينحدر معظم الوسطاء الروحيين من طبقات متواضعة؛ وأغلبهم نساء تمرّدن على أزواجهن وعوائلهن بادعاء امتلاكهن قوى روحية. فمن سيجرؤ على تأديب كنة عنيدة تدّعي أنها تتحدث

باسم إله؟ امتيازهم الوحيد هو ادعاؤهم أنهم يجسدون أرواح الثعالب، ويعالجون المرضى بوسائل تشمل كتابة التعاويذ على شرائط من الورق الأصفر، ويتنبئون بالمستقبل.

بالمحصلة، يرى باو أنهم محتالون.

ذات مرة حقق باو في قضية لعميل يشتبه في أن ابنه يتعرض للاحتيال على يد وسيطة روحية تدعي أنها تتلبسها روح ثعلب. قال العميل: «أريد أن أعرف إن كانت محتالة». شعر باو بالفضول ووافق على التحقيق. لم تذكر مربيته العجوز شيئاً عن الوسطاء الروحيين؛ في نظرها، كان الإله الثعلب في المزار الصامت كافياً، ولا حاجة للتواصل معه عبر شخص آخر.

في صباح خريفي جميل، زار باو وعميله، تشانغ، الوسيطة الروحية. كان المنزل في حيٍّ فقير، لكن الفناء الأمامي كان مزيناً بأصص زهور مزججة ثمينة. وبينما كانا ينتظران، أوضح تشانغ أن الوسيطة يُقال إنها قد تلبست بروح ثعلب بعد زواجها بفترة وجيزة. فمزقت ملابسها وركضت صارخة شبه عارية. ضربها زوجها بعنف، لكنها تجاهلت الألم، مما أقنع المتفرجين بأنها كانت ممسوسة حقاً. وأخيراً، أعلنت بصوت عميق أن الثعلب كان عشيقها.

لم ينتهيا من تخافتهما حتى جاء صبي في الثامنة أو التاسعة بوجه متسخ، ليرشدهما إلى الداخل. من نظراته الحادة، اشتبه باو في أن الطفل كان يُرسل بانتظام للتنصت على محادثات العملاء.

حيّاه باو بلطف، وقال: «هل أنت قريب الوسيطة؟»

تردد الصبي بحذر ثم أوماً برأسه.

- هل هي ممسوسة بروح ثعلب؟

قاطعه العميل: «لماذا تسأل؟ لن يخبرك بشيء».

تجاهله باو وانتظر بصبر، على أمل أن يتحدث الصبي. فلا فائدة لكل هذه الإيماءات ما لم يسمع صوته. أجاب الصبي بسرعة: «نعم، هي كذلك». ثم استدار على عجل.

فكر باو: آها.

كانت غرفة الوسيطة صغيرة يفصلها ستار أحمر، وتملؤها رائحة البخور والخمر. عُرضت بيضات مسلوقة على صفيحة، ووُضعت زجاجات الخمر أيضاً، وهي على ما يبدو عروض تقليدية لروح الثعلب. أخرج عميل باو زجاجة فاخرة من خمر الموتاي ووضعها على الطاولة توطئة. ثم انتظرا في صمت، واعتقد باو أنه سمع بعض الحركة خلف الستار.

قال لنفسه: **إنها وسيطة روحية فحسب.** ومع ذلك، استمر الصمت. وبينما كانا يقفان مكانهما، بدأ باو يشعر بقشعريرة في فروة رأسه، وتصلب في وجهه، وتصبب العرق من راحتيه. أحسّ بشعور لا يُحتمل وكأن شيئاً ما يراقبه بانتباه من خلال ثقب في الستار الأحمر المتسخ.

بجهد، حوّل باو نظره بعيداً. وفجأة سُحب الستار الأحمر بقوة، فخرجت امرأة بشعر مشدود إلى الخلف وعينين لامعتين كأعين الخنافس.

قدّم تشانغ نفسه وباو على أنهما صائغا ذهب، وهو ما أعدّاه لاختبار قدرات الوسيطة. قال تشانغ: «مؤخراً سُرق بعض الذهب من متجرنا. نشك في أحد الموظفين، لكننا لا نعرف من هو».

أشارت الوسيطة، فقال الصبي الذي أرشدهم إلى الداخل: «ضعوا ما في جيوبكم على المزار».

وضع تشانغ قطعة فضة على الطاولة بجانب البيض المسلوق. واستقرت ذبابة تطن في الغرفة المغلقة على الستار الأحمر. عندما شعر باو أنه على وشك الاختناق من رائحة البخور المحترق، بدأت الوسيطة في التمايل ذهاباً وإياباً. ثم صرخت بصوت عميق متشنج: «كاذب! لا يزال في جيبك مال!»

مذعوراً، سارع تشانغ بإضافة قطعة فضية أخرى على الطاولة. تابعت الوسيطة بالصوت الغريب ذاته: «للكشف عن السارق، احرق هذه الورقة واجعل جميع المتدربين في متجرك يشربون رمادها مع كأس من الخمر. بعد ذلك، سيُعترف أحدهم».

بدا تشانغ متأثراً بجرأة الوسيطة وعينيها السوداوين كالقوالب المجفف، وبقدرتها على توبيخه. حتى باو شعر بالإعجاب. عادةً لا تجرؤ امرأة من طبقة منخفضة على إلقاء الأوامر على تاجر ثري.

سأل باو: «كان لي صديقة طفولة أرسلت إلى منغوليا الداخلية للزواج. هل سأراها مرة أخرى؟»

نظرت الوسيطة إليه وقالت: «نعم».

شعر باو بقشعريرة تسري في عموده الفقري، لكنه أبقي وجهه دون تعبير وهو يضع قطعة نقود أخرى على الطاولة: «وسؤالي الأخير: هل أنت ثعلب حقًا؟»

كان يتوقع أن يُقابل بالضحك أو الغضب، لكن بدلًا من ذلك، قالت المرأة بجدية تامة: «بالطبع».

خرجًا مترنحين إلى ضوء الشمس الساطع. وشعر باو بالدوار قليلًا من رائحة البخور. قال العميل بحماس: «حسنًا؟ هل هي محتالة؟»

قال باو: «إجابتها الأولى بشأن الذهب المسروق كانت تخمينًا محسوبًا. إن أُجبر الموظف المذنب على شرب الرماد وأداء قسم أمام روح، فقد يعترف. كما خُفِّت بشكل صحيح أن لديك المزيد من المال في جيبك. لكنها لم تدرك أننا اخترعنا القصة بأكملها. أما بالنسبة للسؤال الأخير...»

قاطعه تشانغ بنفاد صبر: «نعم، هل هي ثعلب؟»

- لا، بكل تأكيد.

كان باو متأكدًا من أن هذه الوسيطة محتالة منذ اللحظة التي أخبرهم فيها الصبي الذي أرشدهم أن الوسيطة ممسوسة بروح ثعلب.

قال الصبي: «نعم، هي كذلك»، وهو يستدير، وعلى الفور سمع باو الكذبة في صوته. كان يمكن أن يلاحظ ذلك من وجه الصبي المبتعد أيضًا. وعندما تحدثت الوسيطة بثقة عن الإمساك بالسارق باستخدام تعويذة، سمع الكذبة في صوتها أيضًا، رغم ادعائها التحدث بصوت أعمق. وأخيرًا، عندما سألها: «هل أنت ثعلب حقًا؟» كانت إجابتها كذبة أيضًا.

ومع ذلك، مرّت عليه لحظتان غريبتان. الأولى عندما وقفًا منتظرين أمام ذلك الستار الأحمر البالي، وشعر باو بشعور غير مريح بأن شيئًا ما يراقبه. والثانية عندما سأل عن صديقة طفولته. لقد ألقى السؤال لأنه بدا مناسبًا أن يسأل عن شيء من الماضي لا يؤثر كثيرًا. لكن إجابة الوسيطة، بأن نعم، سيرى تاغتا مرة أخرى، بدت له صادقة تمامًا.

تنهد باو مستعيدًا ذكرى تلك الحادثة. ربما كانت المرأة التي أخذت جرو الثعلب في قرية وُو محض مخادعة كتلك الوسيطة التي التقاها سابقًا. قد تكون خدعت السيد وانغ أيضًا، رغم أن شكوكه تهتز قليلًا في هذا الجانب. ذكّر نفسه بأن هناك فرقًا بين الوسيطة الروحية والثعالب. الأولى مجرد بشرية تزعم التحدث باسم الأرواح، أما الثعالب، فلا يزال غير متأكد من ماهيتها. أهم آلهة؟ أم أرواح؟ أم طفيليات تتغذى على البشر؟ فكرة وجود حيوان يمكنه تقليد الإنسان تأسره وتخيفه في آن واحد.

ربما كان يبحث طوال حياته عن تجربة مشابهة لما مرّت به تاغتا، حين أخبرته عن الثعلب الأسود الذي عاد إليها على هيئة رجل. ولكم رغب في رؤية الإله الثعلب بنفسه! لكن القدر لا يتّسم بالعدل؛ فمن لا يبحث عن الآلهة قد يصادفها دون أن يدرك.

كانت الرسالة التي التقطتها في الممر تقول: **سيتنزه تشين بمفرده بعد العشاء.** من الواضح أن هذه كانت دعوة للتحرك. كان شيرو قد وعد بكتابة رسالة يستدعي بها يكتو نيكان إلى موجي. مقابل ذلك، كان عليّ التقرب من تشين.

بعد أن قفزت فوق جدار الحديقة، هرعتُ لملاقاته عند البوابة الأمامية. لكنني استدرتُ بسرعة كبيرة، فاصطدمتُ بتشين. ترنحنا مبتعدين عن بعضنا وأنا أعتذر، محاولة التبرير بأنني كنت في مهمة. قال تشين: «لقد تأخر الوقت، دعيني أرافك».

أبقيت رأسي منخفضًا بتواضع، وتركت له القيادة. كان القمر يرتفع، والشارع ينسج ظلالًا وأحلامًا حولنا. بعد فترة من الصمت، قال تشين: «سمعت من بوهاي أنك لستِ خادمة حقيقية. هل أنتِ موظفة عند شيراكاوا؟» أجبته بلهجة مبهمة: «أنا هنا فقط لأراقبه من أجل جدته».

- فهمت. لم يسبق لي أن قابلت محققًا محترفًا من قبل.

ولا أنا في الحقيقة. في الأيام القديمة، كنا نسميهم مصلحين أو وكلاء وربما جواسيس. أشخاص مستقلون يعملون لحسابك.

- إذا دفعت المال، فيمكنك الحصول على أي نوع من الخدمات تقريبًا.

تورّد وجهه قليلًا وقال: «هل هذا هو السبب في رفضك عرض العمل الذي قدمته لك سابقًا في داليان؟ لأنكِ كنتِ موظفة بالفعل؟ لقد كان عرضًا جادًا، كما تعلمين. كنت واثقًا من أنكِ سترضين عمتي». فكرت بمرارة: **وأنتِ أيضًا بالطبع.**

توقفنا تحت شجرة صنوبر كبيرة. ومنها انحدر الطريق نحو المرفأ، حيث كان بإمكاننا شم رائحة الملح الباهتة. تنحنح تشين، وقد بدا عليه الارتباك: «عائلتي متطلبة للغاية؛ لقد اخترتُ الدراسة في اليابان للابتعاد عن والدي».

وعمتي تشبهه تمامًا؛ حتى إنها جعلتني أتحرى عن زوجها، وهو رجل يُسمى وانغ. كانت هناك شائعات مقلقة حوله وحول حديقته الريفية التي يمتلكها خارج موكدن».

شهقت فجأة. ألم يذكر لوو في ذلك العشاء الأول قبل أن يأتي شيرو ويخرب كل شيء أن يكتو نيكان كان يعرف عمّ تشين في موكدن؟ وألهمتُ استنتاجًا ذكيًا: «الحديقة في حي الصفصاف، وصاحبها المولع بمغنيات الأوبرا؟»

أجاب تشين: «نعم، هل أخبرك شيراكاوا؟ عمتي هي زوجته الأولى، وقد كانت تشك في الحفلات الخاصة التي كان يقيمها زوجها، لذا طلبت مني أن أحضر واحدة من حفلاته الصيف الماضي، لأتحقق مما إذا كان يحتفظ بنساء أخريات. كان مشغولًا بتصوير مجموعته من النباتات النادرة، وهذا ما أعطى بوهاي ولوو العذر للحضور أيضًا».

- وماذا وجدت؟

قال ببرود: «حسنًا، كان يحتفظ بنساء فعلا. وذلك على فترات متقطعة، في جناح صغير كما قال الخدم». بالنسبة له، لم يكن وجود امرأة إضافية شيئًا يستحق الاهتمام. كنت أرغب بشدة في استجوابه، ربما عن طريق ربطه بشجرة الصنوبر وإشعال النار تحت قدميه، لكنني كبحتُ رغباتي: «أبلغتُ عمتي أن الجناح كان فارغًا عندما تحققنا منه. استمرت الحفلة في المنزل بضعة أيام. كنتُ وبوهاي ولوو نأمل في بعض الإثارة، لكنها كانت الحفلة المعتادة؛ تكوّنت من مشاهدة الزهور وعقد صفقات خلف الأبواب المغلقة».

- هل عقدت أي صفقات؟

- لا. لكن ربما عقد لوو صفقة. لقد خسرت عائلته المال في مضاربات مؤخرًا، وكان يشعر بالقلق حيال ذلك. الحدث الوحيد المثير للاهتمام كان قراءة الشعر، حيث شارك الناس حكايات عن الأشباح والثعالب. وسخر المصور يكتو نيكان من الخوف من هذه المخلوقات.

كتمت غيظي: «يا له من رجل مثير للاهتمام».

قال تشين: «نعم. ربما كان من الأفضل ألا نلتقي به أبدًا. في الواقع، أندم على ما حدث بعد ذلك».

شجعته قائلة: «أكمل». ربما بدا تشجيعي زائداً، إذ اقترب تشين مني مجدداً.

«لكن لماذا تريدان معرفة المزيد عنه؟ هذا ليس المكان المناسب للحديث. دعينا نعد إلى غرفتي». وأمسك ذراعي بطريقة لم تكن مريحة تماماً.

كنّا نقف عند حافة الطريق، حيث كان منحدر الشجيرات يفصل بين غابتين تمتدان تحتنا. دفعة قوية كانت كفيلة بأن تجعل تشين ينزلق نحو الأسفل. فكرت في هذا الخيار للحظة، لكن تشين أساء تفسير ترددي على أنه خجل أنثوي.

قال وهو يجذب يدي: «لدي بعض النبيذ الجيد. سنكون هادئين جداً، ولن يعلم أحد أبداً».

غرست قدمي في الأرض كالحمار: «ماذا عن تلك الشجيرة هناك بدلاً من ذلك؟»

- الشجيرة؟

«نعم». تلك الشجيرة الكبيرة الواقعة أسفل المنحدر قليلاً ستكون مكاناً ممتازاً لربطه. بإمكانني استخراج كل المعلومات التي أريدها عن بكتو وتركه هناك لبضعة أيام إذا كُمتُ فمه. نادراً ما يبحث الناس داخل الشجيرات. لا أعرف السبب، لكنني دائماً ما أبحث داخلها.

بدا تشين متشككاً. على الأرجح لم تُجبه أي فتاة من قبل بهذه الطريقة الفظة. وبينما كنت أفك الحزام القماشي حول خصري، مفكرة في أنه سيكون مفيداً لربطه، أضاءت عيناه. قال بحماس: «حسناً، سيناسبني ذلك».

«حقاً؟» والتقطت حجراً من الأرض، حجمه وشكله يناسبان راحة يدي تماماً.

قرّر تشين أن هذه ستكون قصة رائعة يرويها لأصدقائه، ورغم تردده في البداية، فقد بدأ يتسلق المنحدر المتهالك. كنت أتبعه، عندما سمعت صوت خطوات تقترب.

كان القمر قد ارتفع، وأضاء نوره البارد المنحدر فتلون بالأبيض. ظهر شخص فوق قمة التلة عند الطريق. إنه كورو. أستطيع تمييز هيئته عبر سهل واسع، مهما كانت ظلمة الليل. تلك الوقفة الرشيقة، والاكتاف العريضة مع

القدم اليمنى المائلة قليلاً للخارج. لاحظته تشين أيضاً، وبدأ يعود مسرعاً نحو الطريق.

قال وهو يلهث قليلاً: «آه، كوروساكي! نحن... أعني، كنتُ أتنزّه فحسب». - هل أزعجتكما؟

قال: «لا، إطلاقاً». ووصل تشين إلى قمة المنحدر أولاً، متجاوزاً إياي على عجل وكأننا لا نعرف بعضنا. خلف حديثه المتسرع، شعرتُ بإحراج شديد. بقيتُ صامتة، ولكن عندما وصلت إلى القمة، مدَّ كورو يده وسحبني دون أن ينبس ببنت شفة. ثم أزال الحجر من يدي الأخرى بصمت.

الأمر الجيد في كورو هو أنه لا يطرح الأسئلة. والسيئ في الأمر هو أنك لا تعرف أبداً ما الذي يفكر فيه. لكنني رضيتُ بهذا؛ إذ لم أكن بحاجة لمعرفة ما يدور في عقله. لقد وعدني سابقاً بالألا يعترض طريقي، وكان، كما ذكرتُ نفسي، مخلصاً في الحفاظ على وعوده (باستثناء تلك المرة، لكني لم أرغب في تذكرها؛ لا، لن أفكر في ذلك).

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ سيدتي مبكراً. وعندما دخلتُ لمساعدتها في ارتداء ملابسها، كانت جالسة بالفعل تتأمل الحديقة: «لقد جاء بوهاي في وقت مبكر. يريد استعارتك لأنك تتحدثين اليابانية». ونظرتُ إلي بقلق: «قال إنك ستذهبين مع شيراكاوا. ما الذي يحدث؟»

لم أكن أعرف أيضاً، لكن اعترفتني شكوك مزعجة. لم أتمكن من إنهاء حديثي مع تشين الليلة الماضية. ما الذي كان يعرفه عن بكتو نيكان... والأهم، ما الذي ندّم عليه؟

تلقيتُ تعليمات بالذهاب إلى غرفة التاتامي ذات الحوائط الثمانية حيث كان الشبان يتسكعون بالأمس، فذهبت وطرقت الباب المنزلق بأدب. ألقى نظرة سريعة حولي، فرأيتُ شيرو، وبوهاي، ولوو. ووجدتُ مجموعة باهظة من الكيمونو مطوية وموضوعة في وسط الغرفة. رفعت حاجبي فقال شيرو بمرح: «نعم، إنه بالضبط ما تفكرين فيه! أودُّ منك ارتداء هذا. لدينا موعد اليوم».

«لماذا؟» نظرتُ إليه بغضب.

قال لولو وهو يشدُّ شفتيه الطويلتين: «هذا سخيف. لا يمكنك أن تجعل الخادمة ترتدي مثل سيدة شابة. لنستأجر بدلاً من ذلك غانية من حيِّ المتعة». قال شيرو: «هذه ليست مدينة كبيرة. إحضار غريبة سيكون أفضل. أضمن لك أن تسير الأمور على ما يرام».

- وماذا عن مدبرة المنزل والصبي الذي يساعد هنا؟

قال شيرو: «لن يتحدثا أيضًا». ثم نظر إليّ: «نحن نجتمع المال من صاحب مصنع ثري هنا في موجي. ومع ذلك، لديه انطباع أن سيدة شابة سترافقنا في المحادثات».

- مرافقة؟

قال شيرو: «قلت له إنه إذا تفرغ لنا اليوم، سأحضر ابنة عمي الجميلة لتسلية».

متهور، متهور. هذا أسلوب شيرو تمامًا، لديه دائمًا العديد من الأمور على النار في آن واحد. هذا الإفراط في التصرف هو السبب الذي يؤدي إلى اكتشافنا أحيانًا، وقطع رؤوسنا، أو غليتنا حتى الموت في زجاجات.

لا بد أن وجهي بدا قاسيًا، لأن شيرو تمتم في أذني: «إذا فعلت هذا، سأستخدم المال لدفع تكاليف سفر يكتو إلى هنا».

بقدر من الغضب، أخذتُ الملابس وتوجَّهتُ إلى غرفتي الصغيرة. ارتداء الكيمونو ليس بالأمر السهل. في الواقع، هو أكثر تعقيدًا من ارتداء الملابس المنشورية. معظم الفتيات من العائلات المرموقة لا يمكنهن ارتداؤه بأنفسهن، ولهذا السبب أرسل شيرو مدبرة المنزل لمساعدتي. بدت غير مرتاحة، لكنها خاطبتني بأدب باللغة اليابانية.

قالت بصوت رسمي: «السيد شيراكاوا يقول إنكِ لستِ خادمة في الحقيقة». تساءلت عما قد يكون شيرو نسجه من القصص الجديدة، لكنني كنت ممتنة لمساعدتها. فحتى أبدو في مظهر سيدة شابة ثرية، يلزمني بعض المساعدة، خاصة وأن الكيمونو مصنوع بحجم واحد، ويحتاج إلى الطي والتثبيت باستخدام أربطة إضافية لتحقيق الملاءمة المناسبة.

كان الكيمونو الذي أعطاني إياه شيرو يلائم ما قد ترتديه سيدة شابة من عائلة ثرية. كان الوقت في أواخر الربيع، لذا اختاروا لي واحدًا مزدانًا بأزهار الوستارية وأوراقها، مع حزام الأوبي البنفسجي وحبل أرجواني داكن.

لطالما كان لدى شيرو ذوق رفيع. كما ذكرت مدبرة المنزل أن مصففة شعر محترفة ستأتي لتصفف شعري قبل موعدنا. كنت ممتنة لهذا أيضًا، إذ إن تصفيف شعر سيدة بشكل لائق، حيث يُدَهَّن الشعر الطويل ويُجَعَّد بشكل معقد، سيستحيل عليَّ فعله وحدي.

من الجدير بالذكر، بالطبع، أن هذه الملابس والتصرفات تخص الطبقة العليا. النساء في المنازل الصغيرة يربطن شعرهن في كعكات خشنة، ويرتدين كيمونو من القطن الأزرق الخشن، ويربطنه بخيط بدلًا من أحزمة الأوبي. بل إن بعض النساء الريفيات يستخدمن حبال القش، إذ لا يملكن سوى ذلك. أما الكيمونو الفاخر الذي أعطاني إياه شيرو فقد كان بعيدًا عن أحلامهن. أجبرت مدبرة المنزل الآن على استخدام لغة مهذبة معي، نظرًا لتغير مكانتي المفاجئ. ورغم ذلك، بدت أقل برودة من الأمس. قالت: «لا عجب، بما أن مهنة السيد كوروساكي كذلك، لكنني تمنيتُ لو أخبروني منذ البداية أنك واحدة من أتباعه. أعتذر مرة أخرى عن أي وقاحة بدرت مني».

«ما هي مهنته؟» سألت متعجبة من تقبُّلها لكل الأحداث الغريبة هذا الصباح.

قالت: «إنه روائي. مشهور جدًا».

كوروساكي، روائي؟ لا بد أن هذه كانت دعاية.

- كوروساكي سينسي يكتب تحت اسم مستعار، بالطبع. لكنه كتب قبل عام رواية قصيرة فازت بالعديد من الجوائز. لقد نالت إعجابًا كبيرًا في الأوساط الأدبية.

- ما موضوع الرواية؟

- كانت مجموعة من قصص الأشباح. تدور أحداثها في شمال الصين، وهو المكان الذي أتيتم منه جميعًا، حسبما سمعت. لقد قرأتها بنفسِي؛ وكانت رائعة للغاية.

انعكست على وجهي تعابير الدهشة في المرأة التي كنتُ أنظر إليها، فحرصتُ على إغلاق فمي بشكل مناسب.

أصبح باو محققًا عن طريق الصدفة. بدأ مسيرته المهنية بصفته عالمًا، حيث تقدّم لامتحانات الإمبراطورية، ولا يزال يتذكر الزنانات الفردية المخصصة للامتحانات، حيث كان العلماء يُحبسون فيها لأيام يكتبون تعليقاتهم على النصوص. يتذكر مرارة الأعصاب المتوترة، والإيماءات المخرجة للزملاء الممتحنين وهم ينتظرون دخول قاعات الامتحان. كما يتذكر صوت الذبابة وهي تطن وتزحف فوق الورق. في منتصف الامتحان، أصيب باو بمرض مفاجئ. ارتجف جسده في قشعريرة، وتورّمت عيناه، وانهار من الحمى الشديدة. وفي وقت لاحق، قيل له إن الحمال الذي ساعده على الخروج من قاعة الامتحان أفاد بأن باو طلب رؤية والدته: «يا له من شاب مسكين، لا بد أنه يفتقدها بشدة».

ظن باو أن الحمال قد أخطأ في تقديره. فهو لم يكن ليدعو والدته قط. ومع ذلك، شعر بظلمها يرافقه. ماذا كانت لتقول الآن، وهي تراه يتعقب أثر امرأة مفقودة؟
ربما لا شيء.

ابتسم باو بمرارة، متذكرًا تعابير والدته الصارمة. لم يصبح محققًا إلا بعد وفاة والدته وزوجته. بل لم تكن هذه المهنة موجودة رسميًا، على حد علمه. لكنه بدأ في العثور على أشياء مفقودة، وكشف الحقائق، وعمل وسيطًا حتى أصبحت خدماته معروفة بما يكفي ليشعر بأنه يستطيع فرض رسوم مقابلها.

يدرك باو أن جاذبيته تكمن جزئيًا في سلوكه المثقف. عالم سابق من عائلة موقرة يمكنه أن يقتبس الشعر ويفهم أسرار القلوب الخائنة؛ وهذا ما طمأن زبائنه من الطبقة النبيلة. تأمل باو في المهمة التي كلفه بها السيد وانغ. البحث عن شخص مفقود ليس مثل استعادة ممتلكات مسروقة، فكيف إذا كان الشخص امرأة تعتقد على ما يبدو أنها ثعلبة؟ قد يتساءل البعض:

من المجنون هنا: هذه المرأة أم السيد وانغ نفسه؟ مقارنة بامرأة معدمة ذات خلفية مربية، فإن السيد وانغ يملك نفوذاً وثروة كبيرة. عدم التوازن في السلطة بينهما كبير جداً يكاد يبلغ حدَّ الضحك. ومع ذلك، انصبَّت عينا السيد وانغ بجشع على هدف بعيد المنال. تذكر باو تاغتا والبريق المفعم بالنشوة في عينيها عندما أخبرته عن الثعلب الأسود الذي عاد على هيئة رجل. من (أو ما الذي) يمكن أن ينافس ذلك؟

في الربيع الذي بلغت فيه تاغتا الرابعة عشرة من عمرها، أرسلت بالفعل إلى أقارب والدتها في منغوليا الداخلية. ما زال باو يتذكر صباح ذلك اليوم بوضوح: يوم ربيعي مشرق بسماء زرقاء فسيحة تتخللها سحب بيضاء ناعمة. استيقظ باو بشعور من السعادة الغامرة على نحو غريب ذلك اليوم. عرض عليه والده الذهاب لمشاهدة بعض الخيول؛ إذ كان السيد يو يبيع مجموعة من خيول البولو، وبدأ أن هذا اليوم يبشّر بأمور مثيرة. ربما يشتري عصا من الفاكهة المسكرة لتاغتا، رغم إدراكه نوعاً ما أن هذا النوع من الهدايا أصبح طفولياً.

وبينما كان باو ينتظر والده أمام البوابة الرئيسية، سمع أصوات صياح وارتطام عجلات خشبية بالطريق. سأل الحارس عند البوابة: «ما الذي يحدث في بيت الجيران؟»

رد الحارس: «ألا تعرف؟ الفتاة الصغيرة ستغادر اليوم».

قال باو متسائلاً، وقد شعر بتسارع دقات قلبه: «هل تعني تاغتا؟»

أوماً الحارس: «نعم، ذاهبة إلى منغوليا الداخلية. يقال إنها ستتزوج».

دون أن يهتم بنظرة الشفقة التي رآها في عين الحارس، انطلق باو مسرعاً عبر الطريق. كاد صدره ينفجر، وقدماه تتسارعان في دقاتها على الأرض، وكأن النار تشتعل في معطفه. ركض دون توقف حتى وصل بيت تاغتا. ثم توقف ليلتقط أنفاسه المتقطعة. كانوا يحملون على عربة البغل صندوقاً خشبياً ولفائف قماش، بدت بشكل مريب وكأنها لجهاز عروس. اندفع باو نحو البوابة المفتوحة جزئياً دون أن يكثرث لتحذيرات الحارس الذي صاح باسمه.

صرخ باو: «أين هي؟» الجميع يعرفه بالطبع، فهو الابن الثاني لمسؤول محلي. تقدمت منه خادمة مسنة وأوقفته قائلة: «إذا كنت تقصد ابنة المحظية، فقد غادرت بالفعل على عربة أخرى. إذا ركضت الآن، يمكنك اللحاق بها على الطريق الرئيسي».

ركض باو بلا توقف. ركض حتى تألمت خاصرته واحترقت رثته، متجاهلاً نظرات العجب والأصابع الموجهة نحوه. لقد أحدث من الفوضى ما سيتعين على والده تأديبه عليها في تلك الليلة. وعند مفترق الطرق، وسط حركة مرور مزدحمة بالثيران والعربات المحملة بالخطب، لمح عربة البغل. وبدخلها رأى شكلاً صغيراً منتصب القامة. فصاح: «تاغتا!»

كانت ترتدي سترة وردية مألوفة في المناسبات الخاصة، لكنه لم يستطع تمييز ملامح وجهها بوضوح من تلك المسافة. رفعت تاغتا يدها عندما رآته. وربما نادى اسمه. ثم حرك السائق بغاله، وواصلوا طريقهم، وازدادت المسافة بينهما أكثر مما يمكن لباو اللحاق بها رغم كل ما بذله. اختنق الطريق الرئيسي بالعربات اليدوية وعربات الريكشا، ومع أنه تفادى هذه الحواجز بجنون، إلا أنه لم يتمكن من اللحاق بتاغتا. ابتعدت عربة البغل بسرعة تمامًا مثلما تلاشت آمال باو. في النهاية، وبعد أن أنهكه الركض، عاد إلى المنزل لاهئًا. لقد تعكّر يومه؛ لا، بل بقية حياته كذلك. نشأ فراغ في صدره بحجم حجر. تحمّل باو في تلك الليلة توبيخ والده، منحنيًا على نفسه، وذراعا متشابكتان.

نادرًا ما ضربه والده، وهو ما امتنّ باو له كثيرًا. لكن توبيخه المطول عن كيف يجب على الرجل المهذب، لا سيما من عائلة مثلهم، ألا يركض في الشوارع وهو يصيح وراء عربة بغل، كان مؤلمًا للغاية. وتحت نبرة والده الغاضبة، شعر باو بالشفقة على نفسه. جميعهم أشفق عليه، حتى والدته، رغم أن هذه النتيجة كانت ما توقعته. الجميع كانوا يعرفون عن تعلقه بتاغتا، ابنة المحظية، والآن أصبح أضحوكة بتصرفاته السخيفة المبتذلة. لذلك، عندما خططوا لإرساله إلى بلدة أخرى لمتابعة دراسته، لم يفاجئ ذلك باو. بل كان خلاصًا له من خزي الضحكات الخافتة في حيهم.

ومع ذلك، بقي السؤال يطارده: لماذا لم تخبره تاغتا بأنها سترحل في ذلك اليوم؟

تنهد باو. لقد مرَّ نصف قرن منذ ركض في ذلك الشارع، مختنقًا باليأس، ومع ذلك لا تزال تلك اللحظات محفورة بوضوح في ذاكرته. روث البغال المتكتل الذي لوَّث حذاءه الجديد المصنوع من اللباد، والرعب الذي شعر به عندما أدرك أنه تأخر كثيرًا.

ظلَّ باو يبحث عنها على مرَّ السنين. لقد انقطعت العلاقات بين عائلتيهما بعد أن نُقل والده إلى مقاطعة أخرى. أما تاغتا نفسها، كونها ابنة محظية، فلم تكن تستحق أن تُدرج في السجلات الرسمية. فاسم تاغتا مجرد لقب أطلقته عليها والدتها المنغولية في طفولتها؛ ولم يكن لباو أي فكرة عن اسمها الصيني الرسمي. تمنَّى باو أن تكون قد حظيت بزواج سعيد، رغم أنه كان يرتاب في نفسه كلما حقق في قضايا نساء مفقودات بعن في أحياء المتعة. لا يزال الشعور بالعجز الذي أحس به في ذلك اليوم يطارده، مما دفعه إلى تقديم يد العون لمن هنَّ مثل تشيولان في جناح العنقاء. حتى فينغ، المتجمدة عند العتبة، كانت امرأة أخرى ضائعة حاول مساعدتها.

بعد رحيل تاغتا، عاش باو في عذاب، يتخيلها مرتبطة برجل وسيم أو ضحية لرجل شرير عجوز. بدا كلا الاحتمالين مروِّعًا. لم يملك باو رفيقًا يمكنه التحدُّث معه بهذا الشأن. لقد أصبح مادة للسخرية في حيهم. وعائلة تاغتا بدورها قطعت علاقتها به. لقد بدا الأمر وكأن ابنة تلك العائلة (حتى لو كانت ابنة محظية) قد تجاوزت الحدود. وحاول باو في خزيه وحزنه العميق أن ينسى.

ومع ذلك، استمرت ذكرى رداء تاغتا الوردي من بعيد تراوده. لسنوات كان ينجذب إلى الفتيات اللاتي يرتدين اللون الوردي. وفي الواقع، أثرت هذه الذكرى على اللحظة التي التقى فيها زوجته المستقبلية لأول مرة. كانت الخاطبة قد قالت إنه خلال مهرجان دوانوو أو مهرجان قوارب التنين، ستنظم لقاءً لتشاهد عروسه المحتملة الأزهار قرب الجسر؛ بمرافقة وصيفة بالطبع. أدرك باو كم كانت تلك الفرصة مميزة (فالكثيرون لم يروا وجوه زوجاتهم إلا بعد حفل الزفاف)، فاغتنم باو الفرصة فورًا. كانت والدته هي من رتبت أمر زواجه. بلغ باو حينها الاثنين والعشرين عامًا، بعد أن اجتاز امتحانات المقاطعة الأولى، ورغم فشله في امتحانات المقاطعة الكبرى، إلا أنه كان لا يزال يُعتبر عريسًا جيدًا.

في يوم اللقاء، وصل باو إلى الجسر قبل ساعة من الموعد. ورافقه ثلاثة من أصدقائه بحجة التنزه. لم يكن اللقاء الفعلي أكثر من لحظة سريعة. كانت الحشود تتجول تحت أشجار الصفصاف، ويعرض الباعة صفارات على شكل طيور وقطع «الزونغزي»، وهي كرات الأرز الملفوفة بأوراق الخيزران. كانت الفتاة المعنية نحيلة، ذات وجه خجول، وحاجبين مرسومين قليلاً إلى أعلى، كما كانت الصيحات في ذلك الوقت. لكنها كانت ترتدي سترة وردية ذات ياقة عالية، وشعر باو بشيء يتحرك بداخله.

بالطبع لم تكن تاغتا، ولم يكن الرداء الذي ترتديها بدرجة الوردي التي ارتدته تاغتا في ذلك اليوم الأخير. ومع ذلك، عاد باو إلى منزله وكتب جوابه للخطابة على الفور: «نعم، أقبل».

لطالما سخر أصدقاؤه من هذه القصة في السنوات اللاحقة، مذكرين زوجته بأن باو قد وقع في حبها من النظرة الأولى. قالوا: «من فوق الجسر! اتخذ قراره في الحال!» فضحك الجميع، واحمرّت وجنتا زوجته اعتزازاً. لقد صدّقت تلك القصة حتى نهاية أيامها، وكان باو أشدّ لطفاً من أن يُكذّب القصة. ولماذا يفعل؟ لقد كانت امرأة حساسة، وعندما كانت تحتضر، قلقت بشأن كيف سيتدبر باو حياته دونها.

همست بينما كان يمسك يدها: «كيف ستدبر أمرك؟» بل إنها حاولت أن تجد له محظية؛ فبعض النساء يفضلن اختيار خليفاتهن بأنفسهن. عند نهاية مرضها، أرسلت في طلب فتاة من الريف عبر علاقاتها العائلية. وعندما عاد باو إلى المنزل ذات يوم، وجد الفتاة تنتظره بتوتر، وفهم على الفور نية زوجته.

كانت الفتاة التي اختارتها قوية البنية بطيئة الفهم. شعر باو بحزن شديد، سواء على زوجته (التي كانت حريصة على ألا يتفوق أحد على مكانتها ربة منزل، حتى بعد وفاتها) أو على الفتاة. لقد سمع من الأكاذيب ما يكفي ليعرف أن أي فتاة صغيرة في عمر ابنته لن ترغب في الزواج به، فأخبرهم بحزم: «سأعيش بمفردي».

انسابت بعض الدموع، على الأرجح، بسبب الراحة التي شعرت بها زوجته، سألته حينها: «ماذا لو وقعت في حب فتاة شابة؟»

- لن أقع في حب فتاة شابة.

وكانت هذه هي الحقيقة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

رتب باو للفتاة زوجًا مناسبًا، وقد كان بائع الدواجن الذي بدا أنها تميل إليه. على الأقل كانت ممثلة له بصدق، وفي النهاية، هذا ما أراح زوجته. بعد وفاتها، أغلق باو منزلهم الصغير، وتخلّى عن التدريس، ومع عدم وجود شيء آخر يشغل وقته، أصبح محققًا بدوام كامل.

والآن، يجلس باو ويُعدُّ الشاي في إبريق من الخزف المزين برسمة زهرة لوتس. ذكّرت البتلات الوردية بتأغتا، التي فقدتها منذ زمن طويل، وتساءل ما إذا كانت المشاعر التي يحملها السيد وانغ لخطيبته الهاربة تشبه الألم الذي سببه له رحيل تأغتا. لم يكن يتوقع باو في سن الرابعة عشرة أن يُسمَع له صوت، ولم تكن لديه وسيلة للعثور عليها، بينما كان هياج السيد وانغ يغذيه المال. ولكن، هناك سرٌّ خطير حزين يدركه باو في عميله.

كل من السيد وانغ وخادمة القिला ذكرا أن السيدة كانت تسأل باستمرار عن بكتو نيكان. إذا تمكن من العثور على المصور، فربما سيتمكن من العثور عليها أيضًا. وضع باو فنجان الشاي على الطاولة، وفرك صدره. بدأ ذلك الألم الحاد المفاجئ يتكرر بشكل أكبر، وكأن شرخًا قد انفتح في رئته. وتساءل باو إذا ما كان وقت السيدة ينفد، أم وقته هو.

25

بعد أن جاءت مصففة الشعر ورفعت شعري في تسريحة يويواتا، حيث جمعته في شينيون⁽¹⁾ منخفض ومسطح مربوط بشريط، توجَّهْتُ مكرهة إلى مدخل المنزل. هناك على الأقل مئة تسريحة تقليدية للنساء، تتباين في دلالاتها بين السن والمكانة الاجتماعية. ومن المؤسف أن جميعها تتطلب شد الشعر وتثبيتته بقوة، ما يسبب شعورًا مزعجًا بالرغبة في الصراخ.

عندما ظهرت وأنا أسير بالطريقة الصحيحة التي تناسب ارتداء الكيمونو، كان شيرو وبوهاي وتشين ينتظرون عند مدخل المنزل. قال شيرو: «رائع! تبدين كفتاة نبيلة بحق».

نظر بوهاي إلى شيرو وقال: «ألا تعتقد أن هذا قديم بعض الشيء؟ الكثير من الفتيات يرتدين الملابس الغربية الآن».

بالطبع كان هذا الطراز قديمًا. ربما تعود أفكار شيرو عن الملابس النسائية المناسبة إلى زمن كانت النساء فيه يرتدين عباءات متعددة الطبقات ويستقبلن العشاق خلف ستائر الخيزران، لكن لم أملك خيارًا سوى الامتثال. كانت عربتا الريكشا تنتظران خارج البوابة. ساعدني شيرو على الركوب، ثم انضم إليّ. بينما تبعنا تشين وبوهاي، أما لوو فقد أرسل للقيام بأعمال مصرفية.

سألته: «إذن، ما القصة وراء كل هذا؟»

أجاب شيرو: «حان الوقت لننشر النوايا الحسنة من أجل الحصول على التمويل».

«تمويل لأي غرض؟» وازداد ألم فروة رأسي من تسريحتي المشدودة بعد أن رفعت حاجبي.

(1) الشينيون هو تصفيفة شعر يُجمع فيها الشعر ويُشدُّ إلى الخلف ثم يُبَنَّت مثل كعكة على الرأس. (المترجم)

- بوهاي وتشين ولوو يعتقدون أننا نجمع المال لأهداف ثورية. وتاكيدا، الرجل الذي سنزوره، هو رجل أعمال له صلات بشمال شرق الصين، لكنه يظن أن الأموال ستُستخدم في استثمارات تجارية.
- وماذا تنوي أنت أن تفعل بهذا المال؟

قال شيرو وهو يتفحص أظافره بفتور: «المال مفيد، أليس كذلك؟ كما ذكرت، تاكيدا رجل ثري. التقيته العام الماضي في موكدين». وأظهر أسنانه بابتسامة عند ملاحظته اهتمامي المفاجئ: «نعم، أعلم أنك كنت تسألين تشين عن تلك الفيلا البستانية. آه! دعي الأمر فحسب!»

أمسكته من ياقة قميصه بغيظ وضغط بطرف شيخ حاد على رقبتة: «شيرو، لا أرغب في التورط في خططك ما لم يكن هناك سبب وجيه».

دفعت بالشيخ أسفل فكه. كان سيخًا معدنيًا صغيرًا، بطول يدي، النوع الذي يُستخدم لشوي الأسماك. كنت قد التقطته من المطبخ بالأمس؛ فلا يدري المرء متى قد يحتاج إليه.

قال شيرو وهو يمسك بمعصمي بمهارة ويبعده عن عنقه: «تشين قال إنه التقى تاكيدا في حفلٍ بفيلا ريفية. وهي الفيلا التي التقط فيها بكتو نيكان الصور. يجب أن تتوقفني عن التدخل في مشاكل الآخرين. لقد جعلك ذلك عاطفية بشكل زائد».

نبض قلبي بقوة، وتسارعت أنفاسي. قلت لنفسي: اهدئي. كوني باردة. كالجليد الذي يقطر من حواف منازل قرية بعيدة تكسوها الثلوج. حيث كانت طفلي مخبأة عني، في صندوق مكسورة الساقين، بينما تعتنني بها فتاة صغيرة. دائمًا ما كان الحزن يفاجئني بقدرته على الظهور في أوقات غير مناسبة. وسواء كنت نائمة على العشب أو أسير وحيدة بجانب سكك الحديد، وتهب الرياح وتسطع الشمس وحيدة في السماء، كان الحزن دائمًا يجدني.

قال شيرو وهو ما يزال ممسكًا بمعصمي: «قلت إنك تريد الانتقام. لكنك لا تخبريني بما حدث. هل يعلم كورو ما الذي تسعين إليه؟»
أجبتُ بحدة: «بالطبع لا، هذا ليس من شأنه».

أخذ شيرو يتحسس كفي بإصبعه وقال: «يا لها من يد رقيقة. كم تحوي من غضب وحزن. على الأقل لدي بعض الأمل بما أنك لم تخبري كورو بما تفعلينه».

سحبتُ يدي بعيدًا.

قال شيرو: «تاكيدا في عمرٍ بدأ يشعر فيه بالملل من حياته. له زوجة في اليابان، وزوجة ثانية في منشوريا. أعماله راكدة، ويخشى فقدان شعره. يظن نفسه خبيرًا في الفن، رغم أنه بالكاد يملك ذوقًا أرفع من ذوق الخنزير». علَّقتُ: «الخنازير ذكية جدًّا». لكن شيرو تجاهل ذلك.

- باختصار، إنه يشعر بالملل والجشع بما يكفي للمخاطرة برأس ماله. في الصيف الماضي، ذهب إلى شمال شرق الصين لينجز بعض أعماله وتمكَّن من الحصول على دعوة لحضور حفلة في الريف. مالك الفيلا، رجل يُسمى وانغ، مغرم بجمع الأشياء الجميلة. يملك مجموعة من أشجار البونساي لا مثيل لها. شخصيًا، لم أرها أبدًا. (وارتسمت ابتسامة لعوبة على وجه شيرو) لكنني أظنُّ أنك رأيتها.

تجاهلتُ تلميحہ الواضح لجمع المعلومات، لأنني كنت أفكر بعمق. كان استنتاج شيرو بأنني على دراية بتلك الفيلا الريفية صحيحًا بالفعل.

عندما وصلتُ إلى قرية وُو بحثًا عن طفلتي، التقيت بفتاة تحفر في الثلج لتخرج المخللات. كنت غارقة في اليأس لدرجة أنني بالكاد استوعبت القصة التي روتها لي عن المصوِّر الذي طلب حشو ثعلب وتحنيطه. ولم أتذكر كل التفاصيل إلا بعد فترة طويلة، بعد أن دفنت طفلتي في الأرض الباردة.

بعد أن تمكَّنتُ أخيرًا مغادرة قبرها الصغير، انطلقت للبحث عن بكتو نيكان. استغرق الأمر وقتًا أطول مما توقعت. في حزني وضيقِي، هجرتُ الجميع؛ واجتاحتنِي سحابة من الجنون. تخلَّيت عن كل شيء، بما في ذلك رحلة الألف عام نحو التنوير التي كنت أسعى إليها سابقًا. فبعيش حياة فاضلة وتجنب الخطايا، يمكن لبعض الحيوانات والنباتات وحتى الصخور أن ترتقي إلى مستوى وجوديُّ أعلى. أو هذا هو الأمل لمن يسعى إلى المغزى الأكبر، لكنني في مرارة حزني تخليت عن ضميري. كيف لي أن أواصل الطريق وقلبي ممتلئ بالغضب القائم؟

تنقلت من قرية إلى أخرى، أسأل إن كان أحد قد سمع عن مصوِّر يسمى بكتو نيكان. وفي نُزل على الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة، سمعت أنه

أصيب بالتهاب رئوي ومات. وهكذا عدت إلى المراعي وواصلت العيش في حسرتي لسنة أخرى.

ولولا الصدفة، لبقيت حيث كنت. ففي عشية مهرجان تشينغمينغ لتنظيف القبور، ذهبت إلى السوق الليلي لأشتري دَوَّارة لأضعها على قبر طفلي. سال لعابي من رائحة لحم الخنزير المشوي المقرمش، لكنني لم أملك سوى القليل من الفِئَات⁽¹⁾ النحاسية. كانت أغطية الأكشاك مضاءة بمصابيح الزيت الراجفة، وتدافعت الحشود بين الأكشاك لشراء كعك الأرز المطهو على البخار وفاكهة الزعرور المغموسة في السكر. وبينما كنت أتفحص بعض الدَوَّارات المصنوعة من الخيزران المدهون، سمعت رجلين يتحدثان عن مصوِّر.

قال أحدهما: «إذن لم يمت بسبب البرد؟ لا بد أن تلك الشائعة كانت مفيدة ليكتو. إنه مدين لي بالمال».

عرفت على الفور عن يتحدثان، ورغم استفساري السريع، لم أحصل على الكثير من المعلومات. كل ما عرفاه هو أن يكتو نيكان كان حيًّا، لكنه لم يعد إلى مسكنه في المدينة. لقد أخذ عملاً في منزل رجل ثري حيث لا يمكن لجامعي الديون إزعاجه.

سألني أحدهما وقد لمعت عيناه في ضوء المصابيح المتراقصة: «لماذا تسألين؟ هل يكتو مدين لك أيضًا؟»

لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بمواجهة رجلين، لذا فعلت ما يفعله أي ثعلب عاقل وهربت.

لم أشتري تلك الدَوَّارة قط. كان الحزن والغضب يغليان بداخلي كالزيت المغلي، حتى إنني بالكاد كنت أستطيع التفكير بوضوح. كانت يداي مخدرتين ورأسي يدور. ولم ألبث أن انطلقت للبحث عن تلك الفِئلا في ضواحي موكنين. كانت الفِئلا الريفية محصنة بأسوار عالية جدًا لم أتمكن من تسلقها دون سلم. وزادت ملابس الرثة من صعوبة الدخول. استغرق الأمر مني وقتًا أطول مما توقعت لأتمكن من دخول ذلك المنزل الكبير، حيث أقيمت الحفلات وحضر الزوار المرموقون. والآن، ونحن نقرب شيئًا فشيئًا من وجهتنا على

(1) الفِن (Fen): هي عملة نحاسية صغيرة كانت تُستخدم في الصين، حيث كانت تعادل جزءًا من الـ«يوان» أو الـ«تشياو». (المترجم)

متن العربية، كنتُ أتساءل إذا كان تاكيدا ضيقاً في ذلك الوقت. وإذا كان قد رأى وجهي من قبل.

أرجح شيرو ساقه، مستمتعاً بعدم ارتياحي.

سألته: «ذكرني مرة أخرى لماذا تصطحبني معك».

- لأن رفقتك تلهي الضيوف. أبقي في حالة مزاجية جيدة حتى يوافق على إعطائنا المال، وقد تكتشفين شيئاً يفيدك. (ثم ابتسم). بالمناسبة، كان كورو معارضاً لهذا. في الواقع، كان غاضباً مني، بقدر ما يمكنه إظهار غضبه.

لم يكن لدي ما أقوله بشأن هذا. في الواقع، كلما قلت المعلومات التي قدمتها لشيرو، كان ذلك أفضل، لذا انتهت رحلتنا في صمت بارد.

بُني قصر تاكيدا على الطراز الأوروبي الحديث الذي كان رائجاً في تلك الفترة. كان القصر مزخرفاً ومزوداً بنوافذ زجاجية ملوَّنة، وأرضيات من الخشب الداكن، ومغطى بالسجاد. أرشدنا الخادم الذي كان يرتدي قفازات بيضاء وملابس سوداء إلى دفيئة ملحقة بالقصر، مبنية من الزجاج وممتلئة بالزهور والسراخس. كانت اليابان في عصر ميجي مفتونة بأنماط اللباس والمواصلات والأسلحة الأوروبية؛ لقد تغيَّرت جذرياً عن اليابان المعزولة التي كنتُ أذكرها.

أرشدنا الخادم إلى الداخل، وما لبثنا حتى وصل السيد تاكيدا، كان رجلاً ضخماً ذا وجه متورد، يرتدي قميصاً رسمياً مغلقاً حتى العنق. شعرت فوراً بالراحة؛ لم ألتق به من قبل، رغم أنني تساءلت عما كان يفعله في فيلا وانغ البستانية، وإن كان قد التقى فيها بـيكتو نيكان.

تبادلنا المجاملات والعبارات اللطيفة. بدا تاكيدا ضجراً حتى وقع نظره علي. قال لشيرو: «وهذه؟»

- ابنة عمي، التي أخبرتك عنها.

انحنيت برزانة. لم يكن متوقعاً من النساء أن يتحدثن كثيراً؛ في الواقع، في الظروف التقليدية لم أكن سأقدم للرجال بهذه الطريقة، لكنَّ هذه كانت أزمنة جديدة. قدَّم لنا الشاي في أكواب صينية رقيقة بجانب شرائح الليمون

والحليب وقطع السكر. وضعتُ شرائح الليمون في الحليب بحيرة، لكن شيرو استبدل فنجاني بفنجان ببراءة. وتبادل الرجال النظرات وابتسموا بخبث. يا **لهذه المرأة المسكينة**، كانت تلك الفكرة التي دارت بينهم، مشكلين ناديًا لن أنتمي إليه أبدًا.

لم يكن بوسعي إلا أن أومئ وأبتسم، وألعن شيرو في قرارة نفسي. أشار لي: «قومي بإلهائه». لكنني لم أكن بحاجة لذلك، فقد التفت إلي تأكيدًا، وشاربه يرتجف فوق فمه المبلل: «هل أتيت من داليان؟ المأكولات البحرية هناك رائعة».

«أحبُّ المحار وخيار البحر أيضًا». يُعرف المحار وخيار البحر بكونهما منشطات جنسية معروفة. تفاجأ تأكيدًا من حديثي، وتساءل إن كنتُ أقصد الإيحاء بذلك حقًا. لكنني منحته ابتسامتي الأكثر براءة.

قال شيرو: «كنتُ أتساءل إن كان بإمكاننا مناقشة شروط القرض الذي تفكر في منحه لنا».

تركز الحديث على الأمور التجارية، دون أي ذكر للثورة. وناقشوا مسألة إقامة مصنع للسكر في جزيرة فورموزا. لم يكن لدى أي من الشبان خلفية في هذا المجال، لكنهم بذلوا جهدهم ليبدو خبراء. كان بوهاي البيضاوي ملائمًا بشكل خاص للكلام حول الربحية. لم يبدُ تأكيدًا أبدًا، وكان على وشك فقدان تركيزه، لكنني نجحت في لفت انتباهه فوق حافة فنجان الشاي.

اخترتُ قطعة كبيرة من كعكة البذور والتهمتها في قضمتين سريعتين. اتسعت عينا تأكيدًا. وفي غمضة عين، اختفى صحن السكونز بينما واصل بوهاي حديثه الممل عن آلات تكرير السكر. قدم لي تأكيدًا طبقًا ممتلئًا من الشطائر الصغيرة وبدت عليه ملامح الافتتان. بحلول هذا الوقت، لاحظ شيرو ما يحدث ونظر باستياء. لم تكن تلك هي الصورة التي أحضرني لأجسدها، لكن من يهتم؟ فقد بدا تأكيدًا مفتونًا.

قال بوهاي بتفاخر: «إذن، إن قمتَ بتقديم رأس المال المطلوب، نحن على يقين من تحقيق الربح خلال عامين ماليين».

أجاب تأكيدًا: «نعم، نعم، أوافق تمامًا». كانت عيناه لا تزالان مثبتتين عليَّ بينما كنتُ أبتلع الشطيرة الأخيرة بصمت وأمسح فمي بأدب.

قال شيرو بابتهاج: «سأرسل الأوراق إلى المصرف اليوم. نحن نتطلع إلى شراكتنا». تبادل الجميع الابتسامات، رغم أنني تساءلت إن كان تاكيدا قد أولى أي اهتمام لما وافق عليه. ثم قال مخاطبًا تشين: «يرجى إرسال تحياتي إلى زوج عمك السيد وانغ. استمتعت بإقامتي في قبيلته، رغم الحادثة المؤسفة التي وقعت. هل صحيح أن هناك صورًا؟ وهل كانت لها علاقة بذلك الرجل بكتو نيكان؟»

أصغيت بانتباه، متنقلة بنظري بين الحاضرين. عما كانوا يتحدثون؟ تتمم تشين: «لست متأكدًا من صحة الإشاعات».

توليت زمام الأمور وسألت تاكيدا إن كان بإمكانه أن يقدم لي جولة شخصية في دفيئته، وسألته بينما كنا نتأمل سرخسًا نادرًا: «هل يمكنك إخباري بالمزيد عن المصور الذي ذكرته. ماذا حدث في تلك القبيلة الصيف الماضي؟»

- أوه، لا داعي للقلق. لقد تسبب أحد الطلاب في جلبه عند البوابة.

لمست ذراع تاكيدا قائلة: «يبدو ذلك مروعًا».

- نعم، شهدت ذلك بمحض الصدفة. كان مضطربًا للغاية. لكن الأمر كان غريبًا. (وتوقف تاكيدا بحرج). ربما كنت أقرأ الكثير من روايات الغموض. أدرك أنك تقيمين مع كوروساكي، الكاتب. أنا من معجبيه الكبار وغالبًا ما فكرت في كتابة شيء بنفسني. في الواقع، لقد أعرتة عدة روايات بوليسية.

تذكرت الكتاب الذي اكتشفته أثناء تفتيشي مقصورة شيرو في السفينة. لا شك أن شيرو كان ينمي صداقته مع تاكيدا. حسنًا، بإمكانني أن ألعب هذه اللعبة أيضًا.

قلت بحماس: «ألن تكتب لي ذكرياتك عما حدث في تلك الحفلة؟ بما أنني أقيم في منزل كوروساكي سينسي، يمكنني أن أطلب منه إلقاء نظرة عليها». سلبت الفكرة لبّ تاكيدا. وبينما كنا نودّع بعضنا، ضغط على يدي قائلاً: «سأرسل لك مذكراتي المكتوبة قريبًا. لقد كان حادثًا مثيرًا للغاية».

26

رسم باو خطين متقاربين في دفتر ملاحظاته. أحدهما بعنوان «السيدة الثعلب»، والآخر بعنوان «يكتو نيكان». وبينهما «فيل السيد وانغ»، التي شطبها باو. ورغم أنه لا يملك تفسيرًا واضحًا لكيفية هروبها من جناح مغلق بالأقفال، مع أن النافذة تبدو مرتفعة للغاية، فقد فكر باو بواقعية: ربما ترك الباب مفتوحًا، أو أن أحدهم تلقى رشوة ليمسح لها بالخروج.

ذكّرهُ الجناح السري بحكايات مزعجة عن زوجات ومحظيات حُسن داخل الجدران ونُسين. ولم يحصلن على طعامهن إلا عبر فتحة صغيرة من خدم مهملين، فذبلن مثل قشور حشرات الزيز.

كان باو قد حَقَّق في قضية مشابهة من قبل، تتعلق بمنزل ورثه أحد عملائه من عمٍّ بعيد. قال العميل: «كل ليلة في ساعة الجرذ⁽¹⁾ نستيقظ بسبب صوت كهذا»، ثم نقر العميل بأظافره على الطاولة: «في إحدى الأمسيات، ظلَّ ابني مستيقظًا واكتشف أن الطقطقة تأتي من جدار في نهاية الممر. وفي اليوم التالي، أحضرتُ عمالًا لكسر الجدار، ظنًا مني أنها قد تكون جرذانًا أو حتى ثعلبًا. عندما حطَّم العمال الجدار، اكتشفوا غرفة صغيرة مُغلقة بالطوب. وفي الداخل رأوا جثة. لقد صدمنا! أود معرفة ما حدث، بما أنني أعيش في هذا المنزل».

ذهب باو إلى المنزل لتفقد ما تبقى. كان رفات العظام البائسة قد دُفِن على عجل، لكن العميل كان قادرًا على وصف الأغراض التي اكتُشفت مع الجثة: مقلاة معدنية وخرق بالية، وبقايا فستان امرأة. ومن المؤسف، وُجدت ضمانات قماشية كانت تُستخدم لتغليف الأقدام المربوطة. ربما كانت زوجة

(1) ساعة الجرذ في التقويم الصيني، توافق الفترة بين الساعة 11 مساءً و1 صباحًا.
(المؤلفة)

ثانوية أو محظية، كما خَمَّن باو. وفقًا للعمال، كانت الجثة قد ذبلت لتشبه قرَدًا كبيرًا بشعر طويل.

قال الجصاص: «بدت امرأة. لا بد أنها ماتت ثم قاموا بحبسها بالطوب». تقدم باو إلى الزنزانة المظلمة والمغبرة، بالكاد بلغت مساحتها أربع أقدام في ثمان. وجود المقلاة المعدنية كان يوحي بشؤم أن المكان استُخدم للسجن. والملابس التي وُجدت فيها كانت قديمة الطراز، ربما منذ خمسين أو ستين عامًا. ومن خلال طرح الأسئلة الدقيقة والصبورة، تمكن باو من العثور على رجل مسن كان قد عمل متدربًا لدى أحد عمال البناء في ذلك الوقت.

قال العجوز وهو يمص برقوقته بتلذذ: «هناك عمل غامض ذهب إليه معلمي في إحدى الليالي». كان باو قد أحضر له بعض الفاكهة كبادرة تقدير: «لم يخبرني بماهية العمل، لكنني أنا من قمت بخلط المونة له، وقد استخدم حمولة كاملة من الطوب».

سأله باو: «هل كانت الكمية تكفي لسد مدخل باب؟»

أجاب العجوز: «نعم، هذا صحيح. كانت هناك شائعات تقول إن صاحب البيت حبس زوجته الثالثة بتهمة الزنا. حبسها لسنوات طويلة، حتى شاخت. قالوا إن الخدم لم يروها لعقود. ولا نعلم إذا ما ماتت قبل موته أو أنه أمر بسجنها انتقامًا. لكن من المرجح أنها هي التي عثروا عليها»

أقام العميل الشعائر اللازمة وهدم ذلك الجزء من المنزل. لكن الشائعات انتشرت في الحي كالماء المتسرب من صهريج مكسور، وفي النهاية اضطر إلى بيع العقار بخسارة.

عند تذكره لهذا، شعر باو بالضيق. استعادة امرأة هاربة لا يشعره بالرضا، لكنه كان مفتونًا بالصورة، تمامًا كما افْتُنَّ السيد وانغ. هل من الأنانية أن يرغب باو أيضًا في العثور على هذه المرأة، التي يقال إنها إما ممسوسة بروح ثعلب أو أنها نفسها روح ثعلب؟ في السنوات التي قضاها في البحث عن أثر للإله الثعلب، لم يواجه إلا الوسيطة المحتملة. إنه يتقدم في السن؛ والألم في صدره بدأ يقلقه، ومع ذلك، فإن رغبته تزداد اشتعالًا.

تحرى باو في الحي الريفي بالقرب من فيلا السيد وانغ. ولقد آلمته ساقاه حقًا، ولكن في وقت متأخر من الظهيرة، ادّعى رجل مسن كان يجمع الفجل في حقل أنه رآها: «كانت جائعة. أعطيتها بطاطا حلوة مشوية».

«هل هذه هي المرأة؟» وعرض الصورة مجددًا. هناك شيء سحري في تلك الصورة؛ الفلاحون هنا لم يروا صورة من قبل. وفي كل مرة يُخرج فيها الصورة، يتجمع الناس حوله، راغبين في لمسها.

قال الرجل المسن بثقة: «نعم، هذه هي». ثم مسح يديه على سرواله، وقد تراكمت الأوساخ في التجاعيد العميقة على وجهه تحت قبعته المنسوجة من الخيزران.

- هل كانت ترتدي تشانغبي أزرق فاتحًا مطرّزًا بالطيور والورود؟

«لا، بل كانت ترتدي ملابس فلاحين، وتحمل حزمة معها». فرك باو أنفه. هذا لا يتطابق مع وصف السيد وانغ للملابس التي اختفت بها. شعر الرجل العجوز بالإهانة من أن المحقق بدا يشك في بصره. عبس واستدار، ممسكًا بسرواله المهترئ بحبل متآكل. لكنه هدأ عندما وضع باو قطعة نقدية في يده، وقال إن المرأة استقلت عربة ثور متجهة إلى موكدن: «لقد سألت السائق إذا كان سيمرُّ بالقرب من حيّ المتعة».

حيّ المتعة وجهة غريبة لامرأة هاربة. كانت الخادمة في الفيلا قد ذكرت أن السيدة جاءت من دار متعة مرموقة. هناك فكرة أخرى تتعلق بأن مساكن يكتو نيكان المستأجرة كانت قريبة من حيّ الضوء الأحمر، وكذلك مطعم غو. شعر باو فجأة بشعور عاجل أن هذه المرأة الغامضة تحركت أسرع وأبعد مما توقع.

أكره أن يأخذني الرجال إلى منازلهم. غالبًا ما تكون تجربة سيئة، لا سيما عندما يُمسكون ذراعي بقوة. كان بإمكانني أن ألاحظ رغبة شيرو في ركوب الريكشا معي، لكنني تملصت منه بسرعة وركبت مع تشين، الذي بدا مسرورًا. قال تشين: «كان شيراكاوا محققًا في إحضارك. لقد ضمن لنا تأكيد التمويل».

سألته: «لماذا تحتاجون إلى التمويل؟ أليست عائلتك ثرية؟»

- نعم، لكنها ليست أموالي.
- أخبرني، هل حقًا ستفتح مصنعًا للسكر في فورموزا، أم أن الأموال مخصصة لثورة ضد حكومة تشينغ؟
- تفاجأ تشين للحظة، لكنني وجدت أن الرجال لا يبالون حقًا بما يقولونه للنساء مثلي، واللاتي يحتلن مكانة مشكوكًا فيها في المجتمع. فسألني: «هل أنت أيضًا جزء من حركتنا؟»

- أنا ضد الأباطرة والملوكيات. إذا ما هو؟ مصنع سكر أم ثورة؟
- يقول شيراكاوا إنه يجب علينا تجربة الاثنين معًا. وإذا جاءت حكومة تشينغ للبحث عنا، ففورموزا بعيدة بما فيه الكفاية.

ربما كان شيرو يراهن على كلا الجانبين، ويقود هؤلاء الشبان الساذجين كما يريد. تنهدت وقلت: «أريد أن أسمع بقية القصة التي كنت ترويها لي الليلة الماضية، عن ذلك المصور ولماذا ندمت على لقائه».

«أوه، ذلك». واحمررت وجنتا تشين. كان لديه ما يكفي من اللباقة ليشعر بالحرَج بعد تنصله السريع مني عندما طُلِّ كورو علينا من فوق المنحدر. قال: «لقد عرض علينا المصور التقاط صورة لنا».

- ما نوع الصورة؟

تردد تشين: «صورة جماعية لإحياء صداقتنا، هذا كل شيء».

لم أضغط عليه أكثر لأنني كنت مشغولة بصدّ يده العابثة عن ركبتني. ولكن لو كان قد أخبرني حينها بما اكتشفته لاحقاً، لربما سارت الأمور بشكل مختلف لكننا.

عدنا إلى منزل كورو، حيث شعرت بارتياح كبير عندما عدت إلى ملابسي القديمة. ولدهشتي، لم تكن سيدتي موجودة في جناحها. فسألتُ مدبرة المنزل عن مكانها.

قالت: «هي مع السينسي»، مستخدمة المصطلح المذهب لكلمة «المعلم». لا بد أن كورو هو المقصود. وبينما كانت المدبرة مشغولة، استبدلتُ السيخ المعدني الذي استعرت به بسكين تقشير حاد. كنتُ بحاجة إليه إذا كان بكتو نيكان حقاً في طريقه إلى هنا. ثم انطلقت لأبحث عن سيدتي.

كان باب الغرفة التي يكتب فيها الكاتب المشهور موارباً قليلاً، بما يكفي لأتمكن من التلصص. عادةً ما أكون حذرة من فعل هذا. فبالإضافة إلى أن ذلك يفتقر إلى الكرامة، قد تعاني أيضاً من إصابات فادحة. لقد حذرني ثعلب أعور من ذلك. لكن، لم يكن بوسعي سوى القيام بذلك.

من داخل الغرفة التي تعدل مساحتها ست حصائر «تاتامي» بأبواب زجاجية نصفية تفتح على الإنغاوا أو الشرف المظلمة، سمعت همسات خافتة. كانت سيدتي تتحدث مع كورو، ولدهشتي، تحدث كورو معها بكل أريحية... كانا يتحدثان عن الثعالب.

أخبرتكَ من قبل أن القاعدة الأولى للثعالب هي: «لا تتحدث عن الثعالب». والقاعدة الثانية: «لا تقع في حب الثعالب». لا أعرف من وضع هاتين القاعدتين، ولكن في معظم الحالات، اتباع أي من هاتين القاعدتين يمكن أن يمنع الكثير من المتاعب.

قالت سيدتي: «إذن، تقصد أن هناك فرقاً بين ما نسميه «هوشين» و«هوجينغ»؟ لم أفهم قط الفرق بينهما».

أجاب كورو بصوت هادئ ومظلم أسرت رعشة غير إرادية في جسدي: «في الحقيقة، تلك مجرد أسماء اخترعها الناس. «هوجينغ» هو روح الثعلب،

بينما «هوشين» يشير إلى السمو الروحي. هناك أنواع كثيرة من الثعالب كما هناك أنواع من البشر. بعضها مجرم، وبعضها الآخر يأمل في الخلاص من هذا العالم بتكريم ذاته».

قالت سيدتي: «يبدو كأنك تعرفهم».

على عكس ابتسامة شيرو الماكرة، كانت ابتسامة كورو دائماً تحمل مسحة من الحزن، والآن بدت كذلك أكثر من أي وقت مضى بسبب الندبة التي تشوه وجهه. قال بهدوء: «أحقاً؟»

بدت سيدتي متوترة ومتحمسة وهي تسأله: «هل تؤمن بالآله الثعلب؟»
أمال كورو رأسه برفق وقال: «هل تقصدين إلهاً يستجيب للصلوات؟ أعتقد أن الناس يتوقعون الكثير، ثم يصابون بخيبة أمل».

قالت سيدتي: «أعلم. إنهم يصطادون الثعالب ويعبدونها أيضاً. لكنني دائماً، دائماً ما كنتُ أتوق لمقابلة أحدهم».

تردّدت قليلاً قبل أن تضيف: «عندما كنتُ في الخامسة من عمري، أنقذني ثعلب. تساءلت لسنوات طويلة بعدها ما إذا كنتُ أحلم أم أن ما حدث كان مجرد هلوسة. ومع ذلك، لا تزال الذكرى واضحة، كأنها محفورة في ذهني».

في هذه اللحظة، كنتُ سأقفز لأقاطع حديثهما ببعض الأحاديث العابرة حول أنها ربما تكون قد أخطأت، ولكن كورو لم يقل شيئاً، واكتفى بالانتظار بصمت.

قالت: «لقد تهتُ في الأراضي العشبية أثناء زيارة أقاربنا. وقادني ثعلب أسود إلى والدتي».

سألها كورو: «وما الذي يجعلك تعتقدين أنه كان واحداً من «الهوشين» وليس مجرد حيوان عادي؟»

- لأن... الثعلب ذهب بعيداً، ثم عاد في هيئة رجل. أعلم أن هذا يبدو سخيفاً. لم أخبر سوى صديق طفولتي، ولستُ متأكدة حتى مما إذا كان قد صدقني.

سكت كورو لفترة. كانت جزيئات الغبار تتطاير في ضوء الشمس، وفي هدوء فترة الظهيرة، سمعت الصوت الإيقاعي لطرق أداة طرد الغزلان المصنوعة من الخيزران في الحديقة.

ثم فجأة سألتها: «كم كان عمركِ مرة أخرى؟»

«خمسة أعوام. كان ذلك قبل ما يقرب من ستين عامًا». وابتسمت بحياء.

- وأين حدث هذا؟

- في مكان ما في الأراضي العشبية قرب هورشين. هل تعرف تلك المنطقة؟

- نعم، أعرفها جيدًا في الواقع.

- أخبر شيراكاوا حفيدي أن لغتك الصينية والمنغولية ممتازة. في الحقيقة، وأنا أتحدث إليك الآن، أجد صعوبة في تصديق أنها ليست لغتك الأم. هل أنت عالم لغويّات؟

- لا، لكنني تعلمت التحدث بعدة لغات.

قالت سيدتي وهي تبدو محرجة من إفشاء سرها: «سامحني. أنا امرأة عجوز، ولا أستطيع منع نفسي من تذكر طفولتي بنوع من الحنين». كان واضحًا أن هذا السر يفسر الكثير من تصرفاتها. لا عجب أنها كانت تتعامل معي بلطف منذ البداية!

قال كورو: «من المثير أنكِ تتذكرين تلك الحادثة بوضوح. كنتُ أظن أن طفلة في الخامسة قد تنسى ذلك».

- لم أستطع نسيانها أبدًا. لقد كانت تجربة ساحرة.

أمال كورو رأسه باستفهام وقال: «لماذا؟»

- كنتُ خائفة جدًّا. بل مرعوبة. أن أكون وحدي وسط تلك المساحات الشاسعة من العشب كان شيئًا لم أختبره من قبل. تعثرت والتوى كاحلي، وعندما نظرت إلى السماء البيضاء الواسعة، بدأت أشعر بالغثيان وظننتُ أنني سأموت وحيدة. حتى جاء الثعلب. أعتقد أنه كان يراقبني لفترة. قادني خلفه، وعندما لم أستطع المشي بعد، عاد في هيئة رجل وحملني على ظهره.

ضحك كورو عند هذا الجزء من القصة. كانت ضحكته نادرة، لذا كان من المفاجئ سماعها، لكنها كانت ممتعة للغاية، ربما أكثر من غيرها لأن ضحكات كورو كان صادقة.

قال: «لديك ذاكرة رائعة. يبدو أن حملك على الظهر كان الحل الأمثل آنذاك».

ابتسمت سيدتي وقالت: «ألا تصدقني؟»

أجابها كورو، وهو يبتسم أيضًا: «مهما كان من ساعدك، أنا سعيد لأنه أنقذك في ذلك اليوم».

- في الحقيقة، السبب الذي جعلني أذكر هذا الأمر هو أنك تذكرني بذلك الثعلب. لقد شعرتُ بالشبه بينكما فور رؤيتك.

سألها كورو وهو يلمس الندبة على وجهه: «هل كان لديه هذه؟»

أجابت بسرعة: «أوه لا! أنا آسفة، لم أقصد الإهانة. في الواقع، عندما كنت صغيرة، كنتُ أظن أنه كان أجمل رجل رأيته في حياتي».

قال كورو بهدوء: «أنا متأكد أنك لم تتلفظي بإهانة. ورجاء، لا تدعي وجهي يزعجك».

«هذا لا يزعجني على الإطلاق. هل لي أن أسألك كيف حدث ذلك؟» هذا هو السؤال الذي كنت أتشوق لمعرفة إجابته أيضًا، إلى جانب ما حدث قبل ستين عامًا. اقتربتُ أكثر من الفجوة بين الأبواب المنزلة، وقلبي ينبض بسرعة مزعجة. قال كورو: «كانت حادثة بسكين صيد».

ترددت سيدتي قبل أن تسأل: «هل كان هناك شخص آخر...؟» فتحت فمها وكأنها تريد أن تستفسر أكثر، ثم أغلقتها مراعاةً لآداب الحديث.

أجابها كورو: «للأسف، الطرف الآخر لم ينجُ، لذا أنا ممتن لأن هذه الندبة هي تذكاري الوحيد».

توقف الحديث. عادة ما تمتلئ المحادثات مع كورو بلحظات الصمت. إنه صبور للغاية ويجعلك تستسلم، وهذا هو السبب في أنني لا أستطيع التعامل معه.

ثم قالت سيدتي: «كنت أرغب في التحدث معك اليوم، ليس فقط لشكر ضيافتك، بل لأسألك إن كان لديك أي أقارب في منغوليا. إنك تشبه كثيرًا ذلك الثعلب الذي قابلته في طفولتي، حتى إنني بدأتُ أتساءل الليلة الماضية عما إذا كنت قد أخطأت، وربما أنقذني جدك أو قريب آخر لك بدلًا من الثعلب».

ابتسم كورو وقال: «إِذَا، لقد قررتِ الآن أن من أنقذك كان إنسانًا في النهاية. ماذا لو أخبرتك أن جدي كان لديه ثعلب أليف؟»

اتسعت عينا سيدتي الصغيرة المجعدة في دهشة كبيرة، حتى بدت وكأنها طفلة في الخامسة تائهة وسط العشب الطويل.

أضاف كورو بسرعة: «أمزح معك، لم يكن لجدي حيوان أليف، ولكن الحقيقة هي أن عائلتنا قد ارتحلت في أرجاء الشمال الشرقي لعدة أجيال».

كان هذا ردًا ذكيًا. ولطيفًا أيضًا، بما يكفي ليضفي بعض الغموض على ذكرياتها. ضحكت سيدتي وقالت: «أعتقد أنني لن أعرف الحقيقة أبدًا. لكنني دائمًا ما كنت أراقب الثعالب. وأمنيته الأعز هي أن ألتقي إحداها مرة أخرى قبل أن أموت».

حذرهما كورو: «كوني حذرة. لا تحمل جميع الثعالب نوايا حسنة».

- ولكن أليست آلهة، أو على الأقل أرواحًا؟

رد كورو: «يعتمد ذلك على ما تريدين تصديقه. المهم هو القدرة على التمييز بين الحقيقة والكذب. أو ربما الحقيقة وما هو مجرد أمل».

كنت جالسة في الممر المصقول، عابسة. الأمل، بالطبع، هو أكثر شيء مؤلم في هذا الكون. التشبث بخيط رفيع هو أكثر طرق العيش إيلاّمًا. أعرف هذا جيدًا. فلا عجب أن قلبي كان ينبض بتسارع.

قال كورو بجدية: «لا تثقي بالذين يدّعون أنهم يتحدثون باسم الآلهة. إنهم دجالون».

سألت سيدتي: «وماذا عن العائلات التي تحصل على المال ببركة الثعالب؟»

- تلك القصص تتعلق أكثر بالعلاقات بين الثعالب والبشر. المال يأتي في المرتبة الثانية.

استقامت سيدتي في جلستها وقالت: «لقد جمعت قصصًا عن الثعالب لسنوات. في الواقع، أفضل قصة موثقة سمعتها كانت من صديقة في بكين. هل لي أن أطلب رأيك فيها؟»

قال كورو بأدب: «تفضلي». وأمال رأسه بكل لباقة. اقتربت أكثر لأسمع. نحن الثعالب دائمًا ما نولي اهتمامًا بأحداث القلائل عنا. فهذا ينقذنا من التعرض للطرد من المدن على أيدي الكلاب.

قالت سيدتي: «زعمت أسرة من منشوريا في ضاحية شمالية من بكين أنه لمدة ثلاث سنوات، كان الطوب يُرمى في فناء منزلهم بشكل غامض. في النهاية، تراكمت كمية كافية من الطوب حتى بنوا جدارًا منخفضًا حول الفناء. وبعدما انتهوا من بناء الجدار، سُمع صوت يدّعي أنه ثعلب من جيانغسو. قالت الأسرة إنهم أجروا العديد من المحادثات معه، رغم أن الثعلب ظل متخفيًا. وأن أكثر ما كان يستمتع به هو الطهي. في الواقع، كانت متعته الرئيسية إعداد الطعام لضيوف الأسرة، وكان يأخذ المال من صندوق نقدي مغلق. وإذا لم يكن هناك ما يكفي من المال في الصندوق، كان يرهن ملابس الأسرة ويترك تذكرة الرهن على الطاولة! وعندما كان يُسأل مالك متجر الرهن، كان يقول دائمًا إن الرجل نفسه، العجوز القصير، هو من يقوم بذلك. هل تعتقد أن هذه القصة غير صحيحة؟»

قال كورو: «أوه، لا. تلك القصة على الأرجح صحيحة».

غطيت فمي لمنع نفسي من الانفجار ضاحكة. كنت أعرف ذلك الثعلب العجوز. لم يكن من جيانغسو على الإطلاق، بل من جينان! لم أصدق أن العجوز البدين لا يزال يطهو ويصرف أموال الآخرين! لكن كورو كان يشرح الأمر بجدية تامة لسيدتي. قال: «الثعلب في تلك الحالة كان يشعر بالوحدة. والطهي للضيوف كان هوايته وأسلوبه للبقاء جزءًا من تلك الأسرة».

سألت سيدتي: «هل تشعر الثعالب بالوحدة؟»

- نعم.

كان السؤال غير المعلن الذي خيم على الجو: وأنت؟

جزء مني كان يتمنى لو أنها ضغطت عليه أكثر. لقد أصبحت الوحدة تسيطر على أفكاري بشكل متزايد، وكأنها وجع خافت أحاول تجاهله. لكن سيدتي لم تطرح السؤال. مدركة للوقت، قالت: «أعذر عن إزعاجك بهذه الأسئلة الكثيرة. تبدو على معرفة واسعة بالنسبة لشاب في مثل عمرك. أتمنى أن أقرأ روايتك، رغم أنني لا أفهم اليابانية».

ابتسم كورو ابتسامة باهتة، حزينة قليلًا: «إنها لا شيء حقًا. مجرد كتاب يحوي قصصًا قديمة وحكايات أشباح. لقد تفاجأت جدًا أن هناك من يرغب في قراءتها أساسًا».

قالت: «هل يمكنني القدوم والتحدث معك مجددًا؟»

- بالطبع.

نهضتُ بسرعة بينما كانت تفتح الباب المنزلق، وفي الوقت المناسب تراجعَت للخلف حول الزاوية. وكالعديد من المنازل اليابانية القديمة، امتلأ هذا المنزل بالظلال والأصوات الغريبة، وكانت الزوايا كما لو أن ظلمة دائمة تسودها. لا تلعب لعبة الاختباء في منزل مثل هذا. فقد تجد شخصاً إضافياً في فريقك؛ هذا كل ما يمكنني قوله. أو كان هذا أول ما فكرت فيه بذهول عندما اصطدمت بشخص آخر.

عضضتُ لساني لأمنع نفسي من الصراخ حتى لا تسمعي سيدتي، لكنها كانت لا تزال تودع كورو بأدب. لفَّ الشخص الآخر يديه حول خصري بألفة مفرطة، وأوقف أصابعه الطويلة والأنيقة عند أسفل ظهري. كانت تفوح منه رائحة الملابس الفاخرة وكرات العجين المحشوة بالكربن ومادة تصفيف الشعر. همست وأنا أرفس شيرو: «اذهب بعيداً».

ردَّ شيرو بصوت هادئ: «كنتُ أعتقد أنك ستكونين أكثر... امتناناً، خاصة أن هناك أخباراً قد ترغبين في سماعها».

في بعض الأحيان، أعتقد أن شيرو قضى وقتاً طويلاً في مغازلة النساء الثريات اللاتي يشعرن بالملل، لأنه يتحدث مثل عاشق من الدرجة الثانية. بحركة مدروسة، دفعني نحو الحائط بذراعه. شعرت بالقلق. رغم نعومة كلماته، لم يغب عني أنه أصبح يتدخل في مساحتي الشخصية أكثر فأكثر. إنها استراتيجية صيد: التضيق على الفريسة في مساحة ضيقة، سواء كانت خرافاً أو فتيات صغيرات. لكن، بأي طريقة كانت، لم أكن أنوي أن أكون فريسة لشيرو.

اقترب بفمه من رقبتني وهمس: «كنتُ أتساءل إن كنتِ تستطيعين الابتعاد عن كورو، لكنني أعتقد أن الأمور لا تتغير».

قلت بشيء من التوتر: «كنتُ أبحث عن سيدتي». وتمنيْتُ أن لا تأتي سيدتي وتصادفنا. شعرتُ بحدّة أسنان شيرو تتحسس بشرتي. فقلت له: «أخبرتكَ أنني سأساعدك مع تأكيد! وقد فعلت، لذا دعني أذهب».

أطلقني شيرو، ولكن ليس قبل أن يعضني بقوة. كنت غاضبة جداً لدرجة أنني نطحته برأسي بعنف، فصرخ من المفاجأة. ثم هربت.

ولم أتوقف للتفكير فيما قاله عن «الأخبار التي قد أرغب في سماعها» إلا لاحقاً.

28

قال الرجل العجوز الذي كان يقتلع الفجل إن السيدة استقلت عربة متجهة نحو المدينة، وتحديدًا إلى أحياء المتعة. وكما يتذكر باو، كانت إقامة يكتو نيكان بالقرب من ذلك الحي أيضًا. والآن، بعد حصوله على الصورة، سيذهب ليتحقق مما إذا كان صاحب المكان الذي أقام فيه يكتو قد رآها. إذ ربما جاءت هي الأخرى للبحث عنه.

كان الزقاق الضيق، أو ما يُعرف بهوتونغ، محاطًا بمنازل صغيرة ذات أفنية حجرية متلاصقة، وتنفوح منه رائحة السمك المقلي والغسيل المنقوع في الماء المغلي. كان المنزل الذي استأجر فيه يكتو مغلقًا، ووبابه مقفلًا بسلسلة ثقيلة. طرق باو الباب دون جدوى، فخرجت امرأة من المنزل المقابل. أخبرها أنه يبحث عن صاحب المنزل وسأل: «هل هناك أحد في البيت؟» أجابت المرأة: «لقد ذهبوا في رحلة دينية». ورمقته بفضول. ورغم شبابها، فقد افتقدت أسنانها الأمامية، وأخفت فمها بيدها بعفوية. قدّم باو نفسه وسألها: «هل تعرفين المستأجر السابق، يكتو نيكان؟» - غادر قبل شهر.

تابع وهو يظهر الصورة: «هل جاءت هذه السيدة للبحث عنه؟» أجابت: «لا، كنتُ سأذكر امرأة مثلها. أنا هنا طوال اليوم أعمل على الحياكة». وأشارت عبر الزقاق الضيق، حيث رأى باو نَوَلاً⁽¹⁾ في المنزل المقابل من خلال الباب المفتوح. كانت ستارة الباب الباهتة مرفوعة، مما يعني أن لديها رؤية واضحة للمنزل المقابل.

سأل باو: «هل كان لدى يكتو أي زوار مريبين؟»

(1) النَوَل: آلة تُستخدم في الحياكة لنسج الأقمشة عبر ترتيب الخيوط بشكل منتظم.

- كان هناك بعض طلاب الجامعة. بدا أنهم نشطاء سياسيون من طريقة حديثهم. (توقفت قليلاً ثم أضافت): إذا كنت تسأل عن شخص غريب، فقد زاره رجل قبل مغادرته. بطريقة ما، ذكرني ذلك الرجل بالصورة التي أريتها لي.

تدقق تفكير باو نحو قصة الصبي الصغير عن الليلة التي اختفت فيها فينغ، المعروفة باسم تشونوها، من المطعم. قيل إنها شوهدت تسير في شارع مغطى بالثلوج، تتشابك ذراعها مع ذراع رجل قيل إنه ثعلب.

- هل كان وسيماً؟

احمرَّ وجه المرأة فجأة. وأومأت برأسها سريعاً: «كان ذلك في وقت متأخر من عصر يوم شتوي. كان الضوء خافتاً، لكنني تمكنتُ من رؤية ملامحه بوضوح، وربما كان بسبب انعكاس الضوء على الثلج. بدا أنيقاً جداً، وكأنه نبيل من الحكايات القديمة. خرج يكتو من البيت المقابل وسلّمه طرداً، وهو يتذمر بشأن كونه رجل توصيل. ابتسم الرجل ونظر عبر الزقاق، إلى حيث كنتُ أقف خلف ستارة الباب. تلك النظرة الحادة جعلت قلبي ينبض بسرعة... وأنا امرأة متزوجة!» ثم ضحكت بحرج.

- متى كان هذا؟

- قبل يومين من مغادرة يكتو. أتذكر التاريخ بسبب حادثة الشخص المفقود في الهوتونغ المجاور.

اتسعت عينا باو. اختفاء آخر. لم ينسَ وفاة فينغ الغامضة. رغم أن دوره الرسمي في قضيتها قد انتهى، فإن جسدها المجمّد عند الباب لا يزال مستقرّاً على حافة وعيه بشكل مزعج.

- هل كانت امرأة شابة؟

- لا، كانت زوجة الجزار. اختفت في المساء الذي جاء فيه الرجل إلى زقاقنا. سمعتُ أنها خرجت لشراء التفوف المقلي ولم تعد. كان الثلج يتساقط حينها، لذا أصابنا القلق جميعاً.

حادت نظرات باو وهو يتخيل المشهد، حيث يهبط الغسق الأرجواني على الأزقة المكتظة. وتكتسي الأسقف المنحنية والجدران الحجرية الرمادية المتشققة بالثلج الأبيض. أيُّ شخص لا يعود طوال الليل يعني أنه تجمّد حتى الموت في هذه المدينة الشمالية: «هل أبلغ أحد عن فقدانها؟»

- أوه، لا! وُجِدَتْ في صباح اليوم التالي تحت إيوان متجر الكتب المستعملة عند الزاوية. وعندما استعادت وعيها، لم تتذكر شيئاً. قالوا إنها ربما كانت مريضة لأنه لم تظهر عليها أي إصابات: لكنها لم تعد كما كانت منذ ذلك الحين.

بالكاد استطاع باو كبت حماسه وهو يسأل: «كيف ذلك؟» إذ يبدو هذا مشابهاً لحالة فينغ، باستثناء أن أحداً لم يعثر عليها قبل أن تتجمد حتى الموت.

- لم يعد بها حياة؛ كانت مليئة بالطاقة، تضحك وتساعد في متجر الجزارة. أما الآن، فهي تحدّق من النافذة وكأنها تنتظر عودة أحدهم. رأيته بالأمس؛ أشعرتني بالغرابة كأنها فتاة عاشقة. كلما رأيته، أتذكر الرجل الذي زار بكتو ذلك اليوم.

حكَّ باو رأسه وقال: «لماذا ذُكِّرَ هذا الرجل بالصورة؟»

«أتعرف كيف يكون للأشخاص من منطقة معينة مظهر مميز؟ هذا هو الانطباع الذي تركه لدي، وكأنه كان مسافراً من بلد هذه السيدة». ونظرت إلى الصورة مرة أخرى بعينين مليئتين بالانبهار.

فكَّر باو: **مسافر من البلد نفسه. يا له من وصف شاعري.** ثم سأل: «هل رأى أحدٌ ثعلباً في هذا الحي؟»

أجابت المرأة: «ثعالب؟ أبداً. لا أوّمن بوجودها، هل تؤمن أنت؟» ونظرت المرأة إلى باو بريبة، وكأنه ينتمي إلى طائفة غريبة. وهو شعور مبرّر إلى حد ما، إذ غالباً ما يُنظر إلى من يعبدون الآلهة الثعالب على أنهم دجالون أو فلاحون سُذَّج.

عند مغادرته، سار باو عبر الزحام الذي يملأ الشوارع، والناس ملتفون بمعاطفهم القطنية المبطنّة التي تقيهم البرد. هذا الحي الشعبي مليء بألوان الكتان الداكنة، كالأزرق النيلي والرمادي. أيُّ غريب وسيم أنيق سيبرز بسهولة هنا. لا يملك باو أي دليل يربط هذا الرجل بأي جريمة، سوى مصادفة وجوده المريبة في الأرجاء عندما يخنفي الناس. وُجِدَت المرأة هذه المرة في حالة غريبة؛ لهذا ينسب الناس مثل هذه الأحداث غير الطبيعية إلى الثعالب والأشباح. لا يستطيع باو تماماً تصديق هذه الخرافات، لكنه في الوقت نفسه

لا يمكنه تجاهلها. في أطراف فضوله المتأجج، يكمن احتمال وجود قوى إلهية، حجاب مجهول يتوق باو إلى رفعه.

هناك مكان آخر يجب أن يتفقدته: بيت المتعة الذي ذكرته الخادمة في فيلا السيد وانغ، والذي يُحتمل أن تكون السيدة قد جاءت منه. هذا المكان ذو زبائن مختارين، ولن يسمحوا له بالدخول من الباب الأمامي ما لم يكن ضيفاً يدفع مقابل الدخول. لذلك، مرّر باو ملاحظة إلى البواب يطلب فيها التحدث إلى الطاهي، وذكر أنه سينتظر عند الباب الخلفي.

بدا الجزء الخلفي، الذي يمكن الوصول إليه عبر متاهة من الأزقة الضيقة، بائساً مقارنة بالواجهة الأنيقة. توظف كل دار متعة طهاة وخدمًا وحراس أبواب، وهم يحرصون بشدة على حماية النساء اللاتي غالبًا ما يحاولن الهروب أو الانتحار. كان باب الفناء الخلفي صغيرًا، مثل فم مغلق بإحكام يرفض الكشف عن أسرارهِ. بعد طرده دون جدوى، قرّر باو الانتظار في الزقاق. لا بد أن يُفتح الباب الخلفي في وقت ما. هسهست قطعة هزيلة في وجهه باستياء. اتكأ باو على الجدار وأغمض عينيه.

تلاحقت في ذهنه صور مشرقة: ثعالب، وغزلان، وثلوج... تلك الأشياء التي قالت الخادمة إن السيد وانغ تحدث عنها. كان الثلج يتساقط أيضًا في قرية وُو عندما جاءت امرأة غامضة لأخذ جرو ثعلب. تراكم الثلج الناعم فوق الجرار المدفونة التي تحتوي على الخضراوات المخلفة. تذكر باو الثلج في أيام شبابه، وكيف كان يغطي أغصان أشجار البرقوق الرقيقة. كانت زهور البرقوق المفضلة لدى والدته، وكذلك لدى تاغتا.

في ذكرى طفولته: جلست تاغتا على ركبتيهما، وصنعت أرنبًا من الثلج لتضعه في كهف ثلجي. وتنقلت نظراتها بين الحين والآخر بحنين نحو شجرة البرقوق أمام مكتب والد باو. كان ممنوعًا على الأطفال كسر الأغصان المزهرة؛ فقد خصصت والدته كل الأغصان المقطوعة لتزيين صالتها، حيث كانت تستضيف تجمعات لمشاهدة الأزهار وكتابة الشعر. بعد سنوات، اكتشف باو دفترًا لقصائد والدته، وتفاجأ حقًا بمدى جودتها. بل وجد بعضها خلابًا. ياله من شعور غريب أن يدرك أن لوالدته حياة أخرى، غير تلك التي كانت تتذمر فيها دائمًا بأنها ضحّت بكل شيء من أجل أبنائها!

في ذلك اليوم الشتوي، كان باو مصممًا على الحصول على غصن من أزهار البرقوق. كان ذلك سيسعد تاغتا (التي أراد أن يُبهرها) ويثبت تمرده

على قوانين والدته. استعار سكين أخيه الأكبر وحاول قطع غصن من الشجرة. كان السكين غير حاد، فانزلق على الغصن الرطب، وتناثرت الأزهار الهشة. وفي النهاية، انكسر الغصن بحدة، مخلقًا تمزقًا قبيحًا. كان باو يلهث ويملؤه الخزي وهو يمسك بغصنيمته. لم يعد الغصن جميلًا؛ بل بدا كأنه طرف مبتور. فكر في رميه فوق جدار الجيران حتى لا يكتشف أحد جريمته. الجيران الذين كان منزلهم يضم مزار الثعلب.

«ماذا تفعل؟» ظهر وجه تاغتا الصغير المليء بالقلق: «هل قطعت هذا الغصن؟»

أومأ برأسه.

- لا ترمه فوق الجدار! أعطه لأمك. إذا قلتَ لها إنك قطعته من أجلها، ستسامحك.

لا، هذا خلاف ما أردته تمامًا، أراد باو أن يصرح بذلك، لكنَّ تاغتا كانت أسرع. ببراعة، أخذت الغصن من يديه المتجمدة وقصت الأغصان التالفة. وقالت: «أعطه لأمك قبل أن يبلغ أحدهم عن الأمر».

فكر باو: لكنني كنتُ أريده لك.

بدأت الذكرى حقيقية جدًا لدرجة أنه استطاع سماع صوتها في رأسه. رمش باو ببطء وهو يفيق من غفوته. كان قد نام بجوار الباب الخلفي الذي كان يراقبه. كيف حدث ذلك؟ ومع ذلك، كان المشهد حيًا لدرجة أنه رغب في إغماض عينيه والعودة إلى ذلك الزمن، حيث كانت تُفهم نواياه تجاه تاغتا بشكل خاطئ دائمًا. كان يجب أن يقول لها: **الشخص الذي أريده هو أنت**. أيتها الزهرة التي أزهرت في فناء منزله لكنها أعطيت لآخر.

اضطربت معدته؛ وشعر بالرغبة في البكاء، لكنه ابتسم في نفسه ساخرًا من الموقف: رجل عجوز مثله يجلس القرفصاء في زقاق بينما يقوم بالمراقبة. لو رآه أحدهم، لاعتقد أنه سكير أو مدمن أفيون.

فُتح الباب بصوت طقطقة حاد.

وهو ما أيقظه، وليس صوت كسر الغصن في حلمه، بل صوت شخص يحاول فتح القفل الصلب خلف الباب. عاد الزمن، الذي بدا مضغوطًا بينما كان نائمًا، إلى جريانه الطبيعي. وهبَّ باو على قدميه عندما انفتح الباب ببطء.

خرجت فتاة صغيرة. كانت في التاسعة من عمرها تقريباً، ترتدي زياً يشبه زي خادم في حكايات الجنيات، بأكمام طويلة وسروال فضفاض. أحدهم وضع على وجهها المسحوق الأبيض، ورسم على جبينها ماسة صغيرة حمراء؛ وهي علامة الجمال من عهد سلالة تانغ. قالت بأدب: «عمي، هل أنت من يريد التحدث إلى طاهينا؟»

تبع باو الطفلة، وهو يخمن أنها ترتدي زياً خاصاً بعشاء ذي طابع خاص. كانت مثل هذه الترفيهات شائعة؛ إذ يسهل على الرعاة الأثرياء الشعور بالملل، لذا فإن تزيين البغايا والعاملين بملابس شخصيات من الأوبرا الشهيرة يضيف شيئاً من الإثارة والتنوع.

لاحظت الفتاة ملامح القلق على وجه باو، فقالت: «لا تقلق، أنا لا أعمل هنا عادة. أنا حفيدة المحاسب».

كانت طفلة ذكية، وتذكر حقاً أن هذا المكان ليس محترماً للنساء، مهما كانت زخرفته فاخرة. قادته عبر الفناء الخلفي ودخلت به إلى المطبخ.

قالت الفتاة: «إنه هنا»، ونظرت إلى باو بترقب. أخرج لها حلوى من جيبه، وهي ثمرة تمر مطبوخة في شراب ومغلفة بورق شمعي، فقبلتها بتنهيذة خفيفة من خيبة الأمل.

قال الطاهي، وهو يراقب الفتاة تسرع بعيداً: «سيكون لتلك الفتاة مستقبل واعد». كان الطاهي في عمر باو تقريباً، وتربطهما معرفة عابرة. ثم أضاف: «كيف يمكنني مساعدتك؟»

أخرج باو الصورة وقال: «أبحث عن هذه المرأة».

تفحص الطاهي الصورة وقال: «لم أرها من قبل».

أصاب باو شعور طفيف بالإحباط، فسأل: «هل أنت متأكد؟»

أجاب الطاهي: «نعم، أنا متأكد». ونظر إلى باو بترقب، فسلمه باو معظم نقوده المعدنية. ثم عادت الفتاة الصغيرة مجدداً لترافقه إلى الخارج.

في الفناء، قالت الفتاة: «عمي، هل يمكنني رؤية تلك الصورة؟» أخرج باو الصورة، واتسعت عيناها بحماسة: «آه، هذه السيدة الثعلب».

صدم باو وسأل: «السيدة الثعلب؟ هل رأيته؟»

أجابت الفتاة، ووجهها مليء بالإثارة: «نعم. مرتين في الحقيقة. لقد عادت لاحقاً».

ظهر أثر العضة على رقبتني. وللإنصاف، كنتُ قد وضعت سيخًا على عنق شيرو في ذلك الصباح. كنتُ أعرف أستاذًا يصرُّ دائمًا على أن كل فعل ينتج عنه رد فعل مساوٍ أو معاكس. لكنه كان عالمًا، وشيرو ليس كذلك، لذلك استنتجتُ أن شيرو عضني بدافع الغيظ والانزعاج فقط.

حسنًا، لم أكثرث بما يظنه شيرو ما دام يبقي نفسه بعيدًا عن شؤوني. وشأنني الآن كان مع سيدتي. عبرتُ الحديقة وتسللتُ عبر سياج من الخيزران (يأتي الخيزران بأحجام مختلفة، والنوع الصغير منه جذاب للغاية، لكن مروري من خلاله ترك فتحة في ردائي). تمكنتُ من الوصول إلى غرفتنا قبل وصول سيدتي. وضعت وشاحًا قطنيًا كبيرًا حول رقبتني لإخفاء أثر العضة، ورتبتُ الغرفة مثل خادمة مجتهدة. لم يكن هناك الكثير من التنظيف، لأن سيدتي العجوز كانت مرتبة للغاية. بل رأيتها عدة مرات وهي تمسح وتكنس بنفسها.

بعد لحظات، سمعت خطواتها البطيئة الخافتة، ثم صوت الأبواب وهي تنزلق برفق. قالت: «لقد عدت. كيف كانت الزيارة؟»

أجبت بلا اهتمام: «كانوا يحتاجون فقط إلى مساعدة إضافية».

- قال بوهاي إن الأمر يتعلق بالمساعدة مع مستثمر، لكني لا أريد أن يجبروك على أي شيء.

كانت سيدتي المسكينة لا تعرف شيئًا عما يفعله حفيدها. دائمًا ما كان الشباب والخادmates مزيجًا خطرًا، لكن لم أستطع أن أخبرها أن حفيدها كان مفتونًا بالثورة وليس بي. لحسن الحظ، بدت سيدتي مشغولة بأفكار أخرى واقتрحت أن نخرج في نزهة.

كنتُ قد اكتشفت بوابة جانبية عندما تسللت عبر سياج الخيزران في وقت سابق. سألتني بتردد وهي تنظر إلى الباب الخشبي الصغير: «هل أنتِ

متأكدة أن من المناسب المرور من هنا؟» فطمأنتها رغم أنني لم أكن أعلم إلى أين يؤدي. فُتح الباب إلى منحدر تلي. ونظرت إليَّ سيدتي بلمحة من المرح وقالت: «أشعر وكأننا في مغامرة».

كان مجرد زقاق خلفي، لكنها بدت متحمسة جدًا لدرجة أنني لم أملك إلا أن أبتسم. في داليان، لم تكن تستطيع الخروج من المنزل دون أن تعلم ابنها ومشرف خدم العائلة الرئيسي. كان الهواء الربيعي منعشًا، وتدلَّت الأزهار من أغصان البتولا كاليرقات المخططة. وبينما كنا نسير في الطريق المهجور، قالت سيدتي: «كنتُ أتحدث للتو مع مضيفنا، السيد كوروساكي». كانت وجنتاها متوردتين قليلًا، ولا أدري أكان ذلك بسبب الحماس أم لأننا نمشي على طريق مرتفع.

سألتها: «أي نوع من الأشخاص هو؟» رغم تنصُّتي على حديثها، فإنني كنت فضولية لمعرفة رأيها في كورو.

- إنه رجل فريد من نوعه حقًا. في الواقع، يشبه شخصًا من طفولتي لدرجة مدهشة، كأني أعيش حلمًا. لكنك هنا معي. (وضغطت على يدي). منذ أن قابلتك، أصبحت حياتي أكثر حيوية مما كانت عليه منذ سنوات. وحديثي مع السيد كوروساكي اليوم كان أشبه بالقدر، كأني التقيت روحًا أو إلهًا. قلت لها وأنا أمرر إصبعي على ورقة شجرة: «إله؟ هذا وصف مثير. هل بدا لك إلهيًا؟»

- عيانه. بدا التعبير فيهما واضحًا جدًا، مثل أعين الكلاب. هذا ما تذكرته من طفولتي. ليس إلهًا، لكنه ليس إنسانًا تمامًا.

قلت لها: «بالفعل، هو شخص يملك مظهرًا لافتًا». كان وصفه بـ«اللافت» وصفًا لطيفًا. فتلك الندبة في وجه كورو وسمته إلى الأبد. من المحتمل أنه لن يعيش طويلًا بهذا الشكل. وشعرتُ بكآبة عميقة. ما الذي فعله لينال جرحًا كهذا؟ لكنني ذكَّرتُ نفسي أن هذا ليس من شأني: «هل شعرتُ بهذا الشعور تجاه أشخاص آخرين، مثل شيراكاوا مثلًا؟»

- لست متأكدة ما إذا كان يمكن الوثوق بشيراكاوا تمامًا. إنه مقنع جدًا، لدرجة تجعل الأمر مريبًا.

كما توقعت، لقد امتلكت إحساسًا خاصًا بالثعالب. تساءلتُ ما إذا كان ذلك بسبب تجربة طفولتها، وهل الثعلب الذي قابلته كان في الواقع كورو؟ لن

أستغرب لو أنه أنقذ شخصًا ولم يذكر الأمر. وتذكرتُ قوله: «يبدو أن حملك على الظهر كان الحل الأمثل»، وقد ذكرني هذا بأن كورو كان طيبًا دائمًا مع الأطفال. شعرت بالضييق، لكن سيدتي كانت لا تزال تتحدث، كأنها تحدث نفسها. قالت: «بالطبع، هذا مستحيل. ربما الشخص الذي قابلته كان جده. لكن لسنوات بعدها، كنا نقدم القرابين للإله الثعلب في حديقة صديقي».

سألتها: «هل كان لدى صديقك مزار ثعلب؟» دائمًا ما تثير هذه الأمور اهتمامي. أحيانًا يترك الناس قرابين كالتوفو المقلي (المفضل لدي) أو الزلاية. لكل حي تقريبًا مزار أو اثنان في المنازل، لكن مؤخرًا بدأت هذه المزارات بالاختفاء، ويا لها من خيبة أمل كبيرة.

ابتسمت سيدتي: «لم يكن مزارًا حقيقيًا. لقد صنعناه بأنفسنا من قطع الخشب والحجارة. كان أعز أصدقائي هو الابن الثاني لجيراننا. والده قاضي المقاطعة، ووالدته كانت بطريقة ما لا تحبني، رغم أنها كانت تلح عليّ بالحضور».

- ربما كانت تخشى أن تربطكما علاقة عاطفية.

ضحكت وقالت: «كان الخدم يمازحونني ويسألونني عن رأيي في الشاب. كان الأمر محرجًا للغاية. لذا حرصتُ بشدة على أن أظهر له أننا مجرد أصدقاء».

سألتها: «هل كنتِ تحبينه؟» كنا نسير بعيدًا عن المنازل، نتبع المسار المتعرج الذي بدأ يرتفع عبر المنحدرات المشجرة قليلًا.

قالت بتأمل: «فيما يخص الإعجاب... لا أظن أنني كنت أفهم نفسي جيدًا في ذلك الوقت. علاوة على ذلك، لم أره وسيماً». وتجدت عيناها بابتسامة: «لكن لاحقًا، بعد أن تزوجتُ رجلًا أكبر مني بكثير، فكرت في باو كثيرًا. لقد افتقدته بشدة. كان فتى فريدًا. لم يكذب قط».

«قط؟» يجب على الثعلب الفاضل أن يمتنع عن الكذب، رغم أن ذلك أحد أصعب التحديات بالنسبة لنا. كنت أحاول أن أكون فاضلة، ليس من أجلي فقط بل من أجل طفلي. وحتى الآن، مجرد تذكر احتضانها على صدري في الحشائش الدافئة جعل قلبي ينبض.

قالت: «لا أستطيع أن أتذكر كذبة واحدة. في الواقع، كان صادقًا إلى حدٍّ السذاجة. ذات مرة، كسر غصن شجرة برقوق وتسبب في فوضى. كنا

مرعوبين لأن البستانيين تلقوا تعليمات بالحفاظ على أزهار البرقوق لوالدته. أراد باو أن يرمي الغصن فوق جدار الجيران ليخفيه، لكنني قلت له أن يتظاهر بأنه قطع لهديه لوالدته. فهذا سيجعلها تلين. لكنه قال إنه لن يكذب. كان الكذب يصيبه بالغثيان. لذلك فعلت ذلك من أجله». وتجدد وجهها بأسى.

«عندما قلت إن الكذب كان يصيبه بالغثيان، هل تقصدين أنه كان يمرض حقًا؟» لم أسمع بهذا من قبل. لو عانى المزيد من البشر من ذلك، فربما أصبحت المجتمعات أفضل حالًا.

- نعم. كان يظهر عليه تعبير غريب أحيانًا. هكذا. (وأغلقت عينيها وزمّت فمها). كان باو الوحيد الذي كنت أثق به ليكون صادقًا تمامًا معي، أكثر حتى من أمي، التي كانت متسرّعة أحيانًا، مثلما حدث عندما حاولت تدبير زواجي في منغوليا الداخلية. وعندما كنت حاملًا بلا أصدقاء سوى ابن زوجي الصغير، كنت أفكر في باو. هل تتذكرين ما قلته عن زواجي؟

قلت لها: «تزوجت في السابعة عشرة، وكنت الزوجة الرابعة في متجر الأدوية» بدت سيدتي العجوز متأثرة بأنني تذكرت.

وأكملت حديثها: «كان ذلك بعد عودتي المخزية، حين رفضت الزواج من قريببي ذاك. سعدتُ بعودتي إلى المنزل، وأقنعتُ نفسي أنه لا يهم إذا سخر إخوتي غير الأشقاء من قدمي غير المربوطتين، ولكن بالطبع عاد إلي شعور البؤس في النهاية. فالفتيات الصغيرات متقلبات المزاج».

سألتها: «وماذا عن صديق طفولتك؟»

- عندما عدت، كان قد أرسل للدراسة. بعد فترة قصيرة، نُقل والده إلى مقاطعة أخرى. من المحتمل أنه نسي أمري، لكنني ما زلت أتذكر الألعاب التي كنا نلعبها عندما كنا صغارًا. لعبتها مع ابن زوجي بعد زواجي. كانت تلك أسعد الأوقات، عندما كنت أستطيع نسيان أنني في منزل غريب، مع خدم يتهامسون من خلفي أنني لن أبقى طويلًا. وعندما حملت، كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عنهم؛ عديمو الظلال.

انتهى الطريق الضيق بينما كنا نصعد التل أكثر. نمت نباتات الشيح والفوكي، وهي براعم الحوذان المرّة، على طول الطريق، فتوقفنا لجمع بعضها.

سألتها: «هل الطفل الذي أنجبته كان والد بوهاي؟»

«نعم. كان الابن الثاني في المنزل. نعتنتني القابلة بالحمقاء لأنني بكيت عندما وُلد، إذ أن ولادة الابن ضمنت لي مكاني. لكنني بكيت بسبب ابن زوجي الصغير، لأنه قال لي إنه إذا أنجبت ابنة، فسيغرقونها لأن لديها أخت بالفعل من زوجة أبيه السابقة. أما إذا أنجبت ابنًا، فسيكون هو من يموت.

كان عمره تسع سنوات فقط، وكنت في السابعة عشرة. أحيانًا كان ينسى ويناديني أختي بدلًا من أمي، كما كان من المفترض أن يفعل. كنتُ وهو أقرب إلى بعضنا من زوجي، الذي لم يكن يتحدث معي كثيرًا. لكنني امتننتُ لذلك. كان زوجي أفضل بكثير من ذلك الفتى المتوحش في سهول هورشين، الذي رفضت الزواج به. في البداية، اعتقدتُ أن ابن زوجي، لصغر سنه وخوفه، كان يتخيل أناسًا بلا ظلال. وقد طلبتُ منه أن يشير إليهم، لكنني لم أتمكن من تمييزهم لأن الأمر كان يحدث عادة في الزحام. حتى إنني ذكرت الأمر لزوجي، لكنه تجاهل الأمر وبدأ منزعًا.

اقتضت التقاليد بحبس المرأة لشهر بعد الولادة، لذلك بعد ولادة ابني، لم يُسمح لي بالخروج أو حتى غسل شعري. بالكاد رأيت ابن زوجي، حين كان يزورني ليرى الطفل. في ذلك الوقت، بدا شاحبًا وفقد وزنه. أردت أن يبقى لفترة أطول، لكن الخدم تدمروا، وقالوا إنه لا ينبغي له أن يزعجني، وأنه يجب أن أتخمد نفسي بالطعام، حتى أتمكن من إرضاع الطفل. لقد كان الوارث الجديد، رغم أن أحدًا لم يقل ذلك صراحة. علموا جميعهم ما سيحدث... فقد اقتضى التقليد في تلك العائلة أن يموت الابن الأول، رغم أن أحدًا لم يكن يعرف متى.

لقد كرهتُ الحبس، ولم أستطع الانتظار حتى ينتهي الشهر. أخبرت ابن زوجي أننا سنطير الطائرات الورقية معًا قبل أن يبدأ الخريف. بدا سعيدًا حينها، وهو يحمل شقيقه الجديد برفق في حضنه. بابتسامة خجولة، وعدني بصنع لعبة من الخيزران للطفل. وبعد يومين سقط ابن زوجي من جسر وهو يحاول قطع الخيزران لصنع صفارة للطفل، ومات.

ثم توقفت سيدتي وأطرقت رأسها قبل أن تقول: «لو أنني لم أطلب منه أن يصنع اللعبة، لما سقط! ليتني فعلت، ليتني فعلت. تهامس الخدم بأنني أرسلت ابن زوجي إلى حتفه في نزوة عابرة، وأن دموعي لم تكن إلا لشعوري بالذنب. وقد شعرت بالذنب حقًا. فبولادتي لابن، حكمت على ابن زوجي بالموت. ورغم حزن زوجي، فإنه لم يبد متفاجئًا. بل طلب مني أن أكف عن البكاء، خشية أن يثير ذلك المزيد من بلبلة الناس».

ثم بقيت صامتة لبعض الوقت.

- هذا كل ما في الأمر. كانت ولادة صعبة جدًا لدرجة أن القابلة قالت إنني لن أنجب أطفالاً بعد ذلك. أصبح البيت موحشاً جدًا بعد وفاة ابن زوجي حتى توسلت زوجي أن يعيد الطفلة التي أنجبته زوجته الثالثة، لأتمكن من تربيتها. كانت قد أرسلت بعيداً للرضاعة عندما تزوجني. وأظن أنهم اعتبروا ذلك لباقة في ذلك الوقت. تلك هي ابنتي، كما أسميها وكما تسمي نفسها. وهي متزوجة الآن، والثياب التي أعرتها لك في داليان كانت ثيابها. في النهاية، توليتُ إدارة العمل بعد وفاة زوجي. ورغم أنني لم أكن أملك خلفية طبية، فقد كنا محظوظين بوجود صيادلة بارعين. عزمتُ على عدم تمرير تقاليد تقييد الفتيات... وكما تعلمين، لدى بوهاي أربع شقيقات. ولم أسمع عن عديمي الظلال مرة أخرى حتى أواخر العام الماضي.

- ولمَ ذاك؟

- لأن بوهاي هو الابن الأكبر في البيت الآن.

- هل لديه شقيق أصغر؟

- ربما سيحظى بأخ قريباً.

تذكرتُ الحوار الغريب الذي دار مع والد بوهاي قبل أن نغادر إلى اليابان، وبات كل شيء واضحاً، بما في ذلك قرارها بمرافقة بوهاي إلى اليابان. من الواضح أن طفلاً على وشك أن يولد من عشيقة والد بوهاي. وهذا أيضاً يفسر نظرات السيد المتوترة والقلقة. سيعلو النواح والغضب (المبرر تماماً) في ذلك المنزل.

هبط الغسق الربيعي؛ وحن وقت العودة. لو كنت وحدي، لربما واصلت السير أعمق في الغابة. أجري بلا توقف بعيداً عن الناس ولا أعود أبداً. لا ينتهي أبداً هذا الألم الذي يرافق العيش في هذا العالم.

سألتها: «تاي فورن، هل ما زلتِ تصلين للإله الثعلب؟»

- أحياناً. كنتُ أصلي للحصول على رفيق درب جيد إذا اضطررتُ للسفر مع بوهاي. وها أنتِ ذا!

- شعرت بالغبطة وأنا أسألهما: «إِذَا صليتُ لِلإلهِ الثعلبِ، فأرسلني إليك؟ ألا يجدر بك أن تخافي مني؟ البعض يقول إن الثعالب تجلب الحظ السيئ».
- كنا قد ابتعدنا عن المسار بينما كنا نجمع سعف السرخس الملتوية بدوتُ، أنا وسيدتي العجوز، كفلاحتين في بستان، ونحن منهماكتان في الحصاد بينما نكتشف المزيد من النباتات.
- قالت سيدتي: «في العصور القديمة، كانت تُعتبر الثعالب السوداء أو البيضاء علامات على حسن الطالع. فعندما كان الإمبراطور يوو، مؤسس سلالة شيا، لا يزال أعزب في عامه الثلاثين، ظهر له ثعلب أبيض ذو تسعة ذيول. قال الإمبراطور: «الأبيض هو لوني، وتسعة ذيول علامة الازدهار وزوجة جيدة»، لذا تزوج امرأة من تلك المنطقة. ويقال إنه تزوج الثعلبة نفسها».
- أوه، هذا غير صحيح. لقد تزوج امرأة عادية تمامًا من توشان.
- توقفت سيدتي وقالت: «الطريقة التي قلت بها ذلك تشبه تمامًا الطريقة التي تحدث بها السيد كوروساكي في وقت سابق اليوم! كيف تعرفين؟»
- قلت: «أخبرتني جدتي». ولم يكن هذا كذبًا.
- اعتقدتُ أنك نشأت في دار للأيتام.
- آه... نعم، لكنني ما زلت أتذكر جدتي. كانت مثلك؛ مهتمة جدًا بالثعالب.
- قالت بفضول: «حقًا؟» كان هذا كافيًا لإلهاء سيدتي العجوز، لحسن الحظ أنها كانت مفتونة بالموضوع: «إذن، هل يمكن للثعالب والبشر أن يتزاوجوا؟»
- نادرًا، وغالبًا ما يكون الزواج بالاسم فقط. ولا يولد أطفال من هذه الزواجات.
- لكن ماذا عن كل القصص التي يدعي فيها الناس أنهم من نسل الثعالب؟
- الثعالب ليست كثيرة الإنجاب. حتى في الطبيعة، نادرًا ما ينجب الهوجينغ جراء من بعضهم، ولهذا هم نادرين جدًا. لقد ضللت قصص جراء الثعالب البشرَ خلاف الحقيقة. والرجل الذي يعتقد أن زوجته الثعلب قد أنجبت له ولدًا، ليس لديه فكرة أن لديها في الحقيقة عاشقًا من الثعالب الذكور⁽¹⁾.

(1) الأشخاص مثل العرَّاف وطارد الأرواح الشهير في حقبة هيبان، أبي نو سيمي، الذي زعم أنه من نسل امرأة ثعلب، كانوا في الواقع ثعالب بأنفسهم. وإضافة «أب بشري»

فتحت سيدتي فمها بدهشة لتطرح المزيد من الأسئلة، وأدركت أنني تجاوزت حدِّي في الحديث. هذه مشكلة الشعور بالراحة الزائدة مع البشر. فسارعت بالقول: «كيف سنحمل كل هذا إلى المنزل؟»

كنا قد جمعنا كومة كبيرة من الخضراوات البرية الربيعية. قالت سيدتي: «يمكنني حملها في تنورتِي. أنا امرأة عجوز، ولن يأبه بي أحد».

حللتُ الوشاح القطني الكبير عن رقبتِي. كان الضوء يتلاشى، وأملتُ ألا تلاحظ أثر العضة على جانب رقبتِي. قلت بمرح: «هيا بنا!» وجمعتُ الخضراوات في الوشاح وربطت زواياه كأذني الأرنب. ثم استدرنا للعودة.

قالت سيدتي: «لكن أين الطريق؟»

كان هذا أسخف خطأ ارتكبته منذ فترة طويلة. هناك سبب وراء أن العديد من القصص تبدأ بعبارة: **في إحدى الأمسيات المتأخرة، ضاع حطّاب،** إذ من السهل أن يضيع المرء عند الغسق، لا سيما عندما تختفي النجوم وراء الأشجار.

لم أشعر بالقلق... ليس بعد. فقد غادرنا المنزل منذ ساعة أو أكثر، وكنت متأكدة من أنني أستطيع إيجاد طريق العودة. لكن سيدتي بدت متعبة. كان الهواء باردًا بعض الشيء ولم يكن معنا فانوس. أمسكتُ بذراعها وبدأنا السير، لكن قبل ذلك، استخدمتُ سكين التقشير التي سلبتها من المطبخ لقطع شريط من لحاء أقرب شجرة، فالتناس يميلون إلى المشي في دوائر في الغابات، لذا من الأفضل ترك علامة. حلّ الغسق، وأحاطنا بوشاح خافت من الظلام. بدت الأشجار أكبر وأغصانها ترتفع مظلمة في السماء.

أمسكتُ سيدتي ذراعي بقوة أكبر وقالت: «هل هذا ضوء؟»

ظهر ضوء خافت، متمایل من بعيد. لأكون صادقة، كنتُ قد لاحظته في وقت سابق، لكن كان لدي شعور سيئ حياله. دفعني غريزتي للاختباء وانتظار اختفائه.

فتلك الأضواء الخفيفة المتناثرة التي تظهر في الغابات نادرًا ما تحمل أخبارًا جيدة.

30

- رأيتها مرتين؟

شعر باو بالدهشة من تأكيد الطفلة. وعندما أمعن النظر فيها، أدرك أنها ليست صغيرة جدًا... ربما في العاشرة أو الحادية عشرة، وإن جعلتها بنيتها النحيلة تبدو أصغر. لها ذقن حاد، وكما اشتبه، فهي فتاة ذكية.

- عمي، ماذا ستعطينني إذا أخبرتك عنها؟

تذكر باو تنهيدتها المحبطة عندما أعطاهها الحلوى في وقت سابق. لم يبقَ في جيبه سوى قطعتين نقديتين، فأخرج واحدة ليُرِيها إياها. وقال: «لكن عليك أن تقولي الحقيقة».

نظرت الفتاة بسرعة من العملة في يده إلى وجهه، ذلك الوجه المتيّن البسيط الذي خدم باو لأكثر من ستين عامًا، ثم أومأت -«لن أكذب»- رغم أن الإيماءة نفسها كذبة، فقد ابتسم باو لنفسه. إنها صغيرة، واحتيالها بسيط وغير متقن، لكنه يتصور أنها ستصبح امرأة مهيبة عندما تكبر.

- رأيتها أول مرة بعد وقت قصير من قدومها. جدي هو المحاسب، وأنا أساعده أحيانًا. وأحيانًا يدفع لي.

- هل تحبين أن تنالي أجرًا؟

«المال مهم جدًا. إذا لم يكن لديك مال، ستُباع». قالتها بيُسْر لكن باو شعر بانقباض في قلبه. لم يكن انقباضًا كبيرًا، لأنه كان يشعر أن هذه الفتاة تستطيع التكيف في أي مكان.

- هل تُباع معظم الفتيات إلى هذا المنزل؟

- نعم. يُحضرهُنَّ الرِّجال. معظمهم وسيمون ويشترون النساء من المناطق الريفية. لهذا لا أخطط للزواج من رجل وسيم.

تعجّب باو من ذكائها.

تابعت: «لكن المرأة في تلك الصورة وصلت بنفسها. كانت الثلوج تتساقط بغزارة، لذا رافقتُ جدي لأتأكد من ألا يتعثّر. جاءت السيدة الثعلب وطرقت باب المنزل الرئيسي في الصباح الباكر قبل أن نفتحه» وظهرت على وجهها نظرة إعجاب خاطفة: «طلبت رؤية المالك. المالك الحقيقي، وليس المدام».

عادة ما تُترك إدارة هذه المؤسسات اليومية لمالكات نساء، لكن القوة المالية والسيطرة الفعلية وراءها بأيدي الرجال، ولدى الكثير منهم علاقات بعالم الجريمة.

قالت الفتاة: «ذهبا للحديث لفترة طويلة في الطابق العلوي. وفي نهاية الأمر، أخبرنا المالك أنها ستتضم إلينا لبعض الوقت. لا فكرة لديّ عما قالته له؛ فالتعامل معه عادة ما يكون صعبًا. كما أن البوّاب وجدي أقسم ألا يقولوا شيئًا. لهذا لم يتعرف الطاهي على الصورة... لأنه لم يرها أبدًا.

«لقد طلبت تحديدًا الانضمام إلى الحفلة القادمة في قبلا السيد وانغ. لم تكن المدام سعيدة على الإطلاق، لكن المالك رفض اعتراضها. لهذا السبب كانت المدام تشك فيها. وقالت: تلك المرأة ثعلبة!» أعلنت الفتاة ذلك بحماسة، مسترجعة الإثارة.

سألها باو: «ألهذا تدعينها السيدة الثعلب؟»

- نعم. هناك خزانة في الطابق العلوي بجوار غرفة المدام الخاصة. إذا ضغطت أذنك على ثقب خلف ظهر الخزانة، يمكنك سماع كل شيء تقريبًا.

نظرت الفتاة بانتصار، ولم يستطع باو إلا أن يبتسم. قال لها بتوبيخ: «لكن التجسس ليس فعلًا جيدًا»، متذكرًا مسيرته السابقة في التعليم. والآن هو نفسه يرشو طفلة لتروي له القيل والقال، فشعر بشيء من الخجل.

قالت الفتاة، وهي تفتح عينيها على اتساعهما: «لكنني لم أكذب! ألم تقل إنه لا بأس ما دُمت لم أكذب؟» فحكّ باو رأسه.

ثم تابعت مسرورة بنصرها: «لم يكن لدى المالك أي أسباب وجيهة؛ إذ كان يكرر فقط أنها ستكون مرة واحدة. هذا جعل المدام تشعر بالغيرة. لأنهما كانا مقربين جدًا». ومدت يدها ووضعت إصبعين معًا لتشير إلى العلاقة بينهما. تأمل باو في هذه الطفلة. حتى لو لم تكن تعيش في بيت متعة، إلا أنها قد تعلمت الكثير عن الطبيعة البشرية.

أضافت: «عندما خرجتُ من الخزانة، التقيتُ السيدة الثعلب بنفسي. كانت تقف في الممر العلوي الذي يطل على الفناء. تساقطت الثلوج، وتناثرت على كتفها وشعرها. كانت وجنتاها ورديتين، وعيناها لامعتين كأنها أكثر حياة من أي شخص آخر هنا. عندما أخبرت جدي، قال إنها يجب أن تكون مفعمة بالتشي أكثر مما ينبغي لامرأة. وبحسب رأيه، فالنساء مثلها يلتهمن الرجال ويجب إخضاعهن. أدركتُ أنها ضببطتني أتجسس، لكن بدلاً من أن تبدو محرجة، ابتسمت فحسب.

ثم طلبت مني أن أعيرها بعض الملابس. كنا نعرف أن المدام لن تعطيها شيئاً جيداً. البيت لديه أزياء خاصة، كهذا الذي أرتديه، عندما يكون هناك مناسبات للترفيه». وأشارت إلى زي الجنّية بفخر. فقال لها باو طوعاً: «تبدين جميلة جداً».

تابعت: «لذلك أخذتها إلى المخزن. في ذلك الوقت من الصباح، كانت النساء جميعهنّ نائمات. وبما أنهنّ يعملن حتى وقت متأخر من الليل، فإنهنّ دائماً ما يكنّ متعبات وسيئات المزاج في الصباح. لقد سألتني السؤال الذي سألتّه أنت، عمّا إذا كنتُ أعمل في هذا المكان، فأخبرتها أن جدي هو المحاسب، لكنها بدت صارمة جداً وقالت إنه يجب ألا أبايع أبداً.

أخبرتها ألا تقلق لأنني كنت أوفر المال. لديّ قدر لا بأس به مخبأ في المنزل. ثم اخترنا لها ثوباً، ووعدتني أن تعيده. عدتُ إلى المنزل بعد ذلك. ولاحقاً، عندما سمعتُ عن المتاعب، أدركتُ حقاً أنها كانت ثعلباً».

تنفس باو بعمق. أحياناً يتساءل ما إذا كان الجميع قد أصيبوا بجنون جماعي فيما يتعلق بهذه القضية.

- ما هي المتاعب؟

- طلب السيد وانغ أن يشتري عقدها، فاضطر المالك إلى التظاهر بأنه يعرف كل شيء عن ماضيها. غضبت المدام بشدة. (وامتصت الفتاة الحلوى في فمها بتأمل). ثم هربت منهم.

اعتدل باو وقال: «قلت إنكِ رأيتها مرتين».

«بعد بضعة أسابيع، سمعت صوت ارتطام في هذا الفناء، هناك بالضبط. وعندما فتحتُ الباب الخلفي، كانت قد تسلفت للتو فوق السور». نظرت الفتاة بإعجاب، وياو كذلك. فالجدار المبني من الطوب أعلى من رأسه.

تابعت الفتاة: «عندما رأنتي، قالت: **لقد جئت لأعيد الملابس**. لم تكن تريد أن أتعرض لأي مشكلة. لم يسبق لأحد أن أوفى بوعده لي بهذه الطريقة، بلا مقابل».

وبدا التعبير على وجه الفتاة أشبه بتقديس.

سألها باو: «هل كل شيء له ثمن في نظرك؟»

- جدي علمني ذلك. كان يعمل كبير الموظفين في مستودع تجاري، لكنه كان يقامر كثيرًا. وهكذا انتهى به الحال في حفظ الدفاتر هنا.

عندما أظهر باو تعاطفه، احمرَّ وجه الفتاة خجلًا. وقالت: «لكنه يعيش حياة كريمة الآن».

عاجل باو: «عذرًا، لم أقصد إساءة».

تورّد طرفا أذنيها، لكنها أومأت برأسها بشيء من الجفاء لتشير إلى أنها قد سامحته. ذكره هذا التصرف بفتاة أخرى قبل زمن بعيد. تردّدت في أذنيه كلمات تاغتا: **أَنْتِ الوحيد الذي يعتذر لي**، وفي لحظة، أغمض عينيه. هذه القضية خطيرة. فهي تحرك ذكريات وحكايات عن حبه الأول المفقود.

تابعت الفتاة: «طلبتُ مني بقايا الطعام، لذا أخبرتها أن تنتظر في المخزن بينما وضعت لها بعض الكعك المطهو على البخار والدجاج البارد في صفيحة، تمامًا كما أفعل لجدي. فأنا من يتولى مسؤوليته. إذا مرض جدي أو مات، فلن يكون لدينا مصدر دخل. لهذا أرافقه دائمًا، حتى لا يسقط».

هذا فسّر ساعات عملها غير المنتظمة، ومزيجها الغريب من الحدة البالغة والحماسة الطفولية: «عندما سألتها عن فيلا وانغ، ارتسمت على وجهها تعابير امتعاض وقالت: **يا له من رجل مزعج**. يُعدُّ السيد وانغ من أفضل زبائننا، لذا كنت أموت شوقًا لسماع المزيد. وبينما كانت تأكل، قالت إنها كانت تبحث عن شخص ما، لكنه هرب منها».

سألتها عن سبب مغادرتها، رغم ثراء السيد وانغ ورغبته في الزواج بها، لكنها قالت إنها كانت متزوجة من قبل. لم تبدُ الأمور جيدة من تعابير وجهها. كنت أشتعل فضولًا بشأن زوجها. وسألتها أكان وسيماً أم لا؟ عندها نظرت بجدية وحذرتني من الرجال أو النساء الحسان الذين يقتربون منك وحدهم. **إياك أن تتبععيهم**. ثم تنهدت وقالت إنه لم يتبق الكثير منهم على أي حال. لم أفهم ذلك جيدًا.

فَكَرَّ باو على الفور في الرجل الأنيق الذي يبدو أنه تخلى عن امرأتين في الثلج على الأقل. وتساءل: هل قادهما بهدوء بعيداً عند الغسق، وهل كانت السيدة تتحدث عنه أو تقدم تحذيراً عاماً بشأن المفترسين؟ ثم عاد باو ليصغي لها بانتباه شديد.

- كانت في عجلة رهيبة. لم أرَ أحداً يأكل بهذه السرعة أو بهذه الكمية من قبل. مسحت الأطباق تماماً. وبينما كانت تأكل، أدركتُ فجأة أنه ليس من الطبيعي أن تأكل من على الأرض بهذه الطريقة.

- من على الأرض؟

- أحضرتُ الطعام على صفيحة، لكن لم تكن هناك منضدة. حينها كان الظلام يخيم على المخزن. وتساقط الثلج بنعومة كالريش، ورائحة المخزن تشبه رائحة الأوراق الجافة والأرض الرطبة. فجأة، شعرتُ بأغرب إحساس، كأننا لم نعد في الزمن الصحيح. للحظة، لم أكن حتى أعرف في أي سنة نحن.

شعر باو بالانجذاب. تذكر حديثه مع السيد وانغ، عندما شعر للحظة أنهما كانا رجلين نبيلين في غابة، يتحدثان عن الثعالب والغزلان والثلوج. قال بصوت عالٍ، وكأنه يحدث نفسه لا الفتاة: «فهمت. إنه لأمر غريب جداً». لكن الفتاة تهللت.

- فرغت من الأكل، لكنني لم أرغب في أن تذهب. قالت: أنا آسفة جداً، لكنني قطعت وعداً لشخص آخر. فسألتها: وماذا عني؟ فضحكت وقالت إن عليَّ أن أكبر بشكل جيد. (ثم تلاًأت عيناها). كانت متجهة إلى داليان، لأن الرجل الذي كانت تطارده ذهب إلى هناك.

قفز قلب باو: «هل أنت متأكدة أنها قالت داليان؟»

- نعم، كانت متجهة مباشرة إلى هناك. شعرتُ برغبة في البكاء، رغم أنني لم أكن أعرف السبب. ربما لأنني شعرت بأنني كنتُ أمام شيء فريد جداً، ولن يعود أبداً.

- شكراً لك. لقد كنتُ مفيدة جداً.

سألتها الفتاة بقلق مفاجئ: «عمي، ماذا ستفعل إذا وجدتها؟»

أدرك كلاهما متأخراً أن باو لم يشرح أسبابه. شعرت الفتاة بالقلق فجأة، وعضت شفتها وظهرت على وجهها تعابير الخوف.

قال باو بصدق: «لست متأكدًا».

ثم مد يده إلى جيبه ليعطيها العملة التي وعدها بها، لكنها قالت: «لا أريد أن أتقاضى المال بهذه الطريقة. إذا قابلت السيدة الثعلب، هلأ تركتها تذهب؟ أخبرها أنني سأكون في انتظارها».

بينما كان باو يمشي عائداً إلى المنزل في الظلام، دسّ ذقنه في صدره اتقاء البرد، مستمعاً إلى صوت مطرقة الحارس الخشبية وقهقهات السكارى العرضية. لقد كان يوماً مليئاً بالمفاجآت والمعلومات المفيدة. ومع ذلك، شعر بسديم خفيف من الكآبة. ربما يعود ذلك إلى أن حيّ الضوء الأحمر دائماً ما يُحبطه، بغض النظر عن فخامته.

هناك تفسير محتمل لتلك المرأة؛ أو السيدة الثعلب، كما سمّتها الطفلة. في الواقع، بمجرد أن وصفت الطفلة كيف تسلقت الجدار، ظهرت بعض الأفكار في ذهنه على الفور:

1. مدارس الأوبرا الصينية تختار الأطفال من دور الأيتام، وتدريبهم على الألعاب البهلوانية. إذا كانت تلك المرأة ممثلة، فقد يفسر ذلك سحرها غير المألوف.

2. لكن لماذا كانت تبحث عن بكتو؛ لأجل جرو الثعلب؟ حتى لو كانت وسيطة محتالة أو مالكة حيوان أليف، فلا يُعقل أن يذهب أحدهم إلى هذا الحد من أجل حيوان بري.

حاول باو التفكير بعقلانية، لكنه شعر بشيء يعصف في صدره. تفاجأ عندما أدرك أنه شعور بالحسد. الحسد على ذلك الاندهاش الذي كان في عيني الفتاة قبل قليل، مثل نظرة تاغتا القديمة. السعادة التي عبّرت عنها للقاء لم يُقدّر له أن يكون فيه.

وبينما يسرع خطاه في الظلام، تساءل: من أنت، ما أنت؟

استمر الضوء الخافت المتمايل في الاقتراب من بين الأشجار المتناثرة. أمسكت سيدتي ذراعي بأمل. وقبل أن أتمكن من منعها، صاحت: «مرحباً! نحن ضائعتان!» بغض النظر عن أننا كنا في اليابان الآن، ومن غير المحتمل أن يفهم أحد ما تقول، كان الأوان قد فات على أي حال؛ فالشخص الذي يحمل الضوء كان يقترب نحونا بسرعة.

لم يعجبني ذلك. فعادة ما يقترب الفلاح الوحيد بتردد. أما التقدم المفاجئ فغالباً ما يشير إلى ثقة بكثرة العدد أو غاية ما. ونحن هنا، امرأتان بمفردنا في منطقة معزولة. كنت أخشى أن تكون سيدتي مفرطة الثقة في الآخرين. صاحت سيدتي بارتياح كبير: «لقد نجونا!»

اتضح أن الضوء كان فانوساً ورقياً محمولاً على عصا. وظهر خلفه شخص نحيل. لكنني لم أحتج إلى ضوء الفانوس لأتعرف على ملامحه؛ من مشيته، عرفت أنه كورو.

قال: «لقد تأخر الوقت. جئتُ لأعيدكما إلى المنزل». قدّم ذراعه لسيدتي، التي كانت مسرورة برؤيته. قالت: «كيف عرفت أننا هنا؟»

- لو كنتُ سأخرج في نزهة، فمن المحتمل أنني كنت سأصعد هذا التل أيضاً.

قالت سيدتي: «هذه هي المرة الثانية التي تنقذني فيها. أو ربما يجب أن أقول، شخص مثلك قد جاء لإنقاذي، لأننا لا نعرف عن المرة الأولى». وأشرقت أسارير سيدتي، حتى بدأت تمارحه، بينما التزمتُ الصامت. كيف وجدنا كورو بهذه الدقة؟ أم ربما كانت تصرفاتي متوقعة أكثر مما كنتُ أظن؟

التفت كورو نحوي وقال: «دعيني أحمل حزمة الأعشاب».

قلتُ بحدة: «لا داعي لذلك».

قالت سيدتي، وقد بدت مستغربة من فظاظتي: «كنا نجمع الأعشاب البرية، وضللنا الطريق».

سألني كورو: «هل ضللتِ الطريق؟»

- نعم.

شعرتُ بغصة دفاعية، لكنه اكتفى بالقول: «خذي جذرك في هذه الغابة». أضاء الفانوس وجهي، فتوقف للحظة. شعرت بالحرَج، ووضعت يدي على أثر العضة في عنقي. لم يكن من المناسب أن تلاحظ سيدتي ذلك. لم يقل كورو شيئاً، لكنه استأنف السير مجدداً بسرعة أكبر.

ارتفعت حولنا رائحة الأوراق الرطبة والأرض الغضة، مع عبق الليل في الغابة. وبينما كنت أهرول خلف ضوء الفانوس المتأرجح، سمعت كورو وسيدتي يتحدثان.

قالت سيدتي: «هل يمكنك أن تبطئ قليلاً يا سيد كوروساكي؟ أخشى أنني لا أستطيع مجازاة سرعتك بهذه الأرجل العاجزة».

«عذراً، هل ترغبين أن أحملك؟» ثم انحنى ليعرض عليها ظهره.

- أوه، لا أستطيع، هذا كثير.

قال بلطف: «من فضلك، الأرض غير مستوية، وتبددين متعبة. لا يزال أمامنا ميل على الأقل للوصول إلى المنزل».

قلت: «سأحمل الفانوس»، بينما رفعها بسهولة على ظهره. إذا كان كورو قد أنقذها فعلاً عندما كانت طفلة، فهذه هي المرة الثانية التي يحملها فيها على ظهره. أثار هذا التفكير شعوراً غريباً في داخلي، فقد لا تعرف ذلك أبداً. وبما أنني أصبحت أحمل الفانوس، اضطررت للسير بجانب كورو، وكان ذلك الشعور مألوفاً ومؤلماً في الوقت ذاته.

بدت سيدتي صغيرة كطفلة وهي تتشبث بظهره بارتباك. قالت على استحياء: «أصبحتُ عبئاً عليك الآن، بجانب كوني ضيفة. أنت لطيف جداً. ألدبك عائلة؟»

- لا.

كورو وحده من يستطيع أن يرد بهذه الطريقة المهذبة الجافة. أسرعُ خطاي وتقدمتُ بضع خطوات للأمام. لم أكن أعرف على من أغضب أكثر؛ على

شيرو لأنه هو من أوصلنا إلى هذا، أم على نفسي لأنني انصعتُ للأمر، أم على كورو لأنه كورو.

سألت سيدتي: «هل لي أن أسألك كيف تعرف شيراكاوا؟»

أجاب كورو: «نحن أصدقاء منذ الطفولة. نشأنا في حيٍّ واحد، عائلتنا تعرفان بعضهما».

قالت: «فهمت». ثم تابعت: «أنا قلقة بشأن حفيدي، بوهاي. منذ أن تعرف على شيراكاوا، لم يستمع إلى أي شخص آخر. على سبيل المثال، لا أفهم لماذا هو وأصدقائه توقفوا هنا في موجي بدلاً من مواصلة طريقهم إلى طوكيو لإكمال دراستهم».

- وماذا قال لك حفيدي؟

- تحجج لي بقصص كثيرة، والآن اقترح أن يبدأ مشروعًا مع شيراكاوا؛ مصنع سكر في فورموزا.

بدأت سيدتي العجوز بائسة للغاية، وملأني شعور عارم بالذنب. وذلك لأنني كنتُ على دراية كاملة بالذي كان بوهاي يخطط له. سألته بتردد: «هل تعتقد أنه يمكن الوثوق به؟»

قال كورو: «لطالما كان شيراكاوا ذكيًا. حتى بيننا، عندما كنا أطفالًا، كان مشهورًا برجاحة عقله».

لم أستطع منع نفسي من إطلاق ضحكة ساخرة. كما ذكرتُ سابقًا، شيرو كان مسؤولًا عن إشعال ما لا يقل عن خمس حروب صغيرة.

توقف كورو وقال: «إنه رفيق ممتع، لكنه في الغالب لا يكثرث إلا بنفسه».

قالت سيدتي: «يبدو هذا تحذيرًا». وتساءلتُ عما كان يقصد بكلماته تلك.

لم يكن يعجبني المشي أمام كورو. في الحقيقة، كنتُ أفضل أن أكون بعيدة عنه، في بلد آخر إن أمكن، لكن لم يكن هناك مناص من ذلك وأنا أحمل الفانوس. وبينما كنا نسير، شعرتُ بعدم الارتياح، كأن نظرتُه كانت تخترقني. حسنًا، فليُنظر كما شاء. إذا كان كل ما سيتذكره بعد هذا هو صورة ظهري وأنا أبُتعد، فلا بأس بذلك.

وصلنا إلى المنزل أسرع مما كنتُ أتوقع. وما إن فُتح الباب الرئيسي حتى ظهر بوهاي فجأة.

قال لجدته: «أين كنتِ؟» بدا لون بشرته كلون العاج تحت ضوء المصباح، أشبه بأسنان قديمة استُخرجت من رابية.

- ضللنا الطريق. هل حدث شيء؟

رمش بوهاي بعصبية: «لم أتمكن من العثور عليك، ثم خرج كوروساكي وشيراكاوا كلٌ بمفرده».

قالت بحدة: «لا داعي للقلق، بما أننا عدنا جميعًا بسلام. هل رأيتَ شيئًا غير عادي؟»

بينما كنت أفك حزمة الأعشاب البرية، انحنيت وأنصت. في الردهة المظلمة، بدا صوت بوهاي ضعيفًا مترددًا: «كنت قلقًا لأن الوقت تأخر، لذا ذهبتُ إلى البوابة الأمامية للانتظار. ثم رأيت...» وحول وجهه بعيدًا وتمتم بصوت منخفض. فتجمدت سيدتي.

قالت لكورو: «شكرًا جزيلاً على إعادتنا إلى المنزل. سأرافق بوهاي إلى غرفته. آه سان، لا حاجة للانتظاري».

ثم قادت بوهاي بعيدًا، رغم أنه كان أطول منها بكثير. وبقيت أحرق إليهما.

- آه سان... أهذا ما تدعوك به؟

في غمرة انشغالي، نسيت أن كورو كان يقف بجانبني. أو ربما، بصراحة، عدت إلى عاداتي القديمة. طوله، عرض كتفيه، ومدى ذراعيه، كانت كلها مألوفة بطرق خادعة. التفت كورو نحوي. من هذا الجانب، بالكاد كنت تستطيع رؤية الندبة التي عبرت وجنتيه.

أجبت بتصلب: «نعم، هذا هو الاسم الذي منحوه لي الآن».

- فهمت. لطالما أحببت الرقم ثلاثة.

قلت بتهكم: «هل كان يجدر بي اختيار الرقم أربعة بدلًا منه؟» الرقم «أربعة» هو نظير صوتي لكلمة «موت» في الصينية، بينما «ثلاثة» يُناظر صوتيًا «الحياة».

ابتسم كورو بفتور: «أنا سعيد أنك 'ثلاثة' ولست 'أربعة'». يقصد بذلك على الأرجح أنه سعيد بأنني ما زلت على قيد الحياة. لكنني لم أكن أستطيع قول الشيء نفسه. كانت هناك فترة تمنيت فيها أن يموت كلانا.

ساد الصمت. إذا كان كورو ينوي سؤالني عن حياتي في السنوات القليلة الماضية، فلم يكن لدي أي نية للإجابة. لكن كورو قال: «هناك شيء غريب بشأن هذا الشاب».

سألته: «بوهاي؟»

قال وهو يعبس: «نعم. يبدو عليه أنه مطارد».

ترددتُ في أن أسأله المزيد. رغم عدم ارتياحي لوجودي تحت سقف واحد مع كورو، فإنه يتمتع بحسن تقدير للشخصيات. قرَّرتُ أن أسأل لأجل سيدتي، بالإضافة إلى فضولي حول عديمي الظلال، إذ لم أسمع بهم من قبل.

- ماذا تقصد بذلك؟

- إنه مرعوب. بلا شك هذا سبب عبوره البحر، ربما بناءً على نصيحة شيوخهم.

سألته: «هل تتحدث عن الأشباح؟»

- تعرفين كما أعرفُ أن مجرد التلميح إلى مثل هذه الأمور قد تقتل إنساناً. من الذي يريد موت بوهاي؟

هذه فكرة جديدة لي. كنتُ مشغولة بمخاوف سيدتي، ولم أفكر مطلقاً في أنَّ مخاوف بوهاي قد يكون لها أصل دنيوي.

قلتُ وأنا أنحني لجمع حزمتي: «لا أعرف. لكن من الواضح أنك قضيت وقتاً طويلاً في كتابة قصص الأشباح».

قال كورو بهدوء: «هل قرأتِ كتابي؟»

- لا، رغم أن مدبرة منزلك تشيد به باستمرار.

- لم أتوقع أبداً أن يُنشر. لكن من فضلك، لا تقرئيه. فهو لا يعينك في شيء.

بالطبع، أن يُطلب مني ألا أفعل شيئاً يشبه وضع رنجة مملحة أمام الثعالب. طُعْمٌ لا يكاد يُقاوم. بينما كنت أسرع إلى المطبخ، لم أستطع أن أقرر ما إذا كان كورو جاداً أم يتظاهر بالمراوغة. كان وجهي يشتعل. أخبرت نفسي أن غضبي هو السبب، لكنني أدركتُ في أعماقي أن السبب الحقيقي هو صوت كورو. ذلك الصوت الهادئ الكئيب الذي طارد أحلامي وكوابيسي، ولم أرغب في سماعه أبداً.

أخذتُ حزمة الأعشاب إلى المطبخ، حيث لم تكن مدبرة المنزل سعيدة بتكليفها بالمزيد من الأعمال. قلت: «سأغسلها بنفسي الآن». وحين مددتُ يدي لأخذ مصفاة من الخيزران المنسوج، لاحظتُ مدبرة المنزل أثر العضة على رقبتني. وبما أن المنزل مليء بالشباب، زاد عبوسها.

قالت بجفاء: «يحظى كوروساكي سينسي بسمعة طيبة هنا. أمل أن تفهمي ذلك».

اضطرتت إلى كبح نفسي عن إجابتها بأنني لا علاقة لي بهذا؛ كان شيرو مصمماً على مضايقتي من أجل تسليته الخاصة: «لقد عضني كلب».

- في رقبتك؟

«بينما كنتُ أنحني لقطف الأعشاب». رغم أن العضة كانت على شكل فك بشري، لكن لدهشتي، شحب وجهها.

قالت مدبرة المنزل: «ربما كان ثعلباً. هناك شائعات بأن الثعالب تعيش على ذلك التل، ولهذا السبب لا يذهب أحد إلى تلك الغابة».

- لكن كوروساكي قال إنه يذهب هناك طوال الوقت.

- لقد حذرتُ السينسي من التجول هناك. كنتُ محظوظة جداً لأنه ذهب للبحث عنك هذا المساء؛ ولولا ذلك، لما عدتُ إلى المنزل أبداً.

- ما الذي تفعله الثعالب على ذلك التل؟

- في زمن جدي، كانت تُروى حكايات عن كوخ صغير يظهر من حين لآخر. والذين يبتعدون عن الطريق عبر الغابة يقابلهم إما رجل عجوز وإما امرأة جميلة.

- هم، أعتقد أنني سمعت هذه القصة من قبل. هل ينال المسافرون طعاماً وسريراً مريحاً؟

- نعم، هذا صحيح. لكن في الصباح التالي، لا يبقَ سوى أوراق جافة وطعام متعفن وبراز. الثعالب مخلوقات شريرة.
- ربما كان هذا كلُّ ما يملك الثعلب لتقديمه. ربما كان ينام على أوراق ميته ويأكل طعامًا متعفنًا بنفسه.
- انتفضت مدبرة المنزل وقالت: «الشر في الثعالب يكمن في طبيعتها المخادعة. كما أنها تحط من قدر البشر».
- قال شيرو، الذي ظهر خلفي بصمت: «هل هذا صحيح؟»
- قالت مدبرة المنزل: «أوه، السيد شيراكاوا! كنت أحذرهما للتو من الثعالب على ذلك التل. يبدو أن واحدًا منها عضَّها».
- قلتُ: «لقد كان كلبًا عقورًا صغيرًا».
- مالت عينا شيرو، بلون نبيذ الشاوشينغ، نحو رقبتي. وقال: «يا لها من حادثة مؤسفة. يجب أن تعالجي الجرح فورًا قبل أن يلتهب».
- ثمَّ خرج إلى الفناء، فتبعته على مضض، وأنا أحمل الأعشاب البرية في مصفاة الخيزران. وبينما كنت أضخ الماء لغسلها، جلس شيرو على كرسي صغير.
- قال بمرح: «كلما رأيتك أكثر، زادت حيرتي حول سبب انقطاع علاقتنا طوال هذه السنوات».
- من فضلك، ادخل في صلب الموضوع. قلتُ إن هناك أخبارًا عليَّ سماعها.
- يَكنو نيكان قد وصل.
- «وصل حقًا؟ قلتُ إنك سترسل له رسالة». كم كان شيرو يخفي عني؟ شعرت بمعدتي تنقبض.
- في الواقع، كتبْتُ له قبل أن تغادر داليان، فقط لأخبره بالأمر.
- قلت بغضب: «ومع ذلك، جعلتني أساعدك مع تاكيدا، قائلًا إنك تحتاج إلى أموال لشراء تذكرة له من يوكوهاما!»
- ردَّ شيرو بهدوء: «المرء دائمًا يحتاج إلى المزيد من المال».
- أين هو؟
- إنه يقيم في خان البلدة، بالقرب من المرفأ. ومع ذلك، يجب أن أصر على ألا تذهبي لزيارته على الفور. لدي مهمة له؛ وبعد ذلك، يمكنكِ فعل

ما يحلو لك. وإن كنتِ تفعلين ذلك بالفعل. الهروب إلى ذلك التل الليلة الماضية كان تصرفاً طائشاً للغاية. هل كنتِ تخططين لتركي؟ مجرد الإيحاء بأنني وشيرو نعمل كفريق كان غير مريح. نحن لسنا كذلك أبداً؛ في الواقع، تفاجأتُ بتصريحه هذا. وأنا لا أحب المفاجآت.

ولا أحب أن يُملَى عليّ أحد ما يجب أن أفعله، لذلك في صباح اليوم التالي، بعد أن استيقظتُ سيدتي (شاردة بصمت في أفكارها، دون أن تشي لي بحديثها مع بوهاي ليلة أمس)، تطوعتُ للذهاب إلى البلدة لأمر ما.

ولهذا، كنتُ بحاجة إلى ملابس عادية، وليس الكيمونو الفاخر الذي أعطاني إياه شيرو في اليوم السابق، لأنه سيجذب الكثير من الانتباه. بحثتُ في الخزانة، ولحسن الحظ، عثرتُ على كيمونو أزرق فاتح بنقوش الهاناكاجو؛ (سلة زهور). في الواقع، كانت هناك عدة أطقم، وكلها مناسبة لشابة متواضعة. تساءلت من تكون تلك الفتاة وما إذا كانت ضيفة عند كورو. شرحتُ لسيدتي أنني استعرت الملابس لتجنب لفت الانتباه. فأومأتُ بشرود، وقد بدت قلقة: «يبدو أن بوهاي يصبح متوترًا عندما لا يكون شيراكاوا معه. هذا محير».

«هل ترغبين في معرفة أين ذهب شيراكاوا الليلة الماضية؟» كنتُ متأكدة أنه التقى بـيكتو. وكلُّ ذلك دون أن يكلف نفسه عناء إخباري! قالت: «هل من الممكن أن نعرف؟» ورمقتني بأمل جعلني أشعر بالشفقة: «أتساءل ما إذا كانت هذه الرحلة كلها غلطة. إذا كان بوهاي مريضاً، فربما كان الأفضل أن يُعالج في المنزل».

- أستطيع أن أكتشف ما الذي كان يفعله شيراكاوا.

- أنتِ فتاة طيبة يا آه سان.

أنا لستُ فتاة طيبة على الإطلاق. لكنني لم أتفوّه بشيء بينما كانت تضغط على يدي بامتنان. فقد انصبَّت أفكاري على بـيكتو نيكان.

داليان، تلك المدينة الساحلية في الجنوب، هي أول خيط قوي لمعرفة المكان الذي ذهبت إليه السيدة الغامضة بعد مغادرتها فيلا السيد وانغ. في الصباح الباكر، توجه باو إلى محطة القطار. فلا يوجد وسيلة أفضل للسفر من موكدن إلى داليان، وهذه المرأة لا تبدو حمقاء.

أصبحت محطة السكك الحديدية في فنتيان أو موكدن تحت إدارة (شركة السكك الحديدية لجنوب منشوريا)، أو مانتييتسو، وهي شركة شبه خاصة يديرها اليابانيون. بدأت الشركة في استبدال قياس السكك الحديدية بالحجم القياسي وصولاً إلى كوانتشنغزي، بينما بقيت آخر محطة تحت السيطرة الروسية. تأتي معظم القاطرات البخارية، وكذلك القضبان ومعدات الإشارة، من أمريكا، مما يمنح المشهد طابعاً عالمياً فريداً. لكن باو لم يأت هنا للإعجاب بالتقدم الحديث. بل تأمل كيف يمكن لامرأة وحيدة أن تتركب القطار؟ إذا كان لديها مال، فمن المفترض أنها اشترت تذكرة، رغم أن الفتاة الصغيرة في بيت المتعة ذكرت أنها كانت ترتدي ملابس رثة عندما عادت.

ازدحمت المحطة الكبيرة ذات الواجهة المبنية بالطوب. ووقفت عربات الخيول في الشارع الواسع لتُفرغ أفواجاً من الركاب. يأس باو من العثور على دليل، لكنه استمر بعرض الصورة على كل بائع تذاكر وحمال بصبر. فأجيب بـ لا، ولا ولا. لم يتذكر أحد أنها اشترت تذكرة.

تناول باو الغداء في محل شعيرية بالقرب من المحطة. كان ثمنه رخيصاً، وتأتي الشعيرية مع طبق جانبي مجاني من الباو تشاي؛ وهو الملفوف المخلل الذي يُعد جزءاً أساسياً من الطعام في شمال شرق الصين. وبينما كان يدور بقايا الشاي في كوبه الفخاري، عرض الصورة على صاحب الكشك. حك الرجل رأسه وقال: «ربما أخذها أحد القواد. فهي شابة جميلة. والآن بعد أن فكرت في الأمر، سمعتُ من جين القصير حادثة غريبة قبل شهر. لقد أخذ فتاة أصرت على الذهاب إلى داليان».

مال باو للأمام، وزفر ببطء: «وماذا حدث؟»

- كان ينوي بيعها، لكن خلال الرحلة، فقد وعيه ووجد نفسه مستلقيًا بجانب سكك القطار. لقد اختفت المرأة؛ على الأرجح ذهبت إلى داليان بنفسها. يقول إنه لا يتذكر أي شيء.

وجد باو هذا مثيرًا للاهتمام. **لو كنت ثعلبًا، لحاولت أن أنسي الناس التفاصيل عني.**

لو كنت ثعلبًا، ماذا كنت سأفعل؟ كانت الكلمات تتراقص في عقل باو كقطرات ماء على مقلاة ساخنة. إنها فكرة غريبة، لكنه تقبلها على مضض. أولاً، لو كان ثعلبًا، لما جاء إلى المدينة أبدًا. الهواء هنا مشبع بالدخان، لذا دفن وجهه في وشاحه بينما يتحاشى بركة من بول الخيول. لكن ربما لا يوجد ما يكفي من الطعام في الريف. وفي النهاية، اعترف لنفسه أن معرفته بالثعالب محدودة ومجزأة.

من أين تعلمت مربيته القديمة عن الثعالب، على أي حال؟ سأل نفسه وهو يسترجع إحساس يدها الخشنة الدافئة، وثقتها بأن الإله الثعلب سيستجيب لدعواتها. وماذا كانت قد قالت له في البداية، قبل أن يمرض وتُرسَل بعيدًا؟ قالت: **دعوت إله الثعلب أن يصرف عنك...**

مهما حاول أن يتذكر تلك العبارة، يبقى الفراغ في ذاكرته: لغز من طفولته لم يُحل. لا يمكن أن يكون مرض اليرقان هو ما تسبب في طردها، فقد حدث ذلك بعد زيارته الأولى للمزار. ما الذي أصابه وهو طفل، لدرجة أن مربيته أخذته سرًا إلى الإله الثعلب؟ لم يعد هناك أحد ليسأله؛ فقد رحل والداه منذ زمن بعيد، ولا يعتقد أن شقيقه الأكبر سيتذكر. وتاغتأ؟ هي أيضًا لن تعرف. لقد جاءت بعد مربيته، وعلى أي حال، هي أيضًا ضاعت منه.

مرَّ راكب دراجة بالقرب منه وهو يصرخ بغضب، فبدأ باو بالمشي مرة أخرى. ذكّرت كلمة «غير طبيعية» بلقاء القواد مع تلك المرأة الغريبة. ربما كانت جميع عطايا الإله الثعلب تحمل نفس العلامة. حتى الثعالب في القصص تحمل هذه السمة: في البداية يُظن أنهم بشر، لكن عاجلاً أم آجلاً يفضحون أنفسهم بذيول كثيف يظهر تحت أطراف ثيابهم المتدلية. بجمال غير طبيعي، مخيف. يُقال إنه عند الغسق أو في الأماكن المظلمة، تتوهج وجوههم بخفوت.

اشترى باو تذكرة قطار إلى داليان. كان متأكدًا أن هذه هي المرأة نفسها. غمره شعور بالانتعاش والإثارة، وكأنه في مطاردة لا تنتهي. منذ متى لم يشعر بهذا العنفوان؟

عاشت والدته بعد وفاة والده بخمسة عشر عامًا، تزداد تقدمًا في السن، حتى انقبضت شفتاها كجراب مُحكم الإغلاق، وسكنت في بيت أخيه الأكبر. فمن أصول بَرِّ الوالدين أن تعيش مع الابن الأكبر. نقلت له زوجة باو كلَّ التفاصيل، بتوتر وشغف في آن واحد. كانت تخشى والدته، لكنها كانت تستمتع بتحليل تصرفاتها.

في بداية زواجه، صُدِم باو بخجل زوجته. كلُّ قرار بسيط كان يربكها؛ مجرد تعليق عابر عن تفضيله الفاصوليا الخضراء على الحمراء كان ينتهي ببكاؤها والشكوى حول قدرتها على إدارة المنزل. قال لها بلطف: «لا يهمني أيهما».

لكنها أصرت: «أنت تحب الفاصوليا الخضراء، أليس كذلك؟ إذن الخضراء أفضل». وظلَّت تعبت بحافة سترتها بعد أن اختفت الفاصوليا.

نشأ باو محاطًا بنساء حازمات (مثل والدته، ومربيته، وحتى تاغتا) فأدهشه تردُّد زوجته الجديدة. اضطر دائمًا لتخمين ما تريد، وتحول ضعفها إلى قيود تربطه. سَخِرَ أصدقاؤه منه قائلين: «تبدو وكأنك تحب زوجتك كثيرًا»، متذكرين كيف وافق على الزواج المدبَّر منذ النظرة الأولى. وكان باو يكتفي بالتبسم.

ثم أضافوا: «لكن لا يجب أن تستمع إليها دائمًا. إنك تدللها». عندها، أدرك الجميع أن زوجة باو نادرًا ما تقوم بأي شيء دون استشارته. وكلُّ تفصييلة صغيرة تحتاج إلى نقاش مطول. تساءل باو ما إذا كان الأطفال سيزيدون ثقته بنفسها. لكن غياب الأطفال كان نقصًا دائمًا شعرت به، وكأنه جمل آخر يزيد من شعورها بالدونية. تنهَّد باو بينما كان يسير عائداً من محطة القطار. ربما لو رُزقا بأطفال لأصبحت حياتها أكثر اضطرابًا. وفكَّر ساخرًا: **أطفال مساكين. وأنا أيضًا.**

عندما ينظر باو إلى حياته، لا يشعر بالأسى على نفسه. يجب أن يُحفظ الأسى لتلك الأجساد التي يراها على جانب الطريق كحزم بالية من الخَرَق؛ جثث الفلاحين الذين قدموا من الريف وماتوا جوعًا. والأكثر إيلامًا هي هياكل الأطفال العظمية، متشبثين بصدور أمهاتهم، بينما يُسرع المارة في خطواتهم،

متجنبين النظر إليهم. الإمبراطورية تنهار؛ فمراجعة جيانغسو العام الماضي كانت ذات أنياب طويلة.

لا، لا ينبغي لباو أن يشعر بالأسى على نفسه. صحيح أن مسيرته المهنية كانت متواضعة، لكنها لم تكن مليئة بالمصاعب الكبيرة. زواج طويل خالٍ من الحب، لكنه مليء بالإخلاص. والآن أصبح حرًا في قبول أي عمل يشاء، دون أن يضطر إلى التعامل مع دموع القلق إذا تأخر في العودة إلى المنزل. وضع باو يده على صدره. في الآونة الأخيرة، اشتعل الألم الحاد في رثته بشكل مقلق كلما سعل. لذا يجب أن يستغل وقته جيدًا.

لم يكن من الصعب العثور على بكتو نيكان. فالأجانب دائماً يلفتون الانتباه، حتى في مدينة ساحلية مثل موجي. ثم إن شيرو أخبرني أنه يقيم في نزل بالقرب من المرفأ.

ارتديت الكيمونو الأزرق الفاتح الذي وجدته في الغرفة الخلفية، وخرجت من المنزل، لكنّ مدبرة المنزل أوقفتني. نظرت إليّ باستياء وسألت: «من أين حصلت على هذا الكيمونو؟»

«من كوروساكي سينسي»... رغم أنني لم أطلب إذنه.

انقبضت شفتا مدبرة المنزل ثم قالت: «سمعتُ أنك ابنة عمّ شيراكاوا، لكن ألا تعتقدين أن استعارة ملابس السيدة يوكيكو دون استئذان أمر مبالغ فيه؟»
- السيدة يوكيكو؟

- نعم، إنها حفيدة مالك هذا المنزل. كوروساكي سينسي مجرد مستأجر. تأتي لزيارته بشكل متكرر، فهو شديد التعلق بها. أسرعْتُ بالاعتذار قائلة: «أنا آسفة جدًّا، لا بد أنني أسأت الفهم».

الملابس قضية حساسة، خصوصًا عند النساء. أعطيت مدبرة المنزل نظرة اعتذار حقيقية، كأنني ثعلبة أطرقت أذنيها ونظرت بعينين داكنتين مليئتين بالندم.

ألانت مدبرة المنزل نبرتها وقالت: «حسنًا، أعتقد أنك لم تكوني تعرفين. وهي لا ترتدي هذا الكيمونو كثيرًا على أي حال».

«من هي السيدة يوكيكو، وكيف يُكتب اسمها؟» عادة ما يُكتب «يوكي» في اليابانية باستخدام الحرف الصيني الذي يعني «ثلج»، مثل اسمي. وبطريقة ما، لم يعجبني ذلك.

قالت مدبرة المنزل: «يُكتب بمعنى السعادة، وليس الثلج. وكما قلت، إنها حفيدة المالك».

- كم عمرها؟

- تسع وعشرون عامًا؛ أرملة، مسكينة. بصراحة، أعتقد أن المالك يرغب في أن يتزوج كوروساكي سينسي حفيدته، خاصة وأنه أصبح ذا سمعة طيبة في عالم الأدب.

- هل تأتي إلى هنا كثيرًا؟

- نعم، فهذا منزل طفولتها، رغم أن المالك لديه عدة منازل. لقد عادت إلى عائلتها بعد وفاة زوجها. ألا تعرفين أي شيء؟

قلت بنبرة خضوع: «لا، يبدو أنني بحاجة للبحث عن ملابس أخرى، في حال عادت السيدة يوكيكو».

«بما أنك ترتدينها بالفعل، فلا بأس». من الواضح أن مدبرة المنزل مستمتعة بهذه النعمة. ولا ألومها حقًا، فالمنزل مليء بالأجانب، فضلًا عن وجود ثلاثة ثعالب. وكما قلت، هذا كافٍ لدفع معظم الناس إلى الجنون بعض الشيء.

انطلقت بعدما طلبتُ من الخادم، وهو شاب ممتلئ يبلغ نحو أربعة عشر عامًا، أن يستدعي لي عربة ريكشا. ولحسن الحظ، كنتُ قد صرّفت بعض المال في وقت سابق. إذ حوّلُ ما في المحفظة السميكة التي أخذتها من القواد في قطار موكين إلى ين بسعر صرف سيئ للغاية عند صرّاف في داليان. لكن لم أتمكن من الاعتراض، إذ لم تُتَح لي العديد من الخيارات. رمقني الرجل بنظرات مرتابة. فوجود شابة وحيدة معها المال يُثير التساؤلات دائمًا؛ كان علي أن أكون حذرة، ولم أكن أرى كيف سأحصل على المزيد من المال دون أن أسرق شخصًا آخر. لكنني أخذت أفكر في تلك السيدة يوكيكو. لماذا كان وقع اسمها، الذي يشبه اسمي يزعجني؟

أجابتنني الخادمة في النزل الثاني الذي سألت فيه: «رجل منشوري؟ نعم، لقد وصل بالأمس».

وأشارت إلى قبعة معلقة على مشجب في الردهة. لا بد أنها تخص بكتو، كما خمنتُ. كان لها حافة متآكلة وملطخة بالدهون، تتناسب تمامًا مع ديكور النزل الباهت. في الردهة، انتصبت ساعة طويلة ذات وجه نحاسي، تنقر برقة

مع كل دقة. بعد أن تفحصت الخادمة مظهري (المتواضع والمحترم)، قالت إنه ربما يكون نائمًا الآن، وأضافت باعتذار: «أخبرنا ألا نزعجه».

- إذا كان الأمر كذلك، فسأعود لاحقًا. لا حاجة لإزعاجه.

بطبيعة الحال، لم يكن لدي أي نية لفعل ذلك.

سرت مسرعة نحو الزاوية وانتظرت. من نظرة الخادمة العفوية، كنتُ شبه متأكدة أن يكتبو في إحدى الغرف العلوية على الجانب الأيسر من النزل. بعد فترة، تسللتُ لألقي نظرة خاطفة داخل النزل. كان كل شيء هادئًا.

في الطابق العلوي، امتدَّ ممر طويل ضيق اصطفت على جانبيه الأبواب المنزلة. على اليسار، ثلاث غرف ربما يكون يكتبو في إحداها. أحد الأبواب كان مفتوحًا يكشف عن غرفة فارغة. والغرفة الثانية كانت مغلقة، لكنها ساكنة لدرجة أنني كنت متأكدة من عدم وجود أحد بداخلها. أما الأخيرة، عند الزاوية، فقد انبعث منها صوت شخص يغطُّ بعظم.

وضعتُ يدي على الباب وفتحته برفق. فهذا النوع من الأبواب المنزلة غالبًا ما لا يُقفل. كانت الغرفة صغيرة، بحجم ستة حصائر تاتامي، معظمها يعلوها فراش الفوتون، والذي استلقى عليه جسدٌ يكتبو الضخم العضلي، الذي بدأ يكتسب بعض الوزن. الإمساك به نائمًا كان مفاجأة غير متوقعة، ولا ينبغي لي أن أضيع هذه الفرصة.

وبينما كنتُ أنظر إليه، تذكرتُ طففتي مرة أخرى.

المرة الوحيدة التي رأيت فيها يكتبو نيكان كانت في تلك الفيلا البستانية على أطراف موكدين. كان برد الشتاء يتسرب عبر الستائر المنحوتة بإتقان من خشب الورد الداكن. كنتُ قد وافقت على أن تلتقط صورتي؛ وقد كان شرًا لا بد منه لمقابلة المصور الذي أمر بقتل طففتي. استغرق الأمر وقتًا أطول مما توقعت للعثور عليه، إلى أن تمكنت من دخول فيلا وانغ.

ذكرتني تلك الفيلا بحدائق الجنوب، بنباتاتها النادرة ومساراتها المتعرجة، خاصة في هانغتشو بالقرب من بحيرة الغرب. قلت ذلك لوانغ بينما كنا نتبادل الحديث. فقال، وهو يمرر إصبعه السميكة على عنقي: «كيف عرفتِ؟»

وبالطبع لم أذكر له أنني زرت هانغتشو عندما كانت المدينة ناشئة خضراء. بدلاً من ذلك، أملت رأسي وسألته عن المصور.

كان وانغ متحمساً لتصويري. وفضّل أن أرتدي إحدى أزياء الأوبرا السخيفة التي جمعها. لكنني رفضت ذلك (ورفضت عدة أمور أخرى؛ تطلّب إبعاده عني أعذاراً متزايدة التعقيد مثل الرغبة في الزواج على النحو اللائق، وما إلى ذلك). لحسن الحظ، كان من النوع الذي يسهل على الثعالب التأثير عليه. وللأسف، كان أيضاً يتصرف بشكل غير متزن، مما خلق مصاعب أخرى. لو حدث ذلك قبل مئة عام، لربما استدعت عائلته طارد أرواح، وكنت حينها سأقع في مأزق حقيقي، لكن في الوقت الحالي، لم يتمكن مشرف منزله إلا من النظر إليّ بقلق وريبة.

أحياناً أتساءل إذا كانت تلك الصورة التي التقطت لي في ذلك اليوم ستعود لتطاردني. ففي النهاية نحن أشدُّ حذرًا من أن تُحفظَ لنا صور دقيقة. لكن لم يكن هناك خيار آخر. في صباح شتاء غائم، انتظرتُ في تلك الغرفة الطويلة الباردة قدوم بكتو نيكان. كنتُ أمل أن أترك وحدي معه، لكن ذلك لم يحدث، إذ أصرَّ وانغ، برفقة مشرف منزله وخادمتيه، على البقاء.

أول ما رأيته في بكتو كان وجهه العريض، وذراعيه السميكتين، وعينه النهمتين. شعرتُ بموجة غضب كافحت لإخفائها: «إِذَا، هذه هي الفتاة الجديدة».

بدأ بكتو في إعداد معداته بسرعة: كاميرا خشبية ضخمة مع عدسة زجاجية ثقيلة وشرائح، غطاء مخملي لحجب الضوء. ورائحة مواد كيميائية حادة. ونسيم رطب متسلل من المشبك الخشبي المنحوت، ذكّرني بالعشب الذي ينمو على القبور. مع غصن واحد من زهرة النرجس الشتوية البيضاء يهتز على الطاولة. الأبيض هو لون الموتى.

كان بكتو صامتاً وماهرًا في عمله. وقد استعصى عليّ تحديد مدى تأثيره بالثعالب، إذ كانت عيناه مخفيتين خلف الكاميرا معظم الوقت. وبما أن وانغ وخدمه لم يغادروا، قررت مراقبة بكتو أولاً. إذا كان زائرًا متكررًا، كما زعم الخدم، فستكون هناك بالتأكيد فرصة أخرى لأكون معه وحدي. لكنني كنت مخطئة. وفي النهاية، اضطررت لملاحقته حتى موجي.

والآن، وبينما أحرق فيه وهو نائم أمامي، تساءلتُ إن كانت مطاردته تستحق العناء. كان وجهه المسترخي يبدو فارغاً كوجه طفل. ذات يوم، كان هو أيضاً لديه أم. لكن لم يكن هذا وقتاً مناسباً للتردد. ذُكرت نفسي بأنه قد سرق كل السنوات التي كانت طففتي ستعيشها، فجززتُ أسناني بشدة.

بهدوء شديد، أخرجت حبلاً من كمي.

من الصعب الحصول على الحبال الجيدة. يجب أن تكون متينة، لكن رفيعة بما يكفي لإخفائها. كما يجب أن تُحكم العقدة جيداً. وعندما كنت على وشك تمريره عليه، سمعتُ خطوات في الممر. طرقت الخادمة على الباب: «عذراً، سيدي، هل استيقظت؟ هناك زائر يبحث عنك».

تجمّدت في مكاني. فُتحت عينا بكتو قليلاً. فأعدت الحبل إلى كمي على عجل وجلست القرفصاء أمام الباب المغلق. جلس بكتو بارتباك، وقال بصوت متناقل: «ماذا تفعلين...؟»

«سيدي؟» سألت الخادمة من الخارج.

حاولتُ تقمّص دور الفتاة الخجولة. غاضّة طرفي وواضعة يدي برفق فوق فمي في إشارة للصمت. لو لم تقاطعنا الخادمة، لكنت قيدته مثل سرطان البحر المشهور في شنغهاي. أما الآن، فستكون الأمور أكثر إزعاجاً. قال لها: «لا بأس».

رمش بعينه بحذر: «ألسيتِ عشيقة السيد وانغ الجديدة؟» لقد عرفني أسرع مما توقعت.

- نعم، بالتأكيد. كنتُ أتمنى رؤيتك مجدداً في موكدين، لكن لم أكن أعلم أنك غادرت المدينة بعد جلستنا التصويرية مباشرة.

لم تكن هذه قصة جيدة، لكنني كنتُ أمل أن يكون لا يزال نصف نائم ليتمكن من تقبّلها. فرك بكتو وجهه: «ألم يخبرك السيد وانغ أنني انتقلت؟» قلت بدلال: «لا، لم يخبرني أي شيء عنك».

وهذا صحيح. كان السيد وانغ ذو الوجه الشمعي قد خدعني، مما جعلني أضيع أسبوعاً إضافياً في تلك القفلا بانتظار عودة المصور.

قال بكتو وهو ينهض بتناقل: «إذن، هل وانغ هنا؟» انتشرت رائحة العرق والنيبذ منه نحوي.

«لدي راع جديد؛ شيراكاوا». كان التوتر في صوتي يوارى نصف الحقيقة. ورغم جسده المترهل، فقد سمعت أنه كان مصارعاً في شبابه، وثمة شيء ما بشأنه جعلني أشعر بعدم الارتياح.

«إذن، أصبحت امرأة شيراكاوا الآن؟» ونظر إليّ بريبة.

أجبت فوراً: «نحن نحب بعضنا بجنون ونرغب في التقاط صور معاً».

ضاقَت عيناه: «أي نوع من الصور تفكرين فيه؟»

«صور خاصة»، وتوقفت للحظة لتأكيد المعنى. كان جسدي يرتعش، ووزني على ركبتيّ وقدميّ مثبتتان على الأرض. كنت قد واريْتُ السكين خلف ظهري. وإذا كنتُ سريعة بما يكفي فقد أتمكن من طعنه في حلقه، لكن ربما كان الأفضل طعنه في ساقه وقطع الشريان الفخذي.

- لم يذكر شيراكاوا شيئاً عنك عندما رأيته الليلة الماضية.

نهض فجأة وقصّر المسافة بيننا. أسرع مما توقعت. كثير من أبناء جنسي لقوا حتفهم على يد رجال منشوريين أمثال بكتو، فقفزت بسرعة من القرفصاء، لنصبح وجهًا لوجه. وانتصبت شعيرات عنقي من الخوف.

قال بصوت ناعم: «ألا تعلمين أن شيراكاوا لم يسمح لأحد أبداً بالتقاط صورته؟ يجعلني ذلك أتساءل لماذا تسألين عن «صور خاصة»؛ أم أن لديك دوافع أخرى؟»

قلت بثبات: «ليس لدي فكرة عما تحدث». تمنيت أن يتوقف، وأن يخفف من نظرتة. بدأت أجراس الإنذار تدق في رأسي.

ابتسم فجأة وقال: «عيناك مليئتان بالغضب».

كان قريباً جداً الآن. قريباً بما يكفي ليمسكني إذا حاولت مهاجمته. وأدركت أنني ارتكبت خطأ فادحاً.

هذا الرجل كان شديد المقاومة للتعالم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

بعد أن أعلمَ صاحب المنزل عن رحلته المرتقبة إلى داليان، زار باو أخاه الأكبر. لم تكن هناك حاجة حقيقية لذلك، لكنَّ باو دأب على إطلاعه على أخباره. تلك الزيارات القصيرة، الودية وإن كانت سريعة، تواصل الحفاظ على الوهم بأنهما قريبان من بعضهما. تعلَّم باو منذ زمن طويل أن التكرار يمكن أن يكون بديلاً جيداً للألفة. إلى جانب ذلك، كلاهما تقدم به العمر.

تقاعد أخوه الأكبر من حياته المهنية الرسمية، لكن جدران مكتبه الخاص ورفوف كتبه ما زالت مزينة بأمنيات تذكارية وقصائد من زملائه. جلس باو في مقعده المعتاد، مقابل مكتب أخيه المنحوت من خشب الورد. كان الكرسي أقل ارتفاعاً من كرسي أخيه، وهو تفصيل لاحظته باو مراراً مستمتعاً به سرّاً. لا شك أن هذا يهدف إلى إرساء الجو المناسب، وتساءل عن الذين جلس في هذا المقعد العريض والمنخفض؛ أبناؤه، وزملاؤه، والمتوسلون لطلب معروف. وباو نفسه بالطبع. في التسلسل الهرمي للعائلة الصينية، لن يتفوق باو أبداً على أخيه الأكبر. فالفارق العمري بينهما، الذي يبلغ أربع سنوات، هو فجوة لم يتمكن الدهر من ردمها، رغم أن كلمات معلمه القديم التي سمعها ذات مرة وهو يتحدث إلى والدته تعود إلى ذهنه بين الحين والآخر: «الأصغر لديه موهبة أكبر»، كما قال المعلم بينما تُغلق والدته عينها بلمحة متأنية ومدروسة.

ما فائدة الموهبة إذا كان باو غير قادر على الوصول إلى منصب رسمي؟ على الأقل أصبح معلماً، رغم أن ما فعله في سن الرابعة عشرة، حين ركض في الشوارع خلف عربة تاغتا، ظل يطارد عائلته تحت الهمسات. حتى تعيين أخيه الرسمي كان مصحوباً بالضحكات المكتومة: «نعم، لكن الأخ الأصغر...» وحتى زوجته الراحلة سمعت الشائعات. سألته حين تزوجا لأول مرة إن كان لديه حبيبة أخرى.

قال: «بالطبع لا».

وكان ذلك صحيحًا. في سن الرابعة عشرة، بالكاد أمسك يد تاغتا، فضلًا عن تبادل كلمات الحب معها. فرضيت زوجته. ومع ذلك، يتساءل باو أحيانًا عن رأي أخيه الأكبر في هذا الأمر.

- إذًا، أنت ذاهب إلى داليان؟

- نعم، لأجل عميل.

لم يقدم باو أي تفاصيل أخرى، ولم يطلب أخوه المزيد. ثم تحولت المحادثة إلى كيفية سير القطارات وتذكيره بالخطر.

غير باو الموضوع وقال: «هل تذكر مربيتنا القديمة؛ التي طردتها والدتنا بعد أن أصبت باليرقان؟»

تجعد جبين أخيه الأكبر: «كانت مربية لك أكثر مما كانت لي. جاءت بعد ولادتك». - حقًا؟

- نعم، كانت لدي مربية أخرى تركتنا لتتزوج. كانت والدتنا تفضلها، لكن والدنا أرسل في طلب مربيتك من قريته الأصلية، فلم يكن لديها خيار.

- لماذا أرسل في طلبها؟

رد أخوه بلامبالاة: «كان ذلك باقتراح من جدتي». لكن هذا يلقي ضوءًا جديدًا على عداء والدته لمربية باو القديمة: امرأة ريفية أرسلتها حماتها، كرد فعل على خلاف قديم بلا شك: «كنت متعلقًا بها جدًا. كانت تأخذك إلى كل مكان، بما في ذلك سوق الخضار. لم يُعجب ذلك والدتنا أيضًا. كانت تقول إنك ستصاب بمرض من الفلاحين. لقد كنت تمرض كثيرًا عندما كنت صغيرًا».

«هل كنت كذلك؟» المرض الوحيد الذي يتذكره باو هو اليرقان الذي أصابه بعد زيارته لمزار الثعلب.

«نعم. لم تكن تملك الكثير من الطاقة وكانت يداك باردتين دائمًا». وضحك أخوه. ابتسم باو أيضًا: «لا بد أنني كنت مُزعجًا».

- ليس حقًا. كان يجب أن أعاملك بشكل أفضل.

«كنت مشغولًا بالدراسة». لا يحمل باو لأخيه أي مشاعر سلبية. فقد كان أخوه الأكبر هو من يخضع لتدريبات حفظ الأعمال الأدبية القديمة، ويقف أمام والدهما متصلبًا ليُلقي القصائد، وخضعت صداقاته لمراقبة حثيثة.

- لماذا تسأل كل هذه الأسئلة عن مربيتك العجوز؟

- لقد أخذتني إلى مزار الثعلب في حديقة جيراننا الخلفية.
- لم أذهب أبدًا، كنتُ خائفًا جدًّا من الذهاب.
- «حقًا؟» شعر باو بالدهشة. ففي ذكرياته، كان أخوه الأكبر دائمًا واثقًا من نفسه.
- قال الخدم إن رجلًا مسنًا كان يظهر أحيانًا في حديقة الخيزران تلك. بعضهم قال إنه سيد المنزل القديم الذي مات، وآخرون قالوا إنه ثعلب اتخذ هيئته. لذلك لم يذهب أحد إلى هناك.
- تذكّر باو خشخشة أوراق الخيزران ومزار الثعلب الخشبي الذي كانت مربيته تصلي فيه بخشوع. لقد بدا قديمًا في عينيه، وكذلك كان ظهر مربيته المنحني ووجهها المتغضّن.
- قال باو: «قالت لي شيئًا عندما كنتُ طفلًا: دعوتُ الإله الثعلب ليصرف عنك... لكنني لا أستطيع تذكر ما دعت من أجله. تساءلت عن الأمر لسنوات. هل تعرف؟»
- لدهشته الكبرى، أومأ أخوه: «نعم، أتذكر. لقد طلبت من الإله الثعلب أن يصرف عنك ظلك».
- لم يخطر هذا على بال باو قط. وعجز عن إيجاد الكلمات. قال أخوه: «كان من المفترض أن يكون سرًّا. أنا متأكد أن والدنا كان سيغضب جدًّا».
- لم يتسامح والدهما مع الديانات الشعبية، أو التواصل مع الأرواح، أو التلاعب بالتشي في الجسد. كان بالتأكيد سيصاب بنوبة غضب. سأل باو: «لكن لماذا؟»
- قال الطبيب إن جسدك كان غير متوازن بزيادة في طاقة اليين. لهذا كانت يداك باردتين، وأصبت بالخمول وفقدان الشهية.
- «اليين» هي الطاقة السلبية الباردة، على عكس «اليانغ»، التي تمثل الطاقة المضيفة الحارة. وهاتان الطاقتان متكاملتان في تناقض دائم.
- ربما لهذا السبب طلبت مربيتك من الإله الثعلب أن يصرف عنك ظلك. ليأخذ بعضًا من طاقة اليين عنك.
- كلاهما يعرف أنه طلب سخيّف. يهدف الطب الصيني التقليدي دائمًا لتحقيق توازن دقيق بين البرودة والحرارة، الرطوبة والجفاف، اليين واليانغ. لن يكون أي ممارس متعلم متهورًا إلى هذه الدرجة.

ثم تابع أخوه: «على أي حال، لم أخبر أمي بما قالته مربيتك؛ إذ لم أعتقد أن الأمر سينجح على أي حال».

قال باو: «ما زال لدي ظِلٌّ». **أو أظن ذلك.** وحرك ذراعه ليختبر الأمر، لكن صعبَ عليه التحقق من ذلك داخل المنزل.

«ربما طلبت من الإله الثعلب أن يزيل جزءاً منه. عندما عدت من المزار، كنتُ أراقبك. فقط لأرى إن كان قد نجح الأمر. لهذا السبب لم أسمح لك بالدخول إلى غرفتي لفترة. كنتُ تخيفني».

فُتِنَ باو بهذه القصة التي لم يعرفها من قبل. الفارق الزمني بينهما، الذي يبلغ أربع سنوات، جعل علاقتهما في الطفولة معلّقة بين البعيدة والقريبة. وتفوّق أخيه في العمر والاجتهاد والتوقعات العائلية حافظ على تلك المسافة، مثل خطّي السكك الحديدية تفصل بينهما قطع الخشب إلى الأبد. يقول باو: «كنتُ أظن أنك لم تسمح لي بدخول غرفتك لأنني استعرتُ بعض كتبك وأغرقتها بالماء».

«نعم، ولأجل ذلك أيضاً». وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة.

- إذًا، تعتقد أن زيارة الإله الثعلب لم تنجح؟

- كان لها تأثير ما، ألم تصبح مريضاً جدّاً بعد ذلك؟

في هذه اللحظة، دخلت زوجة أخيه إلى المكتب لتعلن عن قدوم زائر آخر. غادر باو بعد أن وعدها بإحضار تذكّار لها من داليان. وبينما كان يُسرّع إلى المنزل، وشاحه مشدوداً ليقيه برد الرياح، تأمل كلمات أخيه. **ألم تصبح مريضاً جدّاً بعد ذلك؟**

اليرقان؛ المرض الذي أصابه في الطفولة والذي حوّل بشرته وعينه إلى اللون الأصفر، مما أثار فزع والديه وأدى إلى طرد مربيته القديمة. يُصنّفه الطبُّ الصيني التقليدي إلى نوعين: نوع اليانغ، وهو حاد وينتج عنه زيادة في الحرارة، ونوع اليين، وهو مزمن ويُوْهن الجسد. ومما يتذكره باو، فقد أصيب بيرقان اليانغ، وهو مرض يأتي بعنف مفاجئ. وهذا منطقي إذا فقدت الطاقة في جسده توازنها يفقدان الكثير من اليين، أو ظله.

لكن من السخيف استشارة ثعلب للتلاعب ببنية جسد طفل. ولا يُفكّر في طلب هذا سوى فلاح جاهل، من أتباع الديانات الشعبية. وبينما كان يمشي، تفحص باو الظلال من حوله. بدا ظله باهتاً، لكن ربما كان يألو على نفسه

فقط. لم يخطر له أبداً مراقبة ظلّه بعناية من قبل. رأى ظلّه المسطح ينزلق من الشارع إلى الجدار، ثم يلتف حول الزاوية. ومع ذلك، يفتقر إلى الحدة والوضوح اللتين تمتلكهما الظلال الأخرى. ثم قرر بقلق أنه مجرد وهم بصري. هل نقصان الظل يعكس علاقته الغريبة بالحقيقة؟ لكن الوصف الأكثر دقة لحالته هو أن باو حساس تجاه الكذب. حكّ باو رأسه. ربما كان من الجيد أنه لم يخبر أخاه بذلك. ولم تتح له الفرصة لإخبار مربيته، التي أرسلت بعيداً فجأة. تصاعدت صورة ظهر مربيته المنحني في ذاكرته، وهي تسير مبتعدة عنه. حتى في سن السابعة، شعر أنها لم تكن أطول منه كثيراً. واجتاح قلبه شعور بالشفقة عليها. كان يجب على والدته أن تكون أكثر رحمة، فقد أحبّته مربيته؛ وهو متأكد من ذلك. وإذا تسببت دون قصد في مشاكل أخرى، فقد غفر لها ذلك منذ زمن طويل.

أو هذا ما قاله لنفسه.

في صباح بارد تتخلله رياح عاتية، صعد باو إلى القطار المتجه من موكدن إلى داليان. كان الربيع يقترب، لكنه سيتأخر كما يحدث دائماً في هذا الركن من العالم. يرتدي جنود المانشو على متن القطار قبعات مكسوة بفرو القندس وسترات مبطنة سميكة. وبينما كان القطار يمرّ على الحقول المسطحة المزروعة بالذرة الرفيعة وأشجار الحور تحت سماء بيضاء، غفا باو على إيقاع تأرجح المقطورة.

وجد نفسه في فناء طفولته المألوف، يحدّق فوق سور بستان الخيزران، بستان جيرانه. دفع باو بوابة الخشب الخلفية. في حلمه، كانت يده يد شاب، وليست يد طفل، وهذا مُحال، فقد غادروا ذلك المنزل عندما كان باو في الرابعة عشرة من عمره. ولم يعد إليه منذ ذلك الحين، لكن الأحلام لا تأبه بذلك. يمضي الحُلُم قُدماً بينما تُفتح البوابة. كان الخشب رمادياً أنهكه الزمن، والمفصلات الحديدية صامتة. مضي الطريق عبر الأفنية، حيث كانت الجدران مطليةً بالجبس الأبيض، والأسطح الرمادية المنحنية مرقطة بأشعة الشمس. واصل باو سيره في بستان الخيزران الذي يحمله في ذاكرته. ثم توقّف فجأة. هناك أحد ينتظره أمام مزار الثعلب. هل هي مربيته القديمة، التي فقدوها منذ زمن؟ أم والدته، أم زوجته؟ وتبادر إلى ذهنه فجأة أن النساء الثلاث

ميتات. أيًا تكن، فقد وقفت ووجهها نحو المزار، وظهرها نحوه. حذَّرتَه الأوراق المتحركة من أنه يقترب من سر غامض، مختلف عن مزار الثعلب. التصق لسانه بسقف فمه. واستدارت المرأة. هل هي السيدة الثعلب التي يلاحقها؟ لا، إنها تاغتا.

قالت، وعيناها تلمعان: «أريد أن أخبرك بشيء. لقد وجدته! التقيتُ الثعلب الأسود مرة أخرى».

لماذا ما زالت تتحدث عن ذلك الثعلب رغم أن باو هنا أمامها؟ لكنه، هو الآخر، يبحث عن ثعلب: «حقًا؟»

- نعم، لكنني اضطررت لعبور البحر.

ضرب النسيم فوقهم قمم الخيزران فانحنت مصدرة صريًا. حاول أن يسمعها. ثم سألها: «ماذا عني؟ لماذا رحلتِ دون أن تخبريني؟»

اشتدَّت الرياح الآن حتى انحنى الخيزران كبحر أخضر يغرقان فيه. ولمعت عينا تاغتا وهي تُجيبه: «لطالما... لطالما أردتُ أن ألتقي ثعلبًا مرة أخرى».

بهزة قوية، توقَّف القطار ببطء في محطة. تدافع الناس، وهم ينتزعون رزمهم وسلاهم من الأرفف العلوية. فتح باو عينيه، مشوشًا. يا له من حلم غريب، كأنه شظية محمومة.

استقرَّ حزن والنَّعاس ثقيلًا على جفنيه. إنه عجوز عاطفي، يفكر بعد نصف قرن في فتاة تركته وراءها. لكن شعور الحلم ظلَّ عالقًا. ففكَّر باو وهو يجلس متثاقلاً: إنه بسبب الثعالب. النشالون كُثُر، وعليه أن يكون حذرًا من النوم في مثل هذا المكان. عندما اهتز القطار مرة أخرى وبدأ في التحرك خارج المحطة، وقف باو في الممر الخلفي محدقًا إلى الخارج، حيث كانت القضبان اللامعة بفعل الاستخدام المتكرر تمر بسرعة تحت العربة المفتوحة.

هل غادرت السيدة الثعلب القطار مع أحد القوادين؟ لسبب ما شكَّ باو في ذلك، وظنَّ أنها واصلت رحلتها إلى داليان. فامرأة مثلها، مُصممة بعزم نحو هدفها، لن تحيد عن مسارها على الأرجح. وبينما يستنشق رائحة العشب المقطوع الذي كُثِط من السكك الحديدية، تساءل باو عما إذا كانت قد وجدت بكتو نيكان بعد.

35

من المروّع أن تكتشف أن شخصًا ما محصن ضد تأثير الثعالب.
خاصةً عندما يكون أكبر حجمًا، وأقوى منك، ويقف على مقربة خطيرة.
لن تُنقذني السكين الصغيرة التي في يدي في مثل هذه المسافة. في أفضل الأحوال، سأطعن بكتو وأدفعه إلى نوبة غضب عارمة، وقد ينتهي بي الأمر خلالها وقد كُسر عنقي. لقد كنت عاطفية ومتهورة للغاية، كما حذرني شيرو. كان يجب أن أدرك أن هناك دائمًا من لا يمكن خداعهم.

آخر مرة واجهت شخصًا كهذا كانت في لويانغ، عندما قبض عليّ جندي من الجورشن. رغم توسلاتي، حبسني في قصر ممراته عريضة، وستائره مصنوعة من خشب منحوت ومغطى بورق التوت الأبيض الناعم. كانت هناك غرف للنساء، وقفص برونزي حُبِسْتُ فيه. ولم أتمكن من الفرار إلا بعد أن عضضت لساني حتى سال الدم وتظاهرت بالموت. منذ ذلك الحين، حرصتُ على تجنب كلّ من يبدو منيعًا ضد تأثيرنا.

لذلك، عندما أدركتُ خطأي مع بكتو، تجمدتُ في مكاني.

قال وهو يمسك بذراعي اليسرى ويلويها إلى الخلف: «أنتِ تسألين كثيرًا عن الصور الخاصة. هل أرسلكِ أحدهم؟»

ضغط ظهري على الباب، فغيرتُ قبضتي على السكين.

قلتُ بصوت متوسل: «أنتِ تُخيفني».

لطالما أتقنتُ فنَّ البكاء بأسلوب مؤثر جذاب. تعلمتُ على مرّ السنين كيف أدرف الدموع في اللحظات المناسبة. بالطبع، ذرفتُ دموعًا حقيقية من قبل -صرخات مفاجئة وأنهار من الأسى- لكنها لم تنفعني في شيء. لذلك تعلمتُ أن أستخدم ما يلزم منها.

ترددت في عينيهِ نظرة شك. وحدّقتُ في شريان رقبتِهِ، حيث ينبض تحت الجلد. ثم انحرف رأسه جانباً؛ وفي تلك اللحظة، ظهرت فرصة ضئيلة في الأفق. لكنني ترددتُ، وخفق قلبي بعنف. فأنا أيضاً سمعت وقع خطوات قادمة.

قالت الخادمة من الخارج: «سيدي، هناك زائر آخر بانتظارك في الطابق السفلي».

شعرتُ بوجودها خلف الباب الرقيق، بتأفّقاتها القصيرة، بعد أن شعرت بالانزعاج من كثرة زوار الضيف الأجنبي في هذا الصباح.

قالت الخادمة وهي تفتح الباب المنزلق بصوت مرتجف: «اعذرني، فقط احتاج إلى...» ثم أطلقت صرخة عندما سقطتُ من الغرفة: «أوه! لم أدرك أن لديك ضيوفاً!»

ضاعت اللحظة. اللحظة التي خططتُ لها طويلاً وراودتني أحلامها وأرهقتني. اللحظة التي انتظرت عامين لأجلها. كثيراً ما أخبرت نفسي أنني مستعدة، لكن في النهاية، أضعتها. شعرت وكأنني أغرق في بؤس صامت خدير.

«أعتذر»، قلتُ وأنا أنحني بسرعة. ثم خرجت مهرولة عبر الممر المتهالك.

غرقتُ في الكآبة، وعدتُ إلى المنزل بعد إتمام بعض المهام التافهة التي طلبتها سيدتي. انتهى اقتتالي مع بكتو بالهزيمة. كانت عيناه المتغطرتان وأنفاسه الفاسدة تطاردانني. لو لم أتردد عند دخولي الغرفة، لكنت قد شققتُ حلقة وهو نائم. هل بدأتُ أفقد شجاعتي؟ حاولتُ أن أواسي نفسي بأنني اكتسبت معلومة مثيرة للاهتمام: بدا وكأنه يعتقد أنني كنتُ أبحث عن بعض الصور الخاصة. كما أن بكتو كان، لسوء الحظ، من الذين لديهم مقاومة عالية تجاه تأثير الثعالب.

وهذا قادني إلى السؤال الملح: لماذا لم يذكر لي شيرو ذلك؟

لا أتوقع الكثير من المساعدة من أبناء جنسي، لكن كان من الأجدر أن يوجّه لي تحذيراً. لم أستطع سوى الاستنتاج أن شيرو قد تعمّد إخفاء الأمر عني، وكنتُ بحاجة لمعرفة السبب. زكّرت نفسي أن نجاح عملية الصيد

بمفردك يكون في واحدة من كل عشر محاولات، لكن هذا لم يبدد غمامة الإحباط المريرة التي جثمت فوقى، مثل سحابة جبر سكبت في حوض ماء.

كان الخادم الشاب في منزل كورو ينتظرني عند المدخل الأمامى. كانت ظهيرة مشمسة ومشرقة، وألقى خيزران الحديقة أمام المنزل بظلال متشابكة على وجهه. رمش بخجل وقال: «وصلتنا رسالة لك».

كانت الرسالة موجهة إلى «شيراكوا يوكى»، إذ أخبر شيرو الجميع أننى ابنة عمه، والمُرسل: تأكيداً، الرجلُ الثرى الذي زرنه بالأمس. يبدو أنه أوفى بوعده وكتب تقريراً عن الحادثة في قبلا حديقة وانغ الصيف الماضى.

قلت: «شكراً»، وأنا أضع الرسالة في حزامى مبتسمة رغم رغبتى في الهروب والصراخ في مكان ما. يا له من صباح بائس! والآن سيبقى يكتو حذراً منى. احمرّ وجه الصبى الأسمر وهو يقول: «بالمناسبة، السيدة يوكىكو في ضيافتنا الآن».

- حفيدة المالك؟

«نعم». من نظرتة المتوترة، بدا أنه سمع مدبرة المنزل وهي تعلّق على الكيمونو الذي استعرتُه في وقت سابق، وكان يحاول الآن تنبيهى. شعرت بالامتنان؛ فلا شيء أكثر إحراجاً من الظهور بملابس شخص آخر.

- هل تأتى للزيارة كثيراً؟

- كلّ أسبوع، لرؤية المعلم. وأحياناً أكثر. (تحرك الفتى بقلق من قدم إلى أخرى). هي في غرفة دراسة السينسى الآن.

- فهمت. من الأفضل أن أترك لهم المجال إذن.

كانت سيدتى في قبيلولتها، فخرجتُ إلى الحديقة شاعرة بالاكْتئاب. فى الآونة الأخيرة، كنت أقع فى الأخطاء. نحن الثعالب نعيش على حافة الظلال، نبضة قلب واحدة فقط تفصلنا عن الوقوع فى الفخ أو التعرّض للسّلخ. أدهى ثعلب عرفته قُتل ضرباً على يد فلّاح مخمور على طريق ريفى خلال احتفالات رأس السنة فى هيلونغجيانغ. يجعلك ذلك تتساءل ما إذا كان لكل مخلوق حى نصيبه المُقدّر من السنوات، أو ربما يكون القدر سيّداً متقلّباً.

من غير المحتمل أن أحظى بفرصة أخرى مع بكتو؛ فرصة جيدة كهذه. كانت الاستعانة بشيرو هي الخيار الأسهل، رغم كرهى لذلك حقًا. واسيتُ نفسي بخيالات عن أنى أربط حجرًا كبيرًا حول عنق شيرو وأدفعه من على جرف بعد فراغى من كل هذا.

دَفَّأت الشمس كرسي الخيزران الذي كنتُ متكورة فيه، مخفيًا بجانب شجيرات كبيرة. كان عبق الربيع يملأ الأجواء. على امتداد السهول، لا شك أن معزوفة صامته من الزهور البرية كانت تتفتح. وتحوم طيور الكركي ويرعى الماعز البري في حركة مستمرة، وتتقافز الأسماك فوق أسطح البرك التي غزتها الثلوج الذائبة. أغرقتني أفكار الوطن بالدموع. لقد فقدتُ طفلي بالفعل. لماذا أنا هنا، في هذه المهمة المريعة، بعيدة كل هذا البعد؟

بينما كنتُ جالسة، أمسح دموعي بكمّ الكيمونو المُستعار (فلا يكون لدى المرء منديل عندما يحتاجه)، سمعتُ خطوات تقترب وتجمدتُ في مكاني. فلا شك أن رجلًا وامرأة يتجولان في الحديقة في ظهيرة ربيعية، يملكان الكثير ليتحدثا عنه. لا سيما إذا كان الرجل وسيماً والمرأة جذابة. أو ربما كان هذا نابعًا من تهكُّمي، وأنا أتنصت على حديثهما.

قالت السيدة، بينما توقفنا على الجانب الآخر من حاجز الأوراق الكثيفة: «استمتعتُ بالقصائد التي أوصيتني بقراءتها. أنهيتها في ليلة واحدة». لا بد أن هذا صوت السيدة يوكيكو، حفيدة المالك الأرملة.

كان صوتها جميلًا، ناعمًا لكنه دافئ. لم أر سوى قدميها، في وضعية أنثوية مثالية: «إذا كانت لديك قصص جديدة، فسأكون سعيدة بتقديم ملاحظاتي».

قال كورو: «شكرًا لك، لكنني لم أكتب شيئًا جديدًا».

- ينبغي أن تكتب كتابًا للأطفال. كان أبناء إخوتي في غاية السرور عندما زرتهم. لا يزالون يسألون عنك.

«إنهم أولاد رائعون. لقد استمتعتُ باللعب معهم». وتخلَّلت الابتسامة صوته.

- أنت صبور جدًا. زوجي الراحل لم يكن مهتمًا أبدًا بالأطفال.

- وأنتِ؟

«كنت أتمنى أن أنجب طفلاً. لكن زوجي كان مريضاً منذ شبابه، ولم يُقدَّر ذلك لنا. كان الاعتناء به مثل رعاية طفل أحياناً. غالباً ما كان يشعر بالإحباط والغضب. ومن يلومه؟» ثم تنهدت بعمق.

- أشعر بالأسف. لا بد أن الأمر كان صعباً عليك.

- لا عليك. لقد انتهى الأمر، وأنا ممتنة لكل يوم أعيشه الآن.

كان صوتها ينم عن صدقٍ عميق. لو كانت تتحدث مع شيرو، لانطلقتُ من خلف الشجيرة لتحذيرها، لكن بما أنها تتحدث مع كورو، فمن غير المحتمل أن يلعب بمشاعرها. لا، فقد كان كورو دائماً شديد الجدية. لا بد أنهما مقربان بما يكفي لتشارك معه هذا النوع من الاعترافات. وأثارت هذه الفكرة في نفسي شعوراً غريباً.

ثم عمَّ الصمت. إحدى تلك اللحظات الساكنة الطويلة التي يجيدها كورو حيث لا يقول شيئاً. أعرفها جيداً، ويمكنني تخيل تردد السيدة الرقيق وهي تكمل قائلة: «هل فكرت في عرض جدِّي؟»

- لا أستطيع أن أعطيك جواباً الآن. لكنني سأفكر فيه بصدق.

يبدو أن هذا أسعدها، إذ بدأت تتحدث عن أمور أخرى، مثل ضيوفه: «أنا أسفة لأنني فاتني لقاءهم اليوم».

- نعم، لقد ذهب الشبان إلى الميناء مع شيراكاوا.

بينما كنت أحتضن ركبتي، لاحظت أنه لم يذكر شيئاً عن سيدتي أو عني.

قالت: «تبدو متعباً. هل هناك ما يشغلك؟»

عندما تطلعتُ من خلال الشجيرة، اكتشفت أنني أستطيع رؤية وجهيهما. كانت السيدة يوكيكو أقل جمالاً مما أوهمني صوتها اليافع، لكنها ما زالت جذابة، مثل دمية خزفية ذات جمال تقليدي محبب. وطيةٌ ياقة ثوبها لا تشوبها شائبة، قد غطت وجهها بمسحة خفيفة من المساحيق وأحمر الخدود. لكن كل ذلك لم يكن مهماً لأنها كانت هائمة في حالة حب، وهو ما يجعل أي امرأة تبدو مشرقة. تلاًأت عيناها وهي تنظر إلى كورو. لكنني لم أرغب في النظر إليه على الإطلاق.

قال: «أحياناً لا أستطيع النوم. يمكنك القول إن ضميري يؤرقني».

- الماضي يلازمنا دائماً. لكن ليس من الضرورة أن يبقى كذلك. أمل أن تتحرر منه يوماً ما.

اشتعلت النيران في وجنتي. شعرت بتدفق الدم إلى رأسي، وتسارعت دقات قلبي بعشوائية. إلى أي مدى انفتح كورو معها؟ من تعاطفها الرقيق، قد يكون أخبرها بكل شيء أو لا شيء. عضضت شفتي بتوتر. بالإضافة إلى ذلك، كنت أرtdي ملابسها. كم يمكن أن يصبح هذا الوضع محرّجاً أكثر؟ ببطء شديد، رفعت قُبْقَابِي الخشبيّين. وهممتُ بالتسلل بعيداً عندما فتح باب الشرفة وخرج لoo.

توقف فجأة عندما رأي، وأنا أحمل قُبْقَابِي في يدي: «ماذا تفعلين؟»
أشرت بيدي بحركة يائسة لأطلب منه الصمت، لكن الوقت كان قد فات. انجذبت أنظار كورو والسيدة يوكيكو نحوي وخرجا من وراء الشجيرة. لم أملك أدنى فرصة للانسلال إلى الداخل إذ سدَّ جسد لoo الطويل النحيل الباب.
قال كورو: «هل عُدتِ بالفعل؟»

بما أنني كنت عالقة في موقف حرج، بذلت جهدي للتظاهر بأنني خرجت للتو مع لoo، الذي قال ببراءة: «نعم، كان لدينا بعض الأعمال في المصرف». أجرينا التعارفات الواجبة. استقبلت السيدة يوكيكو لoo بلطف، قائلة: «إن أي صديق لكوروساكي سينسي هو موضع ترحيب دائم». وشعرت بنظراتها الفضولية تحوم حولي. تمنيت فقط ألا تلاحظ أنني أرtdي ملابسها! لكن تبين أنها كانت محض أمنية لا أكثر، فقد خاطبتني بشكل غير مباشر.

- ومن هذه السيدة الجميلة بجانبك، سيد لoo؟

تردّد لoo، وارتجفت شفته الطويلة. ففتحت فمي لأحدث، لكن قبل أن أنطق بكلمة، تدخل كورو: «هذه قريبة شيراكوا، صديقة قديمة أخرى لي».

وقفتُ بأدب بينما تابع لoo الحديث. وقاومت الرغبة في مسح وجهي، لأن ذلك كان سيجذب الانتباه إلى آثار الدموع من نوبة بكائي السابقة. وقعت نظرة السيدة يوكيكو على ملابسني. لا شك أن وصف كورو لي كصديقة قديمة قد أثار فضولها؛ كيف لم يلاحظ ذلك!

قالت أخيراً: «أحببتُ طراز الكيمونو الذي ترتدينه، لدي واحد مشابه جداً ارتديته قبل زواجي».

قلتُ بعد أن رفعتُ عيني أخيرًا: «أعتقد أن هذا هو ملكك، أنا آسفة جدًا، لكنني وجدته في أحد الأدراج. أعتذر لاستعارته دون إذن». كانت لحظة شديدة الإحراج. وتوقفت المحادثة طويلًا حتى أدرك الرجلين ذلك.

احمرَّت وجنتاها: «أوه، أرجوك لا تشعري بالحرج! لا يزال لديّ بعض الملابس في هذا البيت، لذا يمكنكِ استعارتها كما تشائين. هل تقيمين هنا أيضًا؟» ثم تنقّلت عيناها بيني وبين كورو قبل أن تعود لتستقر عليّ. «مؤقتًا، سأحرص على غسل هذا الرداء وإعادته لك». ومع تلك العبارة وأعذار مهذبة أخرى، تمكّنتُ من الهرب إلى داخل المنزل.

يُقال إن الثعلب الذي يعيش لأكثر من مئة عام سيُبتلى بكارثة. يعتقد البعض أن هذا هو حكم السماء ودأبها في التخلص من الكائنات التي تعيش أكثر من اللازم. عند بلوغ المئة عام، يُقال إن البرق يضربه من السماء. وعند المئتين، يحاول زلزال أن يبتلعه. وعند الثلاثمئة، تظهر له كرة نارية مشتعلة. بطبيعة الحال، الثعالب التي تموت في هذه الكوارث لم تنقل لنا التفاصيل بدقة. كل ما نعلمه هو أن لكل منا محنته الخاصة؛ وإذا استطعنا النجاة لألف عام، فقد نصل إلى مرحلة التنوير. أو هكذا يُقال.

حاولتُ بجدّ أن أكون فاضلة، لكن السنتين الأخيرتين من الحزن دمرتا كلّ ما بنيتُه. والإهانات المتتالية، مثل ارتداء ملابس امرأة أخرى وتغلّب بكتو عليّ، زادت شكوكي في نفسي. لكن لا فائدة من اجترار الماضي، لذا توجهتُ بيأس إلى غرفتي الصغيرة. وبينما كنت أبدّل ثيابي، شعرت برسالة تأكيد التي خبأتها في حزامي. فتحتها متسائلة عمّا إذا كانت ستذكر شيئًا مفيدًا يمكنني استخدامه ضد بكتو. تبين أن خط تأكيد كان جميلًا على نحو غير متوقع. ومع ذلك، وكما توقعت، كانت رسالته مليئة بالتفاصيل المطولة. تخطيت المجاملات المعتادة ووصلت إلى الجزء المهم:

وهكذا، في يوم جميل من أواخر الصيف، وصلتُ إلى إيوان السيّد وانغ الفسيح، الذي يُعَدُّ من أبرز جامعي أشجار البونساي. كنت قد سعت طويلاً للحصول على دعوة لمشاهدة مجموعته الخاصة، ولم يتحقق ذلك إلا بفضل علاقتي بعائلة السيد لوو.

كان اسم لوو شائعاً إلى حد ما، لكنني تساءلت ما إذا كان لوو الذي كان جزءاً من مجموعتنا قد يكون له أيضاً صلة بمنزل عائلة وانغ. فالأثرياء لهم دائرتهم الخاصة؛ تماماً كما كانت خالة تشين متزوجة من وانغ، من المحتمل أن تكون عائلة لوو تعرفهم كذلك. قطبتُ حاجبيّ بينما أوصل قراءة رسالة تأكيداً، التي كتبها بأسلوب متكلف أشبه بروايات التحري، مجسداً نفسه بطلاً للرواية.

أُقيمت الحفلة في قصر فخم على الطراز الصيني القديم. في الخارج، كانت الإمبراطورية على وشك الانهيار، لكن داخل تلك الأسوار العالية والأفنية المبهجة، بدا الأمر كما لو أننا ما زلنا نتناول الطعام ونتبادل الشعر في عهد سلالة مينغ أو سونغ. وفي المساء، أُضيئت عشرات الفوانيس الورقية في كل ردهة، مُعلقة من الأفاريز المنحنية، وانعكست أضواؤها في برك اللوتس. كان ذلك إسرافاً باذخاً في استخدام الشموع.

فكرتُ بحق أن الإمبراطورية ربما لن تسقط لو أن أمثال وانغ توقفوا عن إهدار الشموع بينما يموت الفلاحون جوعاً في الشوارع. لكنّ هذا دأب البشر؛ لا يدركون أن الثورة قادمة إلا بعد أن تحترق أبراج المراقبة. أما المصابيح، فواحد أو اثنان يكفيان للقراءة ليلاً. كمشتُ أنفي استياءً، وواصلت القراءة.

والآن، عليّ أن أخبرك عن الحادثة الغريبة التي أشرتُ إليها في لقائنا الأخير.

حينها جلستُ بانتباه. ربما يكون هذا مفيداً.

توقّف القطار في محطة داليان بصوت صفير عالٍ، لتعلن أعمدة البخار وصوله كما لو كان وحشًا حديدًا كبيرًا يزفر أنفاسه الأخيرة. من العجب أن الرحلة انتهت دون أن يموت أحد أو ينفجر شيء. حين خرج باو من المحطة المزدهمة، تأمل كيف كان سيتعجّب من رحلة القطار هذه لو كان شابًا. إنه يعيش في زمن الأساطير الآن؛ راكبًا حصانًا من حديد في رحلة بحث عن حسناء قد تكون ثعلبًا. من الأفضل أن يبقى كتومًا بشأن هذه الخيالات؛ فلو علم شقيقه الأكبر بالأمر، لظن أن باو فقد عقله. مكتبة سرّ من قرأ

ما الذي يربط بين الثعالب والجنون؟ بعد وصوله إلى مكان إقامته (الذي أوصى به عميل سابق، والذي بدا متهاكلًا لكنه نظيف ولا توجد به حشرات فراش مرئية)، جلس باو على السرير الخشبي الضيق وبدأ يفكر في الأعراض التي لوحظت في كلّ من السيدة الثعلب والرجل الغريب الذي قاد امرأتين ليتركّا في الثلوج: الإثارة، النشوة، والنسيان. هذه الأعراض أشدّ غموضًا من نسبتها إلى سم معين. الأفيون، على سبيل المثال، يمنح مستخدميه أحلامًا حية لكنه يجعلهم متثاقلين أيضًا. علاوة على ذلك، فإن إدمان الأفيون للأسف شائع، ولم يرَ باو أي دليل على ضيق حدقة العين أو الكلام المتلعثم في الأشخاص الذين استجوبهم.

يُقال إن الثعالب تسحر الناس. مخادعون فانتنون، يمكنهم أن يسرقوا أكواب النبيذ الذهبية كما يسرقون القلوب. لكن الأسوأ هو أن بعضهم يلتهم حيوية البشر. ومع ذلك، يبدو أنهم ضعفاء بشكل غريب. يُقتلون أو يُصابون بسهولة، ويفقدون مخالبهم وذيولهم، بل وأرواحهم بطرق بشعة. اعتقد باو أن الثعالب أضعف من البشر، ولا تنجو إلا بفضل حيلها ودهائها.

بعد أن وضع أمتعته، عاد إلى المحطة وأخذ يعرض الصورة على كل من هبّ ودبّ، لكن لم يتذكرها أحد، ما أشعر باو بالإحباط. ولزيادة الأمر سوءًا، بدأ رذاذ المطر يتساقط، وانتقع حذاؤه بالماء. ربما تكون هذه نهاية الخيط. بعد

أن تناول عشاءً كثيفاً ولاحظ أن الطعام يبدو أسوأ حينما يأكله وحيداً، استلقى باو في فراشه، يُمعن في السقف المظلم. زفر بحذر؛ فحين يتنفس أنفاساً خفيفة، تخف حدة الألم الحاد في رثته اليسرى قليلاً، رغم أن استمراره ظلّ يقلقه. تصاعد طعم لحم الخنزير الرمادي الدهني الذي تناوله على العشاء في حلقة، وتساءل باو ما إذا كان قد أصيب بتسمم غذائي.

في الليل تحققت مخاوف باو. ومع بزوغ الفجر، وجد نفسه غائر العينين بعد ليلة من التقيؤ في وعاء الغرفة المزجج. إنه لأمر فظيع أن يصاب المرء بتسمم غذائي أثناء سفره. لو كان في بيته، لأعدت له صاحبة المنزل حساءً، أما هنا فيجب عليه أن يرنّ للبواب ليفرغ الوعاء ويملاً إبريق الشاي بالماء الساخن. نظر إليه الرجل بارتياح؛ فهناك شائعات عن تفشي الطاعون الدبلي في الشمال. فقد يموت الناس بالحمى وتورم العقد الليمفاوية في الفخذ والإبط، بعد تناولهم كبد المرموط النيء.

سأل باو وهو يمنح الرجل بقشيشاً سخياً: «هل هناك متجر أدوية قريب؟» أجابه البواب بأن هناك متجرًا شهيرًا ليس ببعيد.

قال باو متألمًا: «أحضر لي أي دواء متوفر لديهم لعلاج التسمم الغذائي». عاد البواب بحزمة ورقية من الحبوب المرّة، التي جعلت باو يغرق في نوم مضطرب بعد تناولها. وتقطع الليلة بين فترات من النوم واليقظة. ذكره المرض بشيخوخته، وآلام ركبتيه، وبأنه لا أحد يعلم أنه وحيد في مدينة بعيدة. عندما فتح عينيه مرة أخرى، كان الصباح قد أشرق. وتوهّجت الشمس بلون برتقالي خلف جدار غرفته الأبيض. جلس باو بثقل. كان قد تلاشى الألم المبرح في أمعائه، وعلى نحو مدهش، شعر بالجوع. لم يتفاجأ البواب في الأسفل من تعافي باو، عازيًا الفضل إلى متجر الأدوية.

قال البواب وهو يرسم خريطة للمنطقة ويحدّد متاجر التصوير الفوتوغرافي: «كانت تُدار من قبل أرملة المالك السابق. سيدة ذكية جدًا. كانت الزوجة الرابعة: جميع الأخريات متن. من المؤسف أنها لم تعد تدير القرارات». سأل باو وهو يراقب الرجل يرسم الخريطة ويضع علامة على متجر التصوير له: «وماذا حدث؟»

- يقول البعض إن زوجة الابن، السيدة هوانغ، أرسلتها لتعيش في الجزء الخلفي من المنزل، لكن من المحتمل أنها تقاعدت ببساطة.

هناك متجران يعرفهما البواب. وبينما يدرس باو الخريطة المرسومة باليد، لاحظ أن أحد المتاجر قريب. شعر بضعف ساقيه، لكن معدته أكثر استقرارًا الآن. لو سقط ميتًا من تسمم غذائي هنا، لأفجع ذلك أخاه الأكبر.

لم يحالفه الحظ في متجر التصوير الأقرب، حيث وجده مغلقًا. يديره رجل ياباني يدعى أودا. ربما سيزوره لاحقًا. تجمّع الناس في شوارع المدينة الواسعة، المليئة بالأعمال التجارية الجديدة ووجوه العمال القرويين الجدد.

أما المتجر الثاني، فيديره رجل من قومية الهان لم يكن لديه صبر على باو. لَوَّح بالصورة بعيدًا دون أن يلقي نظرة حتى، قائلاً بلهجة مربية: «لا أجيب على أسئلة تخصّ الزبائن. ولم أسمع عن بكتو نيكان أيضًا. لماذا تسأل؟»

شرح باو أنه يبحث عن امرأة مفقودة، فأشاح الرجل بنظره وقال: «إذا كنت تبحث عن الفضائح، فجرّب المصورّ الياباني أودا».

- ولم ذلك؟

- بعض زبائنه اختفوا.

حاول باو أن يصيب الهدف بعشوائية: «هل لهذا علاقة بالثعالب؟»

ضحك الرجل وقال: «الثعالب؟ من الغريب أنك تقول ذلك. هناك صديق لأودا يقيم معه؛ رجل وسيم جدًا. يُقال إن أي شخص يخرج للشرب معه يختفي. كذلك النساء المتزوجات يتهافتن على استوديو أودا لالتقاط صورهن. هناك حالة طلاق واحدة على الأقل، حيث قال الزوج إن زوجته كانت مسحورة».

سأل باو: «وهل هذا الرجل مصور أيضًا؟»

- لا، مجرد صديق له. لكنني لا أرى من العدل أن يجذب أودا الزبائن باستخدام دجّال.

ارتفع حاجبا باو. كلمة «مسحورة» أشعلت أجراس الإنذار في ذهنه. لقد أتى للتو من موكدن، حيث عُثر على امرأتين مهجورتين في الأزقة. هل من الممكن أن يكون الشخص نفسه؟

تابع الرجل، قائلاً: «يذهب الشباب الأثرياء إلى حفلات مليئة بالأفيون والشرب. هناك إشاعة تتردد بأن ثعلبًا يأكل أكباد الناس. لهذا السبب لا أتعامل معهم. تجارتنا محترمة جدًّا». ثم انتصب الرجل، وضغط شفتيه معًا. وبدا كأنه ندم على حديثه المطول، لكن قلب باو بدأ نبض بشكل غير مريح. ضاق صدره؛ وارتفع ضغط دمه.

ثعالب، ثعالب.

والآن يُتهم شخص ما بأكل الأكباد.

عليّ أن أخبرك عن الحادثة الغريبة التي أشرتُ إليها في اجتماعنا الأخير. جعلتني هذه الكلمات أعتدل في جلستي وأقرأ رسالة تأكيداً بعناية. الحقيقة أن الناس يموتون في أوقات غير ملائمة أبداً. لا أحد يعرف متى ستأتي لحظته الأخيرة على الأرض... إلخ إلخ؛ تجاوزت التكلفة المفرط الذي أسهب فيه تأكيداً.

في صباح اليوم التالي من وصولي إلى قبلا السيّد وانغ، استيقظت مبكراً لأتجول في الحديقة. لم يكن أي من الضيوف قد استيقظ بعد، إذ أفرطوا في الشرب الليلة السابقة، لذلك فوجئت بسماع أصوات مرتفعة قريبة. وعندما شققت طريقي عبر الشجيرات الكثيفة، سمعت رجلين يتحدثان من وراء بوابة جانبية. كانت مغلقة بالمزلاج، ولكن الجزء العلوي منها كان مزوداً بشبكة معدنية يمكنهم التحدث من خلالها. كان الرجل في الداخل ضخم الجثة، ويذكرني بمصارع سابق. أما الشاب في الخارج، فبدأ طالباً جامعياً، وكان في حالة اضطراب شديدة.

قال الطالب الجامعي: «بعت مجوهرات أُمي ولم يتبق لي شيء. لقد وعدتني بالصور مقابل ذلك!»

فرد الرجل: «إن لم تدفع كامل المبلغ، فسأرسل الصور إلى جدك.»

- ألا تملك ذرة رحمة؟

لم أسمع رد الرجل الآخر، إذ صرخ الشاب فجأةً بضيق شديد وضرب رأسه في البوابة. اندفع الدم من جبهته بينما انهار باكياً. راقبه الرجل ببرود لبضع دقائق، ثم قال: «يجب أن تأتي بالمبلغ. أنا أيضًا بحاجة ماسة إلى المال».

في تلك اللحظة، ترنح الشاب مبتعدًا على طول الطريق الجانبي. لم أكن أعلم من يجب أن أتبع، الرجل في الداخل الذي سار بسرعة نحو المنزل الرئيسي، أم الطالب. وبالنظر إلى ملابسهما، لم يبدو أن أيًا منهما من الخدم. وبعد تردد، فتحتُ البوابة الجانبية وتقدمتُ خارجها، لكن لسوء الحظ فقدتُ أثر الشاب.

عدتُ إلى الفيلا وأنا أتساءل من هو الرجل الآخر. إن كان من الضيوف، فلم أره مرة أخرى، رغم استفساراتي الحذرة. وفي اليوم التالي، سمعتُ من أحد الخدم أن طالبًا جامعياً ألقى بنفسه من فوق جسر قريب وغرق.

فسألته: «أكان مصابًا بجروح في رأسه؟»

أبدى الخادم دهشة كبيرة من ملاحظتي الدقيقة وقال: «نعم، كان كذلك».

ومن ثم استنتجت أنه لا بد أن يكون الشاب الذي تعرض للابتزاز. وجدت هذه الحادثة مزعجة ومشيرة للتفكير في الوقت ذاته. من هو الطرف الآخر وأين اختفى؟

تنهدتُ ووضعت الرسالة جانبًا دون أن أكمل قراءة نظرياته وتفسيراته المطولة. يا لها من مأساة! فرغم أسلوب تأكيد البلاغي المتكلف، كان بإمكانني حلُّ لغزه الصغير بسهولة: الرجل الذي كان في الداخل لا بد أن يكون يكتبني. لم يتعرف أي من الضيوف الآخرين، ولا حتى السيد وانغ، على هذا الوصف لأن يكتبني لم يكن ضيفًا. كان يشغل موقعًا غامضًا في المنزل، حيث كان يأتي ويذهب في أوقات غير محددة. لم يكن وانغ يفكر فيه إلا عندما

يحتاج إلى خدماته، ولا يبدو أن تأكيداً قام بعمل جيد في استجواب الأشخاص على أي حال.

تمنيتُ لو علمتُ في وقت سابق أن يكتو كان لديه عمل جانبي في الابتزاز. الآن فهمت سببِ عداائه عندما حاولتُ ممالطته بالحديث عن «الصور الخاصة». لا عجب في أنه كان مرتاباً جداً! لقد تسببتُ اليوم بفوضى كبيرة؛ ولا يمكن أن تسوء الأمور أكثر من ذلك.

أعادني وقع الخطوات في الممر إلى الحاضر. أسرعْتُ في حشر رسالة تأكيداً في الدرج ونهضت متوقعةً أن تكون سيدتي هي من دخل. لكن الشخص الذي وقف أمامي لم يكن سوى شيرو.

أغلق الأبواب المنزلقة خلفه وهمس: «لقد تجاوزتِ حدودكِ حقاً. بعد أن طلبتُ منكِ تحديداً ألا تقتربي من يكتو حتى تنتهي أعمالي الأخرى».

ركعنا على حصير التاتامي، نواجه بعضنا البعض بحذر.

- لماذا لم تخبرني أن يكتو محصنٌ ضد الثعالب؟

- اعتقدتُ أنكِ كنتِ تعلمين. في النهاية، أنتِ من يطارده. لو أنكِ فقط شاركتني أسراركِ، لما كنا وقعنا في سوء التفاهم هذا.

رفعتُ حاجباً. إنها حركة أثقنتُها عبر السنوات، تعبير عن الازدراء من بعيد. لكن العدا لَن يقودني إلى أي مكان، فقلت: «سأحتاج إلى مساعدتك. هل أنت مستعد؟»

ابتسم شيرو. وتلألأت عيناه بلون الشاي تحت ضوء الشمس بعد الظهر. كان تأثيراً جميلاً جداً: «بالطبع. ماذا تريدان؟»

- أريد التخلص منه.

- بشكل مؤلم؟ هادئ؟ أم مؤلم وهادئ؟

ما الذي سيُشفي جراح طفلتني بشكل أفضل؟ هل كنتُ أفعل هذا حقاً من أجلها، أم من أجلي؟ بدأت دوافعي تزداد ضبابية، تتفكك مثل ضباب أرجواني أسود يربكني بتسلل الشكوك. قال شيرو وكأنه قرأ أفكاري: «بالطبع علينا مناقشة الثمن».

- وهو؟

- عشر سنوات، إنه ثمن بخس مقابل حياة رجل، ألا تعتقدين ذلك؟
- عشر سنوات؟ هل جننت؟ بإمكانني الخروج غدًا واستئجار شخص لشقّ حلقه.
- ماذا عن سنة إذن؟
- لا.
- ليلة واحدة. هذا أفضل عرض لي.
- فكرت في ذلك بعناية. ما نوع المشروع الذي يحتاج شيرو أن أشرع فيه مقابل ليلة واحدة؟ أحيانًا تساعد الثعالب بعضها البعض؛ فنحن رفاق في نهاية المطاف. شيرو متقلب لدرجة أن ليلة واحدة معه قد تتراوح من سرقة مصرف إلى ذبح كل الأوز في البحيرة.
- ليلة واحدة من ماذا؟
- من الشغف.
- مع من؟
- ظهرت عليه علامات الحزن: «معي بالطبع. ألا يمكنك أن تري كم تلهفت إليك؟»
- «لا، لا، لا». قفزت سريعًا، لكنه كان أسرع، إذ أمسك بي في عناق. فتدحرجنا، لاهئين، على الأرض. وكلما زادت مقاومتي، ازدادت ملابسي فوضى، ترتفع فوق ساقي، فتوقفت فجأة لأعدلها. شعرت بدقات قلبه، ولدهشتي كانت تخفق بجنون، وكأنه كان متوترًا أو سعيدًا. كان هذا تحذيرًا آخر. لا يعجبني الأمر عندما يكون شيرو مسرورًا جدًا.
- تسلّلت حرارة جسده إلى داخلي، دافعة شعورًا بدائيًا بالراحة. لقد مضى وقت طويل منذ أن احتواني أحد بين ذراعيه، ولسبب ما، جعلني ذلك أشعر بالرغبة في البكاء. شدني شيرو نحوه، ليس بعنف كما توقعت، بل بلطف غريب. بيده حرّك شعري المتناثر عن وجهي وقال: «إنه عرض جيد. لن تندمي».

قلتُ مغلقةً عيني: «هراء»، لكنهما انفتحتا فجأة عندما شعرت بحرارة فمه، وضغط شفتيه الخفيف. عضضتُ بشدة حتى شعرتُ بطعم الدم، لكنه لم يكن

دمي. عندها أرخى قبضته، ومسح شفثيه. ذكّرني البقعة الحمراء الفاقعة بما كنت أنوي فعله هذا الصباح، فارتعدت. لم أعد أتحمل منظر الدم بعد الآن.

قال شيرو: «هل ستطلبين ذلك من كورو إذا؟»

هزرتُ رأسي بعنف. كان ذلك احتمالاً أشبه بالمستحيل.

تابع شيرو: «إنه مشغول جداً بأموره الخاصة. مشغول للغاية، يا ثلجتي المسكينة، متى ستتعلمين؟» وابتسم بحدة برّاقة. وزاد الدم الذي سال من فمه على مظهره طابع الجنون، لكنه كان خطيراً بالتأكيد؛ لا شك أن فتاة حمقاء كانت ستقع في فخه. مسح الدم برفق، بينما يشدُّ ذراعه الأخرى حول كتفي: «أنا أكثر كفاءة من معظم الناس. إلى جانب ذلك، سئمتُ الوحدة».

الوحدة. لقد رافقتني قرابة عامين، ذلك الفراغ المؤلم حينما تتساقط الثلوج كستار ناعم لا نهاية له. ليالٍ مظلمة وحدي. وأسحار متجمدة، وحدي كذلك. لا صوتَ حنوناً يستقبلني، ولا طفلَ عذباً يحتضن دفتي. شعرتُ بوخز في صدري، كما لو أن ثدييَّ يمتلئان بالحليب مجدداً. ثمَّ ارتفعت حرارة حارقة إلى وجنتيَّ. ربما كان ذلك بسبب وجود ثعلب آخر، أو ربما كان شيرو يبذل كل سحره، لكنني كنتُ غارقة في موجة مخيفة من العواطف.

قلتُ: «شيرو، أنت ستقتلني».

رد بابتسامة: «كم هذا سخيّف. أحاول ألا أترك أثراً». وانحنى برأسه قريباً مني. وجعلتني رائحة الحديد من دمائه على شفثيه أرتعش: «هل تريدان طفلاً آخر؟»

وعند قوله ذلك تلاشى تأثيره فوراً. قفزت واقفة، ضاربةً ركبتي في فخذه: «لا تتحدث معي عن الأطفال!» تناولتُ مزهرية من الطاولة المجاورة وألقيتها نحو رأسه. تحطمت على الحائط، وسمعتُ صوت خطوات قادمة وأبواب تفتح في الجوار بفزع.

صرخت: «لا أحتاج مساعدتك للتخلص من بكتو نيكان!»

وبدلاً من أن يغضب، رمقني شيرو بنظرة ساخرة: «فكري في الأمر. ليس هناك كثيرون يمكنهم أن يعطوك ما تتمنيه».

لن أثقل عليك بالمشهد المُخزي حين حضرت مدبرة المنزل، وسيدتي العجوز، ومعهما تشين، لينظروا إلينا بفضول. بدا من الجلي أننا كنا نتشاجر. لا شيء من المواربة أو الكلمات المهذبة كان سيعدّل ملابسي المجددة، أو يمحو أثر عضّة الأمس على رقبتني، أو الدم الذي يسيل من شفة شيرو. لم يكلف نفسه عناء التظاهر، بل أعلن بلا مبالاة: «شجار بين العشاق». ورأيت خلفه كيان كورو الصامت وحتى الآنسة يوكيكو، التي غطت وجهها بخفة، خجلةً لأجلي.

أردتُ أن تنشقّ الأرض وتبتلعني أو، إن لم يكن ذلك ممكنًا، أن أحرق المنزل بأكمله. بدوتُ كامرأة رخيصة؛ لقد رأيتُ ذلك في انحناء شفة تشين، مسترجعًا بلا شك كيف اقترحتُ عليه لقاء في الأدغال. وكما لاحظت، لم يُلِق أحد، نظراتٍ مستهجنة على شيرو وهو يخرج منتصرًا. كانت سيدتي هي التي أغلقت الأبواب خلفهم.

قالت وهي تُعدّل ملابسني: «والآن، ماذا حدث لك؟»

كنت أتوقع أن أطرد. هذه هي ردة الفعل البشرية المعتادة تجاه الفضائح من تهور، أو شجار، أو فجور؛ فالثعالب تجسد الصفات الحيوانية التي يكرها البشر، رغم أنهم يمارسونها جميعًا. لكن سيدتي العجوز نظرت إليّ بعينين مليئتين بالحزن. جالسة في زهول، شممتُ على جسدي أثر المسك الخفيف الذي خلّفه شيرو، عطر الثعلب الذكر في أوج قوته.

قالت: «هل هو الرجل المناسب؟ أظن أنكما تعرفان بعضكما منذ وقت طويل». وعندما نظرتُ إليها بدهشة، أضافت: «رأيتكما تتحدثان على سطح السفينة، لكنني لم أرغب في التدخل».

قلت: «شيراكاوا وأنا نعرف بعضنا منذ زمن». ذكرني هذا بردّ كورو الحذر عندما سألت سيدتي إذا كان شيرو جديرًا بالثقة. لكن كورو قال ذلك بهدوء، بينما كنتُ فوضوية، وعلامات البكاء ما زالت على وجهي بعد نوبة البكاء في الحديقة. في الأيام الأخيرة، كنت أتدهور بثبات. لم يسر شيء على ما يرام.

قالت: «أنتم الثلاثة متشابهون جدًا».

- من تقصدين؟

قالت: «أنت، شيراكوا، وكوروساكي». شعرت بالقلق من بصيرتها هذه، لكنها كانت مجرد حالة من الشرود عندها: «كل هذا الكم من المشاعر. ربما قدركم مرتبط ببعضه».

أردت أن أصرخ: **القدر هو ما نصنعه بأنفسنا**. وعلامة الثعلب هي أنه يعطل النظام. لكن لم أستطع أن أقول لها ذلك.

قلت بتصلب: «لا أعتقد أن كوروساكي عاطفي على الإطلاق. إنه أشبه بقطعة خشب».

قالت: «أوه، كلا!» وتذكرت حينها كم كانت معجبة بكورو (إلى جانب مدبرة المنزل والسيدة يوكيكو): «أعتقد أنه شخص يشعر بالأشياء بعمق. وربما إلى الأبد».

تنهدت بعمق. شيرو له طريقته في التسلل إلى أعماق الناس، وكذلك كورو. إنها طريقة مختلفة، لكنها تؤدي إلى نفس النتائج. وبالطبع، دائمًا ما ينتهي بي الأمر وأنا أدفع الثمن.

قلت بندم: «دعيني أنظف هذا الفوضى»، موقنة أن سيدتي لا يجب أن تقوم بتنظيف الأواني المكسورة. كانت تبدو بالفعل وكأنها تحبني، لكنني كنت أحيانًا أتساءل إذا كان هذا بسبب حبها المفرط للثعالب⁽¹⁾.

قالت: «أنا أتقدم في السن؛ وقليل من الأمور تفاجئني. لكن رمي المزهريّة على السيد شيراكوا تجاوز الحدود، خصوصًا أن هذا ليس منزلي».

طمأنتها أنني سأصلح الأمر.

- ألا تفكرين في الزواج مجددًا؟ العزوبية تجعلك هدفًا. عندما نعود إلى داليان، سأحاول أن أجد لك زوجًا مناسبًا.

«وما هو الزوج المناسب في نظرك؟» الزوج المناسب في نظري هو... لا. لن أخوض في التفاصيل هنا، لكنني تعرضت لخيبة أمل شديدة في الماضي. قالت بجديّة: «رجل مستقر لا يشرب ولا يدخن الأفيون. له مصدر رزق جيد، بلا ديون. وحماة ليّنة الجانب».

(1) الذين يحبون الثعالب أكثر من اللازم قد يصبحون عبثًا أيضًا، خاصة إذا كان ذلك حبًا عاطفيًا، أو جنونًا فغالبًا ما يؤدي إلى موت أحد الطرفين. (المؤلفة)

قلت: «وماذا عن الحب؟» فبعد كل شيء، كانت قد وصفت زواجها بأكثر المصطلحات الواقعية كآبة.

- لم أحصل على تلك الفرصة بنفسني.

- هل تفكرين في صديق طفولتك؛ الذي أخبرته عن الثعلب الأسود؟

قالت وهي تطوي وتفتح القماش المبلل الذي استخدمته لمسح الماء المنسكب: «أتساءل... طوال سنوات زواجي الطويلة، عندما كان زوجي شحيح الكلام معي، كنت أحياناً أتخيل أنني أتحدث مع صديقي العزيز. لكن من المؤكد أنه قد تزوج منذ زمن. لقد امتلكت والدته خططاً كثيرة له». وتغضن وجهها بمكر: «ولم تكن أي من تلك الخطط تشملني».

شعر باو بالقلق، ومع ذلك، جذبه الفضول عند سماعه عن شخص يأكل الأكباد. وعندما حاول الاستفسار، انغلق الرجل على نفسه مدعيًا أنه لا يعرف تفاصيل أكثر من أن اثنين قد عُثر عليهما ميتتين. كانا من أبناء الأغنياء المتعطشين للملذات؛ ومن المحتمل أن عائلتيهما دفعت للتستر على الفضيحة.

على أي حال، لم يكن باو هنا للتحقيق في وفيات غامضة أخرى. كان في رحلة البحث عن المرأة الغامضة التي قد تكون ثعلبته، وقد ازداد يقينه بأنه يقترب منها. الكلمات التي تتساقط من شفاه الناس كانت تحمل نغمة الصدق الواضحة، كحجر اليشم الأبيض النقي. عندما احتضرت زوجة باو، طلبت منه أن يدفن كل قلادة وخاتم وسوار كان قد أهداها إياها في قبرها. كان طلبًا غريبًا، لكن باو أدرك أنها كانت تخشى أن يتزوج مرة أخرى.

لم تكن تريد أن يذهب أي من مجوهراتها إلى زوجة ثانية أو محظية.

لم تجرؤ على أن تطلب منه الوعد، فلن يكون ذلك لائقًا. إذ يجب على الزوجة الوفية أن تسعى لما فيه مصلحة زوجها. كثير من النساء يرتبن لجاريات أو خدمات ليحللن محلهن بعد وفاتهن، لكن مع نهاية مرضها الطويل، لم تعد زوجة باو ترغب في التظاهر بذلك الإيثار المتفاني. أرادت أن يكون لها وحدها إلى الأبد. فهم باو ذلك وأخذته الشفقة حين رأى ذراعيها الهزيلتين تحملان أساور اليشم. قالت: «حدثني مرة أخرى كيف رأيتني فوق الجسر مرتدية ذلك الرداء الوردى، وكيف قررت حينها أنك ستتزوجني».

أعاد باو قصته البسيطة كما طلبت. علم أن زوجته كانت تتمنى بعض المبالغة أو الإثارة، لكن تلك لم تكن طبيعته. وعندما أنهى قصته، أمسكت يده وضغطت عليها: «هل كنتُ حبك الأول؟»

تردد باو للحظة، لأنها كانت تحتضر، وشفاهها شاحبة ومنهكة فوق أسنانها. ومع ذلك، ولأجل أنها تحتضر، لا يمكنه أن يدع آخر الكلمات التي تسمعها منه تكون أكاذيب. وبدلاً من ذلك، اكتفى بالضغط على يدها. قالت: «لا تعطي مجوهراتي أحداً. لا تعطيهم أي شيء كان لي».

توقف باو أمام متجر لبيع البط المشوي، متذكراً كلمات زوجته. كان أقاربه يستخفون بها. وفي حياتها، لم يكن أحد يحبها، حتى والدته التي رتبت الزواج في البداية. غريبٌ كيف انتهت مآلات الأمور.

كانت والدته قد قابلت خطيبته في جلسات الماهجونغ، ودعوات كتابة الشعر واحتساء الشاي. قالت: «الابنة الثالثة لعائلة ليانغ هادئة ومتعلمة، وأقدامها صغيرة للغاية».

سألت خالته: «ما حجمها؟»

- قيل لي إنها ثلاث بوصات ونصف. مع أنها بدت لي أكبر من ذلك. جلس باو بصمت معهم في صالة والدته. يُقال إن حجم قدم المرأة يرمز إلى فضيلتها واستعدادها لتحمل الألم لإرضاء زوجها. لكنه كان يفضل أقدام تاغتا، القوية بما يكفي لركل كرة. كانت رائحة زهرة النرجس الأبيض في الوعاء الخزفي بجواره عالقة في الهواء.

سألته خالته وهي تنظر إليه بتمعن: «ما رأيك يا باو؟»

أجاب بهدوء: «سأفعل ما تريد والدتي».

وفي النهاية، لم تكن والدته راضية عن زوجته. كانت خيبة الأمل واضحة في خجلها المفرط، وقلقها الدائم، وضعف جسدها الذي لم يتحمل حمل الأطفال. في لحظة عفوية، سمع والدته تقول: «كان يجب أن أسمح لباو بأن يتخذ ابنة المحظية المغولية زوجة ثانية. كانت قوية الإرادة ولا تبكي طوال الوقت. بهذا الحال، لن نحصل على أحفاد منه».

توقف باو عند سماع تلك الكلمات أمام غرفة دراسة والده، وتساءل عما إذا كان عليه أن يضحك أم يغضب. في النهاية، واصل طريقه.

عقود مضت منذ ذلك الحين. ما يكفي من الوقت لرحيل والدته وزوجته عن الحياة. تخيل لقاءهما في قاعة ما في العالم الآخر، تنتقدان مسيرته المهنية

الجديدة. دفعته الفكرة المزعجة للالتفات وراءه. لكن لم يكن هناك أحد، سوى ظله الشاحب. هل يبدو خافتاً أكثر مما كان عليه عندما تفحصه في مكتب شقيقه؟ تساءل فجأة، وبشكل غير منطقي، ما إذا كان خفوت ظله مرتبطاً بتزايد الألم في صدره، وكأن حياته تتسرب منه.

وقف أمام متجر البط المشوي لوقت طويل لدرجة أن البائع خرج لينظر إليه بارتياح. شعر باو بالحرج واشترى وجبة من الإوز المشوي والأرز. كانت دسمة للغاية بعد نوبة التسمم الغذائي الأخيرة، وتساءل عما دفعه لشرائها. ولأنه لم يجد شيئاً أفضل ليفعله، ذهب إلى حديقة قريبة ليقضي الوقت قبل أن يحاول زيارة متجر المصور الياباني مرة أخرى.

في الحديقة، أحضر الرجال طيورهم في أقفاص، يهزونها لتجعلها ترفرف. وهناك نساء أيضاً، يمشين مع مرافقين. مقارنةً بزمانه، فعدد الفتيات ذوات الأقدام الصغيرة أقل، وقد رضي باو بذلك. ولا ريب أن هذا كان سيُرضي تاغتا أيضاً.

لم أعطِ أحداً ما كان لك، قال في نفسه بأسى لزوجته الراحلة. تاغتا امتلكت جزءاً من قلبي منذ البداية.

ثم هز باو رأسه. يا له من عجوز أحمق. وقف بصعوبة على قدميه، ووضع علبة الإوز المشوي المفتوحة بعناية تحت شجيرة. تركها قرباناً للثعالب، رغم أنه من المحتمل ألا يكون هناك أي منها في هذه المدينة. ربما ستأكلها قطّة ضالة بدلاً من ذلك. لكنه انحنى برأسه قليلاً وتمنى أمنية.

عاد باو إلى متجر أودا للتصوير الفوتوغرافي، وخاب أمله عندما وجد النوافذ لا تزال مغلقة. غير أنه وجد امرأة تنتظر بالخارج، ترتدي مزيجاً أنيقاً من الملابس الأوروبية والمانشو، ومعطفاً من الفرو يلف كتفها. عندما اقترب باو، استدارت نحوه بلهفة، ثم أشاحت نظرها عنه بخيبة أمل.

وبما أنها لم تبدِ رغبة في التحدث معه، التزم باو الصمت. مضت خمس دقائق أخرى والمرأة تراقب ساعتها الذهبية الرفيعة مراراً. وأخيراً، ظهر رجل نحيل ذو صدر غائر وشعر مُسْرَح بعناية. ارتبك عندما رأى المرأة وكاد أن يستدير، لكنها كانت أسرع.

نادته قائلة: «أودا! هل من أخبار؟»

- لا، لم أسمع شيئاً من شيراكوا.

قالت وهي تلف يدها حول حزام حقيبتها الجلدي: «هل أنت متأكد؟»

- تعرفين أنه ذهب إلى اليابان. لا أدري متى سيعود.

فتحت فمها لتقول شيئاً، لكن أودا لاحظ وجود باو وقال على عجل: «اعذريني، عليّ أن أخدم هذا الزبون».

فتح أودا الباب وأدخل باو إلى المتجر، بينما لحقته المرأة به بإصرار. من النظرة القلقة في عيني أودا، خَمَّن باو أنها قد زارته من قبل. قال باو بهدوء: «أرجو المَعذرة، سيدتي. أنا هنا من أجل محادثة خاصة».

تردَّدت المرأة قليلاً ثم استدارت للمغادرة. قال أودا بارتياح: «كيف يمكنني مساعدتك؟»

أخرج باو الصورة وقال: «هل رأيتها؟»

نظر أودا جانباً بعينين مرتعشتين وقال: «أوه نعم، إنها... صديقة شيراكوا».

تساءل باو بصوت يشبه صوت الجد العجوز: «ومن هو شيراكوا؟» شحب وجه أودا، إذ افترض أنه جدُّ المرأة في الصورة. لكن باو اتخذ أكثر تعابيره حزناً وجدارة بالثقة خشية أن يجحده أودا الحديث: «أريد فقط أن أعرف إن كانت بخير».

أجاب أودا: «شيراكوا هو أحد معارفي. كما رأيت، لديه الكثير من الأصدقاء».

كان يشير بلا شك إلى السيدة التي كانت تنتظر في الخارج. تساءل باو إن كان لشيراكوا علاقة بحالات الاختفاء التي ألمح إليها صاحب المتجر الآخر. فـ«صديق» يحمل العديد من المعاني، وفي هذه الحالة بدا الأمر مريباً. سأل باو: «كيف تعرف شيراكوا، إذا سمحت لي بالسؤال؟»

ملأت الحيرة وجه أودا وهو يجيب: «لنرى، كيف تعرفتُ عليه؟ إنه صديق قديم من...» وبدأ صوته يتلاشى: «يا للعجب، لا أستطيع أن أتذكر الآن. لقد أقام عندي لفترة. لكنني لا أعرف كيف تعرف على حفيدتك. لقد جاءت إلى المتجر من قبل مع ذلك الشاب من متجر الأدوية. ولاحقاً، صادفتُها عندما أحضرها شيراكوا إلى المنزل». مسح أودا جبهته، وتساءل باو عن سبب

ارتبأكه الشدید: «على أی حال، هو لیس هنا الآن. لقد أبحر إلى موجی ولن یعود قریبًا».

قال باو بعبوس: «فهمت». لكنه فی الحقيقة لم یفهم شیئًا على الإطلاق: «هل تقول إنهما كانا یعرفان بعضهما جیدًا؟»

أجاب أودا: «بدت وكأنها تعرفه. حفیدتك تتحدث اليابانية بطلاقة. هل تجد أنت اليابانية بالمناسبة؟»

«لیس تمامًا». هذا اكتشاف أثار دهشته.

استعاد أودا تماسكه وارتسمت على وجهه ابتسامة متیبة: «لا أعرف أكثر من ذلك. أنا آسف للغاية، لقد اعتقدت ربما أن لك علاقة باليابان أيضًا». ولم یتمكن باو من استخلاص أی معلومات إضافية منه.

دفعت أشعة الشمس الحادة فی الخارج باو إلى تضییق عینه. بعد خروجه من المتجر، بدأ بالمشی. وسرعان ما سمع خطوات سريعة؛ طقطقة أحذية على الأرض، ثم مرّت بجانبه، ففاحت من حوله رائحة عطر أجنبي باهظ الثمن. تباطأت خطواتها، ونظرت إلى باو. والآن، هي من تريد بدء المحادثة.

سيدات العائلات الکریمة، لا یتسكّعن منتظرات خارج متاجر التصوير ویعترضن رجالًا غرباء بصرف النظر عن مدى أناقتهن أو حدائتهن. لم تكن شابة ولا كبيرة فی السن، جذابة بما یكفی، رغم ملابسها المبهجة. وفی عین باو، بدت وكأنها عشیقة رجل أعمال روسی.

قالت وهي تقترب: «عذرًا، هل یمکننی أن آخذ دقيقة من وقتك؟»

- بالطبع.

شعرت بالاطمئنان بسبب عمر باو وهیئته المحترمة، واقترحت أن یذهبا إلى مطعم قریب. ملأت رائحة الزيت القديم المكان، وانتشرت بعض البقع الدهنية على الطاولة. قلة الزبائن كانت دلالة على أن الطعام لیس جیدًا، لكن السیدة جلست دون أن تبالي. كان المكان ببساطة وسیلة مناسبة لاستجوابه. ظهر أمامهما فنجانان من الشاي متوسط الجودة، وطلب باو طبقًا من الشعیرية مع الخردل المخلل. أما هي، فلم تطلب شیئًا.

قالت السیدة: «هل كنت تسأل عن شیراکاوا؟»

- أبحث عن شخص قد يكون له علاقة به.

- هل هي امرأة؟

أخرج باو صورة السيدة الثعلب. وسرعان ما احمرَّ وجه السيدة، وامتلأت عيناها بالدموع. ناولها باو منديلته وهو يشعر بالارتباك، لكنها أخرجت منديلها الخاص. ثم قالت بصوت خافت وهي تمسح عينيها: «إذن، لهذا السبب رحل».

قال باو: «أخشى أنني لا أفهم. هل رأيتهَا من قبل؟»

وصل طبق الشعيرية، ساخناً ومغطى بكمية سخية من الخضار المخلل.

«رأيتهَا عندما غادر»، قالت وهي تنظر إلى الطبق: «ذهبتُ إلى الميناء لأودع شيراكاوا. كان هناك بعض الأشخاص الآخرين. لذا كان الوضع محرّجاً». ثم رفعتُ نظرها إلى باو فجأةً وقالت: «أليس هذا سخيّاً؟ لا أعلم حتى لماذا أتحدث إليك الآن».

لكن باو يعرف السبب. لأنه غريب يبحث عن شخص أيضاً، ولأنه يمنحها نظرة متعاطفة. وقد ساوره شعور بالذنب لاستغلال ذلك.

سألت: «وماذا قال أودا؟»

قصَّ عليها باو محادثتهما بإيجاز. كان يحسب أن إخبارها بحقيقة عمله قد يجعله يتقدم أكثر في الحديث معها. ربما كانت جرأتها، وفمها الملطخ بأحمر الشفاه الداكن، أو صرامتها ما ذكره بتشيلوان من بيت الهوى. لذا من الأفضل الحديث معها كمحترف لآخر.

قال باو: «كيف تعرفتِ على شيراكاوا؟»

- التقيتُ في نادٍ لتنسيق الزهور. أحضره المدرب ليعرض تقنية ثني الأغصان باستخدام الأسلاك. لا أتذكر الكثير عن الدرس؛ فقد انتهى بي الأمر بمراقبة يديه وليس الزهور. يداها كانتا جميلتين وأنيقتين للغاية. ثم بقيتُ بعد انتهاء الدرس، وكذلك نصف نساء النادي. شعرتُ وكأنني قضيتُ الساعة الماضية في قرن آخر. (واحمرَّ وجهها بعفوية): إنه مثل الشخص الذي تحلم به. لا أبرر لنفسي، ولكن كما تعلم، لدي راعٍ، وسيغضب بشدة إن اكتشف الأمر.

إذن كان باو على حق. لقد كانت بالفعل خلية مدللة لأحدهم. عبارة «الشخص الذي تحلم به» تذكّره بشيء ما، كصوت خافت يرن في مؤخرة رأسه، لكنه لا يستطيع استرجاعه الآن.

قالت السيدة: «عائلتي كانت من النبلاء القدامى، منحدرين من نسل دوق تشو⁽¹⁾، لكن لم يبق معنا الآن سوى الكبرياء. كانت علاقاتي دائماً قائمة على المصلحة فقط. كنت أعلم تمامًا ما الذي يفعله شيراكاوا؛ حذرتُ نفسي من الانجراف وراءه، حتى وأنا أرى النساء الأخريات يفقدن عقولهن بسببه».

شدّت الفرو على كتفيها قليلاً، رغم أن الجو كان دافئاً داخل مطعم الشعيرية، مع تصاعد البخار من أوعية الحساء ورائحة الفحم المحترق. واصلت: «لا بأس من الحديث هنا»، ثم أجابت عن سؤاله غير المنطوق: «راعي لا يأتي إلى أماكن كهذه، وإذا رأنا أحد سأقول إنك عمي».

سأل باو: «هل كان شيراكاوا يعتمد على دعم النساء مادياً؟»

- بالطبع. لم يكن لديه مال؛ لقد قال ذلك بنفسه. وهذا جزء من جاذبيته. إذا سألته، سيخبرك بذلك. لا أدري إن كان ذلك مقصوداً أم أنه كان ببساطة لا يهتم. لقد أعجبني هذا الأمر؛ جعلني أشعر بالحياة. (ولمعت عيناها).

شعر باو بالأسف على هذه السيدة التي كانت في منتصف العمر لكنها تحمل قلب فتاة صغيرة. أياً كان شيراكاوا، فهو بالتأكيد مثير للمتعاب: «برأيك، كم كان عمره؟»

- لم أسأله أبداً، لكنه بدا أصغر مني. أعتقد أنه كان يتراوح بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين. كبريائي لم يسمح لي بأن أعرف. أحياناً كان يقدم لي نصائح وكأنه أكبر سنّاً بكثير، لكنه كان أيضاً طفولياً. في إحدى المرات فاجأته بشراء بطاقة مشوية كاملة ووضعها على سريريه كمزحة. كان سعيداً جداً بها، وكأنني قدمت له صرةً من الذهب. وإن كان يحب المال أيضاً.

كانت صورة هذه السيدة الأنيقة وهي تمزح بوضع بطاقة مشوية على السرير غير متوقعة لدرجة أن باو لم يستطع إلا أن يتذكر الأوزة المطهية والأرز الذي تركه تحت الشجيرة لتكون قرباناً للثعالب. واصلت السيدة: «كل من قابله كان

(1) دوق تشو هو شخصية تاريخية من الصين القديمة، ويُعتبر من أبرز رجال الدولة خلال فترة حكم أسرة تشو الغربية (في القرن 11 قبل الميلاد). يُنسب إليه دور كبير في تأسيس واستقرار حكم الأسرة، وكذلك في صياغة وتدوين الأنظمة السياسية والثقافية التي استمرت لفترة طويلة في الصين. (المترجم)

مفتوناً به. حتى إنني عرّفته على راعيّ ذات مرة من أجل مشروع تجاري. كنت متوترة، لكن لم يحدث شيء في النهاية. لم يكن يخشى المخاطرة».

سأل باو: «هل تعتقدين أنه ربما كان ممثلاً؟»

- فكرتُ في ذلك بنفسي. حاولتُ التحقق منه ذات مرة، عن طريق استئجار شخص مثلك.

ربما لهذا تتحدث بسهولة مع محقق. سأل باو: «هل اكتشفتِ شيئاً؟»

- لقد أقرضته مبلغاً كبيراً من المال، قالت لي إحدى صديقاتي إنه ينبغي علي التأكد من أنه لا ينفقه على نساء أخريات. لذا استأجرت رجلاً لمتابعته، لكن شيراكاوا اكتشف الأمر فوراً؛ لا أعرف كيف عرف. وكان غاضباً جداً. (ارتجفت وهي تتحدث). وعده ألا أفعل ذلك مرة أخرى. رغم أن اسمه ياباني، إلا أنني شعرت أنه من هذه المنطقة. كان يتحدث عدة لهجات صينية بالإضافة إلى الكورية. حتى إنني سمعت شخصاً يناديه مرة بالسيد كيم».

فكر باو في فينغ، التي تجمدت في ليلة ثلجية عند عتبة خلفية. سأل: «هل ذهب إلى موكدن من قبل؟»

- نعم، كان يسافر كثيراً في شمال شرق البلاد.

بدأت الأمور تتبلور بطريقة مثيرة للاهتمام. سأل باو: «ذكرت أنك رأيت هذه المرأة في الميناء مع شيراكاوا. هل كانا يعرفان بعضهما؟»

كما هو متوقع، أثار هذا السؤال شجن السيدة، مما أعادها إلى الواقع المؤلم؛ وهو أن شيراكاوا قد غادر على متن سفينة بخارية وتركها.

«لم أفكر في الأمر حينها». وأظهر جفناها المُسدلين خيبة أملها: «لكنني لاحظتها؛ كانت ترافق جدة صاحب دار الأدوية الشهيرة».

- ما انطباعك عنها؟

- في البداية، ظننت أن شيراكاوا يحدق إلى الجدة، وتساءلت إن كان قد اقترض المال منها.

- حقاً؟

أطلقت ضحكة حزينة: «نعم، حقاً. لا أستبعد عنه شيئاً. ومع ذلك، ما زلت أعشقه. ثم أدركتُ أنه كان يراقب خادماتها. كان يبدو عليه أنه سينال منها

يومًا ما، بنظرة تجمع بين الشراسة والرضا. ولم تكن تكثرث به كثيرًا. في الواقع، بدا لي أنها لم تكن تحبه». وضمت شفيتها وهي تفتش في حقيبتها لتخرج سيجارة نحيلة. بدت كسيدة عالمية وعصرية، ومع ذلك، تجلس في مطعم شعيرية متواضع، مشغوفة بشيراكاوا. عكس حاجباها المشذبان بعناية استيائها من نفسها، رغم مرارتها وسخريتها.

- عندما ألقيت نظرة فاحصة عليها فهمت الأمر؛ لقد رأيت صورتها. بشرتها صافية، من النوع الذي لا تراه في المدينة، بل في الأرياف. عجبْتُ كيف تجرأت تلك الجدة على توظيفها. إدخالها إلى المنزل يشبه فتح الباب لثعلب.

مرة أخرى، تلك الكلمة. ثعلب: «ألم تكن ودودة معه؟»

- لا. لست متأكدة مما قد يجمع بين خادمة مثلها وسيد نبيل كما يدَّعي شيراكاوا، لكن كانا متشابهين. كلما نظرت إلى أحدهما، شعرت باضطراب أكبر. خفق قلبي بسرعة وشعرت بالدوار، وكأنني أنجذب في اتجاهين مختلفين.

- هل أعطاك شيراكاوا أي دواء أو عطر؟

- هل تعني إذا كنتُ مخدرة؟ لا أعتقد ذلك. مع أنني تساءلت من قبل إن كان شيراكاوا يخدرني. (وأغرقت ذقنها في يديها). عندما أكون معه، لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر. كيف يميل برأسه عندما تهب الرياح، وكيف يبتسم بطرف عينيه. أشعر أنني أكاد أفقد صوابي. وعندما يغيب، أستعيد نفسي. أعود لقراءة الروايات، وألتقي بصديقاتي لتناول الغداء، وأشتري ملابس جديدة، لكن في قلبي فراغ واسع، وأظلم أبحث عنه بجنون. صدقني، عندما قال إنه ذاهب إلى اليابان، شعر جزء مني بالراحة.

- كيف ذلك؟

- كما قلت لك، عائلتي تعتز بنفسها. يمكنك أن تقول إنني كذلك. راعيٌّ لديه زوجة روسية في فلاديفوستوك، لكنني أنا من يستضيف حفلاته وأساعده في بناء علاقاته هنا. منذ أن قابلت شيراكاوا، فقدتُ استقلاليتي؛ أصبحت أحن إليه بجنون. عندما لا أراه، أتصرف مثل

النساء السخيفات اللاتي كنْتُ أحتقرهن في الماضي، كاللاتي يخفين قصاصات من شعر عشاقهن ويبكين طوال الليل. إنه رجل فظيع. انسابت الكلمات من فمها مثلما تذكر باو تقيؤه بعد تسمم الطعام: «هل هناك أخريات مثلك؟»

- بالتأكيد هناك أخريات، مثل أرملة متجر البضائع الجافة. لقد صادفتها الأسبوع الماضي. وعندما سألتها إن كان لديها أي أخبار عن شيراكاوا، نظرت إلي وكأنها لا تعرف عمَّ أتحدث. هل يمكنك تخيل ذلك؟ تذكر باو ارتياب أودا بشأن الرجل الذي قال إنه عاش في منزله لبعض الوقت.

قالت السيدة، وهي تقضم أظافرها كما لو أن الشكوك قد قضمت من عقلها مثل الفئران: «اضطرتُّ إلى تذكيرها أننا كنا قد أخذنا دروسًا في تنسيق الزهور معًا. كان الأمر غريبًا جدًا لدرجة أنني تساءلت إن كانت تعبت معي. بعد كل شيء، هي من استأجرت مطعمًا كاملاً للاحتفال بعيد ميلاد شيراكاوا. كيف تقول إنها لا تعرفه؟»

قال باو: «سمعتُ شائعات عن أشخاص اختفوا». هل يمكن أن يكون للمفقودين في الأزقة الغامضة في موكدين وداليان الجاني نفسه؟ يجب ألا يقفز إلى الاستنتاجات بسرعة، لكن قلبه كان يخفق بعنف.

أصبح مزاجها أكثر كآبة وهي تجيب: «ربما. كان شيراكاوا يختلط مع هواة الفن وأبناء العائلات الثرية. حدثت بعض حالات الاختفاء، وإن كان هناك شائعات عن انقلاب بعض الطلاب الذين يدرسون في الخارج إلى ثائرين. ولربما اختفوا إذا كان هناك جواسيس في صفوفهم. السياسة ليست شيئاً أريد أن أكون جزءاً منه».

- ماذا عن شائعات أكل الأكباد؟

رمشت السيدة بعينين مضطربتين: «عُثر على شخص في زقاق؛ ربما تكون الحيوانات البرية هاجمت الجثة». لكن وجهها شحب. حتى شفثاها تحت طبقة أحمر الشفاه بدتا يبضاء. كانت عيناها تستعطفان، ولكنهما تحويان الغضب. كأنهما تقولان: أنقذني من نفسي.

قال باو: «أنا آسف إذا أزعجتك».

استعادت رباطة جأشها. يا له من حديث غريب دار بينهما، وكأنهما صديقان قديمان يلتقيان من جديد، لكن كل ما فعلته هو الحديث عن ذلك الغامض شيراكاوا. كان الأمر أشبه بحلمٍ حيث يلتقي المرء بغريباء ويتحدث في مكان مظلم، يحيط به البخار المتصاعد من الأوعية العملاقة المليئة بالزلابية والخبز المطهو على البخار. وكذلك فراغ المطعم، والأرضية اللاصقة. وذلك الإحساس كأنهما منفصلان عن مجرى الزمن والظروف العادية، يناقشان أسرار عالم مجهول موازٍ لعالمهما. لم تكذب، وإن مالت لإخفاء بعض التفاصيل، خاصة حول الجزء الأخير المتعلق بحالات الاختفاء.

قالت السيدة: «أتمنى أن تجد المرأة التي تبحث عنها. وإذا قابلت شيراكاوا، أخبره أنني بانتظاره».

لم يدرك باو أنها لم تخبره باسمها إلا بعد أن غادرت، تاركة خلفها عبق عطرٍ أجنبي. ركض خلفها وأعطاهما بطاقة عمله. فأخرجت بطاقتها، مطبوعة على ورق سميك؛ كان اسمها «تشو يولينغ». كلمة «يولينغ» تعني «جرس اليشم»، وفجأة تذكر باو، بشكل غير منطقي، وصية زوجته بدفن مجوهراتها في قبرها. وتساءل عن الأسرار الأخرى التي قد تخفيها هذه السيدة في قلبها، رغم أن همها الأكبر كان كشف أسرار شيراكاوا.

- أخبرني إذا سمعت عنه. تبدو شخصاً جديراً بالثقة. وأنا بحاجة إلى صديق.

يا له من شيء غريب أن تقوله. بالتأكيد، امرأة مثلها لا تحتاج إلى صديق، لكن كلماتها لم تحمل كذباً. عاد باو إلى طبق الشعيرية الذي بات رطباً، وإلى نظرات صاحب المطعم المتشككة، الذي كان يخشى أن يفر باو دون أن يدفع. ذكره الحوار بأكمله بشكل غير مريح بحوار آخر: فتاة صغيرة في الفناء الخلفي لأحد بيوت الهوى، تقول له: **إذا قابلت السيدة الثعلب، فأخبرها أنني سأكون في انتظارها.**

بعد أن خلدت سيدتي في النوم، ذهبت للاستحمام. كنت قد انتظرت حتى ينتهي جميع الخدم من استخدامه. لقد أثارت حالتي الغامضة قلقهم، لذا تناولت العشاء وحيدة بكآبة، جالسة على الدرج الخلفي ومعى سمكة مشوية بالملح، وكرتا أرز، وحبّة خوخ مخللة.

كان القمر مختبئًا خلف سُحب رقيقة. ليالٍ كهذه مثالية للتجول خفية، لكنني لن أقوم بأي مغامرة الليلة. فيكتو نيكان سيكون شديد الحذر: فقد أفصحت عن نواياي بصراخ لنصف أفراد المنزل خلال شجاري مع شيرو بعد الظهيرة. كثرة الأخطاء خطيرة على الثعالب.

حملتُ حزمة ملابسى وتوجهت إلى الحمام، وهو بناء صغير منفصل يضم حوض استحمام من حديد الزهر يُسخّن من الخارج باستخدام الحطب. للحفاظ على نظافة الماء للآخرين تغسل جسدك جيدًا خارج الحوض، ثم تخطو بحذر على غطاء خشبي يطفو فوق سطح الماء. يدفع وزن جسمك الغطاء نحو القاع لتجنب ملامسة قدميك للحوض المحمّى. والأطفال عادة لا يمتلكون وزنًا كافيًا لفعل ذلك بمفردهم، لذا يتعين عليهم الدخول برفقة شخص بالغ.

أدركت أنني أستطيع التفكير في الأطفال بهدوء مرة أخرى، رغم أن الألم في قلبي لن يتلاشى أبدًا. في وقت ما، كنت قد تشبّثت بذلك الألم كتذكّار بأن طفلي كانت موجودة يومًا ما، لكنني بدأت في التخلي عنه. وتساءلت إن كان ذلك نوعًا من الخيانة.

تأملتُ خياراتي وأنا أجلس في الحمام الدافئ (الذي بدأ يبرد بسرعة). كان بإمكانى أن أستأجر أحدهم ليذبح بكتو، لكن تلك لم تكن الطريقة التي تُسد بها الديون، أو ليس كما كان في الأيام الخوالي. كانت ديون الدم تُسد وجهًا لوجه، مع إقرار بالذنوب؛ وأنا مستمسكة بالطرق القديمة. وبينما كنت أغمر

نفسي في الماء، سمعتُ صوت ارتطام الحطب الذي أُضيف إلى فرن الحمام في الخارج، ثم صوت ضخ هواء المشعل بثبات.

ناديتُ من وراء النافذة الصغيرة العالية في الحمام، ظانة في البداية أنه الخادم الشاب: «شكرًا لك». لكن الخطوات كانت ثقيلة واثقة. ماذا لو قرر أحدهم زيادة النار بما يكفي ليغليني؟ انتفضتُ مذعورة وسط موجة من الماء. قال بهدوء: «لا تخرجي. إنه أنا».

عرفتُ صوته. واصل كورو إضافة الحطب إلى النار بعناية ومنهجية. وغطستُ مجددًا تحت الماء، وأنا أستمع إلى حركاته خارجًا.

قال أخيرًا: «هل أنتِ بخير؟ لم تكوني في حالة جيدة اليوم». بالطبع لم أكن كذلك. كان اليوم كارثة حقيقية. لكنني قلت: «أنا بخير».

- ماذا حدث مع شيرو؟

تركت الماء ينزل ببطء على ذراعي بينما أفكر في رد مناسب: «طلبتُ مساعدته. وكان ثمنها باهظًا جدًّا».

- المساعدة في ماذا؟ هل يتعلق الأمر بالمدعو بكتو نيكان؟

عدم قدرتي على رؤية كورو سهّلت جريان هذا الحوار، لكنه في الآن ذاته لا يُحتمل. أسهل لأنني لم أشعر برغبة في طعنه، لكنه كان مؤلمًا لأن صوته ملأني بالحزن. كان لدي العديد من الأسئلة، بما في ذلك من أين جاءت النذبة على وجهه؛ شددتُ أصابعي بإحكام لأكبج نفسي: «لقد وعدتني بآلا تتدخل». ظننت أنني سمعته يتنهد، أو ربما كان صوت اللهب يهمس في الهواء البارد. قال: «سأفعل ذلك من أجلك. مهما كان ما تريدينه».

- قلت لك، لا أريد التحدث إليك بعد الآن.

وعمَّ السكون. أحد تلك السكّنات الطويلة التي أستطيع خلالها سماع أوراق الشجر تهمس في نسيم الليل. ثم قال: «لقد اتفقنا منذ زمن على أن نسلك طريقًا أفضل، ولم يضع هذا الطريق منك بعد. دعيني أكن من يلوث يديه بدلًا منك».

قلت: «هذا الأمر لا يعنيك». ورششت الماء بغضب: «هل سمعتني؟ أنا أمنعك!»

لكن، لم أسمع ردًّا سوى فرقعة خافتة من النار.

أكره أن يتخذ الناس القرارات نيابةً عني، خاصة عندما يفعلون ذلك بطريقة نبيلة وفاضلة، كما يفعل كورو دائماً في حياته. أتعرفون الأبطال القدماى الذين يلقون بأنفسهم فوق الأسوار لإنقاذ قلعة محاصرة؟ حسناً، لا أعرف أيًا منهم أيضاً، على الأقل ليس الأحياء منهم. جميعهم ينتهي بهم الأمر موتى. ويا تُرى مَنْ يبقى ليدفن جثثهم الممزقة ويكتب قصائد حزينة لعائلاتهم الجائعة؟ نحن الباقون، نحن فقط.

لهذا السبب لا أحتمل كورو، لأنه يجعلني أبكي.

إنه أيضاً يدفعني إلى الجنون، وإن كان بطريقة مختلفة عن شيرو. خرجتُ من الماء، رغم أنه كان دافئاً بشكل مريح، وارتديتُ ملابسى على عجل، لكنني عندما خرجتُ مسرعة، لم يكن هناك أحد. لا أحد سوى النجوم المتجمدة في الأعلى، تلمع بتعالٍ وأنفة. ربما تمر ألف سنة، تنهض فيها سلالات حاكمة وتسقط، وربما يبلغ ثعلبٌ ما منزلة القديسين، ومع ذلك فإن بريقتها الباهت الخداع لن يتغير. وكان ذلك كافياً تقريباً ليجعلني أستسلم تقريباً.

لا يزال عليّ الاعتناء بسيدتي العجوز؛ لقد وعدتُها بخدمتها لفترة، ولم أكن أرغب في إضافة الهجران إليّ خطاياي، لذا زحفت إلى الفراش. وبينما كنت نائمة، حلمت بخطة رائعة حقاً. خطة أنتقم فيها لطفلي وتخلصني من بكتو نيكان دون الحاجة إلى مساعدة خارجية. كنت أدنو من الجزء الأفضل، حيث أعود إلى داليان منتصرة على متن قارب محمّل بزلابية الأرز وشرائح لحم الخنزير المقلية، عندما أيقظني صوت ما.

صوت طقطقة، وكأن أحدهم يضخ الماء، تبعه صوت رذاذ. كان الجو هادئاً في الفجر المبكر، وبدأت حافة السماء تضيء، لذا وصل الصوت بوضوح عبر ساحة المطبخ. كنتُ ملفوفة في الفوتون القطني مثل حشرة الحبوب، مترددة بين النهوض للتحقق أو البقاء. كان الجو بارداً، وقد مررتُ بيوم مرهق ومخيب للآمال، لذا دفنت نفسي أعمق في وسادتي (المحشوة بشكل مريح بقشور الحنطة السوداء) وعدت للنوم.

ولاحقاً، ندمت على هذا.

حلَّ الصباح. أشعلت النار وسط ضجيج إعداد الطعام على المائدة في هذا المنزل الكبير. رافقتُ سيدتي إلى الفطور، وكان بوهاي جالسًا بمفرده في الغرفة الكبيرة التي اعتادوا أن يتناولوا الطعام فيها. عادةً ما كان ينام حتى وقت متأخر، لذا فوجئت بظهوره المبكر.

قال بوهاي بينما كنتُ أضع أمامهم صواني الأرز وحساء الميسو والسردين المشوي والبادنجان المخلل: «جدتي، أريدك أن تستعدي للمغادرة».

ردّت: «لكن بالكاد مضى أسبوع على وجودنا هنا»

خفض صوته وقال: «أبقي هذا سرًّا عن الآخرين، لكن أعتقد أننا يجب أن نعود إلى داليان. سأشتري تذاكر السفينة هذا الصباح».

ظهرت علامات القلق على وجه سيدتي العجوز: «هل حدث شيء ما؟»
ردّ بوهاي وهو يعض على شفتيه: «لم يكن ينبغي أن أسمح لك بالقدوم معنا».

قالت بصرامة: «بوهاي! عليك أن تخبرني بما يجري».

اشتعل صراع إرادات خفيّ، لكنها انتصرت في النهاية. بالطبع، لقد كانت تدير متجر العائلة الطبي منذ أن كان يحبو على الأرض؛ فلم يكن بمقدوره إسكاتها. قال بصوت منخفض: «أعتقد أن هناك مخبرًا داخل تنظيمنا».

إذن، لقد أخبرها بالفعل عن أنشطته الثورية، على الأرجح في تلك الليلة التي عدنا فيها من جمع الأعشاب على التل. العديد من الصينيين الذين درسوا في اليابان كانت لديهم مشاعر مناهضة للإمبراطورية، ولكن بينهم أيضًا جواسيس جندتهم حكومة تشينغ. كان ذلك نشاطًا خطيرًا.

استمر بوهاي في مضغ شفتيه وقال: «إذا غادرنا الآن، سأقول إنني كنت فقط أرافق جدتي في رحلة، ولم يكن لنا علاقة بأي من هذا».

أومأت برأسها وقالت: «حسنًا. اشترِ التذاكر، وسأكون جاهزة».

توقفا عن الحديث حين ظهر لولو وتشين لتناول الفطور. ولاحظتُ أن ملامحهما كانت متوترة، كملامح بوهاي، وبدأت عليهما أمارات القلق. كان من الواضح أن أخبارًا قد وصلتهما إما الليلة الماضية وإما في الصباح الباكر. بعد أن غادرت سيدتي العجوز، بقيتُ في الممر للاستماع.

- هل ينبغي علينا الرحيل؟

- المصور بكتو نيكان موجود في المدينة.

أثار هذا الخبر اهتمامي، مذكرًا إياي برسالة تأكيد. ما الذي يريده بكتو من هؤلاء الشباب؟ لكن مهما حاولت التركيز، لم أتمكن من سماع المزيد.

كان بوهاي والشابان الآخران يتناوبون على الذهاب والإياب للقيام بأعمال في المدينة. ذكّرتني نظراتهم المليئة بالتوتر والانزعاج بكلاب محبوسة معًا. طريق الثورة محاط دائمًا بالخيانة؛ ودون معرفة مصدر أوامرهم أو الفصيل الذي تحالفوا معه، لم أكن أظن أن فرصهم كبيرة. ثلاثة شبان أثرياء ومثاليين كانوا هدفًا مثاليًا للاستغلال، حتى وإن لم يكن على يد شيرو.

تجلى القلق على وجه سيدتي العجوز وهي تقول: «أمل أن يتمكن بوهاي من شراء التذاكر! لو كنت أعلم أنه يتورط في الثورات، لما وافقت أبدًا على قدومه إلى اليابان للدراسة. كل تلك الأحاديث عن مصانع السكر في فورموزا كانت مجرد تضليل!

قلت لها: «قد تكون فكرة العمل لا تزال قابلة للتحقق. ووجودك معه هنا يُعطيهِ عذرًا للعودة إلى الوطن، لذا فإن وجودك هنا أمر جيد».

ربت على يدي وقالت: «أنت دائمًا تُشعرينني بتحسن. هذا يُذكّرني بمدى تعلق بوهاي بشيراكوا».

أن تُقارَن بشيرو ليس مديحًا. لم أرَ أثرًا لشعرة من شيرو ولا من كورو طوال اليوم، وهذا جعلني أشعر بالتوتر. حتى أجواء الاضطراب امتدت إلى مدبرة المنزل التي تمتعت بشيء حول يوم سيئ الفأل. وفقًا لـ«روكيو»، النظام الياباني القديم لتقسيم الأيام إلى ست دورات، فإن بعض الأيام تعتبر أكثر حظًا أو سوءًا من غيرها. وبحسب ما قيل، كان هذا اليوم «بوتسوميتسو»، وهو يوم سيئ الحظ للغاية.

قالت مدبرة المنزل: «لا بد أن الثعالب على التل نشطة مجددًا، لهذا لا توجد منازل مبنية هناك رغم جمال المنظر. لقد قالت جدتي ذلك، لكن الناس ينسون دائمًا».

لم أرَ أثرًا لثعالب أخرى في المنطقة. ومع ذلك، لم أستطع التخلص من شعور القلق، وكأن عنكبوتًا صغيرًا يسير برفق فوق جلدي. للتحضير لعودتنا،

علقت الغسيل ليحف على أعمدة الخيزران في الفناء الخلفي. لاحظت بقعة
بنية حمراء على مقبض مضخة الماء، وكأن يد شخص ما تركت آثار دماء. لا
أدري، ربما غسلت مدبرة المنزل السمك أو اللحم.

في تلك الظهيرة، علّت جلبة عند الباب الأمامي. تجمع الجميع بسرعة، إذ
عاد الفتى الخادم من مهمة وكان يغلي بالأخبار. قال متحمساً: «لقد قُتل رجل
في البلدة!»

سأله تشين: «من هو؟»

- مصور منشوري كان يقيم في نزل قرب المرفأ. سمعتُ أن الشرطة
تريد مقابلة جميع الأجانب الذين ربما تواصلوا معه في المنطقة.
شهقتُ بصمت. شعرت وكأن حبلاً قد التف حول حلقي، مشدوداً بإحكام.
إذن مات يكتو.

شخص ما سبقني إليه. شعرت بأطرافي تثقل ورأسي يتخدر. تجمدتُ
في مكاني، وقلبي ينبض بقلق. بدا الشبان المجتمعون عند المدخل خائفين؛
تحقيق الشرطة مع الأجانب في المنطقة كان نذير شؤم، خاصة إذا كانت
لديهم شكوك بأن تحركاتهم قد كشفها مُخبر. انتابهم التوتر، مثل خراف في
مرعى ترفع رؤوسها عند اقتراب مفترس.

وسط الصمت المفاجئ، قال شيرو ببرود: «يا للعجب، هذا مؤلم. كيف
مات؟»

قال الفتى الخادم، وعيناه متسعتان من هول الخبر: «لقد طعن في غرفته.
وجدته الخادمة في الصباح مغطى بالدماء».

صدرت صرخة مكتومة من مدبرة المنزل، وضعت يديها على وجهها
وقالت بأنين: «إنها الثعالب. الثعالب على التل بدأت تقتل الناس مجدداً».

في الفوضى التي أعقبت ذلك، لم أكن متأكدة مما أشعر به؛ الغضب أم
الارتياح، أو ربما كلاهما؟ حدقت إلى شيرو. كان وجهه جامداً لا يظهر عليه
أي تعبير، وهو ما جعله ينجو من العديد من الحملات والحروب. عندما لاحظ
ضيق عيني، هز كتفيه قليلاً وقال: «هذا سيئ، لكنه لا يتعلق بنا». كلمات
باردة، مدروسة لطماًنتهم.

سأل بوهاي: «شيراكوا، ماذا نفعل؟»

قال شيرو مطمئناً: «إذا أرادت الشرطة استجوابنا، فسأكون سعيداً بالتحدث معهم».

تنفّس الجميع الصعداء. واستعادت مدبرة المنزل وعيها، رغم أنها استمرت في الثرثرة عن الثعالب، وهو أمر خطير قد يؤدي إلى إثارة الذعر. لكن أكثر ما أثار قلقي هو غياب كورو. لم أراه في أي مكان.

علمتني تجربتي مع الشرطة أنهم يتصرفون دائماً بعدائية تجاه الأجانب. بيت مليء بغرباء كانوا يجمعون المال من رجال أثرياء أمثال تاكيدا كان أمراً بارزاً كشجرة صنوبرية وحيدة على تلةٍ مُعرّض للصواعق. لو كنتُ مكان الشرطة المحلية، لألقيت القبض على بوهاي وأصدقائه لمجرد جريمة كونهم أجنب.

لكن السؤال الأهم هو: من قتل يكتو، ولماذا الآن؟ كان يكتو مصوراً له اهتمامات مشبوهة. تساءلت إذا كانت الخادمة في النزل ستتذكرني، فزيارة امرأة مجهولة لغرفته في اليوم السابق ستكون مشبوهة للغاية.

كلما فكرت في الأمر، زادت رغبتني في الاندفاع إلى غرفة يكتو بنفسي. لأتحقق من موته بأُم عيني وأنفي، وأطلق صرخة غضب وحيرة. لكن كان علي كبح هذا الدافع المتهور؛ فقد وقعت كثير من الثعالب في فخاخ بسبب فضولها الأعمى. علاوة على ذلك، إن انتظرت طويلاً بما فيه الكفاية، فمن المحتمل أن تأتي الشرطة إلينا.

وللأسف، كنتُ على حق.

بقي عطر تشو يولينغ عالقًا ببطاقة التعريف التي قدّمتها لباو، عطرٌ مسكّيٌ أجنبي. راقبها باو وهي تختفي وسط الزحام، وعلامات التصميم تكسو وجهها. وتساءل إن كانت مشاعرها نحو شيراكاوا ستتلاشى يومًا كما تلاشت ذكريات معارفه الآخرين. والعجيب أنها تبدو أكثر مقاومة من غيرها. بعد أن دفع الحساب، عاد باو إلى نزل. فتح دفتر ملاحظاته وكتب اسم شيراكاوا فيه.

رغم شكوكه، لا يوجد دليل يربط شيراكاوا بالرجل الوسيم الذي تخلّى عن امرأتين وسط الثلوج في موكدن، أو يربط بشكل وثيق علاقته بالمرأة التي يبحث عنها. يقفز باو ببساطة إلى الاستنتاجات، ويرى ثعلبًا خلف كل ظل. سيكون من المفارقات إن أصيب هو الآخر بنوع من هوس الثعالب.

كما أن أكل الأكباد لا يتناسب مع القضايا السابقة. ربما، كما قالت تشو يولينغ، افترست وحوش البراري إحدى الجثث لاحقًا. مجرد التفكير في ذلك جعله يرتعش. أكل الأكباد جريمة قديمة يُشتبه في أن الثعالب ترتكبها. عندما كان باو طفلًا، شهد حشدًا يمزق شعر وملابس بائع متجول اتهم بهذه الجريمة، ولا يزال يتذكر الصراخ، والاندفاع الوحشي، ورائحة الخوف الكريهة، وكأن الناس قد تحولوا إلى وحوش.

من الأرجح أن «شيراكاوا» و«السيدة الثعلب» هما زميلان في فرقة أوبرا. كلاهما يعيش على هامش المجتمع، ويجيدان لغات عدة، ويتمتعان بقدرة قراءة جمهورهما. ينبغي على باو الذهاب إلى متجر الأدوية ليعرف إن كانت ما زالت تعمل فيه، أو إلى مكتب تذاكر السفن البخارية ليتأكد من هويات من ركبوا السفينة. لكن التعب أثقل كاهله. لقد أرهق نفسه بعد إصابته بالتسمم الغذائي، ومن ثم التجول في داليان لمقابلة المصورين والعشيقات المتيمات. أغمض عينيه وتداعى ذهنه إلى نساء بأعين ساحرة ورجال بأيدي أنيقة، وأشخاص يموتون بطرق غامضة.

وصل عناصر الشرطة مرتدين بزات أنيقة وقبعات بدت غير مريحة. كانا رجلين، وقفنا عند المدخل وألقيا نظرات متفحصة في الأرجاء. أعلن الرجل الأكبر، الذي أطلق شاربیه على طريقة إمبراطور ميجي ونفخ فيهما بتفاخر: «قُتِلَ رجل أجنبی هذا الصبح. ولدينا سبب للاعتقاد بأنه كان على صلة بهذا المنزل».

تملأ الجميع في أماكنهم. من المضحك كيف اصطفَّ الشبان خلف شيرو، مشكلين مثلثاً يقف شيرو في قمته. توقعت في أي لحظة أن ينفجر بوهاي وتشين ولوو في الغناء، كما لو كانوا في مسرحية ساخرة سيئة. بالطبع لم يحدث شيء من هذا القبيل. وبدلاً من ذلك، التفتت أعينهم نحو شيرو.

- تفضلوا بالدخول. كما ترون، رفاقي طلاب من عائلات محترمة. ليس لدينا ما نخفيه.

انسابت كلمات شيرو باللباقة والسمو. لا أعرف ما الذي كان يتوقعه الشرطيَّان، لكنهما بديا مصدومين بعض الشيء. في الحقيقة، كنت قلقة من أن شيرو قد بالغ في الأمر. ففي نهاية المطاف، نحن في منزل خاص وليس في قاعة انتظار قصر.

لم أدرك أنني كنت أضغط على أسناني حتى دخل كورو بهدوء من الحديقة. لم يكن لدي فكرة عن مكانه طوال اليوم، لكن من المرجح أن مدبرة المنزل استدعته في هلعها. بدا متزناً وجاداً في الكيمونو الرمادي الداكن خفيف النسج. قال: «أهلاً أيها السيّدان».

قال ضابط الشرطة الأكبر بارتياح: «آه، كوروساكي سينسي! تسعدني رؤيتك».

ثم تبعوا كورو وشيرو إلى غرفة الاستقبال، وأغلقت الأبواب خلفهم. وقف بوهاي ولوو وتشين في الممر بحيرة، وكأنهم تلاميذ مدرسة لا يعرفون ماذا يفعلون. حثني القلق لأركض وأضغط أذني على الباب. وتبعني الشبان الثلاثة على الفور.

سمعت الضابط الأول يقول: «الرجل الذي قُتل كان مصورًا منشوريًا. من رسالة عُثر عليها في حقائبه، وهي رسالة مصدرها هذا العنوان، يبدو أنه تلقى تعليمات بالقدوم إلى موجي».

رد شيراكاوا بسلاسة: «هذا صحيح. طلبتُ منه تصوير نباتات نادرة للسيد تاكيدا. لقد صدمني سماع خبر وفاته! ماذا حدث؟»

عند ذكر اسم تاكيدا، رجل الأعمال الثري، لاحظت أن ضابط الشرطة بدأ يلين. إما بسبب هذا، وإما لأن شيرو كان يبذل قصارى جهده لإقناعه. لم أتمكن من رؤية ما كان يحدث داخل الغرفة، لكنني سمعت التحول في نبرة أصواتهم.

قال الضابط: «وجدته الخادمة ميتًا في غرفته. طُعن في وقت متأخر من الليل أو في وقت مبكر من الصباح».

سأل شيرو: «أكانت هناك علامات على مقاومة؟»

أجاب الشرطي الأصغر: «لا، لكنَّ النزل مزدحم، ومن السهل تسلق الجدار الخلفي. كانت الجثة ممددة على الفوتون، وكأنه طُعن وهو نائم، غالبًا بسكين مطبخ عادية».

- هل كانت سرقة؟

- ذكرت الخادمة أنه كان يحمل حقيبة جلدية حذرًا من لمسها أثناء التنظيف. قالت إنها كانت تحتوي على صور فوتوغرافية، لكنها كانت فارغة عندما فتشناها.

بدأ الشرطيان متعاونين بشكل مفرط. لا بد أنهما يتأثران بالثعالب، ولم أستطع سوى تخيل أن الجمع بين شيرو وكورو في غرفة مغلقة كان يربكهما. ينبغي عليهم أن يكونا أكثر حذرًا. بهذا المعدل، كنت أخشى أن تنتشر شائعات جديدة.

- هل زاره أحد قبل وفاته؟

- نعم، زاره عدة أشخاص، بما في ذلك امرأة غير معروفة قبل يوم من الحادثة.

سأل كورو للمرأة الأولى: «هل عثرت عليها؟»

- ليس بعد، رغم أن الخادمة قالت إنها كانت ترتدي كيمونو أزرق بتصميم هاناكاغو. وهناك أيضًا زوار رجال، لكن لم يرَ أحد وجوههم.

«إذن قد تكون مجرد سرقة بسيطة»، أضاف شيرو باذلاً كل جزء من جاذبيته.

- نعم...

- وليس من الضروري استجواب أي شخص آخر في هذا المنزل.

قال الشرطي الأكبر بتردد: «صحيح». وبدا كأنه أدرك ذلك للتو: «شكرًا على وقتكم».

تراجعت بسرعة عن الباب قبل أن يفتحوه. بدا كلُّ من بوهاي، وتشين، ولوو مصدومًا ومطمئنًا بشكل كبير. انفجرت الأسئلة داخلهم، لكن لم ينطق أحد منهم بشيء بينما كانوا يرافقون الشرطيَّان للخارج. بدا الشرطيَّان وكأنهما مسحوران، مما زاد قلقه. فالإفراط في الأمور غالبًا ما يؤدي إلى نتائج عكسية.

كما قلت لكم من قبل، كل فعل له رد فعل مساوٍ ومعاكس. والذين لا يمكنهم التحكم في هذا التوازن ينتهون بالموت غالبًا، ولهذا لم يقل كورو سوى القليل خلال ذلك الاستجواب القصير.

أطلعتُ سيدتي على ما استجدَّ حول زيارة الشرطة. كانت مضطربة، وكذلك كنتُ، وإن كان لأسباب مختلفة.

قالت وهي تعقد يديها بقلق: «أخشى أن يكون بوهاي قد خرج الليلة الماضية». كانت مشغولة بتوضيب حقائبها، جاهزة للمغادرة مع بزوغ الفجر: «استيقظتُ الليلة الماضية لأستخدم المرافق، وظننتُ أنني رأيت شخصًا يعبر الفناء. لم أعر الأمر اهتمامًا كبيرًا حينها، لكن الآن بعد أن أخبرتني بمقتل المصور، أشعر بالقلق».

- ربما من رأيته كان مستيقظًا أيضًا لعدم قدرته على النوم.

- كانت هيئة رجل، لكنني أتمنى حقًا ألا يكون بوهاي. هلَّا أخبرته أنني أود التحدث إليه؟

هرعتُ لتنفيذ طلبها. وخلف الشرفة، ارتفع القمر هلالًا نحيلًا في السماء المخملية. بدت الظلال متكاثفة في الزوايا أكثر، وكأن الظلام يتكوَّم مثل ريش أسود ناعم أو أكوام من السخام الحالك. جلس بوهاي، وتشين، ولوو معًا بعد العشاء، يحتسون زجاجات من الساكي الساخن لطرد برودة الربيع، وتناولوا الحبار المجفف المشوي. لكن لم يبدُ أحد منهم سعيدًا.

أخبرت بوهاي: «جدتك تود أن تراك».

نظر إليَّ تشين وقال: «تفضلني بالانضمام إلينا».

تفاجأتُ وراودني الشك من هذا الطلب، لكنني دخلت وأغلقت الباب خلفي. قال تشين وهو يعتدل في جلسته بجديَّة مصطنعة، وكأنه لم يعرض عليَّ من قبل في تلك الليلة لقاءً على تلة مضاءة بنور القمر: «بما أنك لستِ خادمة عادية، وتعرفين شيراكو من قبل، ربما يمكنكِ الإجابة عن بعض الأسئلة».

تجهَّم وجه لوو، وأدركتُ أنه لا يُفضِّل أن ينظر إلى عينيَّ، إذ وجه كلامه إلى تشين وليس لي: «كيف لنا أن نعرف أن هذا صحيح؟ لربما غَدَّتْكَ الأكاذيب». تصلَّب بوهاي وقال: «أنا أضمنها. أخبرينا عن شيراكو. كيف تمكن من إقناع الشرطة بالمغادرة بهذه السهولة؟» يبدو أن شبح وجود مُخبر بين صفوفهم، بالإضافة إلى الطريقة المريبة التي صرف بها شيرو الشرطة، قد زعزعهم تمامًا.

قلت: «ليس لدي فكرة. ربما كان شديد الإقناع. ولكن إذا كانت لديكم شكوك، فربما عليكم العودة إلى الوطن».

لقد قلت من قبل إنني لن أَدخل في شؤون البشر مرة أخرى، لكن وجوههم البريئة أثارت شفقتي. هؤلاء الشباب، أبناء التجار الأثرياء الذين يلعبون دور السياسيين بأيدٍ ناعمة، قد تركوا دراستهم لخدمة الثورة. ليس لديهم أدنى فكرة عن الكيفية التي يمكن أن يُشوَّه بها التعذيب الأطراف ويكسر الأرواح.

قال تشين موجِّهًا حديثه للآخرين: «هل تعتقدان أن شيراكو متورط في مقتل بكتو؟» فاستحكمتني أذناي.

سأل بوهاي: «لماذا؟»

قال تشين وعيناه تغوصان بالظلال: «لأن سلوك الشرطة هذا المساء كان غريبًا للغاية، وكأنهم كانوا يقدمون تقاريرهم إليه. حتى إنهم ذكروا ملفًا مفقودًا. إذا سمع والدي بهذا، سيغضب بشدة».

تململ بوهاي بعدم ارتياح وقال: «ما دام لم يسمع شائعات عن صور معينة...» وخفت صوته تدريجيًا: «ماذا لو اعتقلونا في النهاية؟»

وتحت ضوء المصباح، اصفرَّت وجوههم شاحبة مثل الرُّق. قال لوو، وقد تبيَّس وجهه الطويل من الخوف: «من الأفضل أن نغادر في أقرب وقت ممكن».

أشار بوهاي لي لاتبعة إلى الممر قائلًا: «سأذهب لأطمئن على جدتي». بمجرد أن أصبحنا وحدنا، سألتها: «ماذا قصدت بشائعات عن صور معينة؟»

تردَّد بوهاي، مدرِّكًا أن جدته ستكتشف الأمر على أي حال، وكان من الأفضل أن أكون في صفه. وعند الشرفة، أشار إلى أننا يجب أن نتحدث في الحديقة. سرنا بصمت نحو بركة الزينة، المحاطة بزهور السوسن. بدا عليه التوتر. قال: «لم يكن يكتو مجرد مصور. كان مبعوث حركتنا الثورية، رغم أن البعض حذَّر من الوثوق به لأنه نصف منشوري. كان يتنقل إلى أماكن مختلفة للعمل مصورًا، لذا كان مفيدًا لنا. لكنني لم أثق به قط، خاصة مع أعماله الجانبية القذرة؛ ربما كان سيبيعنا لحكومة تشينغ».

- هل كان شيراكو يعلم أنه يعمل لصالح منظمتكم؟

- نعم. طمأنني بأنه سيتعامل مع يكتو إذا أصبح مزعجًا.

بدت نبرة بوهاي وكأنه يحاول إقناع نفسه، لكنني شعرت بالغضب حتى بدا وكأن جذور شعري تقف، ورأسي يشتعل مثل عود ثقاب.

إذن! كان شيرو يخفي عني الأسرار أيضًا.

كان لعلاقته مع يكتو نيكان جوانب أكثر تعقيدًا مما كشفه لي من معلومات. شيرو متلاعب وانتهازي. بعد أن اكتشف أنني أبحث عن يكتو، قرر أن وجودي قد يكون مفيدًا للتخلص منه، خاصة إذا أصبحت عادات يكتو في الابتزاز مجرد عبء. هل كان يحتفظ بي ككبش فداء محتمل؟

سألني بوهاي: «لماذا تبدين غاضبة هكذا؟»

في الظلام، بدا صغيرًا وخائفًا، كطالب تورط في أمر يفوق احتماله. من يدري إن كانت هذه الخلية الثورية التي انضم إليها موجودة أصلًا؟ لن أستبعد أن يكون شيرو قد اخترع كل شيء، ليورط أبناء التجار الأغنياء هؤلاء لنهب أموالهم. كانت أفكاره تندفع بمختلف الاحتمالات، لكن مشاعري عمومًا - كما أشار بوهاي بخوف - كانت الغضب.

كظمت غيظي وقلت: «كنتُ أفكر كم أن هذا غير عادل لك».

أومأ بوهاي عدة مرات، نعم، كان الوضع رهيبًا للسيد الشاب أن يتورط في مثل هذه الفضائح.

تابعتُ: «لماذا لم تخبرني من قبل؟»

- سمعت للتو أن هناك مخبرًا. واعتقدتُ أنك تعملين لصالح شيراكوا. لكن عندما سمعتك تتجادلين معه بالأمس، أدركت أنك تهتمين بجديتي، وليس به.

على الأقل كان شجاري مع شيرو مفيدًا.

أضاف بوهاي: «لا تسيئي فهمي. أريد أن أؤمن به؛ إنه صديق عزيز. إذا كان يكتبو مخبرًا حقًا، فقد كان شيراكوا يحاول إنقاذنا». (أخفيتُ نخيرًا ساخرًا في نفسي) «أو ربما كانت مجرد حادثة سرقة. لقد بدأت أشك في كل هذا المشروع على أي حال، وأحتاج إلى رعاية جديتي. لقد فقد تشين ولوو شجاعتهما أيضًا».

كتمتُ تنهيدة. يبدو أن هذه الجيل من الشباب ليس بالقوة الكافية. الثائرون الحقيقيون، من النوع الذي يستطيع إسقاط سلالة حاكمة، لن يترددوا في اجتياز السهوب ليلاً ونهارًا، والعيش على حليب الأفراس ودماء الخيول. هذا هو النوع الذي أعنيه. لكن ربما كان من الأفضل التراجع قبل أن تتبدد تلك النية الحسنة الغريبة من الشرطة.

ما زلتُ غير متأكدة مما إذا كان ينبغي أن أشعر بالارتياح أو الخيبة لموت يكتبو. لو كنت صادقة مع نفسي، فقد كنت أعلم في أعماقي أن مطاردة يكتبو لم تكن الطريق الصحيح، لكن جزءًا آخر منِّي، الجزء المرير الحاد، لم يكثر بذلك. ما الفائدة من الاستمرار في العيش لأكمل ألف عام دون طففتي؟ شعرت

بخدر والغثيان كأنني أغرق في ضباب كثيف من القلق. لم يحسم موته أي شيء؛ لم أشعر بالسعادة المعجزة. بل أثار في نفسي مشاعر مؤلمة، وإدراكًا قاسيًا أن المزيد من الدماء المسفوكة لن تعزيني أبدًا عن فقدان طفلي.

وفي هذا الوقت، اكتفيتُ بدفن مشاعري عميقًا في حفرة وهمية على السهوب المتجمدة، كما تدفن الثعالب الطعام الفائض تحت الثلج. لقد مات بكتو نيكان. وفي خيالي، أضفتُ كومة كبيرة من الحجارة فوقه لأطمئن أكثر.

كان بوهاي محظوظًا بالحصول على تذاكر سفر، إذ وجد سفينة ستُبحر إلى داليان غدًا. كانت السفينة شبه فارغة، مما شجع تشين ولوو، بدافع من قرار بوهاي، على شراء تذاكرهم أيضًا. وبما أن جميعهم بدوا أكثر شتاتًا واضطرابًا من أن يتمكنوا من حزم أمتعتهم بأنفسهم، ساعدتهم سيدتي. مما يعني أنني كُلفتُ بالمساعدة أيضًا.

اقتربتُ من غرفهم وأنا أحمل كومة من الملابس المطوية، ولمحت لوو وهو يقرع أصابعه بعبوس على حافة النافذة ويحدق خارجًا. قال: «بما أن تاكيدا قد حول المال، ربما ينبغي لنا فعلًا أن نذهب إلى فورموزا ونفتتح مصنع السكر».

رد تشين: «وأنا كذلك لا أريد العودة إلى المنزل. أنت تعرف طباع والدي. أتمنى لو كنا تحرينا أكثر عندما سمعنا أن الطالب انتحر بالقرب من فيلا زوج عمتي. لربما اكتشفنا أسرار بكتو في وقت أبكر».

قال لوو محاولًا التخفيف من حدة الوضع: «أنت تبالغ. كيف كنا سنعرف؟» عند اقترابي، صمت كلاهما فجأة. وبينما كنت أساعد تشين في حزم حقيبته، كان يتنقل بعصبية، ويشكو من أنني لا أعرف كيفية التعامل مع الكتب، بل قام بإزالة مجموعة منها ليعيد ترتيبها بنفسه. اضطرتُ إلى كبح إجابته غاضبة بأنني ذات مرة ساعدت راهبًا على إخفاء مخطوطات بوذية ثمينة في كهف بالقرب من دونهوانغ (وربما لا تزال مكانها حتى اليوم). أما لوو، فقد بدا مضطربًا للغاية أيضًا، رغم أنني لم أستطع تحديد ما إذا كان قلقًا من تشين أو مني أو من تحقيق الشرطة.

في اليوم التالي، استيقظنا باكراً على عجل وأُمنّا جميع الأمتعة، ثم غادرنا. على عكس وصولنا الذي كان مليئًا بالأمل والمغامرة، كانت مغادرتنا مذلّة.

فالآن، بدت على الشباب آثار القلق وهم يتلفتون إلى كل وجه غريب خوفاً من الاعتقال. كان الجو عاصفاً ودافئاً، مع سحبٍ من حبوب اللقاح التي غطت ملابسنا بلون أصفر باهت.

شعرتُ بحزنٍ أكبر مما توقعتُ عند مغادرة موجي. رائحة البحر، والسحب البيضاء الرقيقة، وضوء الشمس الذي يتخلل أشجار الصنوبر الداكنة قرب المنزل، كلها استحضرت في نفسي مشاعر تجاه هذه الأرض المليئة بالزلازل. أصابني الحنين، فقد توقعتُ رحلةً أطول إلى طوكيو مع سيدتي، واجتمعت خيبة الأمل والحزن في صدري.

أخبرتُ نفسي أن هذا لا علاقة له بكورو. لقد ودَّعتُ ذلك الجزء من حياتي من قبل، ولا ينبغي أن أكون عاطفية. طوال اليوم الذي كنا نستعد فيه للمغادرة، لم يأتِ كورو ولو لمرة واحدة. مرَّت سيدتي بجانب باب مكتبه المغلق عدة مرات، وأعربت بخجل عن رغبتها في شكره.

قال بوهاي: «لقد استدعي للعمل. سأكتب له رسالة».

قالت: «كنت أودُّ رؤيته للمرة الأخيرة».

- جدتي، لماذا تحبين كورو ساكي هكذا؟

- يذكرني بطفولتي. كما أنني أشعر بالاطمئنان عندما يكون بالقرب.

كرهتُ أن أعترف بذلك، لكنني شعرتُ أيضاً بالتحسن عندما علمتُ أن كورو كان موجوداً تلك الليلة التي جاءت فيها الشرطة. ومع ذلك، كان جزءٌ آخر مني، ذلك الجزء المظلم اليائس الذي أحاول دفنه بصعوبة، يخشى ما قد يكون فعله. هل خرج في تلك الليلة الباردة المرصعة بالنجوم بعد حديثنا عبر نافذة الحمام، وقتل رجلاً نيابة عني؟

دارت أفكاري حول نُزُل مزدحم بجدار يسهل تسلقه. ويدان ملطختان بالدماء. وصوت المضخة المائية في الفناء الخلفي في ساعة الفجر الهادئة.

إن كان قد فعلها حقاً، فهذا لن يسعدني على الإطلاق.

تفاقت نوبة التسمم الغذائي التي عانى منها باو أشبه بانتقام، كما لو كانت أمعاؤه تعاقبه على إهمالها. بدا أن التجول في مدينة غريبة ومقابلة المصورين والعشيقات كان خيارًا خاطئًا. كما أن أمعاؤه قرقرت مع كل انقباض مؤلم بلا هوادة. وهاجمته وخزات خفيفة حتى ألزمته الفراش.

وبينما كان يغفو بنصف وعي، رأى باو في أحلامه الثعالب؛ ثعلب أبيض وآخر أسود. ظهرا فوق قمة تلة عشبية، يسيران جنبًا إلى جنب. لهما خُطمان سوداوان: الثعلبة البيضاء ثعلبة بيضاء بحق، وليست مهقاء. توقف الثعلبان لينظرا إليه. للثعلبة البيضاء عينان داكنتان وطبيعة مرحة جذابة. فكر باو: **ثعلبة جميلة**. أما الثعلب الأسود فكان ذكرًا أكبر حجمًا، طرفٌ ذيله أبيض وله نظرة غامضة.

شعر باو أنه يشاهد حدثًا من الماضي. ربما لأن الضوء ملأ السماء المفتوحة، ضوء الشمس الساطع فوق العشب النضر، وهو ضوء لم تره عيناه التي غشاها الدهر منذ سنوات. لم يسبق لباو أن ذهب إلى مكان بري وبعيد كهذا في حياته، ومع ذلك كان المشهد حيًا لدرجة جعلته يرغب في البكاء. ومن بعيد، اقتربت نقطة صغيرة في بحر العشب المتمايل. فاضطرب الثعلبان، وانتصب فراء الذكر الأسود وراء عنقه. ثم رآه باو. ثعلب ثالث، أبيض كالثعلبة لكنه أكبر حجمًا، بعينين كهرمانيتين.

«ثلاثة ثعالب!» بالكاد صدق باو ما يرى. حتى في حلمه، بدا المشهد غريبًا، وتساءل عما إذا كان هذا علامة على حظ أو شيء أكثر شؤمًا.

خرج الثعلب الثالث -الثعلب الذكر آخر- بخطوات ثابتة جذرة. بدأت الثعالب بالدوران حول بعضها البعض. أكانوا يلعبون، أم يتشاورون، أم يستعدون للصيد؟ ثم وكأنهم اتخذوا قرارهم فجأة، هرولت الثعالب الثلاثة بعيدًا عبر العشب. تفرقت الثعالب؛ اثنان ذهبا في اتجاه، والثالث ذهب في

اتجاه آخر. أراد باو أن يعرف أي ثعلب ذهب مع الآخر، لكن استعصى عليه معرفة ذلك وسط الأعشاب الطويلة.

انفتحت عينا باو فجأة، وعاد بوعيه إلى سرير النُّزْل في داليان. كان الظلام قد حل، وبعد أن نضح وجهه في المغسلة، عاد إلى الفراش. كان حلمه بالثعالب حيًّا لدرجة أنه تمنى العودة إلى ذلك الزمن، عندما كان هو نفسه طفلًا. إنها فكرة سخيفة بالطبع - فمن يعلم ما إذا كانت ثلاثة ثعالب قد التقت فعلاً في السهول قبل ستين عامًا - لكن الحلم بدا حقيقيًا بما يكفي في عتمة غرفته.

كانت آلام معدة باو قد هدأت. إلا أن النوم جافاه، فارتدى ملابسه ونزل إلى الطابق السفلي. في هذا الوقت من الليل، لم يكن هناك موظف استقبال. دفع الباب الأمامي بشعور طفيف من تجاوز الحدود. كان الشارع خاليًا، يتميز بذلك الهدوء الذي لا يحمله سوى منتصف الليل. اندفع الهواء البارد حول كاحليه العاريين، اللذين حُشرا على عجل في حذاء من اللباد. بينما أطلَّ برأسه ليتأمل السماء، فرأى البدر معتمًا خلف قطع السحب المتسارعة.

تحرك ظل في الشارع المظلم؛ ورأى حيوانًا يشتمُّ الأرض. أكبر من أن يكون قطّة، وظن باو أنه قد يكون كلبًا ضالًا. أو ربما كان ثعلبًا. تدخل الثعالب الأرياف بحثًا عن الطعام وتحفر أوكارها تحت منازل البشر. تساءل باو ما إذا قُبِلت قطعة الإوز المطهية بالبخار حيث تركها تحت شجيرة في الحديقة قربانًا للإله الثعلب. ثم جمع يديه معًا وتمتم دعاءً سريعًا: «أرجوك، دعني أنهي الأمور على خير».

خرج باو إلى الشارع يشدُّ سترته المبطنة حوله. واستنشق الهواء بحدة فشعر بالألم المعتاد في صدره. لم يختفِ هذا الألم. بل بدا أنه ازداد حدة، وكأن التمزق في رثته اليسرى قد اتَّسع. لم يكن هناك أحد في الجوار، ولا حتى حارس ليلي. ومع تأقلم عينيه مع الظلام، اكتسب الشارع بأكمله وضوحًا، كما لو أن الظلال وضوء القمر يتحركان في إعادة ترتيب غامضة.

يُقال إن الأرواح يمكن رؤيتها في ليلة كهذه، ويمكن عقد صفقات مع الأشباح. كانت مربيته القديمة تحذره دائماً عندما تهب الرياح فتقول: «لا تخرج ليلاً»، موجهة نظرها إلى باو وليس إلى شقيقه الأكبر. في ذلك الوقت، كان يتجاهلها، ظناً منه أنها تبالغه في تدليله. حرّكت الرياح أقمشة الخيام واللافتات في الشارع، وتراقصت الظلال تحت ضوء القمر المرتعش، وحين همّ باو بالعودة إلى نُزله تجمّد في مكانه فجأة. لم يعد لديه ظل.

كان صباح يوم مغادرتنا من مدينة موجي مشرقاً وعاصفاً. قد تقدّم الربيع بشكل ملحوظ خلال الفترة القصيرة التي قضيناها هناك، وبرزت براعم الفاوانيا كعقد واعدة. بدا على مدبرة المنزل ارتياح واضح لرحيلنا، بينما أظهر الخادم الشاب خيبة أمل؛ فربما لم يشهد المنزل القديم هذا القدر من الضيوف منذ سنوات.

كانت سيدتي حزينة، لا يمكن وصف نظرتها البائسة نحو المنزل بأي طريقة أخرى ونحن نغادر على الطريق الأبيض المغبر بعربة الريكشا. قالت بهدوء: «كنتُ أتمنى أن أقول له وداعاً».

رغم مشاعري المتناقضة، أنا أيضاً كنت أبحث عن كورو، لكن لم أره هو وشيرو في أي مكان. كتب الشبان رسائل شكر ووداع مليئة بالآداب، دون ذكر أنهم يهربون من تحقيق الشرطة المحتمل. كانوا متوترين ولم يستطيعوا حتى انتظار الإذن بالصعود إلى السفينة، فاندفعوا بمجرد أن فتحت الأبواب. لكن سيدتي وحدها تباطأت. توليت أمر حقائبها، وحين عدتُ على طول الممر المنزلق، رأيت هيئتها الصغيرة لا تزال واقفة مكانها. بدت كئيبة، رغم أن الشمس كانت تتلألأ فوق الأمواج المنعكسة على المستودعات المطلية في الميناء. وبينما كنت أراقبها رفعت يدها لتلوح لشخص ما. كان شيرو ويتبعه كورو والسيدة يوكيكو، بلا شك ليودعوه.

قالت سيدتي: «لم أكن أعلم أنك ستنضم إلينا، يا شيراكوا!» أجاب شيرو بابتسامته الجذابة المعوّجة: «ظننتُ أنني سأضطر للبقاء لإنهاء بعض الأعمال، لكن يبدو أن كل شيء رُتب بشكل جيد».

لا بد أن شيرو قد أدرك أنه بالغ في الأمر مع الشرطة، وكان من الأفضل له أن يختفي قبل أن يعيدوا النظر. لكنني كنت أنظر إلى كورو. في ضوء الشمس

الساطع، بدا مرهقًا للغاية. لم أكن أعلم أين كان، لكن كورو ليس بالذي يتجول عبثًا. عندما رأى سيدتي، منحها ابتسامة باهتة ومد يده لها. أمسكت يده بحماس وقالت: «أنا سعيدة برؤيتك! شعرت بأنه من الوقاحة أن نغادر دون وداع».

في تلك اللحظة، تمنيت بلا عقلانية أن أكون أنا الشخص الذي يقف مكانها، ممسكة بيد كورو. كان الألم يخترقني كسهم، وقد أثار تساؤلي: كم مرة أنقذتني هذا اليد الثابتة في الماضي؟ ذات مرة أنقذني من السقوط من بارجة في بحيرة هانغتشو الغربية. لو أخبرتني قبل شهر أنني سألتقي بكورو مرة أخرى وسأتوق إلى لمسه، لضحكت في وجهك. لكني الآن، كنت ممثلة بمشاعر مضطربة. قبضت يدي وتمنيت أيضًا أن أودعه بشكل لائق، لكن ذلك لم يكن ممكنًا. بقيت صامتة ومتوارية على بعد خطوات قليلة في ظل السفينة.

قال كورو: «وجدتُ رسالتك على مكتبي عندما عدت. قالت لي مدبرة المنزل إنكم جميعًا قد حجزتم في هذه السفينة».

- أعتذر عن رحيلنا المفاجئ.

- لا حاجة للاعتذار. في الواقع، لقد قررت الانضمام إليكم اليوم.

أشرق وجه سيدتي كأنها فازت بجائزة ثمينة في مباراة بولو. لاحظ شيرو ذلك، ورفع حاجبه مازحًا: «يبدو أنك سعيدة برؤية كوروساكي أكثر مني!»

«أوه لا، ليس كذلك»، احتجت وهي تبتسم. وبينما كانوا يضحكون ويتبادلون المجاملات، لاحظت شخصًا آخر يخنقه الضيق الشديد. بالكاد استطاعت السيدة يوكيكو، بوجهها الشاحب وعينيها المتورمتين، كبح دموعها. كانت تقف خلف كورو قليلًا، كما تفعل النساء مع الرجال الذين يحبونهم. والآن رأيت يدها الرقيقة تمسك كُم قميصه. أحنى رأسه نحوها، ولم أستطع رؤية وجهه، لكن كلماتها وصلتني بوضوح مع الرياح، جلية متوسلة.

- ... هل هذا بسبب حديثك مع جدي البارحة؟

شعرت سيدتي وشيرو بالوضع المخرج فابتعدا.

أجاب كورو: «لقد أعطيتُه جوابي».

قالت في ألم: «كلا!» ثم تمالكت نفسها وأضافت: «هل يجب عليك الذهاب؟ جدي كان محبطًا، وأنا أيضًا...»

- أنا آسف جدًا. فكرت في الأمر كثيرًا، لكنها دعوة لا يمكنني قبولها.
قالت بيأس خافت: «أنت لم تفكر بالأمر. لم تستغرق وقتًا طويلاً. لقد
قررت فورًا عندما جاءوا».

وبكلمة «جاؤوا» كانت تقصدنا؛ شيرو وكل هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا
من الصين. شعرت بحزن شديد تجاهها، ومع ذلك كنت مضطربة. ليس
من السهل مشاهدة القلوب تُكسر؛ كانت تحاول جاهدة كبح دموعها، لكنها
انهمرت بصمت من عينيها. فكَرَّت: **إنها تحبه حقًا**. واعتصر الألم قلبي.

قالت أخيرًا: «هَلَّا كتبت لي؟ فقط لأعلم أنك بخير. عِدني».

وبعد صمت طويل، أومأ وقال: «نعم».

«أعلم أنك ستحافظ على وعدك». ثم، وكأنها لم تستطع منع نفسها،
وضعت رأسها على صدره. شعرت أن مراقبتهما كانت خطأ، كأني لص.
فاستدرت وصعدت السفينة بصمت.

اشترى بوهاي التذاكر بسرعة كبيرة لدرجة أننا جميعًا وجدنا أنفسنا في
مقصورات من الدرجة الثانية. إما ذلك وإما أن مقصورات الدرجة الثالثة كانت
ممتلئة، ولكنني لم أشتك. كان عليّ أن أشارك سيدتي في مقصورة واحدة،
بينما حصل بوهاي على مقصورة منفردة، وكذلك تشين ولوو، كل منهما في
مقصورة خاصة. خيمت أجواء التوتر على الشُّبان الثلاثة منذ مقتل بكتو.
أما شيرو وكورو، فلم أعلم أين كانا؛ كانت أفكارني مشوشة بينما أجلس على
سريري الضيق أرتب ملابس سيدتي التي قالت: «من الجيد أنهما سينضمامان
إلينا. سيشعر بوهاي بالارتياح على الأرجح».

لم أوافقها تمامًا. فحين انضم شيرو إلى رفقتنا على متن السفينة، لاحظتُ
لمحة من الذعر في عيني بوهاي. هل كان يحاول أن يهرب من تأثير شيرو؟
يحدث أحيانًا أن يشكُّ الإنسان في أنه قد خُدع من قِبَل الثعالب. وهذا ما كان
مداد كل تلك القصص عن أن يستيقظ المرء ليجد نفسه عاريًا تغطيه البراغيث
ويأكل اللحم الفاسد في قبر مهجور. بالطبع، هذه الحالة نادرة الحدوث،
ولكنها مجاز جيد لوصف شعور الناس حين يكتشفون أنهم قد خُدعوا. ولهذا
السبب، يتجنب الثعلب الحكيم التأثير المفرط على الآخرين.

أما شيرو، فقد بدا متهورًا تمامًا. لم أستبعد أن يكون قد قتل بكتو. نعم، كان ذلك الخيار الأكثر ترجيحًا، كما أفنعت نفسي. أفضل بكثير من الاحتمالات الأخرى.

هذه السفينة لم تكن حديثة أو فاخرة مثل سفينة شينانومارو. فمقصوراتها ضيقة ومظلمة، وأغطية الأسرة رطبة، والنوافذ المستديرة ترفض أن تفتح. وفوق هذا، عاد إليّ دوار البحر مرة أخرى.

قالت سيدتي بقلق: «من الأفضل أن تستلقي. سأجلب لك بعض الطعام». ذكرت نفسي بأن الرحلة قصيرة. مجرد رحلة ليلية. ومع ذلك، اجتاحتني موجة من الغثيان، وازدادت سوءًا بسبب رائحة العفن في المقصورات. حاولت فتح النافذة مرة أخرى، ونجحت في فتحها بما يكفي لإخراج رأسي. وبينما أغلقت عينايا متمنية أن تتوقف أمواج البحر عن التأرجح، سمعت أصواتًا قادمة من النافذة المجاورة.

كانت تلك مقصورة بوهاي. ومن الصوت، بدا أن تشين ولوو كانا معه. لم يكن من الصعب سماعهم لأنهم كانوا في خضم جدال.

قال لوو: «ماذا عن خططنا لبناء مجتمع أفضل؟ إذا غادرت، فكيف نعرف أنك لن تبلغ عنا؟»

وأضاف تشين بغضب: «ربما أنت من أبلغ عنا سرًا لتحصل على حصانة لنفسك!»

قال بوهاي بقلق متزايد: «أبدًا! بالإضافة إلى أنني لست الشخص الذي يتصرف بغرابة بشأن مقتل بكتو. ألا تجدون أنه من الغريب أن يموت بهذه السهولة؟»

ثم قال تشين: «ذهبت لرؤيته قبل يوم من موته. كان عدائيًا، وسألني إن كنتُ أرسلتُ أحدًا وراءه. على ما يبدو، في صباح ذلك اليوم نفسه، جاءت امرأة من منزل عمي وانغ لتسأله عن صور خاصة».

تجمدت أدناي في الريح البحرية. كانت المرأة المشار إليها هي أنا بالطبع، إلا أنهم لم يستنتجوا ذلك بعد. لكن ظهوري أثار قلق بكتو لأسباب لم أفهمها بالكامل في ذلك الوقت. وتذكرت حين قالت الخادمة حينما قاطعتنا إنه كان لديه زائر آخر.

أضاف تشين: «أخبرته أنني لا أعلم عمّا يتحدث. قال بكتو إنه إذا لم ندفع، فإنه ما زال يحتفظ بالنسخة السلبية⁽¹⁾ من الصورة، ألن يكون من العار إذا بدأت النسخ في الانتشار؟ ثم أظهر لي صورة تذكارية التقطناها حين كتبنا الشعار ضد الحكومة الإمبراطورية. كلنا موجودون فيها».

ساد الصمت. صمت غاضب ملأ المقصورة. شدت أذني أكثر للاستماع. قال تشين بمرارة: «لا تقلقوا. اشتريتها منه. دفعت له بالفضة في اليوم الذي سبق موته».

قال بوهاي: «بما في ذلك النسخة السلبية؟»

- نعم. ولكن لا يمكنك أن تتركنا هكذا.

صاح بوهاي بغضب: «هل تهددني؟ ظننت أننا أصدقاء!»

- وأنا أيضًا، إلى أن خططت للهرب وحدك!

- لنكن صديقين، بكتو اتصل بكل واحد منا، طالبًا المزيد من المال عندما وصل إلى موجي، أليس كذلك؟ ولكن على عكسك، لم أذهب لرؤيته.

ثم بدؤوا بالصراخ على بعضهم. لم أتمكن من سماع المزيد لأن باب مقصورتي انفتح فجأة، ودخلت سيدتي. بالكاد كان لدي الوقت لسحب رأسي من النافذة واستعادة رباطة جأشي.

قالت سيدتي: «لقد نسيت وشاحي». ومن تعبيرها القلق، كان من الواضح أنها سمعت الجدل الدائر في المقصورة المجاورة: «كنت أعزم أن أطلب من بوهاي مرافقتي، لكنه يبدو مشغولاً».

«مشغولاً» هو تعبير لطيف لوصف الوضع. انتهى الجدل المجاور بصفق الباب وصوت خطوات غاضبة تبتعد.

قالت: «من الأفضل أن أذهب لأطمئن عليه». لكنها جلست على سريرها، تنظر إلى يديها. كانت الشمس تسطع بقوة عبر النافذة المستديرة وقالت: «ظلك واضح جدًا».

(1) النسخة السلبية (negative): الشريط أو الصورة الأصلية الملتقطة على الفيلم، التي تظهر الألوان والعتمة معكوسة، وتُستخدم لإنتاج نسخ مطبوعة من الصورة. (المترجم)

نظرتُ إلى قدميَّ حيث كان الظل يتجمع بشكل داكن: «هل ما زال بوهاي قلقًا بشأن عديمي الظلال؟»

«هذا ما جعله ينضم إلى هذه المغامرة الفاشلة منذ البداية». وبدت كأنها أصبحت أكبر سنًا وأصغر حجمًا: «كان دائمًا قلقًا، وزاد الأمر سوءًا بعد أن اكتشف أن الابن الأكبر في هذه العائلة يموت صغيرًا. قرر ترك داليان والدراسة في اليابان. ظننت أنها فكرة جيدة. خاصة عندما بدأ يتحدث العام الماضي عن رؤيته لأشياء غريبة». وتوقفت لبرهة، ثم قالت: «عندما جئت إلي أول مرة، قلت إنك لا تخافين من الأشباح».

أومأت برأسي. الثعالب لا تخاف الأشباح؛ بل بعضنا يشك في وجودها، خاصة وأن كثيرًا من تصرفاتنا تُحمل على الوجه الخطأ وتُعزى إلى عمل الأشباح. لكن الخوف من الأشباح يمكن أن يدفع الناس إلى أقصى حدودهم: ماذا رأى في الفترة الأخيرة؟»

- بائعًا متجولًا في موجي. يقول بوهاي إنه من الصعب تمييزهم عن البشر العاديين، لكنه يشعر بالبرد والغثيان في حضورهم. يعتقد أنه لن يعيش طويلًا، ولهذا انخرط في الثورة.

في قرارة نفسي، لطالما ارتبتُ في أن بوهاي كان عرضة لكل أنواع الأوهام العصبية. ولا شك أن شيرو استغل ذلك ليحصل منه على المزيد من المال. كانت سيدتي تحرق إلى الحائط وهي تسألني: «آه سان، هل تعتقد أن قتل شبح أمر خاطئ؟»

- أليسوا موتى بالفعل؟

- يقول بوهاي إنه إذا جاء إليه عديمو الظلال، فسوف يطعنهم فورًا. أنا قلقة جدًا عليه. من الأفضل أن نعود إلى الوطن في أسرع وقت.

أعاد الحديث عن الطعن إلى ذهني موت يكتو. وتساءلتُ عما إذا كانت سيدتي تفكر في المخاوف ذاتها. أدهشني حقًا عدد من يملكون دافعًا لقتل يكتو نيكان لدرجة أنني أُصبتُ بالدوار. خرجت إلى سطح السفينة بعد أن غادرت سيدتي لرؤية بوهاي. صفى الهواء المالح المنعش ذهني وأزال عني دوار البحر. لم يكن هناك الكثير من الركاب على هذه السفينة، لذا رأيت تشين

قبل أن يراني. كان يمسك بالحاجز بيد واحدة، وعندما اقترب أدركت أنه كان يشرب.

قلت: «ما زال الوقت مبكرًا على أن تكون قد شربت الكثير».

ابتسم بتكلف، لكنه بدا بائسًا: «لم يعد لدي أي أصدقاء، فما الفرق؟»

«لماذا لم يعد لديك أصدقاء؟»، مع أنني كنت أعرف السبب من استراقي السم.

قال: «يُفترض أن يكون لوو وبوهاي ممتنين لي. أنا من اشتري تلك الصورة من بكتو. واشتريت النسخة السلبية أيضًا. يجب أن يشكراني! بدلًا من اتهامي بالابتزاز ويطعناني في الظهر...» وتلاشى صوته وهو يميل بيأس فوق الحاجز.

- كن حذرًا، قد تسقط في البحر.

- وإذا سقطت، هل ستسقطين معي؟

هناك تقليد لانتحار العشاق، حيث يُغرقون أنفسهم عادةً بربط أذرعهم وأرجلهم معًا، وإثقال ملابسهم بالحجارة. لم تكن لدي أي نية لمرافقة تشين إلى قبر مائي، لكنه كان مُلحًا، وأمسك بيدي، وبدأ يمرر أصابعه على راحة يدي.

قال: «لم نلتق كما تواعدنا في المرة السابقة». مُشيرًا إلى اللقاء الذي أفسده كورو على التل: «من المحتمل ألا أراك مجددًا في داليان. والدي صارم جدًا. هلاً أتيتي إلى مقصورتَي الليلة؟»

«لا». كنت قد انتهيت من تشين. وعليه أن يواجه المشاكل التي ورط بها نفسه بدلًا من أن يطلب المواساة من شخص آخر. قاومت الرغبة في صفعه. تراخت ملامح وجهه، وبدأ متذمرًا كما يفعل الرجال عندما يُرفضون. قال: «لا تنظري إلي هكذا. كنت مستعدة تمامًا لاقتراح لقاء في الأدغال الليلة الماضية. أم أنك عاهرة شيراكوا فقط؟»

هذه المرة، صفعته. صفعة قوية لدرجة أن رأسه ارتد للخلف، وكاد يسقط، لكنه أمسك بالحاجز ليتوازن. ألمتني يدي من شدة الصفعة. لقد فعلتها حقًا هذه المرة.

اندفع تشين وأمسك بي من حلقي. لا أعرف لماذا يفعل الرجال ذلك. يبدو أنها غريزة تدفعهم لخنق النساء. بدأت رؤيتي تتشوش، ورفرفت ذراعي عبتاً. ضغط على عنقي بشدة، أدركتُ بخفوت أن لساني يتورم، ويملاً فمي. إذًا، هكذا سأموت، مختنقة في نوبة غضب وسط المحيط.

اختفى الضغط فجأة؛ إذ أطلق سراحى، وهو ينظر إليّ برعب. أو ربما لأن أحدهم قيده. ارتفع الصراخ من حناجر بعضهم، بمن فيهم بوهاي وسيدتي. لا بد أنهم صعدوا إلى السطح في الوقت المناسب. سقطتُ على ركبتى فوق الألواح المبتلة بينما كنت أسعل وأتقيأ.

قال تشين: «لم أقصد ذلك. الشيطان تلبسني عبر عينيها».

ونظر إلى يديه المرتعشتين بذهول، بينما كان لوو وبوهاي يصرخان عليه. بكت سيدتي وهي تساعدني على الوقوف: «هل أنت بخير؟»

أومأت برأسي وأنا ألتقط أنفاسي. لقد باغتني الهجوم المفاجئ. وعندما تمكنتُ من التحدث أخيراً، كان صوتي مبحوحاً ومتحشرجاً: «أين كورو... أعني كوروساكي؟»

قالت: «لا أعرف. لم أرَ شيراكوا أيضاً».

تنهدت بارتياح. لم يكن أي منهما موجوداً. لقد كنتُ متهورة للغاية وأفرطتُ باتباع عواطفى. عادةً، أكون حذرة في تجنب المواجهات الجسدية، إلا أنني لم أعلم ما الذي أصابني اليوم. ولم يكن تشين يعرف أيضاً على ما يبدو. تحول لون وجهه إلى الأحمر القاني كلحم الخيل. وألقى برأسه إلى الأرض، وتمتم باعتذارات قبل أن يغادر على عجل. تبادل الجميع نظرات القلق وهم غارقون في الكآبة. فالتحقيقات، وانسحابنا السريع، والشكوك التي كانت تتزايد بين الأصدقاء الثلاثة قد رفعت التوتر إلى حدّ الغليان.

بدت سيدتي قلقة جداً، جعلتني أستلقي في مقصورتنا بينما بلّلت منديلاً بالماء البارد لتضعه على رقبتى. يا للمسكينة، لم تستطع إخفاء قلقها على الإطلاق. قالت مراراً: «لماذا فعل مثل هذا؟ سأشكوه لعائلته!» ومع رجفة يديها، خشيتُ أن تفقد وعيها أو تصاب بسكتة دماغية.

عندما أدارت ظهرها، تحسستُ حلقي بعناية، وتفحصته باستخدام مرآة يدوية صغيرة. كان البلع مؤلماً، رغم أنني كنت محظوظة حيث أُبعد عني في اللحظة المناسبة. لو استمر لفترة أطول، لكان قد ألحق بي إصابة بالغة، رغم أنني رفعت ذقني وكتفَيَّ غريزياً لأحمي نفسي. فقد كانت الكدمات على حلقي إلى جانب آثار عضّة شيرو التي كانت تتلاشى، بمثابة تحذير بأنني أخطر أكثر مما ينبغي.

ذهبنا جميعاً إلى الفراش مبكراً، كل واحد في مقصورته. ورغم دوار البحر، نمت كالهيئة. لذا، بلغت الشمس كبد السماء واقتربت السفينة من داليان، قبل أن أدرك أن جلاً كبيراً قد وقع. لقد اختفى تشين في الليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يتذكر باو كيف عاد إلى سريريه تلك الليلة. رأى نفسه واقفاً في الشارع، يحدق إلى الأرض. كانت ليلة سوداء عاصفة، حيث أضاء القمر المكتمل الغيوم المندفعة ورقصت الأشعة القماشية بوحشية. كل شيء له ظل. كل شيء عدا باو.

لم يكن تحت قدميه سوى ضوء القمر. حرّك باو وزنه من قدم إلى أخرى، وحرّك يديه بلا جدوى. لا ظل له. كأنه غير موجود، أو كأنه شبح يمر عبره الضوء الفضي. سار باو في الشارع المهجور باحثاً عن ظله، لكن مهما وقف أو تحرك، لا ظل له. ما الذي يعنيه هذا؟ فجأة، شعر بألم في صدره، ذلك الألم في رثته الذي تفاقم في الآونة الأخيرة وأصبح نذير شؤم.

لا بد أنني أحلم. أو ربما أصابني الجنون. هذا دليل قاطع على وجود الثعالب. تذكر باو عرضه المقدم من الإوز المشوي وشعر بنوبة من الندم. ما الذي طلبه في دعائه مرة أخرى؟ في هذه الساعة المتأخرة، ومع هذا الجو الغريب الذي يعصف بثيابه، لم يعد يستطيع التفكير بوضوح. **عليّ أن أذهب للنوم.**

وكذلك فعل.

حلّ الصباح. وعندما فتح عينيه، بقي مستلقياً للحظات دون حراك، شعر وكأن حدثاً جليلاً قد وقع الليلة الماضية. أشبه بزلزال أو حريق أتى على مدينة بأكملها. شيء ما تغيّر بداخله، شيء لا يراه الآخرون، لكنه تسلل إلى كل عرق من جسده. تخيّل أن دمه قد تحوّل إلى لون أرجواني داكن، أو ربما أخضر. إنه ذلك النوع من التغيير الذي يشعر به المرء في أعماقه.

بحذر، أخرج يده من تحت الغطاء القطني الرقيق حيث انسكب ضوء الشمس. كان لديه ظل، ظلٌ باهت على شكل يده. شعر باو بالارتياح لرؤيته.

كانت الليلة الماضية مجرد حلم، أو ربما هلوسة سببها التسمم الغذائي وكثرة التفكير في الثعالب. لم يرغب باو في التفكير في مدى خفوت ظل يده مقارنة باليوم السابق. كان الظل أرجوانياً باهتاً يتجمع بخفوت على بطنه. هل كان الحلم تحذيراً بأن وقته يقترب من النهاية؟ أم أن هناك تدهوراً داخلياً يرفض جسده مواجهته؟ أقنع نفسه بأنها مجرد خدعة بصرية، رغم أن باقي الظلال في الغرفة كانت أكثر وضوحاً وكثافة.

في المرأة المبقعة فوق الحوض المطلي، ظهر انعكاسه كما هو. وبدا الشارع في الخارج عادياً في وضوح النهار؛ رأى بغلاً مربوطاً إلى عربة، وكلباً يعبر الطريق فأقنع نفسه أنه قد كان يحلم فحسب.

توجه باو إلى متجر الأدوية الذي حصل منه على الدواء، والذي يبدو أن المرأة الغامضة قد تواصلت فيه مع السيد الشاب وجدته. كان المتجر مشهوراً بمدخله الكبير الفخم، بينما كان الجزء الخلفي مخصصاً لسكن العائلة. وبعد رؤيته للجدار العالي الذي أحاط بالمكان، قدّر باو أن العقار واسع وكبير.

في الداخل، كانت رائحة الأعشاب المرة عالقة في الهواء، وغلت الأواني الفخارية على مواقد الفحم. رأى باو العديد من المناضد المحاطة بأخشاب الورد الداكنة، وتزيّن الطابق العلوي بالفوانيس الحمراء المتربة. توجه باو نحو أحد الموظفين الذي كان منشغلاً بحساباته على آلة العدّ التقليدية وسأله عن السيد الشاب. فأجابه: «السيد الشاب بوهاي سافر إلى اليابان للدراسة».

- وماذا عن جدّته؟

- السيدة العجوز؟ لماذا تسأل عنها؟

تردّد باو للحظة، محاولاً إيجاد مبرر مناسب. ثم قال: «إنها معرفة قديمة لي من موكلين».

لدهشته، لم يشعر بتلك الوخزة المعتادة التي ترافق الأكاذيب. هل غير ما حدث الليلة الماضية شيئاً في قدرته على كشف الكذب؟ أجابه الموظف الذي أساء تفسير نظرة المفاجأة على وجه باو، قائلاً: «السيدة العجوز ليست هنا أيضاً. هل أنت صديق زوجها الراحل؟»

ابتسم باو وقال: «شيء من هذا القبيل». لكن هذه المرة، شعر بوخزة الكذب المعتادة.

- سيكون من المؤسف أنها لن تتمكن من رؤيتك اليوم، لكننا تلقينا للتو برقية غير متوقعة. سيعودون جميعًا اليوم. إذا عدت غدًا، فستتمكن من رؤيتها.

قال باو: «هذا خبر جيد. هل أحضرت خادمتها معها؟»

أجاب الموظف: «أتعني الفتاة من تشيتشيهار، آه سان؟»

قال باو وهو يظهر الصورة بهدوء: «عائلتها تسأل عنها»، متظاهرًا بأنه مجرد رجل عجوز يؤدي مهمة صغيرة: «لقد أرسلوا هذه الصورة». كانت تلك كذبة أخرى، وذكّرتة الوحزة التي شعر بها على لسانه بذلك.

قال الموظف وقد احمرَّ وجهه: «نعم، هذه هي. كنتُ أظن أنها يتيمة. هل يمكنني الاحتفاظ بهذه الصورة لأعطيها لها عندما تعود؟»

أجاب باو: «للأسف، لا يمكنني تركها معك، لكن سأعود مرة أخرى».

في هذه الأثناء، قرر باو الذهاب إلى الميناء ليرى ما إذا كان بإمكانه رؤيتها عند وصول السفينة من اليابان. لن يكون من الصعب معرفة السفن القادمة اليوم.

اختفى تشين في الليل. لم يبدُ أن فراشه قد استُخدم، إذ كانت البطانية الرفيعة وملاءات السفينة لا تزال مطوية بعناية كما أعدها المضيف. أما ملابسه فما زالت في صندوق الباخرة، رغم أن الصندوق نفسه لم يكن مقفلاً.

أتيت برفقة سيدتي بناءً على تنبيه بوهاي. كنا قريبين من داليان، بما يكفي لتلوح لنا اليايسة كبقعة داكنة في الأفق. لم يرَ أحدٌ تشين منذ عشاء الليلة الماضية؛ كان متجهماً وفي حالة مزاجية سيئة، وظنوا أنه قد نام حتى وقت متأخر هذا الصباح. ومع تأخر الوقت، خرج لولو للبحث عنه. وجد المقصورة مفتوحة، لكن لم يكن هناك أثر له.

بدأت عملية البحث على متن السفينة بأكملها رغم أنهم طمأنوا أنفسهم بأنه ربما يكون نائماً على أحد مقاعد سطح السفينة. بعد أن غادر الجميع، بقيتُ في مقصورته. لفتتُ وشاحاً قطنياً ناعماً حول عنقي، إذ كان صوتي مبحوحاً بسبب محاولة خنقه لي. لكنني كنت محظوظة؛ إذ أمسك تشين بي لفترة وجيزة فقط قبل أن يُسحب بعيداً. لو كان يكتو مكانه، لربما كسر عنقي. لكنَّ يكتو قد قُتل، طُعن في موجي. أما تشين، فلم يعد له أثر.

شعرتُ بشعور سيئ بأن لا أحد سيرى تشين مجدداً. إنه كالإحساس الذي تشعر به عندما تشم رائحة جُحر وتعرف أنه فارغ تماماً في أعماق الظلام. بدا وكأن وجوده قد تلاشى من على السفينة، مهما كانت جهود البحث. لم أرَ ملابس معلقة على الخطافات في المقصورة، ولا أدوات نظافة موضوعة عند المغسلة. بدا الأمر وكأنه لم يكن موجوداً في هذه الغرفة. فتحتُ غطاء الصندوق بخفة ونظرتُ إلى الملابس المطوية بعناية.

لقد ساعدتُ تشين في تعبئة هذا الصندوق في اليوم السابق، عندما كنا نسرع في مغادرة موجي. رمى خليطاً من القمصان وال سراويل والكتب مع أدوات نظافة مبعثرة. لذا قمت بإعادة ترتيبها له: الكتب في الأسفل، والملابس المطوية في الأعلى. بدا كل شيء كما أتذكره، باستثناء فجوة بين الملابس

وجانب الصندوق، وكأن شخصًا ما دفع ذراعه في الداخل بعجلة. بدأت أنقب. هل كان هناك شيء مفقود؟
فُتح الباب بهدوء.

كاد قلبي يقفز من مكانه. فات أوان الاختباء أو التبرير. كيف سأشرح ما كنتُ أفعله وأنا أبحث في ممتلكات تشين؟ ثم رأيت من الذي دخل.
- أوه، أنتما.

تنجذب الثعالب إلى المتاعب بطبيعتها. يزعم البعض أن ذلك حقٌ لأنها من تُسبب تلك المتاعب، لكن الحقيقة هي أن الفوضى دائمًا ما تكون مثيرة وغالبًا ما تكون مربحة. لم يكن من المفاجئ أن يظهر كلٌّ من شيرو وكورو بعد خبر اختفاء تشين.

قال شيرو: «ما الذي تبحثين عنه؟» بينما كان ينظر في الغرفة، بعينين متمعنيتين في أبعادها: «لا تقلقي، ما زال الجميع يبحثون عنه في السفينة». لم يقل كورو شيئًا، لكنه أغلق الباب خلفه. بدأ قلبي ينبض بقوة. لا أحب أن أكون محبوسة في مكان صغير. هزُّ كورو رأسه بشكل طفيف جدًا، وبدت عيناه حزينتين. قال بهدوء: «هل أنت بخير؟ أثناء العشاء، ذكر لوو أنكما تشاجرتما على سطح السفينة».

آخر ما كنتُ أريده هو أن أريه كدماتي، لذا قلتُ بسرعة: «لم تسر الأمور على ما يرام. لكنه قال إنه اشترى بعض الصور ونسخة سلبية من يكتو. والآن بعد أن اختفى تشين، أريد أن أعرف ما الذي حدث لتلك النسخة».

أفضل ما في التعامل مع الثعالب الأخرى هو أنك لا تحتاج إلى شرح التفاصيل؛ ليس فورًا على الأقل. بدأ شيرو وكورو في البحث داخل الغرفة فورًا، يمشطان كل مكان قد يخفي شيئًا.

قال شيرو بينما كان يفرغ بقية أمتعة تشين: «الصورة يمكن أن تُخبأ في أي مكان. لكن النسخة السلبية عبارة عن لوحة زجاجية مستطيلة». بدا عليّ أنني لم أكن أعرف ذلك. فظهرت ملامح التسلية على وجهه: «ماذا، هل كنتِ تبحثين بعشوائية فقط؟»

لم أزعج نفسي بالرد فعقلي كان يعمل بسرعة. لوحة زجاجية؟ كانت هناك رزمة رفيعة ومسطحة من قطعتين من الورق المقوى، ملفوفة بعناية في ورق بني ومربوطة بخيط. أخذها تشين مني قائلًا إنه سيتولى أمرها

بنفسه. ربما كانت تحتوي على الصورة السلبية الزجاجة وبعض الصور. كان قد وضعها بعناية في الصندوق البخاري، ملفوفة في إحدى قمصانه، لذا بدأت أفك الملابس.

في هذه الأثناء، أخذ شيرو وكورو يفككان بقية الغرفة، فرفعوا الفراش وفتّشا بطانة سترة تشين.

لكن، لا شيء.

همستُ بحذر حين سمعتُ الخطوات العابرة في الممر: «أعيدوا كل شيء مكانه!» وداهمنا الوقت. في حالة من الهلع، قمنا بطي كل شيء وإعادة ترتيب الأمتعة. في الواقع، كنا فعالين إلى درجة مخيفة. بدت المقصورة نظيفة بشكل مقلق. ثم، بعد التأكد من خلوّ الممر، هرعنا للخروج. قال شيرو، ممسكًا بيدي: «دعينا نتحدث. تعالي إلى مقصورتنا».

لم أكن أعلم أن كورو وشيرو يتشاركان مقصورة واحدة؛ في الواقع، لم أعلم حتى أنهما سيكونان على هذه السفينة إلا في اللحظة الأخيرة. ومع أن الجميع كانوا منشغلين بالبحث عن تشين، بدا أنه لا مفر من الانصياع، لذا تبعته.

قال بعد مرورنا بخمسة أبواب: «ها نحن ذا».

فتح الباب، وكان كورو خلفنا؛ في تلك اللحظة ناده أحدهم: «سيد كوروساكي؟»

كان صوت سيدتي القادمة من آخر الممر. جذبني شيرو إلى داخل المقصورة وأغلق الباب قبل أن تراني. نزعْتُ يده عن يدي. كانت مقصورتها مماثلة تمامًا لبقية المقصورات. ذاتُ الأسرة المثبتة في الأرض، وذاتُ الديكور الكئيب. والفرق الوحيد هو أن أمتعتهما كانت قليلة جدًا، وذلك لمغادرتهما على عجل كما أظن. من الخارج، كان صوت سيدتي وهي تتحدث إلى كورو خافتًا. فاستدرت إلى شيرو: «أنت مدين لي باعتذار؛ لقد حاولت استخدامي في موجي للتخلص من بكتو نيكان!»

قال بابتسامة خبيثة: «عزيزتي سنو، لقد تركتُ لك الفرصة للانتقام. أرى أنكِ تمكنتِ من فعلها بكفاءة دون عوني».

- هل تظن أنني قتلته؟

- ألم تطلبي مساعدتي؟ كنتُ سأفعل، لكنكِ تصرفتي بسرعة. وهذا ما يعجبني في النساء. والآن، أتساءل أين ذهبت تلك الصورة؟

إذا، لم يكن يعرف من قتل يكتو أيضًا: «لماذا تريدها؟»

- كتأمين بالطبع. لم أطلب من أولئك الشباب أن يجلسوا لالتقاط صورة تحت لافتة مكتوبة بخط اليد تعلن «الموت للإمبراطور». لكنني لم أوقفهم أيضًا. (كانت ابتسامته حادة وخبيثة). كان يكتو يحاول ابتزازهم على الأرجح. كان رجلًا مفيدًا لكنه جشع.

تنهدت وقلت: «عليك أن تتوقف عن التلاعب بالناس بهذه الطريقة. إنه تهور لا يُصدق».

عبس للحظة، ثم انفجر ضاحكًا: «أحسنَت القول! انسي أمر الصورة. تأكيدا حوّل المال وقد غادرنا موجي».

- ماذا عن بوهاي ولوو؟ ولماذا اختفى تشين؟

- أمهليهما بضعة أشهر وسيجدان قضية أخرى لينضمّا إليها. أما تشين، فأنت وأنا نعرف جيدًا أنه لن يُعثر عليه اليوم.

قلت بذهن مشوش: «شيرو، أنت شرير للغاية». إذا لم يكن هو من قتل يكتو نيكان، فمن فعل؟ وهل كان شيرو يوحى بأنني تخلصت من تشين؟ نظرتُ خارج النافذة الصغيرة. فرأيتُ الزبد الأبيض خلف السفينة وهي تتابع مسارها يشبه الرغوة على كوب من الحليب. وكالثلج المتطاير في ممر جبلي اقترب شيرو وخفض صوته: «نعم، أنا كذلك. شرير للغاية بالفعل».

بعدما ظننتُ أن هذا كل ما أراد قوله أوشكتُ على المغادرة، لكنه أمسك بيدي وضغطها على وجهه. بلطف هذه المرة، دون أن يحاول إحكام قبضته: «سنو، ألا تريدين البقاء معي؟ عندما نكون معًا، لن أحتاج إلى لعب هذه الألعاب السخيفة».

- هذا خيارك أنت. لقد أخبرتك - بل أخبرناك - منذ زمن طويل أن تتوقف عن هذا.

لمعت عينه تُنذر بخطر: «لكن، لم يعد هناك نحن، أليس كذلك؟ كما ترين، كورو كان مشغولًا. السيدة يوكيكو شابة مخلصه. تمامًا من النوع الذي

يفضله. ولها ماضٍ مأساوي». وضع شيرو فمه بجانب أذني وهمس: «تحتاج إلى من ينقذها».

ارتجفت.

قال شيرو: «سنو أيتها المسكينة، ألا تعلمين أن معظم الرجال يريدون الاعتناء بامرأة جميلة؟ وما أنتِ تسيرين بعناد وحدك. من المحزن رؤيتكِ هكذا. لكنني أحبك تمامًا كما أنتِ». كان بريق عينيهِ العسليتين في ضوء الشمس ساحرًا بما يكفي ليجعل معظم رُكب النساء ترتعش. حتى أنا وجدت صعوبة في الالتفات بعيدًا حين لف ذراعه حول خصري.

لا بد أننا بدونا كزوجين عاشقين، أو هذا ما أوحى به تعبير كورو المفاجئ عندما فتح باب المقصورة فجأة. عيناه وقعتا على رقبتِي، وأدركت أن المنديل الملفوف حولها قد انزلق.

قلت بسرعة، متعافية من ارتباكِي: «ماذا قالت سيدتي؟»

أجاب ببرود: «قالت إن تشين لم يُعثر عليه في أي مكان». ثم أضاف بعد برهة: «صوتك مبجوح».

وقبل أن أنكر، نزع شيرو المنديل عن عنقي، وأطلق هسيسًا من بين شفثيه بينما كان هو وكورو يحدقان إلى الكدمات الأرجوانية. كنت أعلم أن مظهرها كان مروّعًا؛ حتى إن بصمات أصابع تشين الغليظة ظهرت واضحة حيث ضغط على جلدي. شعرت بالخجل يحترق في وجنتي رغم أنني لم أفعل شيئًا خاطئًا. ثم أعدت ربط المنديل حول عنقي بأصابع مرتعشة.

قال شيرو: «هذا أسوأ مما كنا نتصور. من حسن الحظ أن تشين الآن في قاع المحيط».

مرّت نظرة ذات معنى بينه وبين كورو. شعرت بقشعريرة باردة، كأن ماء البحر الأسود يتسرب ببطء أسفل ظهري. قلت بارتباك: «كيف تعرف ذلك؟» هز شيرو كتفيه: «إذا اختفى رجل في سفينة أثناء الليل، فلا يوجد مكان آخر يمكن أن يكون قد ذهب إليه».

تذكرت كلمات تشين: «لقد طلب مني أن أشاركه في انتحار مزدوج». كنت قد ظننت حينها أنه كان ثملًا فقط.

تقلص فك كورو: «لا تذكرني ذلك لأحد».

«لقد أخبرتُ سيدتي بالفعل. وكان هناك آخرون على ظهر السفينة، قد يكون أحدهم سمعه أيضًا». شعرت بالتعب يجتاحني كموجة تخدر وعيي؛ أردت أن أغمض عيني وأترك نفسي تغرق في غيبوبة. الوجود في هذا المكان المغلق مع شيرو وكورو معًا أثقل رأسي، أو ربما لم أتعاف تمامًا من الصدمة بعد خنقي بالأمس. قلت: «سأعود الآن».

رغم احتجاجاتي، أصرَّ كورو على مرافقتي. بصمت وولاء، كما اعتاد دائمًا في الماضي. حاول شيرو اللحاق بنا، لكن كورو كان أسرع ومنعه بهدوء ونحن نغادر. بدا الأمر عاديًا لدرجة أنني تساءلت ما إذا كنتُ أبالغ في تفسيره كتصرف أكثر من مجرد لباقة. كان حلقي يؤلمني، وأحيانًا شعرت وكأنني أعيش في حلم، ولم أعد أستطيع التمييز بين ما هو حقيقي وما هو كابوس. عند منعطف الممر، شعرت بدوار وكدت أسقط، فأمسك كورو بمرفقي ليثبتني، لكنني أبعدت يده.

قلت بتجهم: «مجرد دوار البحر».

- كلنا نعاني منه. لكنك تعانين أكثر من غيرك.

في تلك اللحظة شعرت برغبة في البكاء. لكنني أخبرت نفسي أنني متعبة لا أكثر، وأن كلمات كورو ليست أكثر من مجاملة من شخص جاد. سأختبئ قليلًا وأرتاح، لأنني متأكدة أن المتاعب قادمة.

عندما رست السفينة في داليان، أصبح اختفاء تشين رسميًا. انتظرنا لساعاتٍ ريثما تُبلغ السلطات ويُعد تقرير الشرطة. سُمح في النهاية لسيدتي العجوز بالعودة إلى المنزل، ورافقتها وحدي، بينما بقي الشبان للإجابة على أسئلة الشرطة حول رفيقهم. وفقًا لمعرفة الجميع، كان حادثًا مأساويًا؛ إذ واصل تشين شربه خلال العشاء، حتى إن الخدم أشاروا إلى أنه كان كئيبيًا. ربما سقط من فوق الحاجز.

ولم يذكر أحد شيئًا عن نوايا الانتحار.

ولا عن القتل.

عندما وصل باو إلى الميناء، كان الوقت قد تجاوز موعد الغداء بكثير. توقف عند كشك على جانب الطريق ليأكل الروجيامو؛ وهي قطع لحم البطن المطهوه على نار هادئة مع كزبرة خضراء طازجة ملفوفة في خبز مسطح. وكما توقع، لم يكن من الصعب العثور على السفينة البخارية القادمة من موجي، فقد كانت راسية بالفعل، وكان عمال الميناء منشغلين بتفريغ حمولتها. وبالحديث مع عامل ميناء، علم باو أن معظم الركاب قد نزلوا، إلا أن بعضهم قد احتُجز.

قال العامل: «اختفى راكب على متن السفينة، لذلك هم يعيدون التفتيش». أهي مجرد صدفة أن السفينة التي تحمل السيدة الثعلب وذلك المدعو شيراكو الغامض تشهد حالة اختفاء غامضة؟ تأهب باو وتوجّه إلى مكتب الشحن لمعرفة المزيد.

كان الجو في المكتب، حيث تتكدس المكاتب بالسجلات وتكتظ المقاعد الخشبية بالناس، مشحونًا بالتوتر. لم يكن لدى أحد الوقت للتحدث معه، لكن من خلال الاستماع إلى الأحاديث التي ترددت حوله، علم باو أنهم يعيدون استجواب بعض الركاب على متن السفينة. فاستند إلى الحائط منتظرًا. كانت النوافذ مغلقة، والهواء مُختنقًا برائحة الأنفاس المشبعة بالثوم والشعر غير المغسول. بعد فترة، لاحظ باو رجلًا نحيفًا ومتوترًا ينظر إليه بين الحين والآخر. ثمة شيء مألوف في مظهره حث باو ليتساءل أين رآه من قبل. سرعان ما أدرك الرجل الأمر، فتقدم نحوه بابتسامة اعتذارية على وجهه.

قال الرجل: «معلم باو، التقينا من قبل، أليس كذلك؟ في موكدن؛ أنا هونغ، ابن عم نائب المشرف».

تذكره باو الآن، إنه المدرس الذي وُجّهت إليه تهمة السرقة في مدرسة خاصة للبنين. كان باو لا يزال يدرّس حين طلب منه أحد زملائه التدخل في

قضية ابن عمه: معلم جديد عاقب أحد الطلاب المرموقين، فتعرض على أثر ذلك لمكيدة شريرة اتهم فيها بسرقة أموال الطلاب. تمكّن باو من حلّ تلك القضية المشينة بفضل قدرته على كشف الأكاذيب. لقد مرت خمسة عشر عامًا، ولا يزال الرجل يبدو خجولًا.

- كيف حالك؟

- بخير، بفضلك. لم أنسّ مساعدتك لي في ذلك الوقت. سمعتُ من ابن عمي أنك أصبحت محققًا محترفًا.

أصدر باو بعض الهمهمات المُخرجة، لكن هونغ بدا سعيدًا.

- لقد تركتُ التدريس بعد تلك الحادثة، وأنا الآن أعمل لصالح عائلة تشين. هل سمعتُ عنهم؟

عائلة تشين معروفة بثروتها الطائلة، وكان باو على علم بنفوذهم الواسع. قدّم باو تهانيه، فأضاف هونغ: «أنا مجرد مشرف بسيط، ولكن...» وتوقّف قليلاً ثم قال: «هل جئت هنا لأسباب مهنية؟»

- فقط أتحقق مما إذا كانت سيدة قد غادرت السفينة.

- جميع الراكبات قد نزلن بالفعل. لكن، هل قد يهملك تولّي قضية أخرى؟ أعتقد أن عائلة تشين قد تحتاج إلى مساعدتك.

غادرا المكتب البحري المزدهم، وسارا على طول الرصيف. كانت طيور النورس تحوم في السماء، بينما حوّل غروب الشمس سطح البحر إلى لون النحاس المصقول. وفي الأفق، ظهرت سحابة على هيئة جبل تاي، قبل أن تشتتها الرياح. مسح هونغ جبينه وأدخل إصبعه تحت ياقة قميصه العالي: «لقد كان يومًا عصيبًا. الابن الثالث لعائلة تشين، تشين جيانني، كان من المفترض أن يعود من موجي على متن هذه السفينة البخارية، لكن يبدو أنه اختفى في البحر الليلة الماضية. العائلة تتحدث مع المسؤولين الآن، وكما تتخيل، الجميع في حالة قلق الشديد. إذا كان لديك بعض الوقت، هل يمكنني أن أقدمك إلى رب عملي؟»

وهكذا، وجد باو نفسه متورطًا بشكل غير رسمي مع عائلة تشين. تعامل مع إحدى الشركات التابعة لهم سابقًا في قضية اختلاس في موكدين، رغم أن هذه العلاقة ربما لم تجد وزنًا عند رب عمل هونغ، والد الشاب المفقود. كان الرجل متورد الوجه، يحمل على ملامحه تعبيرًا حادًا ممتزجًا بالحزن العميق،

لدرجة أنه لم يُعر لوجود باو اكتراثاً إلا بإيماءة. أما هونغ، فقد بدا متحمساً، ورأى في هذا الاجتماع فرصة لتعزيز سمعته لدى رب العمل.

بدأت الوقائع بسيطة: تشين، طالب في كلية الطب، ترك دراسته وعاد فجأة من موجي. وبعد أن شرب كثيراً، إما سقط من على السفينة أو انتحر. ولم يرَ باو ما يدعو للجدال، سوى حزن عائلة تشين الطبيعي.

قال السيد تشين، وعيناه منتفختان بدموع لم تنزل بعد، وفمه ملتو بالغضب: «ابني لن ينتحر أبداً. لا بدَّ أنها كانت حادثة. الشركة البحرية مسؤولة، أو أحد رفاقه لعدم مراقبته عن كثب».

تحوّل الحزن بسرعة إلى غضب ولوم. لا جثة يمكن استعادتها، مما اعتُبر إهانة للشعائر الكونفوشية. كيف يمكنهم إقامة الحداد بشكل لائق على هذا الشاب، وهم يخشون أن يكون قد فُقد في البحر ومصيره أن يصبح شبكاً هائماً؟

قال باو على انفراد بعد أن استدار السيد تشين مبتعداً: «لا أعلم ما يمكنني فعله للعائلة. ما لم تكن هناك معلومات إضافية، فيبدو لي أنه مجرد حادث». الموت لا يُفصح عن أسرارهِ مهما كانت صدمة الأسرة. بدا هونغ غير سعيد وهو يقول: «هل ستستمع على الأقل إلى روايات رفاق سفر تشين جيانبي؟ أتذكر أن لديك موهبة في اكتشاف الحقيقة».

شعر باو بعدم الارتياح: «هل أخبرتَ السيد تشين بذلك؟»

خفض هونغ عينيه: «أخبرته أنك تستطيع التمييز بين اللصوص والشرفاء، وأنتك بارع في الحكم على الشخصيات. قال لي أن أحضرك صباح الغد عندما يُستجوب رفاقه في السفر».

صُعِبَ على باو رفض هذا الطلب في ظل فجع العائلة، لذا تجاوز تحفظه ووافق.

أسوأ ما في اختفاء تشين كان عائلته القلقة المُترقبة. لم أكن أعلم كيف ستتعامل السلطات الرسمية مع القضية، لكن سيدتي كانت مغمورة بالحزن: «يا لذلك الشاب المسكين! سيُعاني والداه بشدة».

- هل تعرفينهما؟

- لا، لكنني واثقة من أنهما سيرغبان في استجواب الجميع.

أنا أيضًا كنت أتوق للحصول على إجابات. إذا كانت صورة الخيانة، التي تجمع بين الشبان الثلاثة وهم يقسمون ولاءهم الثوري ضد إمبراطورية تشينغ، قد اختفت، فمن هو سارقها المُحتمل؟ أم هل آذاه كورو أو شيرو في الظلام أثناء ميلانه على الحاجز؟ تخيلت صراعا قصيرا، يليه صوت ارتطام بالماء. لن يسمع أحد صرخاته بينما تواصل السفينة إبحارها في الليل. في النهاية، لا أحد يمكنه الفرار من الموت، حتى الذين يبدؤون الرحلة الألفية. ذلك حساب من نوع آخر، مرعب ومحوري... أو هكذا يُقال. لكن الآن، لم أستطع سوى التفكير في تشين. ورغم عدم تعاطفي معه، فلا بد أن الموت وحيدا في المياه السوداء المتجمدة كان تجربة مروعة للغاية.

وهكذا، عدنا إلى متجر الأدوية، حيث الغرف المريحة والمزدهرة. شعرت سيدتي بالراحة حالما دخلنا مع انتشار رائحة الأدوية المرة المألوفة والترحيب الحار الذي تلقته من أفراد الأسرة والخدم الذين بدوا في غاية السعادة بعودة سيدتهم العجوز. كانت حذرة، وذكّرتهم بأنها متقاعدة الآن، وأن السيدة الرسمية للمتجر هي المدام هوانغ، زوجة ابنها. تلك السيدة التي ارتسم على فمها ابتسامة خفيفة، وكانت من وظيفتي من الشوارع وأنا برفقة الأوز، بدت مرتاحة هي الأخرى لرؤية سيدتي. وتساءلتُ ما إذا حدثت مشكلة بين المدام هوانغ وزوجها، صاحب متجر الأدوية، أثناء غيابنا.

أزهرت شجرة الدردار في الخلف بأوراق صغيرة جديدة، وتهوَّتْ غُرفُ سيدتي في الفناء الخلفي الصغير، وغُسلتْ أغطية السرير حديثًا. لم أكن أتوقع أن أعود إلى هذا المنزل مجددًا، فقد كان كل ما يشغل تفكيري هو ملاحقة بكتو نيكان. لكنَّ القدر لديه طرق غريبة لإعادتك إلى حيث لا تتوقع. قالت المدام هوانغ: «أماه، ربما ينبغي عليك الانتقال إلى المنزل الرئيسي». وبدأ على وجهها توتر واضح.

ردت سيدتي العجوز: «لا، لا بأس، لقد اعتدتُ على الإقامة في الخلف الآن». يبدو أن المدام هوانغ قد سمعت عن عشيقة زوجها والحمل الذي يهدد مكانة بوهاي باعتباره الوارث الوحيد. والآن، بدا لها من الأفضل أن تكسب دعم حمايتها.

قالت سيدتي: «دعيني أُنل قسطًا من الراحة أولًا. سنتحدث غدًا عندما تهدأ الأمور».

لكن لم يكن هناك وقت يُذكر للتلاعبات العائلية، ففي صباح اليوم التالي، أرسلت عائلة تشين في طلب بوهاي وجدَّته ليقدما تفسيرًا شخصيًا لاختفاء ابنهم.

- ليس عليكما الذهاب.

تلك أول كلمات قالها والد بوهاي عندما تلقى الرسالة. كنتُ أقف خارج مكتبه، أظهار مرة أخرى بري النباتات. كانت الأزاليات تحت نافذته مفضلة لدي لأنها تتيح سماع كل شيء: «الطريقة التي أرسلت بها الرسالة غير لائقة. إذا ذهبتما، سيحملوننا حتمًا مسؤولية موت ابنهم».

قالت والدته: «لا يمكننا الرفض. إنهم في حزن وكره. بالطبع علينا تقديم تعازينا. كنت سأذهب على أي حال، حتى دون هذه الاستدعاء».

- لكنَّ الطريقة التي صاغوا بها الرسالة تشبه تحقيقًا جنائيًا!

تحدث بوهاي أخيرًا، وقد بدا متأثرًا بفقدان صديقه: «سأذهب. يمكن لجَدَّتِي أن تبقى في المنزل. كان تشين دائمًا يقول إن عائلته مرعبة، لكنهم كانوا مصدومين بشكل واضح بالأمس».

وفي النهاية، تقرر أن الثلاثة، بمن فيهم صاحب متجر الأدوية، سيقدمون تعازيهم واعتذاراتهم. بقيتُ في المنزل، متجنبًا أسئلة الخدم الآخرين، الذين

كانوا متلهفين بشدة لمعرفة التفاصيل. عند حظيرة الطيور، لاحظتُ أن الإوز الذي أحضرته لا يزال يتهاذى بغطرسة حول المكان. ذكر الطاهي أن زوج الإوز أصبح عدوانياً جداً حتى استعصى عليه ذبحهما. واستندتُ بذقني على البوابة، وأنا أشاهدهما بتأمل.

حان وقت الرحيل حقاً.

شعرتُ بإحساس غامض من الحزن والقلق. كانت الرياح الربيعية الباردة تُداعب أوراق الشجر برفق، لكن لم أشعر برغبة في رؤية النجوم في الشمال مجدداً. بل رغبتُ في الاختباء في مكان آمن. عندما فقدت طفلي، سقطتُ في بئر عميقة من الكآبة. لم أكن أسمع أو أرى أو أشعر بشيء سوى الفراغ الصارخ من غيابها. ورغم ذلك، مرَّ الزمن بلا رحمة، وتغيرتُ أنا أيضاً، كالعشب الذي ينمو. عندما واجهتُ بكتو نيكان في غرفته بالنزل، لم أستطع استجماع ما يكفي من الغضب لأغرس سكيناً في عينه مباشرة. بل ترددت، واستحوذتني الشكوك. لو كنتُ صديقة مع نفسي، لأقررتُ بأن البقاء مع كورو وشيرو قد هزَّني. كانت ألفة وجودهما -التي عادت بيننا جميعاً بسرعة مربعة- مقلقة بالنسبة لي.

طلب مني شيرو أن أبقى إلى جانبه. أما كورو فلم يقل شيئاً (بالطبع!)، لكن نظراته الصامتة هزَّت أفضل قراراتي. إذا أردت قطع علاقتي مع الماضي نهائياً، فعليَّ الرحيل الآن. ومع ذلك، ترددت، إذ أرغب في توديع سيدتي العجوز بشكل لائق. لم يكن من اللائق أن أختفي في صباح يوم من أيام الربيع المتأخرة، تاركةً إياها في حيرة دائمة وقلق.

لم تمضِ نصف ساعة قبل أن يصل وفد آخر من عائلة تشين. أوضح لهم كبير الموظفين أن السيد ووالدته وبوهاي قد غادروا بالفعل إلى منزل عائلة تشين. لكن لم يكن هذا مهماً، كما قال الرجل المسؤول، وهو رجل ممتلئ ضخماً. لقد طلبت عائلة تشين بشكل خاص الشابة التي رافقت سيدتي على السفينة.

قال كبير الموظفين وهو يناديني: «يجب أن تكوني أنتِ يا آه سان».

عندما رأيت الرجال يقفون معاً عند مدخل جناح العائلة، تجمدت في مكاني. هؤلاء لم يكونوا مجرد رسولين أرسلوا لجلب مساعدة إضافية. بل كانوا من رجال الأمن الخاص.

في صباح اليوم التالي، وصل هونغ إلى نزل باو ومعه عربة ريكشا بانتظاره. وبينما كانت العربة تهتز على الطريق، بدأ هونغ إطلاعه بالتطورات. على متن السفينة، كان تشين الشاب يسافر برفقة لoo دونغ، ابن عائلة بارزة أخرى، وهوانغ بوهاي، ابن مالك دار الأدوية. الثلاثة كانوا طلاب طب، لذا تفاجأت عائلة تشين عندما اكتشفت أنهم ذهبوا إلى موجي بدلاً من توجيههم مباشرة إلى يوكوهاما.

قال هونغ: «كتب تشين لعائلته أن أصدقاءه قرروا تعليق دراستهم لبدء مشروع مصنع السكر في فورموزا. وقد نالوا دعمًا ماليًا من راعٍ ياباني، لكنهم فجأة تخلوا عن هذا المشروع وعادوا إلى داليان».

شعر باو باهتمام شخصي تجاه بوهاي، وارث دارالأدوية الشاب، لكنه لم يُظهر ذلك. فسأل: «كيف كانت علاقاتهم؟»

- كانت جيدة. لoo كان صديق طفولته، وبوهاي تعرف على تشين عندما كانا زملاء في الدراسة. ولكن، في العام الماضي، بدأت العائلة تقلق من ارتباط تشين بأشخاص ذوي سمعة مشبوهة، بمن فيهم الطلاب الثوريون. بالطبع، هو لم يشارك في مثل هذه الأنشطة.

تساءل باو كيف يستطيع هونغ قول ذلك بوجه جاد. من الواضح أنه لا يعرف حقًا ما كان يقوم به الابن الثالث لعائلة تشين قبل وفاته المفاجئة.

تردد هونغ قليلًا ثم أضاف: «هناك شخص آخر على متن السفينة كان مرتبطًا بتشين: رجل يسمى شيراكاوا. يرغب السيد تشين أن تتحقق مما إذا كان له أي دور في اختفاء ابنه».

آها... «هل ذلك بسبب الشائعات التي تدور حول شيراكاوا؟»

«هل سمعتها أيضًا؟ لا شيء يفوتك، معلم باو!» بدا هونغ معجبًا، وتمنى باو ألا يتحول هذا إلى نوع من عبادة الأبطال.

كان قصر عائلة تشين مذهلاً، بعوارضه الخشبية الثمينة وأرضياته متقنة الزخرفة، لكن باو لم يشعر بأي سرور أو متعة. فقد خيَّمت كآبة الموت على كل شيء، بدءاً من ملابس العزاء التي ارتداها الخدم على عجل وصولاً إلى الفوانيس البيضاء الورقية التي علَّقت عند البوابات الضخمة. وبدت وجوه الخدم المتنقلين مشدودة ومتوترة. لاحظ باو وجود عدد كبير من الحرس الخاص، يكفي لتشكيل كتيبة أمنية.

لم يكن باو ضيقاً، لذا قاده الخدم عبر صالات الاستقبال الصامتة إلى حديقة أعمق داخل القصر. على طول الطريق، زُرعت أشجار الخيزران ذات الأوراق القصيرة الأنيقة وأشجار الصنوبر القزمة، توشي بدخول منطقة ذكورية مخصصة للعلماء. احتوت غرفة الاجتماعات على أبواب منحوتة من خشب الورد تفتح على الحديقة، وأرضية من البلاط الحجري، ولوحات من لفائف باهظة الثمن، بما فيها من منظر طبيعي للفنان الشهير سليل أسرة مينغ؛ شين تشو. رغب باو في تفحصها، لكنه اكتفى بالتحديق من بعيد.

كان السيد تشين إقطاعياً ومصرفياً، رجلاً معتاداً على السلطة. لكن الموت والشك تسللا إلى ملاذه؛ مهما كان إنكاره، لم يقدر على تغيير الحقيقة المؤلمة لاختفاء ابنه الثالث. استقبله السيد تشين بإيماءة مقتضبة: «ابقَ واستمع. وأخبرني إن لاحظت شيئاً غريباً».

وضع هونغ بعض الكراسي بجانب الجدار الخلفي، معذراً عن فضاظة السيد تشين، لكن باو قال بهدوء: «لقد فقد ابنه، لا داعي للاعتذار».

بالفعل، بدا السيد تشين سقيماً، بفم متيبس وعينين محمرتين غائرتين. معظم الناس قد يختلون بحزنهم، لكن باو أدرك رغبة تشين في السيطرة على الأوضاع؛ فربما كان هذا السبيل الوحيد لتوجيه مشاعره تجاه ابنه الثالث الضائع.

دخل شاب طويل ذو فك عريض وكتفين مائلتين. رغم حُزنه بدا شخصاً عنيداً، إلا أن باو خمن أن عناده ربما مجرد عادة أكثر من كونه شعوراً حقيقياً، إذ توجه مباشرة إلى السيد تشين لتقديم احترامه. بدا الألم واضحاً على وجه السيد تشين عندما رأى صديق ابنه، فأشاح عنه للحظة.

قال لوو: «أنا آسف جداً. قضيتُ الصباح كله أبحث عنه في السفينة».

وضع السيد تشين يده الثقيلة على كتف لولو وقال: «سمعت بذلك. لكن ما أود معرفته هو، هل كان ابني مضطرباً في الليلة التي اختفى فيها؟ هل تعتقد أنه...؟»

علقت كلمة «انتحار» في الهواء، دون أن تُقال.

قال لولو: «كان في حالة معنوية جيدة. لا بد أن ما حدث كان حادثاً».

لكن باو التقط كذبة: **كان في حالة معنوية جيدة**. تأمل في وجه لولو المُتخشب، ولم يلحظ أي تغيير في تعابيره. إذًا، يستطيع هذا الشاب الكذب بسهولة. لكن لماذا؟

قال السيد تشين: «أبلغني أحد الخدم أن ابني تشاجر مع امرأة على سطح السفينة. هل تعرف شيئاً عن ذلك؟»

- لقد وبخ إحدى الخادמות.

«ما هي علاقتهم؟» وظهرت تجاعيد عميقة بين حاجبيه الكثيفين.

أخذ لولو نفساً عميقاً وقال: «إنها تعمل لدى جدة بوهاي».

مال باو إلى الأمام، متسائلاً: **من تكون هذه المرأة الغامضة، هل يمكن أن تكون السيدة الثعلب المراوغة؟**

قال السيد تشين بلهجة غاضبة: «أريد رؤيتها».

رد لولو بتردد: «من الأفضل أن تطلب من سيدتها، أو ربما من شيراكاوا. أعتقد أنهما مرتبطان بطريقة ما». ثم بلع ريقه بقلق. كان حزن وغضب السيد تشين يخيமான على الغرفة كالنمر الجاثم، حتى الخدم كانوا يرتجفون.

- طلبتُ منك إحضار شيراكاوا اليوم. هل هو هنا؟

أجاب لولو: «نعم، إنه قادم. بخصوص الفتاة، أعتقد أن جيانبي كان مغرماً بها. أعلم أنه خرج عن طريقه للتحدث معها عدة مرات».

تشنجت العروق في عنق السيد تشين، وأشار إلى هونغ الذي أسرع نحوه. وبدت عينا السيد تشين تسألان سؤالاً غير منطوق.

قال هونغ: «يا سيدي، استدعينا السيدة العجوز وبوهاي بالفعل. يجب أن يكونا في طريقهما الآن».

- أرسل حارسين لإحضار الخادمة أيضاً.

أسرع هونغ إلى الخارج، وبقي باو يتأمل الغرفة من حوله. كم من الثروات قد جُنيت وضاعت، وكم من الصفقات قد أبرمت في هذه الغرفة الخاصة؟ والآن عائلة تشين هي من تعاني. وكأن السيد تشين سمع أفكاره فرفع رأسه. التقت عيناه بعيني باو؛ فتساءل إن كان يتخيّل أم أن هناك لحظة من التفاهم العابر بينهما؟ اعتراف من كلا الرجلين الأكبر سنًا بقسوة الموت العشوائية. رفع لوو رأسه عندما سقط ظل على العتبة الحجرية المرتفعة، ليغطي ظلال أوراق الأشجار الرقيقة.

قال لوو مُرحبًا: «آه، شيراكاوا».

أول انطباع خطر لباو هو أن شيراكاوا جدير بأن يكون ممثلًا. أو ربما هو كذلك بالفعل، لأن مظهره المسرحي الجذاب لا يمكن تجاهله. في الواقع، من المثير للربح كيف أن ملامحه تتطابق مع الذوق الشعبي؛ ضيق العينين، نحيل الخصر، يتحرك كالمفترسين، بعظام وجنتيه اللتين قد تربكان سيده محترمة. كان يرتدي بدلة أوروبية داكنة، تبدو مُهندمة بما يكفي لتعكس حزنه، لكن في الحقيقة، لا يهم ما يرتديه. لاحظ باو أن الجميع، حتى السيد تشين نفسه، بدوا مذهولين، وكأن دخول شيراكاوا غير حرارة الغرفة، إما ليزيدها سخونة وإما لجعلها أكثر برودة.

كلما نظر باو إلى شيراكاوا، شعر باضطراب أكبر، وكأنه لا ينظر إلى شخص حقيقي بل إلى خيال شخص ما. ترددت كلمات تشو يولينغ في ذهنه: **إنه يشبه الشخص الذي تحلم به.** وأحسّ بنبضه يتسارع، وعندما نظر إلى خادم قريب، رأى عينيه متسعتين ببريق كالزجاج.

تقدم شيراكاوا. وفتح فمه، فخرجت كل الكلمات في أماكنها. تعاز مخلصه، وتأملات صادقة. إذا أغمض باو عينيه، لما صدق أن هذا الشخص يُفترض أن يكون أجنبيًا. النبرة، واللهجة، والفروق الدقيقة في الأدب كانت كلها مثالية؛ ربما مثالية أكثر من اللازم، وكأن نبيلًا من العاصمة هو من يتحدث.

استغرق باو وقتًا طويلًا لفصل معنى كلمات شيراكاوا عن النغمة الرنانة لصوته، وعندما فعل، اتسعت عيناه دهشة.

لأن كل ما قاله شيراكاوا كان كذبًا: «كان تشين جيانبي شابًا مميزًا وذكيًا. لقد فقد عالم الطب والآداب نورًا، وأنا كذلك، فقدت رفيقًا عزيزًا». أكاذيب، كلها أكاذيب.

هزّ الخدم رؤوسهم مؤيدين، لكن السيد تشين بدا مقاومًا. اكفهرت ملامحه وقال: «أريد أن أسمع عن ساعات ابني الأخيرة. هل بدا بخير بالنسبة لك؟» قال شيراكاوا: «كان مرحًا، رغم أنني أعتقد أنه شعر بدوار البحر، فقضى معظم فترة بعد الظهر متكئًا على حاجز السفينة»

امتلت أذنا باو بصوت طنين، فهز رأسه، وهو ما جذب انتباه السيد تشين. عبس السيد تشين وقال: «ابني لم يعان من دوار البحر في حياته! إذا كنت تلمح إلى أنه سقط بسبب ذلك، فهذا هراء».

بالكاد ظهرت علامة ضيق على جبين شيراكاوا الأنيق عندما استدار لينظر إلى باو. كانت حدقاته مدهشتين بقدر ما كانتا فاتحتين، بل صفراوين كأعين الحيوانات، وعندما استقرت نظراته النهمة عليه، شعر باو بقلق عميق.

اتسعت عينا شيراكاوا للحظة، كما لو كان مذهولًا من باو. ورفّ جفنه؛ هل هو شعور بالقلق، أم السخرية، أم مزيج بين الاثنين؟ لكنه أخفى ذلك سريعًا حتى ارتاب باو إن كان تخيله. ثم رفع شيراكاوا رأسه فجأة وقال: «أعتذر، لا بد أنني كنت مخطئًا». بدا متلهفًا للمغادرة فجأة، لكن الحراس عند الباب منعه.

قال السيد تشين: «ما علاقتك بالخدمة التي رافقتك في الرحلة؟» وتساءل باو بدوره أيضًا.

ألقى الرجلان اللذان أرسلتهما عائلة تشين بي في عربة بغل دون أي رسمية تذكر. لم تتح لي فرصة التحدث معهما؛ قفز أحدهما إلى الأمام بجانب السائق، وبقي الآخر صامتا حتى ظننته أبكم. كان اختيارا مثيرا للاهتمام؛ لم أرَ أحدا يستأجر مثل هؤلاء الحراس منذ سنوات، رغم أنهم في الماضي كانوا مفضلين لألعاب القصور. لفترة وجيزة، فكرت في القفز من العربة، لكنني قررت عدم فعل ذلك. فماذا سيحدث لسيدتي العجوز إذا هربت؟ علاوة على ذلك، كان لدي فضول بشأن عائلة تشين.

معظم الناس يفكرون فقط في كيفية إخراج الثعالب من المنازل ونادرا ما يتساءلون عن كيفية دخولنا في المقام الأول. كل ما يمكنني قوله هو أنك يجب أن تكون حذرا فيمن تسمح لهم بالدخول، خاصة إذا كان منزلك قصرا. كانت البوابات الأمامية الفخمة مخصصة للضيوف، لذلك اقتاداني عبر مدخل خلفي وسحباني دون تكلف عبر ممرات متعددة. اكتظ هذا المنزل الضخم بالخدم، ولم يُلْقَ أي منهم أكثر من نظرة عابرة عليّ. خمنت أنهم إما دُربوا على عدم طرح الأسئلة، أو أنهم اعتادوا رؤية نساء غريبات يُسحبن إلى الداخل، وكلا الاحتمالين لا ينبئ بخير.

قال الحارس الأول: «عليك الانتظار في هذه الغرفة حتى إشعار آخر».

- لماذا؟

لكنه لم يقل شيئا آخر، وأغلق الباب بسرعة خلفه. كانت غرفة الانتظار صغيرة، تحتوي على كرسيين من خشب الورد وطاولة مطعمة بالصّدف. والأهم من ذلك، وجدت نافذة صغيرة. على ارتفاع الورك، مؤطرة بمصاريح خشبية، وتطل على شجيرة كاميليا تحمل براعم مغلقة.

بمجرد أن تلاشت أصوات خطواتهم، أخرجت رأسي من النافذة. وبتغيير وضعيتي، دفعت كتفي جانبا وتمكنت من الانزلاق إلى الفناء المرصوف. كان

المكان هادئًا ومشمسًا على الأفاريز المنخفضة المكسوة بالبلاط، وتمايلت طيور الحمام العاشقة وغرّدت بصوت عذب.

لحسن الحظ، كنت أرتدي ملابس خادمة في منزل يعج بالخدم. ولتعزيز هذا التخفي، مررت بغرفة مليئة بالبورسلين النادر، ووضعت كوبى شاي (من الخزف السماوي، ربما يعودان إلى عهد سلالة سونغ) من رفٍّ على صفيحة، وحملتها كما لو أنني قد استُدعيت للخدمة. مرّت رائحة شهية لبط مشوي من المطبخ، لذا تجنبت ذلك الاتجاه. فبالتأكيد، لن يكون مكتب السيد بالقرب من المطابخ. جربت الجناح الآخر، وأنا أتجول في الممرات التي بدت بلا نهاية. وعند مدخل حديقة الفناء توقفت. كان الطريق محاطًا بأشجار الصنوبر القزمة وخيزران قشر السلحفاة، رموز العلم الذكوري. وكأنها تصرخ: **هنا سيد المنزل. تعال واسرقه!**

سرت بخطوات مسرعة على طول الطريق المتعرج المظلل إلى الجناح الخاص. ومن الداخل، ارتفعت بعد الأصوات. وضعت الصفيحة التي تحمل أكواب الشاي خلف صخرة، وبحثت عن نافذة. اضطررت إلى الزحف عبر شجيرة، لكنني كوفئت بمشهد جيد يطل على غرفة الاجتماع.

كان والد بوهاي يلقي خطابًا اعتذارياً، يلوم نفسه وعائلته بأكملها لعدم اهتمامهم بشكل أفضل بالشاب تشين خلال هذه الرحلة. عادة ما تكون هذه الخطب بلاغية، إذ يُفترض أن يعترف الطرف الآخر بتقصيره أيضًا، لكنني لاحظت أن السيد تشين (الذي لا بد أنه الرجل الغاضب الجالس في مقدمة الغرفة) لم يقل كلمة واحدة. كان ذلك في حد ذاته وقاحة كبيرة، مما يعني ضمناً أن عائلة بوهاي هي بالفعل المذنبة. في الواقع، كانت الغرفة بأكملها مهيئة كما لو كانت محكمة. الجالسون للتكفير عن ذنبهم - سيدتي العجوز، وبوهاي، ووالده - كانوا في صف منظم أمام السيد تشين. بدا بوهاي شاحبًا كبطن سمكة. أما سيدتي العجوز فبدت هادئة، خافضة عيناها، لكنني لاحظت أن يديها المجدعتين كانتا ترتجفان قليلاً.

وكذلك رأيتُ عددًا من الحاضرين الآخرين، من بينهم شيرو. الذي كان يجلس في المُقدّمة، وقد عقد ساقيه بأناقة. كان يلمس حاجبه الأيسر بإحدى يديه بين الحين والآخر. أعرف شيرو جيدًا بما يكفي لأدرك هذه العادة العصبية (لم يتعافَ تمامًا من محاولة وسمه على جبهته من قبل جندي خيتاني)،

وتساءلتُ عمّا جعله يشعر بالتوتر. تتبعت نظراته، وبدأ أن سبب قلقه كان رجلاً قصير القامة متين البنية، يجلس بين حاشية تشين.

كان لديه ذلك النوع من الوجوه الذي تراه في الفلاحين المخلصين، من يذهبون بإخلاص لإخبار سيد الحرب المحلي بأن المحصول هذا العام سيكون قليلاً، ثم يُقتلون نتيجة لذلك. تساءلتُ لماذا قد يُصيب هذا الرجل شيرو بالتوتر، بينما كان هذا الرجل المسكين يركز بوضوح على سيدتي، التي كانت تتجنب نظراته بينما تتحمل نظرات السيد تشين الغاضبة. بدا وكأنه مراقب محترف، وربما لم يكن جزءاً من حاشية تشين المعتادة، حيث كان يرتدي ملابس سفر تكوّنت من سترة محشوة سميقة وأحذية مصنوعة من اللباد، وكأنه جاء من الشمال. ربما كان صيَّاد الثعالب. تراجعت عن الفتحة مفرقة.

لا، لا، ذكّرت نفسي بأن طاردي الأرواح الطاويين القادرين على التعامل معنا ازدادت ندرتهم. علاوة على ذلك، كان هذا الرجل يحدق إلى سيدتي العجوز، وليس إلى شيرو. وعندما تحدّثت سيدتي أخيراً، انحنى الرجل للأمام بلهفة: «أشعر بأسف عميق تجاه ابنك. لقد كانت صدمة هائلة لنا جميعاً. لا أعتقد أن ما حدث كان أكثر من حادث مأساوي».

أثر صدقها في السيد تشين، حيث أشاح عنها للحظة ألم. ثم قال: «ماذا عن خادمك؟ سمعت أنها ربما كانت على علاقة بابني. في الواقع، أخبرني لوو أنه التقاها أول مرة في عشاء استضافته عائلتك».

- نعم، وقد سكبت الحساء على أحد الضيوف.

- من أين أتت؟

- من تشيتشيهار، حسبما قيل لي، إنها شابة طيبة ومجتهدة.

- هل كانت على علاقة غير لائقة مع ابني؟

- لا. في اليوم الذي تلى عشاء العائلة، عرض ابنك توظيفها. حينها أخبرتُ أه سان، لكنها رفضت.

ارتفع حاجبا السيد تشين دهشة: «هل أنت متأكدة تماماً من أن خادمك لم تكن يوماً وحدها مع ابني؟»

عضّت سيدتي على شفتها وقالت: «لم تكن كذلك».

فجأة، انتفض الرجل العجوز القصير الذي يرتدي ثياب المسافرين. على الأرجح، لم يلحظ ذلك أحد سواي وشيرو (الذي كان يراقبه بحذر من خلف مروحة ورقية). وكذلك السيد تشين.

كرّرت سيدتي العجوز بلهجة دفاعية: «لم يكن لها أي علاقة بابنك».

مرة أخرى، ظهر ذلك الوميض المريب على وجه الرجل العجوز، ومرّر يده على فكه. بهدوء شديد بدأت أترجع عن مخبئي. فلم أستطع تصوّر أي نهاية جيدة لهذه المهزلة. إذا هربت الآن، فماذا سيحدث لسيدتي المسكينة وعائلة بوهاي؟ ربما تترك عائلة تشين القضية.

أو ربما لا.

منذ زمن بعيد، قال لي أحدهم إنه يجب عليّ ألا أرتبط بالبشر. إذ لا خير يأتي من ذلك، فهم يحتقروننا ويقتلوننا عندما تسنح لهم الفرصة. لكنني دائماً أجد صعوبة في الرحيل. على أي حال، كنت قد تجاوزت التفكير العميق حول مآل روحي في مجمل الأمور، عندما سمعتُ صوت خطوات غير متساوية تركض. ألقيت نظرة سريعة للداخل. لقد اكتشف الحراس الذين أحضروني من متجر الأدوية غيابي للتو.

قال الأول منهم: «سيدي، أعذر، ولكن...» ثم همس في أذن السيد تشين. وتحول وجهه إلى غيمة من الغضب.

قال السيد تشين بغضب: «ماذا تعني بأنها مفقودة؟» ثم التفت إلى والد بوهاي وقال: «يبدو أن خادمكم قد هربت من حراستي».

احتج بوهاي بغضب: «لماذا كانت تحت حراستك أساساً؟» في حين اشتكى والده من هذا التصرف تجاه خدمتهم. أما سيدتي، فقد شحب وجهها. فقد أدركتُ على الفور أن غياب امرأة عن مكانها قد يثير غضب الرجال. وبينما كنتُ مضغوطة بجانب النافذة، تبادلنا نظرة خاطفة مع شيرو. كانت مجرد لمحة، لكنني أدركتُ أنه رأياني وأنا أراقب من خلف الأوراق.

نهض شيرو فجأة وقال: «هل لي أن أستخدم المرافق؟»

فأرسل خادم لمرافقته بينما استمرت المناقشات. بالكاد مرت دقيقة قبل أن أشعر بيد تشد كاحلي. استدرت مطلقة زئيراً خافتاً. لقد كان شيرو، جاثماً نصفه داخل الشجيرة؛ لقد تمكن من إيجادني أخيراً.

سألته: «أين كورو؟»

أجاب مبتسمًا: «تهربتُ منه هذا الصباح. لم أخبره أن عائلة تشين أرادت رؤيتنا». ثم أضاف مازحًا: «ألا أستحق مكافأة على ذلك؟»

تجاهلت الجزء الأخير: «جيد. لا تخبره».

آخر ما أردته هو أن يتورط كورو في هذا الأمر. السماء وحدها تعلم ما الذي قد يفعله من أجلي. لا... يجب ألا أفكر في ذلك.

قال شيرو: «على أي حال، جئت لأحذرك. لا تقولي إنني لا أحبك».

تجاهلت هذه العبارة أيضًا: «عن ماذا؟»

- أترين ذلك الرجل العجوز القصير؟

- الذي يبدو كمسافر؟

- نعم. تجنيبه.

- لماذا؟

برز تعبير غريب على وجه شيرو بينما أمال رأسه. قال: «لديه القدرة على التمييز بين الأكاذيب والحقيقة».

انفجرت ضاحكة. ليس هذا تصرفًا حكيمًا عندما تكون مختبئًا تحت شجيرة، لكن شيرو بدا جادًا بشكل مثير للسخرية. قلت: «بحقك. لا توجد مثل هذه القدرة إلا عند القديسين».

ردّ شيرو بجدية: «أؤكد لك بأن أحدهم تلاعب به بلا شك. على الأرجح واحد من بني جنسنا. لا بدّ أنك لم تلاحظي ذلك لأنك لم تهتمي أبدًا بتنمية تلك الفنون».

قلت متأملة: «هل تقول إنه غير قابل للتأثر؟ هذا ليس جديدًا. حتى يكتو كان مقاومًا للتعاب».

قال شيرو: «الأمر ليس كما تظنين. إنه قابل للتأثر، ولكن ليس بالطريقة التي تتخيلينها. في الحقيقة، أراه خطيرًا. وليس هو فقط. والد تشين في حالة غضب شديد. لو كنت أعلم أنه من عائلة بهذه الإشكالية، لقطعت علاقتي به منذ زمن».

بدا الأمر سخيّفًا، إذ نخوض حديثنا ونحن مختبئان في منتصف شجيرة. كان نصف شيرو بارزًا وهو يتحدث معي. وفي أي لحظة، قد يكتشفنا أحد الحراس، وهو ما حدث بالفعل.

قال الحارس: «سيدي!»

رد شيرو بكل هدوء: «أسقطت مروحتي»، وبدأ يتراجع بحذر، لكن ليس قبل أن يهمس: «يجب أن تغادري الآن».

داخل غرفة الاجتماع، تحولت المحادثة إلى تبادل حاد للكلمات. أعلن والد بوهاي (محافظًا بصعوبة باللغة على لباقتة) أنه قد تحمّل ما يكفي من الإهانات، وأن عائلة تشين ليس لها الحق في احتجاز خدم أسرته. احمرّ وجه السيد تشين، ثم شحب، ثم احمرّ مرة أخرى. وخشيتُ أن يصاب بسكتة دماغية إذا استمر هذا الوضع. وضعت سيدتي العجوز يديها على وجهها. وعندها دخل شيرو، وأعلن ببساطة أنه سيغادر.

صرخ السيد تشين: «لن يغادر أحد حتى أجد هذه الخادمة!»

وتجلّى أن السيد تشين قد قرر أنني المفتاح لفهم موت ابنه. يا له من مسكين. فقدان طفل هو ألم لا يُحتمل، وحزن يقود العقل بعيدًا عن المنطق. لهذا السبب تحديدًا، قررتُ أن أجيب على أسئلته. تسللت خارج مخبئي بسرعة، وهرعت نحو الأبواب المنحوتة. أشار لي الحارس، الذي رأى ملابسي المتواضعة، بالابتعاد، قائلاً إن السيد في اجتماع.

قلت: «لقد استدعاني». هنا، كنتُ أسير طواعية إلى فخ وأُمنع من الدخول. وظننتُ أنه إذا لم يسمح لي بالدخول، فإن القدر ربما كتب لي أن أتحرر ذلك اليوم (رغم أنني عادة لا أؤمن كثيرًا بالأقدار). ولكن فجأة، تراجع الحارس وسمح لي بالدخول.

وهكذا، فُتحت الأبواب ودخلت بخنوع.

50

لقد كان صباحًا مرهقًا من الجدالات القصيرة، تتخلله فترات طويلة من انتظار وصول الناس. شعر باو بضيق متزايد؛ وتمنى لو أنه لم يلتق بهونغ في مكتب الشحن. لو لم يحدث ذلك، لكان قد أنهى تقريره النهائي للسيد وانغ، قائلًا إن المرأة في الصورة استقلت سفينة متجهة إلى اليابان. وبدلاً من ذلك، وجد نفسه مُنَجَّرًا إلى ما يبدو كأنه محاكمة خاصة.

يضع الرجال الأغنياء قوانينهم الخاصة، والسيد تشين يطالب بمحاسبة المسؤولين عن وفاة ابنه. إنه يرفض تصديق أن موته كان انتحارًا أو حتى حادثة إهمال. إذا كان ابنه قد رحل، فهذا بسبب عمل خبيث، ويجب أن يُعاقب أحدهم.

والسبب الآخر لشعور باو بعدم الراحة هو شيراكاوا، الذي يكذب بسهولة تامة. عندما يحدق باو إليه لفترة طويلة، يشعر وكأنه لا يستطيع التنفس. ثمة ظلام ينبعث من شيراكاوا، رغم مظهره الأنيق. عندما يميل شيراكاوا رأسه لمراقبة باو، كما يفعل من حين لآخر، يشعر باو بأن كل شعرة على رأسه تنتصب في سحابة من التوتر. إنه إحساس جربه بضع مرات في حياته. مرة عندما كان طفلًا في غابة خيزران، ومرة أخرى عندما تحرك الستار الأحمر المتسخ في بيت وسيطة الثعالب بفعل يد خفية.

قال باو لنفسه: **هذا هراء**. في الحقيقة، بدت شكوكه السابقة حول تورط شيراكاوا مع النساء المجمدات في موكدين ضبابية الآن، كما لو كانت ملطخة بالحبر. مهما كانت الشائعات حول شيراكاوا (فعندما يراه باو شخصيًا، يفهم تمامًا لماذا تتحدث الألسُن)، إلا أنه مجرد إنسان. لديه ظل، ويرتدي ملابس لائقة، ويجلس بطريقة مهذبة. إنه لا يشبه الوحوش في شيء.

وهكذا، عندما قدّم شيراكاوا إجابة ملتوية وغير واضحة حول علاقته بالخدمة، تجاهل باو الأمر وحدّق إلى النافذة الجانبية متظاهرًا بعدم اكتراثه.

لكنه سرعان ما تخلّى عن هذا التظاهر عندما وصلت عائلة هوانغ من دار الأدوية.

جاء ثلاثة أجيال: السيد الحالي (قصير القامة، أصلع، وقلق)، وابنه (يرتجف مثل قطعة التفوف)، والجدّة. امرأة صغيرة الحجم، تسير بخطى يقظة تشبه حركة الطيور. أوجت ملابسها الكثيبة بأنها أرملّة. لم يلمح باو سوى لمحة سريعة من وجهها قبل أن تُقاد إلى مقعدها أمام السيد تشين. كانت الكراسي الفاخرة المصنوعة من خشب الورد مرتبة بطريقة مزعجة تشبه جلسة استجواب. جلست الجدّة، فدفعته جلستها المتزنة ليحبس أنفاسه. بدت كحيوان صغير يجلس على قوائمه الخلفية.

تحرك باو، محاولاً الحصول على رؤية أوضح. تساءل عمّن تُذكره، وهل سبق أن التقاها من قبل. لاحظ السيد تشين، الذي كان سريع الملاحظة، كلّ إيماة لرأس باو، ومن الواضح أنه يتفق معه في أن شيراكاوا ليس جديراً بالثقة. والآن، كان يصغي إلى اعتذارات السيد من دار الأدوية بنفاد صبر. بحلول الوقت الذي تحوّل فيه الحديث إلى الخادمة المفقودة، كان لون وجهه قد تحول إلى لون أرجواني كئيب يشبه كبد البقر.

تمنى باو أن تكون السيدة الثعلب، قد هربت بعيداً جداً إن كانت هي الخادمة المفقودة حقاً. إذ لا يمكن لأحد أن يساعدها إذا وقعت في قبضة رجل ثري مثل هذا، مع حرسه الخاص. يعلم باو أكثر من غيره إلى أي مدى يمكن أن تصل الأمور مع الزوجات أو المحظيات المخزيات، اللاتي يُعاقبن أحياناً بالحبس أو يجبرن على الانتحار. خارج هذه الجدران السميكة، تسود المجاعة والأمراض، وتبيع العائلات أطفالها من شدة الجوع. لن يثير اختفاء خادمة اهتمام أحد؛ إلا إذا كان هناك من يرغب بها. دون استئذان، ظهرت صورة السيد وانغ في ذهن باو، بوجهه الأصفر الذي يشبه قناع الموت المصنوع من الشمع.

والآن، كانت الجدّة من دار الأدوية تُجيب على الأسئلة، ونبرة صوتها المتأنية والمدروسة جعلت نبض باو يتسارع. لهجتها من الشمال، لهجة طفولته. قبض باو على ذراعي كرسيه الأملس وهو يميل إلى الأمام. أخذ الاستجواب منحني سيئاً بوضوح، حيث بدت الإجابات غير مرضية. ظهر وريد بارز في عنق السيد تشين النحيف، وكأنه ديك غاضب.

ثم صرخ السيد تشين: «لن يغادر أحد حتى أجد هذه الخادمة!» كان الأمر أشبه بمسرحية صينية سيئة، حيث تسير الأحداث بشكل خاطئ، ويوشك الجنرال أن يفقد رأسه. ثم فُتح الباب في مقدمة غرفة الاجتماع... ببطء، إذ كان ثقيلًا ومنحوتًا من الخشب الثمين، مثل كل شيء في هذا الجناح الذي يساوي أكثر من أجر حياة عشرين فلاحًا... وظهرت هي.

عرف باو على الفور أنها هي، رغم أن المرأة الحقيقية كانت مختلفة عن الصورة بالأبيض والأسود. تلك العينان الواسعتان المشرقتان؛ ذلك الجسد النحيل القوي، والمرن كأغصان شجرة رشيقة يتدفق فيها النسغ الأخضر. لا شك أنها كانت تستطيع تسلق جدار، كما وصفت الفتاة الصغيرة في بيت الهوى. ولكن الأكثر لفتًا للنظر هو وجهها المرح الجذاب. لم تكن الملابس الخشنة أو النظرة المنخفضة المتعمدة، التي تحاول بها أن تبدو نادرة، كافية لتغطية سحرها الطاغي. كل شيء آخر في الغرفة -كالأثاث، وأشعة الشمس المتناثرة على الأرض الحجرية- تلاشى، وكأن اللون قد تسرّب بعيدًا. وشيراكاوا وحده من بقي يقظًا، بلامحه الأنيقة التي ارتسمت عليها تجاعيد انزعاجه.

اقتربت من السيد تشين بتهذيب تام، ووضعت ذراعيها في كمّي ثوبها وانحنيت. ذكّر هذا الإيماء باو بالشعائر القديمة المرسومة على لوحات الحرير القديمة. وبين حضورها وحضور شيراكاوا، بدأ باو يشعر بالدوار. كان صوتها منخفضًا وساحرًا: «أشعر بأسف عميق على رحيل ابنك. فقدان طفل هو مصير أسوأ من الموت».

وعلى عكس شيراكاوا، لم يكن في كلماتها كذب. لقد شعرت بالفعل بألم السيد تشين. رآه في عينيها الصافيتين المليئتين بالحزن. كان في ظلامهما البسيط شفافية غير خادعة تذكره بحيوان بري.

تفاجأ السيد تشين للحظة، لكنه استعاد تماسكه أسرع من الخدم حوله. ولاحظ باو أنه ليس سهل التأثر عليه. قال: «من أنت؟»
- أدعى آه سان، خادمة هذه السيدة الموقرة، سمعتُ أنني دُعيت ، فأتيتُ بأسرع ما يمكن.

كانت كلماتها في غاية التهذيب. هذه امرأة متعلمة، رغم أن باو لم يستطع فهم تناقض ملابس الخادمة مع طريقتها في الحديث. سعل السيد تشين قليلاً وقال: «هل 'آه سان' هو اسمك الحقيقي؟»

قالت بوقار: «بالطبع لا».

تلعثم السيد تشين، ولم يعرف كيف يتعامل معها، ولا حتى باو؛ وكل ما كان يعرفه هو أنها لم تكذب بعد.

- هل كانت لديك علاقة مع ابني؟

- لا أرغب في الحديث عنه بسوء، لكننا بالكاد كنا نعرف بعضنا.

- ومع ذلك، تشاجرتما على متن السفينة قبل وفاته.

- نعم. لقد صفعته على وجهه.

صدر صوت صدمة خافتة من الجدة، ووضعت يدها على فمها.

- لماذا؟

أجابت: «طلب مني زيارته في مقصورته تلك الليلة. وعندما رفضت، حاول خنقي». ثم رفعت الوشاح حول عنقها لتُظهر الكدمات التي بدأت تتلاشى لكنها لا تزال واضحة: «لحسن الحظ، أنقذني هذا السيد وسيدتي».

وعندها، نظرت مباشرة إلى لوو، الذي شحب وجهه، فقد وجّه له السيد تشين نظرة اتهام حادة. من الواضح أن هذه كانت أخباراً جديدة له. على عكس كلمات شيراكاوا المعسولة، كانت هذه المرأة مُربكة بطريقة مختلفة تماماً. أدرك باو الآن لماذا انجذب السيد وانغ، عميله الأصلي، إليها، وأيضاً لماذا ادّعى خدمه أنها لا تجلب سوى المتاعب.

قالت: «كان ذلك آخر لقاء بيننا».

ثم ساد صمت بارد في الغرفة. وحوّل السيد تشين نظره إلى باو ليرى إن كانت تكذب. أشار باو بحاجبيه أنها تقول الحقيقة، لكن الرجل كان أشد غضباً من أن يتقبل ذلك.

قال السيد تشين: «هل تقصدين أنك لم تري ابني مرة أخرى؟»

- نعم.

هل أرى شفقة في عينيها؟ إنه أسوأ شعور يمكن أن تظهره لرجل كالسيد تشين، الذي اعتاد السيطرة، وعزل نساءه في أماكن عالية الجدران. قفز فجأة وصرخ: «أنتِ تكذبين! خذوها بعيدًا».

هزَّ باو رأسه بئأس، لكن السيد تشين رفض النظر إليه. لم يكن لغضبه وحزنه حدودًا، في الوقت الذي انفجرت فيه الغرفة بالضوضاء. وسط الفوضى، كان شيراكاوا يحدق إلى هذه المرأة التي تجرأت على الرد على السيد تشين. جرى بينهما تواصل غير معلن، وكأن حوارًا صامتًا دار بين نظراتهما عندما هزَّ شيراكاوا كتفيه بلا مبالاة.

ومع ذلك، انتهى الأمر بسرعة كبيرة، لكن ربما لم يكن هذا مفاجئًا. لا أحد يدعي أن هذا كان تجمعًا متكافئًا. كانوا في منزل السيد تشين، محاطين بحراسه الخاص. إذا اختفى سيد دار الأدوية وعائلته، فقد يسبَّب ذلك بعض المشاكل، لذا لم يُحتَجَزُوا. بينما كانت المرأة الشابة هي من سُحب بسرعة بيد الحارس الذي اشتبه باو أنه أبكم، إذ استجاب فقط لإشارات يد السيد تشين. وقبل أن يتمكن أي شخص من الاعتراض، كانت قد اختفت.

بمجرد رحيلها، استعاد السيد تشين السيطرة. وأعلن ببرود نافئًا الغضب من أنفه الذي لا يزال مشدودًا كما لو كان معجونًا بيد قوية: «نظرًا لوفاة ابني، بالطبع يمكنكم إعاره خادمتكم لي لبضعة أيام؟» بدا الأمر منطقيًا تمامًا، فصمتت عائلة دار الأدوية مندهشة، ثم خرجوا على عجل. حتى شيراكاوا غادر دون احتجاج.

وقف باو أيضًا. فأمسك هونغ بكمه وقال هامسًا: «معلم باو، ما رأيك؟» قال باو: «اعذرني، عليَّ أن أسألكم بعض الأسئلة».

أطلقه هونغ على مضض: «حسنًا، لكنَّ السيد تشين سيرغب في سماع ما تقوله».

رَكَزَت عينا السيد تشين الصغيرة، التي تشبه حبات الفاصوليا السوداء المخمرة، على باو. كانت نظراته اتهامية لكنها حزينة للغاية. فانحنى باو وخرج على عجل.

وبينما كان باو يهرول عبر متاهة القصر، سأل أحد الخدم عن كيفية العثور على البوابة الرئيسية. كان يبحث عن عائلة دار الأدوية. ولم يكونوا قد

ذهبوا بعيدًا. وفي الشارع الواسع بالخارج، الذي تصطف على جانبيه أشجار الجميز، رأى العائلة على وشك الركوب في عربة الريكشا.

«انتظروا!» صاح لاهنًا وهو يركض نحوهم. كان متقدمًا في العمر على مثل هذه التصرفات، لكنه تجاهل الألم في صدره، والنفزة في ركبتيه الضعيفتين. استداروا عند سماعه، وعندما نظر إلى المرأة الصغيرة، عرف فجأة من تكون: «تاغتا!»

لكنه ندم على ذلك فورًا. فليس من اللائق أن يركض رجل غريب وراء أرامل محترمت في الشارع، وهو يهتف بأسمائهن الشخصية. عبس سيد دار الأدوية، وسحب ذراع والدته لإبعادها. لكنها قالت بدهشة مبهجة: «باو؟» «نعم، إنه أنا!» وتقدم خطوة نحو ضوء الشمس الساطع، خارجًا من ظل المباني.

وبينما فعل ذلك، نظر حفيدها إليه برعب محض، وكأن باو شبح أو مخلوق من عالم الأموات.

51

كان عليّ أن أظل صامته منذ بدأ الاستجواب. لكنني لا أستطيع التحكم في طبيعتي؛ فالتعليقات الساخرة هي الجانب الآخر لشجاعتي. لقد علّقت فوق أسوار المدن بسبب عنادي، لذا كنت أمل ألا تكون لدى السيد تشين (الذي أصبح وجهه الآن بنفسجياً تماماً) خطط مشابهة. ربما تكون هذه هي النهاية.

منذ أن فقدت طفلي، مرّت عليّ لحظات كثيرة راودتني فيها أفكار كهذه. لماذا أستمّر؟ لقد مات بكتو وغرق الشاب تشين. إذا كان الصراخ في وجهي سيجعل والده يشعر ببعض الراحة، فأنا راضية بذلك. لذا لم أقاوم عندما جرّوني بعيداً.

كان أمر السيد تشين: «خذوها بعيداً»، مصحوباً بتلوحة يده. لم أكن أستطيع التحدث مع الحارس، مما يعني أن قدرتي على التأثير عليه كانت محدودة. في الواقع، هذا هو أحد الأسباب التي جعلت مثل هؤلاء الخدم مطلوبين بشدة في الماضي. صوت الثعلب هو أحد أسلحته الرئيسية. كثير من النبلاء، رجالاً ونساءً، أغوتهم الكلمات الهامسة عبر شقوق الجدران. لو كان السيد تشين عقلانياً، لأدرك أن حبسي لن يعيد ابنه، لكنني تفهّمت حزنه. لو كنت صديقة مع نفسي، فهل كنت أفكر حقاً في الانتقام لطفلي فقط؟ أم كانت مطاردة بكتو مجرد منفذ لغضبي الخاص؟ رغم أنني لم أتمكن من قتل بكتو بنفسي، كنت أشعر بشعور غير مريح بأنني ربما دفعتُ شخصاً آخر للقيام بذلك. مما عقّد الأمور عندي من الناحية الأخلاقية. وبينما كنتُ أحاول أن أكتشف أين تبدأ مسؤوليتي وتنتهي، وصلتُ إلى سجنِي.

أقول «سجن» لأن هذا بالضبط ما كان عليه. غرفة حجرية صغيرة قائمة في ساحة مقفرة ذات جدران عالية. لا نوافذ فيها باستثناء فتحة ضيقة في الباب، من الواضح أن من بنى هذا المكان يملك خبرة في حبس الناس، حيث

كان هناك فتحة مناسبة لتمرير الطعام تحت الباب. في الداخل، وجدت دلوًا لقضاء الحاجة، والأكثر إزعاجًا، حلقة حديدية مثبتة في الجدار. بدأ تعاطفي مع السيد تشين بصفته والدًا مفجوعًا يتلاشى فور أن رأيت هذا. بلا ريب، هذا الرجل ليس مجرد والد حزين، بل سَجَّانٌ محترف.

عادةً، لا يحتفظ المستثمرون الأثرياء بسجون خاصة. بدأتُ أشعر بالقلق. إذا قاموا بتقييدي إلى الحائط، فستكون الأمور سيئة جدًا، لكن الحارس دفعني إلى الداخل وأغلق الباب. سمعت صلصلة المفاتيح، ثم صوت المزلاج. كانت الرُّنْزَانَة تفوح برائحة بول الفئران المجفف واليأس. وبما أنني لم أملك ما يمكن القيام به، تراجعت واستلقيت على الأرض المغبرة وغفوت.

عندما تكون محبوسًا، من الأفضل أن تأحفظ على طاقتك حتى يحين الوقت المناسب. وبينما كنت أغرق في النوم، تملكني شعوران: أولاً، لم أكن أرغب فعليًا في الموت. ليس على أيدي عائلة تشين، في هذا السجن الحجري المريع، حيث لا يوجد حتى مرحاض لائق. ثانيًا، إذا قُتلت هنا، فقد يجن جنون كورو. وهذا أقلقني. شيرو له لحظاته (بما في ذلك إحراق نصف بلدة بعد أن خُدع في لعب القمار)، لكن كورو أكثر منهجية بكثير. ولم أكن أرغب في إضافة المزيد إلى ذنوبه. لدي شك رهيب بالفعل حول موت كل من يكتو وتشين.

وواسيت نفسي بفكرة أن كورو لن يعرف ما حدث هذا الصباح إذا أمسك شيرو لسانه. بالإضافة إلى ذلك، طافت صورة السيدة يوكيكو بيديها الناعمتين الملتفتين حول ذراع كورو في ذهني. لم يعد لديه أي سبب للبحث عني بعد الآن. ولا أي شخص آخر. شعرتُ ببعض الشفقة على نفسي، وأغمضت عيني بإحكام.

استيقظتُ من غفوتي بفزع حين انفتح الباب ببطء، وظهرت امرأة حزينة رثة المظهر لتضع طبق الطعام على الأرض. يبدو أن أحدًا لم يعطها تعليمات واضحة حول كيفية التعامل مع السجناء. لا يجب عليك أبدًا فتح الباب إذا لم تكونوا مقيدين، كما كان حالي. هذا هو الغرض من فتحة الطعام. كما أنها وضعت المفاتيح عرضيًا في جيبها، بحيث يمكن لأي طفل أن ينتزعها. لكنها

كانت فضولية: إذ حدّقت في وجهي بتساؤل. وتبادلتُ معها النظرات بدموع في عيني.

قلت لها: «يا أه جيه»، داعية إياها بالأخت الكبرى باحترام: «لماذا أنا محبوسة هنا؟»

أجابت: «ألستِ عشيقة السيد الشاب الثالث؟»

«كيف يمكن أن يكون ذلك؟ أنا امرأة فاضلة. كنت متزوجة، وكان لي طفلة». وبغرابة، بدأت دموعي تسيل فعلياً. لو كانت طفلي لا تزال على قيد الحياة، لحرصتُ على ألا تُحبس في غرفة كهذه.

- أنا متأكدة أنهم سيحتجزونك ليوم واحد فقط. السيد متوتر جداً لدرجة أنه اضطر للاستلقاء.

«كيف سأشرح هذا لزوجي؟ لم يكن لي أي علاقة بالشاب تشين». وتدفّقت الدموع على وجهي، ممتزجة بالمخاط. الآن كنت أبكي حقاً، ليس من أجل التظاهر فقط، بل لكل الألم والوحدة التي عانيتُ منها على مدى العامين الماضيين.

وبسبب تعاطفها، أحضرت المرأة إبريق ماء وقالت: «هاك، اشربي هذا». وبينما انحنّت نحوي، سرقت المفتاح من جيبها وأخفيته في كمي.

- لا أستطيع البقاء هنا. المكان مسكون.

عند هذا، ارتجفت المرأة: «هل قال لك أحد ذلك؟»

- لا، لكنني أشعر به. هناك شيء في هذه الغرفة. (ونظرتُ إلى السقف وأشارت بشكل غامض، متوقعة أن هذا السجن الصغير يحمل نصيبه من الشائعات المخيفة). مثل شخص بشعر أسود طويل.

كان التأثير مرضياً تماماً؛ إذ شحبت المرأة المسكينة.

- إنه معلق هناك الآن. أرجوك، دعيني أخرج!

قالت وهي تقف بسرعة وتبتعد: «لا أستطيع».

أضفت بصوت منخفض: «هناك أيضاً شعر أسود في الزوايا، كتل من شعر بشري».

لسبب ما، يكره البشر الشعر المقصوص، ربما لأنه مثل العظام، آخر ما يتحلل في القبور. ركضت الخادمة خارج سجني بفزع. كانت خائفة جداً

لدرجة أنها أسقطت المزلاج المعدني الرقيق دون أن تقفل الباب بالمفتاح: الذي كان الآن في كمي.

كل ما كان علي فعله الآن هو رفع المزلاج. لكن أولاً، جلست وتناولت كعك المانتو البسيط الذي أحضرته، وشربت الماء. ثم أخرجت السكين الصغيرة التي جلبتها معي من موجي. من حسن الحظ أن لا أحد اكتثر بتفتيشي، لأن السكين كانت تناسب تمامًا شق الباب. ثم بحذر، رفعت المزلاج من مكانه.

هذه هي المرة الثانية التي أتمكن فيها من الهروب في مجمع عائلة تشين في يوم واحد. من الواضح أنهم كانوا مهملين للغاية، فكرت في ذلك وأنا أقفل الباب خلفي وأضع المزلاج في مكانه. سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى يكتشفوا غيابي، وسيثير الباب المغلق الكثير من التساؤلات. والآن، ماذا علي أن أفعل؟ كان بإمكانني الهرب، لكن قد يتسبب ذلك في بعض المشاكل. بدلاً من ذلك، قررت زيارة السيد تشين شخصيًا.

الثعالب سقيمة بالفضول. لهذا السبب تجدنا غالبًا في المهرجانات، أو الشغب، أو حتى حفلات أعياد ميلاد الآخرين. لا أقول إن هذا أمر جيد؛ فقد قُتل العديد من الثعالب بسبب ذلك. لكن من أنا لأعارض طبيعتنا؟ لم أستطع مقاومة إلقاء نظرة في كل غرفة مررت بها. كانت فيلا السيد وانغ مليئة بالأشجار القزمة النادرة، أما منزل السيد تشين فكان يعج بالبورسلين العتيق واللوحات. تأملت هذا التشابه؛ عندما تملك من المال أكثر مما يمكن أن يُستهلك في عمر واحد، يبدأ الناس في المبالغة.

على عكس فيلا السيد وانغ المهجورة، كان هذا القصر مكتظًا بالناس. وإذا كنتُ أملك الخيار، فالزحام أفضل. من الصعب ملاحظة المتسللين عندما يمشي الناس بأقدامهم الثقيلة في الممرات ويتحدثون بصوت عالٍ. بحثت عن السيد تشين بطريقة منهجية؛ كان قد أثار انطباعًا بأنه مقاوم للثعالب، لكنني لم أتمكن من اختباره وجهًا لوجه. ورغم أن المهرة بيننا يمكنهم التأثير على الحشود، فإن معظم الثعالب تجد صعوبة في التأثير على أكثر من ثلاثة أشخاص في وقت واحد. لكن التعامل مع شخص واحد، في غرفة هادئة، أمر مختلف تمامًا⁽¹⁾.

(1) البشر المحصنون أمثال بكتو نيكان ضدنا نادرون جدًا. (المؤلفة)

عندما وجدت السيد تشين، لم يكن وحده.

كان يستريح في غرفة دراسة خاصة تطل على الفناء. وُضِعَتْ مزهريات كبيرة من البورسلين الأزرق من عهد مينغ بأناقة رفيعة هنا وهناك، وعُلقت على الجدران لوحات لمناظر طبيعية وسُحِب، وتكدست اللوائف الثمينة على الطاولات الجانبية. بدت الغرفة بأكملها كأنها حلم لمُشعل النار. كان السيد تشين مستندًا على أريكة مرصعة بالصُّدف، بينما جلس لُوو على مسافة تنمُّ عن احترامه.

تذكرتُ أن لُوو وتشين كانا أصدقاء طفولة، مما يفسر التوبيخ الذي كان يتلقاه لُوو من والد تشين.

قال السيد تشين، بوجهه المتلَوّن وصوته المبحوح: «لماذا لم تخبرني عن ابني وتلك المرأة؟ كيف يمكن أن يصل به الأمر إلى محاولة خنقها!»

قال لُوو وهو يتملل: «لم أرغب في إزعاجك». ثم أضاف بوجه المتجهم الذي يشبه وجه الجمل: «كل هذا خطؤها. لقد حاولت إغوائه منذ البداية».

ليس من اللطيف أن تتجسس عندما يكذب الناس عنك. عضضتُ أسناني وتقدمت ببطء أقرب.

- هل لأجلها ترك ابني دراسته؟ آمل من أجل مصلحة عائلتك ومصلحتي ألا يكون أي منكم قد تورط في ثورة سخيفة.

أبقى لُوو عينيه منخفضتين: «لم أفكر في ذلك أبدًا».

- سمعت أن هناك مشكلة مع مصور فوتوغرافي في موجي انتهى به الأمر ميتًا. هل كان هو الذي يُشاع أنه كان يبتزكم؟

تصلبت ملامح لُوو: «كيف علمت بذلك؟»

قال السيد تشين: «لدي مصادري. الصيف الماضي، ألقى طالب بنفسه من فوق جسر لأنه كان يُبْتَز بسبب صور فاضحة. لم أقل شيئًا حينها لأن الانحرافات مع النساء ليست من شأني، لكن الخيانة قضية أخرى. الحديث عن الثورة يمكن أن يُغرق هذه العائلة. وعائلتك أيضًا. لا تنس أنني أساعد والدك في سداد ديونه».

كانت نظرات السيد تشين القاسية مزعجة جدًا. قال: «هل كان ابني يتعرض لضغوط منه؟ من الأفضل أن تخبرني الحقيقة».

تراقصت نظرات لولو حول الغرفة بتوتر: «بالطبع لا. لقد طلبت مني مراقبته، وقد فعلت».

- مثلما لم تخبرني عن محاولته خنق تلك الخادمة على السفينة؟

- هذا... هذا لم يكن مهمًا. أردتُ أن أوفر عليك الألم.

حدّق السيد تشين إليه بنظرة ثابتة: «ولم تفعل في ذلك. تلك الفتاة مصدر للمتاعب. وقد تلقيتُ للتو خبرًا يفيد بأن شخصًا آخر قادم هذا المساء، وعلى ما يبدو أنه قادم بشأن تلك المرأة مرة أخرى. وصلتنى بطاقة من هذا الرجل». ورمى بطاقة تعريفية وملاحظة: «إنه ممول روسي. لا أعرفه جيدًا، لكن من الأفضل أن أراه».

وبدت الدهشة على وجه لولو، وكذلك على وجهي. فعلى حد علمي، لم يكن لي أي صلة بالمولين الروس.

52

إنها تاغتا حقًا. وقفت أمام باو مبتسمة بسعادة غامرة. كلما طال تأمله لها، تذكر تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تلعب معه في قلب أجمة الرندرة. خطت خطوة نحوه، ويدها ممدودة كما لو أنهما لا يزالان طفلين، ثم توقفت فجأة.

قال سيد دار الأدوية: «أمي، من هذا؟»

عرّف باو عن نفسه، ولاحظ الاضطراب الطفيف في عيني ابنها. صديق طفولة يعمل لصالح السيد تشين؟ سارع باو إلى طمأنتهم بأن الأمر ليس كذلك؛ إذ جرّه هونغ إلى هذا الموقف بحماسة، ولم يكن الأمر سوى صلة عابرة بالماضي.

قالت تاغتا: «لا يجدر أن نقف في الشارع، تعال إلى منزلنا. لقد مضى وقت طويل».

اقترحت أن يرافقه حفيدها في عربة الريكشا، بينما تتركب هي وابنها عربة أخرى. لكنّ الشاب قابل اقتراحها بتردد واضح، فشحب وجهه وأشاح بوجهه وبدا كأنه مرعوب من باو. لم تلاحظ تاغتا ذلك بسبب فرحتها، لكن باو شعر بالدهشة.

في العربة الضيقة، انكمش الشاب في الزاوية وارتجفت أصابعه، فتساءل باو عما إذا كان مدمناً على الأفيون. لكن حدقتي عينيه بدتا طبيعيتين، والعرق على جبينه بدا أقرب إلى التوتر.

قال باو بأدب: «شكرًا لمرافقتي اليوم».

بعد صمت طويل، كسر بوهاي سكوته وسأل: «هل كنت تعرف جدتي جيدًا؟»

- كنا أصدقاء طفولة.

قال بوهاي وهو يدير وجهه بتصلب: «فهمت». ومن وقت لآخر، كان الشاب يضع يده في جيبه بعصبية. تساءل باو عما إذا كان يحمل سكينًا، لكنه استبعد الفكرة. ورغم ذلك، فقد أثاره قلق الشاب، لذا شعر بالارتياح عندما توقفت العربّة أخيرًا. قفز بوهاي بسرعة وكأنه لا يستطيع تحمل الجلوس بجانب باو للحظة أخرى.

وعند عودتهم إلى دار الأدوية، استقبلهم كبير الخدم بقلق. قال مخاطبًا تاغتا: «كيف جرت الأمور، تاي فورن؟» ولاحظ باو أنه توجه بالسؤال إلى تاغتا وليس إلى سيد دار الأدوية.

أجابت بحزن: «لم تجر على ما يرام. لقد احتجزوا آه سان».

تساءل باو عما كانت تاغتا تفعله طوال هذه السنوات. خلال اليوم والنصف الماضيين، امتلأت الأحداث بالغرائب، وكأن قدرًا من الصُدف يعيد جمعهما، أو ربما يكون ذلك بسبب قوى الثعلب التي جمعتهما من جديد.

أخيرًا، أصبحا وحدهما. ليس تمامًا وحدهما بالطبع؛ كيف لأرملة محترمة أن تستقبل رجلًا بمفردها؟ لكن الخدم الذين وضعوا فناجين الشاي في الصالة لم يُبدوا اهتمامًا كبيرًا بباو، فهو في النهاية مجرد رجل مسن يزور سيدة مسنة. اعتذر ابن تاغتا لانشغاله بأمور العمل، واختفى بوهاي. جلسا على منضدة رخامية مستديرة، وتخلّلت العروق الرمادية سطحها البارد. شعر باو بنبضة في صدره بينما كانت تاغتا تصب الشاي. وذكَرَ لون الشاي الفاتح بعيون شيراكاوا.

سألته: «كيف عرفت أنه أنا؟»

- عرفتُ فحسب. وأنتِ؟

«لا أحد يناديني تاغتا غيرك». وابتسمت، فتجعّدت الخطوط حول عينيها.

- ولا حتى زوجك؟

- لقد رحل منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

لإخفاء شعوره بالسعادة السيئة، شاركها باو لحظة مختصرة عن حياته. وبينما تبادلا نظراتهما، شعر بالدفع ينتشر في صدره. أراد أن يسألها: هل كنتِ سعيدة؟ لكنه اعتبر ذلك جريئًا للغاية. وبدلاً من ذلك، قال: «هل عائلتك بخير؟ لا بدّ أن هذا اليوم قد مرَّ بصعوبة».

على عكس ابنها وحفيدها، لم تحمل تاغتا شكوكًا تجاهه: «أنا قلقة على خادمتي».

السيدة الثعلب، كما يسميها باو في عقله. هل يجب أن يخبر تاغتا بأنه أرسل للبحث عنها؟ لكنها سبقته وقالت: «لا أصدق أن السيد تشين احتجزها. هل يمكنك مساعدتها؟»

أشار قائلًا: «سأحاول. لكن بالكاد أعرف السيد تشين».

- إنه يثق بك. لقد رأيت كيف كان ينظر إليك. لا تزال لديك تلك العادة في التجهم عندما يكذب الناس.

ابتسم باو، محرجًا وسعيدًا في الوقت نفسه: «هل ما زلت تتذكرين ذلك؟»
- بالطبع. أنت الشخص الوحيد الذي كان يقول الحقيقة دائمًا. من فضلك، ساعدها. إنها فتاة طيبة.

فتاة طيبة. لم يكن هذا الوصف الذي سيختاره باو لوصف الثعلبة، فهي في الحقيقة أكثر إغراءً وتحديًا مما كان يتخيله. في الواقع، كلما فكر فيها، شعر بالدوار، تمامًا كما كان الحال مع شيراكاوا. بهدوء، نظر تحت الطاولة ليتأكد. كان ظله لا يزال موجودًا، متصلًا بقدميه، رغم أنه كان باهتًا تمامًا كما كان بعد استيقاظه من حلمه الغريب.

سألها: «هل سمعت أي شائعات عن الثعالب؟»

كان السؤال غريبًا لطرحه في غرفة هادئة، مع ساعة نحاسية مستوردة تدق في الزاوية، لكنه شعر أنه يمكن أن يسأل تاغتا. أضاءت عيناها، وأمسكت بيده: «كنت أنتظر أن أخبر أحدًا عن هذا، وأن تأتي بنفسك اليوم إنه لأمر مذهل».

سأل باو: «ماذا تقصدين بذلك؟» ودق قلبه بشكل غير منتظم، كأنه شاب في الرابعة عشرة من عمره. كانت يدها دافئة، وكأنها قبضت على قلبه.

قالت بحماسة: «عن الثعالب! هل تعتقد أننا التقينا اليوم بفضل الإله الثعلب؟»

اعترف قائلًا: «قدمتُ قربانًا ذلك اليوم. وضعت بعض لحم الإوز والأرز تحت شجيرة». وفكر: **هذا حديث مجانيين.** لكن تاغتا بدت مسرورة؛ وكأن السنوات قد ذابت وعادا ليخبر كل منهما الآخر بأسراره.

«لدي شيء لأخبرك به». هل ستقول إنها فكرت في باو على مرّ السنين؟ لكن تاغتا قالت بهمس: «لقد قابلتُ الثعلب الأسود».

صدم باو قائلاً: «هل فعلتِ؟»

«أعتقد ذلك. أو ربما حفيده». واحمرّت وجنتاها فشعر باو بتوتر في أمعائه. لو سمعهما أحد لظنّ أنهما مجنونان. وربما هما كذلك. فتح باو فمه محاولاً التفكير في شيء ليقوله، لكن حينها سقط ظل فوقهما. ابتعدا بسرعة كالأطفال المذنبين ليقابلا عيني بوهاي المتهمّة.

قال بوهاي: «جدتي، لماذا تمسكين يد هذا الرجل؟»

أخرجها الموقف، فأسقطت تاغتا يد باو وقالت: «أنا آسفة، نسيت نفسي». اعتذر باو أيضاً، لكن نظرات بوهاي ضاقت. ظلّ يحدق إلى باو بإصرار حتى كاد ينهض. وقال باو: «ربما ينبغي أن أذهب».

- بهذه السرعة؟ أين تقيم يا باو؟

عندما سمع حفيدها جدته تخاطب باو بهذه الألفة، رفع يده نحو جيبه، وشعر باو مجدداً بإحساس الخطر. أعطاهما عنوان نُزله، ونظر إلى وجه تاغتا الذي رغم تقدمها في العمر فلا يزال يحمل جمالاً، وكأنها آخر ثمرة برقوق تُركت لتتجدد في زاوية المستودع. لم يستطع إلا أن يفكر: **لقد أحببتكِ حين كنا في الرابعة عشرة، وما زلت أحبك الآن.**

- هل يمكنني زيارتك مرة أخرى غداً؟

- نعم، لدينا الكثير لنحدث بشأنه!

عبس بوهاي، فأخذ باو تلميحاً وغادر. بدا أن الشاب يكرهه بشدة، أو ربما كان قلقاً على جدته فحسب؟ فكر باو في أنه ربما تصرف بشكل غير لائق، بإمساك يدها والتحدث معها بألفة. الفكرة تبدو مضحكة في عمرهما، لكن المرأة، حتى ولو كانت جدة محبوبة، ليست حرة تماماً في فعل ما تشاء. في طريقه للخروج، مرّ باو بسيد دار الأدوية، الذي بدا قلقاً ومتحمساً في الوقت نفسه، وهو يقف في الممر المفتوح بين الأجنحة الخاصة بالعائلة ودار الأدوية. ومن الرسالة التي يُمسكها في يده، بدا أن رسولاً قد غادر للتو. ألقى

باو تحية مهذبة قائلاً: «شكراً لك، كان من الرائع أن ألتقي بصديقة قديمة مجدداً».

- سَعِدْتُ والدتي جدًّا برؤيتك.

بدا الرجل مشتتاً لدرجة جعلت باو يسأله إن كان بخير.

أجاب مبتسماً بخجل: «آه، نعم. لقد سمعتُ للتو أنني سأصبح أباً مرة أخرى. من المتوقع أن يولد الطفل الليلة أو غداً».

هناها باو قائلاً: «أتمنى لزوجتك ولادة آمنة».

قال سيد دار الأدوية وهو يحك حاجبه: «ليست زوجتي، بل محظيتي. إنها تقيم في منزل آخر». كانت المحظية القاطنة في منزل منفصل عادة تعني وجود توتر مع الزوجة الأولى. تساءل باو عما إذا كان الطفل المنتظر ولداً أم فتاة. إذا كان ابناً آخر، فربما يفسر ذلك توتر بوهاي. لكن لماذا يشعر بالتهديد؟ بدا في أوائل العشرينيات من عمره، وهو كبير بما يكفي للزواج وإنجاب الأطفال بنفسه. من المفترض أن يكون للأخ الأصغر تأثير طفيف.

أو هكذا ظنَّ باو. لكن في النهاية، لكل عائلة أسرارها.

لم أستطع أن أفكر في أي سبب يدعو ممولاً روسياً لزيارة السيد تشين والاهتمام بي. آخر مرة كنت فيها في فلاديفوستوك كانت منذ سنوات، عندما كانت المدينة قاعدةً بحرية للإمبراطورية الجديدة، وقد شعرتُ حينها أن الطقس هناك عذاب قاسٍ. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى الروس ولع مفرط بفرو الثعالب.

سمعتُ صوت خطوات تقترب. هل يمكن أن يكون هذا الروسي قادمًا الآن؟ كنت أقف بالقرب من الباب، خارج نطاق رؤية لوو والسيد تشين، ولم يكن لدي خيار سوى التراجع إلى الداخل. لحسن الحظ، عثرتُ على جرةٍ بورسلين ضخمة في الزاوية، بحجم رجل، واستطعت أن أختبئ خلفها.

درام، درام... دوى صوت الأقدام وهي تقترب. ودخل أربعة أشخاص إلى الغرفة. أحدهم خادم أعلن عن الباقيين ثم غادر؛ امرأة أنيقة ترتدي شالاً من الفرو؛ وشيرو؛ ثم (لا، أرجوك لا) كورو. ولم يكن هناك أي أثر للروس. بدا السيد تشين مندهشاً. قال: «ظننتُ أن السيد تورغنيف قادم. أين هو؟» قالت المرأة، التي قدّمت نفسها باسم تشو يولينغ: «أنا من أرسلت بطاقته؛ زوجته».

أو كان هذا هو الوصف الذي استخدمته. لكنّ جميعنا يعلم أنها كانت على الأرجح محظيته الرسمية في داليان، غير أنني أعجبتُ بها إلى حد ما. كانت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، بفك قوي ووجه عريض، وبدت مألوفة بعض الشيء. على ما يبدو، كانت من عائلة نبيلة مفلسة. سأل السيد تشين عن والدها، رغم أنه بدا مرتبكاً بشأن سبب وجودها هنا الآن. بصراحة، كنت كذلك، حتى لاحظتُ نظرتها السريعة نحو شيرو.

آه، فهمت الآن. شيرو هو السبب. كان عليّ أن أعجب بجراته، إذ أدركتُ فجأة أن تشو يولينغ كانت واحدة من السيدات اللاتي ودّعه عند رصيف

الميناء، حين غادرنا داليان. لماذا استدعى هذه المرأة التي كانت واقعة في حبه بجنون؟ كان بإمكانى رؤية ذلك في نظراتها النّهمة التي تنقّلت بينه وبين نفسها، وكأنّ جسده هو الشيء الوحيد الذي قد يُشبع نهما. كنت سأحذره من أنها وصلت إلى مرحلة خطيرة. لماذا لم يوقفه كورو؟ لكنى رفضت أن أنظر إلى كورو. لم أرغب في أن يتورط في الأمر على الإطلاق.

قالت السيدة، التي كانت ترتدي ملابس فاخرة، وكأنها تحصّنت بأموال راعيها: «سيد تشين، أنا هنا لأستعيد خادمة صديقي». «تقصدين خادمة دار الأدوية». لم يكن السيد تشين غيباً. - صحيح. سيدتها تريدها أن تعود.

- أعتقد أن هذا غير ممكن. لقد أخبرتُ السيدة العجوز أنني سأحتفظ بخادمتها.

ارتجفت شفتا تشو يولينغ المطليتان بالأحمر. لقد كانت جريئة جداً، إذ تذرّعت باسم راعيها للدخول على أمل أن يفتح ذلك لها الأبواب، وهو ما حدث، لكن فقط إلى هذه المرحلة.

شدّ السيد تشين شفتيه بازدياء. وقال: «سأعيدها بعد أن أفرغ من استجوابها. بعد كل شيء، تقولين إنك تفعلين هذا لصالح صديق» -وهنا ألقى نظرة ذات مغزى على شيرو- «لكن في ضوء فقدان ابني، من المؤكد أنك تفهمين أن حقي أكبر».

حرّك كورو كتفيه حركة طفيفة، وكانت تلك إشارة على أنه قد اتخذ قراراً. كان ذلك يعني أنه مستعد للذهاب حتى النهاية مهما كانت النتيجة. لا أطيق أن يتخذ الناس قرارات عني. وفوق هذا، كنت قد تعبت من الاختباء خلف الجرة، فظهرت أخيراً. لكنّ بريق ظهوري أفسد بسبب تعثري في نبات مزروع في الأضيص، إلا أنه كان مرضياً بما فيه الكفاية. إذ تحول وجه السيد تشين إلى اللون الأرجواني. وبدا وكأنه قد يُغشى عليه إن واصلتُ الظهور دون استدعاء. صرخ: «أنتِ!» كانت تحية غير لائقة، لكن نحن الثعالب اعتدنا على هذا النوع من الاستقبال: «كيف هربتِ مجدداً؟»

تجاهلت سؤاله وقلت: «ألم ترغب في استجوابي، يا سيد تشين؟»

رُمشت عيناه بسرعة، مثل سحلية على الحائط. وجعل التوتر في الغرفة أذنيَّ تطنان. ليس من الجيد وجود الكثير من الثعالب في غرفة واحدة، خصوصًا عندما يحاول كل منها فرض إرادته. كنت أتوقع أن أرى الفراء يتطاير، فالأجواء كانت مشحونة جدًا. ركزت إرادتي على السيد تشين؛ كان عليَّ فقط أن أجعله يوافق على شيء واحد. وعلى الصعيد الذهني، تمنيتُ أن يبقى الآخرون بعيدًا عن الأمر.

أخيرًا، قال بصوت مخنوق: «نعم».

نظرتُ بسرعة في أنحاء الغرفة. لم يكن لـوو (الذي كان لا يزال متجمدًا في مكانه)، ولا السيد تشين معرضين بشكل خاص لتأثير الثعالب. أما السيدة تشو يولينغ -التي فتحت الطريق لشيرو وكورو إلى هذا المنزل من خلال علاقتها بممول روسي- فكانت عنصرًا غير متوقع.

دق قلبي بشدة. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن حاولت فعل شيء كهذا أمام الكثيرين. قلت: «إذا وافقتُ على طلبك، فهل ستوافق على طلبي؟»

يجب دائمًا أن تحدّد شروط العقد بوضوح، سواء كان بينك وبين بائع السمك أو جنرال الإمبراطور المُفضّل.

- نعم.

وتلألأت عيناى. أعلم أن هذا غير مناسب تمامًا، لكنني أشعر دائمًا بهذه الإثارة عندما أعقد اتفاقًا رسميًا، رغم أنني أحاول تجنب إظهار ذلك قدر الإمكان. تحول الهواء في الغرفة إلى برودة مفاجئة، كما لو أن ريحًا شمالية تسللت إلى المكان. وانتصب شعر الرجال في رقابهم.

قلت: «ما الذي تود معرفته مني؟ ما هي رغبة قلبك الآن؟»

ارتعش السيد تشين. من الواضح أنه لم يكن معتادًا على أن تواجهه امرأة بأسئلة كهذه.

قال أخيرًا: «ابني. سمعتُ أنه كان على علاقة بك. أريد أن أعرف ما إذا كنتِ حاملاً بطفله».

وهنا فهمت أخيرًا ما الذي كان يسعى إليه ولماذا أصر على إحضاري إلى هذا المنزل. يا له من أمر محزن جدًا. أعرف تمامًا ما يعنيه التعلق بقطع من الأمل، حتى بعد أن تفارق الروح هذا العالم.

- هذا ليس صحيحًا. لم تكن لدي أي علاقة به.

أغمض السيد تشين عينيه وقال: «لكن قلتِ إنك ستمنحيني رغبة قلبي! لم تحققها بعد».

أوه لا. كنت قد افترضتُ أن رغبة قلبه كانت استجابي. لقد كنتُ مهمة في صياغة الاتفاق. انقلبت عينا شيرو قلقًا، أما كورو... فلم أرغب في أن أعرف ماذا يفكر. أخذتُ نفسًا عميقًا، وشعرتُ بالغرفة ترتجف على حافة التوتر. كان يجب أن يُنجز الأمر بسرعة، قبل أن أفقد انتباه الجميع.

- لقد أجبتُ على سؤالك. الآن، طلبي هو أن تترك عائلة هوانغ وشأنها. قبل أن يتمكن من الرد، قطع صوت كورو الحاد الغرفة مثل سكين مظلمة: «لا تستمع إليها. سيد تشين، لا تقبل هذا الاتفاق».

بمجرد أن تحدث كورو، انقطعت خيوط الانتباه الرقيقة بين الجميع، مثل خيوط عنكبوت تتفرق في مئة اتجاه. تشتتت أفكارهم، كأنها كرات رخامية تدرجت على الأرض. وانهار التوازن الدقيق الذي كنتُ أبنيه.

صرخت بغضب: «ماذا؟» كان هذا تصرفًا خطيرًا، ولا ينبغي لثعلب أن يفعل ذلك بثعلب آخر، خاصة عندما يُعقد التفاوض على عقد صحيح. قال شيرو ببرود: «بالضبط! سأعيدها إلى المنزل الآن»، وأمسك بمعصمي. صدرت صرخة من تشو يولينغ، ممثلة بالألم: «شيراكاوا، قلتِ إنها مجرد خادمة. ماذا تعني لك؟»

وفي اللحظة نفسها بدأ لُو بالصراخ. كان صراخه حادًا وصادمًا لرجل طويل القامة. بعض الناس لا يتحملون التأثير الذهني، خاصة إذا كانوا متوترين بالفعل. اندفعتُ نحوه وصدفته بقوة على جبهته. فهذا هو السبيل الوحيد لإيقاف الناس عن الانجراف في أوهامهم، كأن يُجبروا على أكل الجوز والديدان، ثم يصيبهم الجنون ويحرقون جميع الثعالب في المنطقة.

انقض لُو عليّ، بعد أن قلبَ كرسيه، ودارت عيناه إلى الخلف، مُصدرًا أصواتًا مرعبة وهو يسقط عليّ. ترك شيرو معصمي بينما كانت تشو يولينغ تتشبث به وتبكي. وأمسك كورو بلُو من ياقة قميصه. كان الأمر أشبه بفوضى عارمة سيطرت على الغرفة، وكأن الجنون كان يتسرب في كل مكان. وانقلبت مبخرة لتنتثر الجمر المحترق على الطاولة. حينها فغر السيد تشين فاه وهو

يشاهدني أمسك بركبتيه، فارتد إلى الورا من الرعب (فربما لم يجرؤ أحد على التعامل معه بهذه الجرأة لسنوات).

صرخ: «أتركيني، أيتها المرأة الوقحة!»

- لم أنتهِ بعد! أريدك أن تترك عائلة هوانغ وشأنها.

- لماذا يجب أن أوافق على صفقة معكِ؟ ليس لك مكانة أو عائلة... أنتِ لا شيء!

رفع كورو ذقن السيد تشين بقبضة طويلة الأصابع، قابضاً على وجهه بقوة شديدة؛ حتى استطعت رؤية بياض مفاصله.

قال كورو: «إنها زوجتي».

أطبق صمْتُ تام للحظة، حتى إنني استطعت سماع عصفور يغرد من بعيد. وبرز وريد على رقبة كورو وهو يُمعن في عيني السيد تشين. شعرت بالضغط في الغرفة، كان ثقيلًا لدرجة أنني لم أستطع التنفس. أغمضتُ عيني، متمنية أن يتنفس الجميع بهدوء. توقف لُوو عن الصراخ. وبدا السيد تشين مرتبكًا، وحتى تشو يولينغ، التي كانت قد انهارت في عاصفة من البكاء، هدأت. ارتجفت ساقي وانقلبت معدتي، لكنني كنتُ أعلم أن هذا لن يدوم طويلًا.

قريبًا، سيستعيدون وعيهم، وبه ستعود موجة الضغينة التي تجرف من يدركون أنهم قد تأثروا بالأوهام. تلك الكراهية التي تتجلى في رغبة جامحة في إهلاك كل ثعلب في المنطقة. لا أحد يحب أن يشعر بأنه استُغفل، وعندما تلعب بمشاعر الناس، تكون العاقبة هي غضبهم العارم جرّاء خيانتهم. بدأتُ أشم رائحة النيران المشتعلة عندما أدركتُ أن هناك دخانًا حقًا. كانت النيران تلتهم الطاولة، المكدسة باللفائف الثمينة. فقد أشعلت مبخرة لُوو المقلوبة النار. تعالت الصرخات عندما تصاعد الدخان، والتهمت النيران الأوراق الرقيقة من ورق الأرز. تشوه وجه السيد تشين كقناع أوبرا، بينما استمرت تشو يولينغ في البكاء. ولم يكن هناك خيار سوى الهروب.

وقد هربنا فعلًا. لم أصدق مدى سرعة اشتعال الغرفة بالدخان، بينما كانت النيران تلتهم اللفائف المعلقة والستائر الحريريّة المتطايرة نحو الفناء.

جعلني صوت تحطم الخزف أرتجف؛ دُمِّرَ خزف سلالة سونغ خلال محاولات الخدم اليائسة لإطفاء النار، وهم يركضون كأنهم عش نمل مذعور. هرعنا عبر الأفنية وقفزنا فوق الأسوار. بعضها كان مرتفعاً جداً، لكن كورو ساعدني على تسلقها. وتبعه شيرو، يلهث ويتنفس بصعوبة. ولم أره يركض بهذه السرعة منذ سنوات.

عند السور الأخير، المحيط بالقصر الكبير ذي الأطراف المترامية، شعرت بقلبي يغرق. كان مرتفعاً جداً. لن نتمكن من تجاوزه. تصاعد الدخان الأسود خلفنا، وتردّدت صرخات الحراس عبر الفناء الحجري: «أمسكوا بهم!» ارتكز كورو على الحائط.

وقال لي: «قفي على كتفي».

- ماذا عنك؟

«لا تقلقي». كانت تلك هي الكلمات التي قالها لي خلال حصار المغول لمدينة كايفنغ.

صرخت: «هل جننت؟»

لم يُكلف نفسه عناء الرد، بل أمسك بي ورفعني إلى الأعلى. صرخ شيرو: «أسرعا أيها الحمقى!» ثم وجدتُ نفسي متربعة على قمة الجدار، أنظر إلى الجانب الآخر. كان عاليًا جداً، لكن لم يكن لدي وقت للتردد، إذ بدأ شيرو يتسلق بعدي، مستعيناً بكتفي كورو. أمسك بيديّ وأنزلني إلى الجانب الآخر، وقدماي تتدليان للحظة أرهبت قلبي. ثم أفلتني وسقطتُ، منحنية في وضع القرفصاء. تبعني شيرو بعدها. ومن خلف الجدار، سمعتُ صيحات تتعالى.

صرخت، بينما كان شيرو يجذبني: «ماذا عن كورو؟»

فأمسك بمرفقي وجرتني معه: «إذا أمسكوا بنا الآن، فلن يكون هناك جدوى.

هيا!»

تدفَّق الناس إلى الشوارع، يجذبهم الدخان المتصاعد والصرخات. كانت وجوهنا مغطاة بالسخام، وتمزّقت حافة فستاني، بينما انشق معطف شيرو من الخلف. كنا نبدو في حال يرثى لها، وربما كنْتُ سأضحك لولا قلقي على كورو.

- علينا أن ننتظره.

- لا تكوني سخيفة. سيخرج... أسرع!

لم أكن أعرف داليان جيدًا، لكن شيرو كان يعرفها تمامًا، حيث انعطفنا في زقاق تلو الآخر حتى وصلنا إلى الفناء الخلفي لمنزل أودا. بدا أصغر وأكثر بؤسًا في وضوح النهار، رغم أن شجرة الوستارية التي تقود إلى الطابق الثاني كانت في كامل ازدهارها الآن.

فتح شيرو الباب الخلفي، ثم صعدنا الدرجات إلى الطابق الثاني على أطراف أصابعنا، وأصدرت العتبات صريرًا. كان المكان معتمًا، والضوء القادم من النوافذ أخضر بفعل ظلال الوستارية بالخارج، وانبعثت رائحة المواد الكيميائية من الغرفة المظلمة بالأسفل. وقعت غرفة شيرو تحت السقف كما كانت في الليلة التي زرتها فيها. خالية، إلا من سرير مجعد وصناديق غير مفرغة. وجدت إبريقًا وحوضًا على منضدة، وماءً نقيًا. وبينما كنت أنظف الخدوش على يدي، نزع شيرو قميصه الممزق.

كنت متعبة جدًا لأقول أي شيء له، لذا استدرت وواصلت غسل وجهي: «هل سيأتي كورو إلى هنا؟» سألته.

اقترب من خلفي. لم يلمسني، لكنه كان قريبًا بما يكفي لأشعر بحرارة صدره العاري، ونسيم أنفاسه على أذني. قال: «لا يجب أن ننتظر هنا. سيأتي السيد تشين للبحث عنا».

سألته: «لكن ماذا عن كورو؟ هل اتفقتما على مكان للقاء؟» كان شيرو مراوغًا دائمًا، وبارعًا في الإجابات الملتوية، فوجب عليّ إجباره على التوضيح. قال: «كل هذا بسببك. كورو طلب -بل أصر- على أن نذهب إلى قصر تشين، رغم أنني قلت له إنها فكرة سيئة».

سألته: «إذًا طلبت العون من عشيقتك، تشو يولينغ؟» ثم تذكرت فجأة: «لقد تركناها وراءنا! ماذا ستفعل؟» كنت قد نسيت تمامًا أمر تلك المرأة المسكينة التي كانت تبكي بجنون عندما اشتعلت النيران.

- ستكون بخير.

- كيف تعرف؟ (واستدرت نحوه). ما كان عليك أن تستغلها. لن يتطلب الأمر كثيرًا لدفعها إلى حافة الجنون؛ ستصبح غير قابلة للسيطرة تمامًا.⁽¹⁾

(1) بعض الناس يطورون مناعة تجاه الثعالب، أو يصابون بالجنون إذا تعرضوا لتأثيرها بشكل مفرط. لهذا السبب نحاول أن نقلل من علاقاتنا بالبشر. ففكر فينا كدواء يجب

هزَّ كتفيه وقال: «لم يكن خيارى. إذا طُعنْتَ في أحد الأيام، سيكون ذلك بسببك».

لم أملك طاقة لجداله. ولم يكن أي من هذا سيجلب عزاءً لأب تشين في ذلك القصر المحترق، ولن يعيد طفلي إلي.

قال شيرو، وهو يغسل وجهه: «المشكلة معك ومع كورو هي أنكما عاطفيَّان».

نظرت إلى ظهره النحيل بغضب: «ذلك لأننا نملك ما يُسمى بالضمير».

- الضمير مُبالغ فيه. القداسة أيضًا مبالغ فيها. لم أفكر أبدًا في خوض الرحلة التي تستمر ألف عام.

- شيرو، يجب أن تنهي علاقتك بتلك المرأة بشكل صحيح.

- صدقيني حاولت. حتى إنني ركبُ سفينة لأتخلص منها.

- أنت تعلم أنه لا ينبغي عليك إبرام العقود بتهور.

فتح عينيه في رعب ساخر وقال: «أنتِ آخر من يتحدث! لقد قدمت للتو للسيد تشين رغبة قلبه. من الجيد أن كورو أوقفك».

- لم أكن أفكر بشكل صحيح. لم أفعل شيئًا كهذا منذ وقت طويل.

تنهد شيرو: «أنتِ ترتكبين الكثير من الأخطاء. وكورو على الأرجح انتهى».

صرخت غاضبة: «كيف يمكنك قول ذلك؟» ورميت المنشفة في وجهه.

تجنبها شيرو ببراعة وقال: «من الواضح، بسبب الندبة على وجهه. تعلمين أنه لن يبقى طويلًا على قيد الحياة هكذا. إنه معروف جدًا».

أخفضتُ رأسي وشعرت بحزن يمزقني.

قال شيرو: «هل تبكين، يا سنو؟ غريب، كنت أظن أنك لا تريدين رؤيته مجددًا».

في بعض الأحيان، لا أستطيع تحديد ما إذا كان شيرو يحاول أن يكون لثيمًا، أم أنه، بطريقة الملتوية، يحاول مواساتي. أبعدته عني، وذهبت لأستلقي على السرير. واصل شيرو تغيير ملابسه. وعندما انتهى، بدأ في حزم أمتعته وقال: «ألن تسأليني إلى أين ذاهب؟»

تناوله بجرعات صغيرة فقط. (المؤلفة)

- لا يهمني.
- لا تقولي لي إنك تخططين للعودة إلى قصر تشين للبحث عن كورو. هذا أغبى شيء يمكنك فعله. ولن يرضى هو بذلك. (ثم ركع شيرو، واضعًا ذقنه على السرير. بدا مرهقًا، وكأنه ملاك ينتظر أن أMLS على أذنيه، لكنني لم أنخدع به. وأكمل): قلتُ لك هذا من قبل، توقفي عن التحلي بالأخلاق الزائدة.
- أحاول أن أقلل الأضرار. وهذا أكثر مما يمكن أن يُقال عنك! لم تشرح لي أبدًا إن كنت متورطًا في تلك الحوادث التي تحدث عنها أودا.
- لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أتذكر كل وجبة تناولتها. علاوة على ذلك، لا أعتقد أن أيًا منهم كان ميتًا عندما افترقنا... كانوا جميعًا يقضون وقتًا ممتعًا. حتى إن إحدى الفتيات سحبتني من بيت شاي في موكدين، قائلة إنها تفضل قضاء الأمسية في المشي معي تحت الثلج. إنها دورة الحياة الطبيعية. نحن نصطاد البشر، وهم يقتلوننا كلما وجدونا. لا أشعر بندم أكثر من ندم سمكة قرش لقضمها ساق رجل.
- شيرو، أنت تعلم جيدًا أن هناك طرقًا أخرى للعيش.
- آه، لكن حينها لن أكون وحشًا، كما يقولون. (وأبرز شيرو أنيابه قليلاً). لماذا تكافحين ضد طبيعتك؟ عليك أن تستمتعي بالحياة. وابتسم: «ويُفضل أن تستمتعي بها معي».

سار باو عائداً نحو نُزْلِهِ، وشعر بتيار من النشوة يملأ صدره، إحساس لم يجربه منذ سنوات. وكأنه عاد إلى السابعة عشرة، بل ربما أصغر، ذلك العمر الساحر حين كان العالم مليئاً بالإمكانات. والسبب في هذا كان تاغتا. رغم تقدمها في العمر، فلم تتغير روحها. لاحظ باو هذا الأمر في أصدقائه القدامى؛ أجسادهم تغيرت، لكنها ما زالت تحمل تلك الأرواح التي عرفها منذ زمن.

تاغتا أرملة محترمة، وكان على باو أن يولي اهتمامه لأمر أخرى، بما في ذلك أمر المرأة المراوغة التي قابلها أخيراً. كما أن ذكرياته عن جلوسه في غرفة الاجتماعات لدى السيد تشين، مع تلك المرأة وشيراكاوا، بدت مشوشة بشكل غريب. كلما حاول التركيز على تلك اللحظات، شعر بنوبة من الحمى، وكأن حرارة جسده ترتفع وتهبط بغير انتظام.

الثعلبة الآن محتجزة في قصر السيد تشين، وقد أثار هذا قلقه، إضافة إلى أن تاغتا كانت قلقة بسبب الأمر. وبينما كان يسير تنفّس بحذر وأحس بأن يتزايد في رثته اليسرى. عاد إلى نُزْلِهِ، وأخبر نفسه بأنه سيستلقي للحظة، بما يكفي لتهدئة قلبه المتسارع واتخاذ قرار بشأن ما ينبغي فعله.

أغلق باو عينيه، وانسلّ من وعيه إلى عالم من الأحلام، حيث القصور والحدائق والأفنية الملكية المُفضية إلى جسور مُقنطرة. كان يجري على أربع، وقال دون تعجّب: لا بد أنني ثعلب، أو ربما كلب. كانت أقدامه الرشيقة تخطو على مسارات متعرجة، بحثاً عن شيء ما، أو ربما أحد ما. وعند قاعدة جسر حجري ينحني كظهر السلحفاة وجدها. ثعلبة بيضاء جميلة تقف هناك مائلة برأسها.

قالت: «كل شيء يحترق». كانت عيناها داكنتين وجادتين، مختلفتين تماماً عن تلك المرأة التي التقاها في قصر تشين، التي كانت تحرق بتحدٍّ دون مبالى. وفي الوقت نفسه، كانت هي نفسها. أراد أن يسألها: هل هذا

هو شكلك الحقيقي؟ لكن الإحساس بالدمار -المعابد والأبراج المحترقة، والستائر الحريرية التي تشتعل، والشرر المتطاير في الهواء- غمره تمامًا. كان يرى مدينة قديمة تشتعل، ربما تشانغان أو كايفنغ الأسطورية، يراها في عينيها.

- هل تبحثين عن شيراكاوا؟

- ليس هو.

ثم استدارت وبدأت تركض. لماذا تتجنب الثعالب لقاءه؟ لماذا تهرب في كل مرة؟ تطايرت جمرات وقطع نصف محترقة من الورق حوله، مثل عاصفة ثلجية من السخام. ازدادت رائحة الاحتراق قوة، حتى استيقظ باو وهو يلتقط أنفاسه.

من خلال النافذة المفتوحة، رأى باو عمودًا خافتًا من الدخان في الأفق. بدا أن هناك مبنى يحترق بالفعل في مكان ما. كان عليه أن يذهب إلى قصر السيد تشين ليقيم آخر المستجدات، وإن لم يستدع رسميًا. فسيكون الأمر سيئًا لهونغ إذا لم يعد باو أبدًا. جلس باو وزفر متنهدًا. وشعر بضبابية غريبة في رأسه، تشبه تلك الحالة المربكة التي يتذكرها من طفولته بعد الإصابة باليرقان، حين صلت له مربيته للإله الثعلب. أوشك دواء المعدة على النفاد وقرر أن يشتري بعضه في طريقه إلى قصر السيد تشين.

بينما كان يمر بجانب البوابة الجانبية لدار الأدوية فتحت فجأة. أطلت منها إحدى الخادמות، وهي نفسها التي قدّمت الشاي لباو وتاغتا في وقت سابق. عند رؤية باو، بدت الخادمة مرتبكة وسألت: «هل جئت لترى سيدتي مجددًا؟»

رد باو محرّجًا: «آه، لا، لقد نسيت أن أشتري دواءً للمعدة».

«إذا كنتَ ضيف تاي فُورِن، فلا حاجة للذهاب إلى المتجر». وقبل أن يتمكن باو من إيقافها، نادت الخادمة على أحدهم في الفناء: «أيها السيد الشاب، هناك ضيف هنا».

كان حفيد تاغتا هو من جاء إلى البوابة الجانبية. فتح بوهاي فاه واتسعت عيناه برعب عندما رأى باو. بالغ في رد فعله لدرجة أن باو تساءل عما إذا

كان الشاب قد مرض فجأة أو رأى شبحًا. نظر باو خلفه، ولم يرَ أحدًا آخر في الشارع الجانبي. كان وحيدًا، تحيط به أشعة الشمس المتأخرة.

قال باو على عجل: «لم أقصد إزعاجك. لقد مررتُ لأنجز أعمال أخرى».

خفض بوهاي نظره إلى الأرض، وحدَّق بشدة لدرجة أن باو نظر بدوره إلى الأسفل. رغم أن ظله كان لا يزال موجودًا، فإنه بدا باهتًا. أو ربما لم يكن؟ شعر بالدوار فجأة، ومال على البوابة ليلمسك بها. تملَّكه الشعور بانفصال الجسد الذي شعر به عندما استيقظ من قيلولته. بينما تجمد الشاب في مكانه، كأنه يواجه وحشًا خطرًا.

سأله بوهاي: «ما هي أعمالك الأخرى؟»

- أنا في طريقي إلى قصر السيد تشين.

«وأنا كذلك. طلبت مني جدتي أن أطمئن على خادمتها آه سان». بدا بوهاي وكأنه ندم على تفوهه بهذه العبارة. كانت يداه ترتجفان، وتساءل باو مجددًا عما إذا كان هذا الشاب في حال عقلية سليمة.

اقترح باو بحذر: «هل نذهب معًا؟» بعد أن أفصح كلاهما عن نواياهما.

نظر بوهاي حوله، عاضًا شفتيه بعصبية. ثم بدا وكأنه استجمع شجاعته، وانطلقا معًا على مضض. أوقفًا عربة الريكشا، وجلس بوهاي مرة أخرى بعيدًا قدر الإمكان. وبينما كانا يتحركان على طول الطريق، تنحنح بوهاي وقال بلهجة رسمية، خالية من أي تظاهر بالألفة: «سيدي، أنت لست رجلًا عاديًا، أليس كذلك؟»

هل أخبرته تاغتا عن قدرته الغريبة في كشف الأكاذيب؟ عندما يواجه باو شغًا، يميل إلى الاعتماد على الحقيقة. أجاب: «نعم، يمكن القول إن هناك شيئًا غريبًا بشأن حياتي».

ارتعش الشاب بذعر وهمس لنفسه: «كنتُ أعلم ذلك». ثم تمتم: «إنن، تعترف بأنك واحد منهم».

- واحد من ماذا؟

- من عديمي الظلال.

عجز باو عن الكلام. كيف عرف هذا الشاب عن أحلامه؟ أو عن طلب مربيته للإله الثعلب أن يأخذ ظله؟ لقد اكتشف الأمر مؤخرًا بنفسه، ولم يعرف كيف يرد. اشتدت رائحة الحريق مع اقترابهم من الزاوية.

قال سائق الريكشا: «يبدو أن هناك حريقًا أمامنا!»

نظر باو إلى الخارج. هل يمكن أن يكون قصر تشين؟ رأى الدخان يتصاعد من خلف الأسوار العالية، بينما كانت الكلاب الضالة تنبح بجنون والناس يصرخون. توقف سائق الريكشا غير قادر على التقدم. ونزل باو ليدفع أجره، لكن بوهاي بقي جالسًا في الزاوية، يتعرق ويرتجف.

قال الشاب: «هل جئت من أجلي؟» كانت عيناه الصغيرتان مفتوحتين على مصراعيهما من الخوف.

رد باو بلطف: «انزل، لن أؤذيك».

سأل بوهاي بخوف: «إذا لم تأت من أجلي، فمن هو الشخص الذي تلاحقه؟»

لم يفهم باو كلمات الشاب، وفجأة، دوى صوت هدير مدوّ، وانهار جزء من المبنى خلف الأسوار العالية. أطلقت الحشود صيحة جماعية؛ وانطلقت الصرخات. تراجع البعض، بينما تدافع آخرون للأمام بنشوة، مدفوعين برغبة في النهب. استغل الناس الحريق للتقدم، محدثين موجة من الدفع والجذب. فكر باو أنهما يجب أن يبتعدا سيرًا على الأقدام بدلًا من البقاء عالقيين في العربة، ومد يده مرة أخرى.

قال بوهاي بشفاه مرتعشة: «هل جئت من أجل جدتي إذًا؟»

ماذا يمكن أن يقول باو؟ «صحيح أنا أكرث بأمر جدتك».

شحب وجه بوهاي، ثم اندفع فجأة خارج العربة. ترنح الشاب إلى الطريق، ينظر حوله بذهول وكأن كل كوابيسه قد تحققت: «لا تلمسني!»

اندفع إلى داخل الحشد، الذي كان يهتف بجنون بينما يتطاير الشرر ويتصدع البلاط على الأسطح. تصاعدت النيران في الأفنية الداخلية؛ وصرح أحدهم بأن المنزل ممتلئ بالخزف الثمين، فاندفعت الحشود أكثر، حتى مع محاولات الحراس اليائسة من إبقاء البوابات مغلقة. وفي النهاية، انفجرت البوابة الثقيلة، وفي خضم الفوضى العارمة، ظهر شكل مظلم من القصر.

ثبتت عينا بوهاي عليه بذهول. فصرخ: «كوروساكي!» حتى وهو يندفع بعيدًا عن قبضة باو: «كوروساكي، أنقذني!»

من هو كوروساكي؟ تردد الشخص للحظة، ثم استدار نحو صرخات بوهاي المحمومة، محاولًا شق طريقه عبر الحشود. إن أصيب حفيد تاغتا في الشغب، فلن تغفر له أبدًا. حاول باو اللحاق ببوهاي؛ هل هو يمر بنوبة عصبية؟ بدأت النيران تلتهم الأسوار، وتدافعت الحشود بشدة مرة أخرى. وقد سُحق الناس حتى الموت في مثل هذه الاندفاعات من قبل.

كان قلب باو يدق بعنف عندما وصل إلى بوهاي أولًا وأمسك بذراعه. قال له: «تعال معي».

صرخ بوهاي: «اتركني!» وبمجرد أن لمس باو، انفجر خوفه. حاول التخلص منه، لكن باو تمسك به بإصرار. إذا اختفى بوهاي في الحشد، فمن يعرف ما الذي قد يحدث له؟ صرخ بوهاي: «لن أذهب معك! أبدًا!»

مدَّ بوهاي يده إلى جيبه، الجيب نفسه الذي كان يعبث به طوال الوقت، لكن الزحام كان شديدًا، ولم يستطع باو رؤية ما أخرجه إلا عند فوات الأوان. لمع المعدن، وأحس بألم حارق عندما غاص السكين في جنبه. أكثر ما شعر به كان الصدمة. لَوَّح بوهاي بذراعه بجنون، ووجهه ملئ من الرعب. كانت شفرة السكين مغطاة بالدماء، وتناثرت قطرات منها على وجه باو بينما اندفع بوهاي للأمام، يلَوِّح بالسكين في نوبة هلع. قفز رجل آخر إلى الأمام، بجسم رشيق وذراعين قويتين، واندفع بجسده ليحمي باو الذي ترنح تحت وطأة الهجوم.

رمى بوهاي السكين بعيدًا، وعيناه تدوران بجنون. وأخذ يهذي: «كوروساكي! لم أقصد أن أؤذيك! إنه بلا ظل». وأشار بأصبعه المرتعش إلى باو.

استدار الرجل الذي يُسمى كوروساكي لينظر إلى باو.

كان وجهًا لا يُنسى، حتى لو لم يكن مشوهًا بالندبة. فكر باو بضبابية أن هذا الرجل لا ينبغي أن يرى صورته على ملصقات المطلوبين للعدالة، فتلك الندبة لا يمكن نسيانها. بدأ رأسه يدور. وملأت أصوات الهدير أذنيه، أو ربما كانت أصوات الحشود الصاخبة؟ انحنى وضغط على جنبه. فرأى الدم يتدفق على يديه وهو يترنح إلى الأمام. نظر كوروساكي بعينيه العميقتين إلى

باو. عيان مظلمتان مثل بركة لا قاع لها، كبحيرة تحت ضوء القمر. كان باو يسقط، بل يغرق. مرت صور أمامه: بأذان منتصبّة وخُطم حاد يعبر أمواجًا لا تنتهي من العشب. وحيدًا يهرول أسفل جبل. ثم رمش باو فعاد إلى وعيه، مُحدِّقًا إلى عيني الرجل الغريب. عيان غامضتان، جادتان لا تنتميان إلى البشر. اخترقتا باو حتى بلغتا أعماق روحه، أو ربما كانت تلك الطعنة في جنبه.

فكّر باو بذهول تام: **تاغتّا، لقد قابلتُ الثعلب الأسود.**

بالطبع، لم أبقَ في غرفة شيرو. كيف لي أن أمكث في ذلك الجحر الضيق تحت السقف، حيث يدخل الضوء مخضرًا ومُبرقشًا من الأوراق بالخارج؟ قلتُ إنني سأبقى فقط لأصرف شيرو عني، لكنني لستُ واثقة إن كان قد صدقني. بعد أن بدل ملابسه، بدا شيرو أشبه برجل نبيل محترم. نحن نتظاهر عادةً بأننا أجنب من نوع ما، وكان واضحًا أنه قد استعد لذلك مسبقًا.

- أعتقد أنني سأكون السيد كيم، تاجرًا كوريًا متجولًا. هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أن تكوني السيدة كيم؟ سمعت أن جزيرة جيجو جميلة في الربيع.

لم أجبه إلا بزمجرة.

ابتسم شيرو ابتسامة مائلة وعيناه تضيقان: «آه، لقد نسيت. أنتِ متزوجة بالفعل. رغم أنك تركته مرة، يبدو أن كورو لم يغير رأيه بشأن وضعكما معًا».

- لماذا تستمر في محاولة التودد إلي؟ ألا تشعر بأي ولاء له؟

تنهد قائلاً: «لطالما كنت صديق كورو. وفي الوقت نفسه، لطالما رغبت فيك. هذا لم يتغير». لأول مرة، بدا شيرو جادًا تمامًا: «إنها مأساة حياتي».

كدتُ أنخدع بصدقه المفاجئ. ثم تذكرت أن شيرو يجيد استدراج تعاطف النساء... وأيضًا أن جميع خطيباته انتهت بهن الأمر ميتات في ظروف غامضة. فقلت له: «انقلع يا شيرو».

أجاب متأملًا: «لطالما فكرت في أين سينتهي بنا المطاف، نحن الثلاثة. هل تريدين سماع توقعاتي؟ أظن أن حياتي ستكون ممتعة إلى حد ما، ما لم أَسَمِّ. أما أنتِ، فغالبًا ستُعدمين بسبب وقاحتك».

- كيف تجرؤ!

أجاب شيرو بابتسامة هادئة: «لا أحد يجيبُ كما تفعلين. إذا كان هناك شخص يمكنه إكمال طريق الألف عام إلى القداسة، فسيكون كورو. لكنني لن

أَتوسَّم في حظوظه خيرًا بعد الآن. تعلمين ما فعله، أليس كذلك؟» وتراجعتُ إلى الخلف وأنا أزمجر، لكنه واصل كلامه: «أو على الأقل تشكِّين في ذلك. تلك الندبة على وجهه. أنتِ وأنا نعلم أن كورو من غير المحتمل أن يصاب بإصابة كهذه في قتال، إلا إذا كان الأمر مدبرًا ضده».

وحدَّق شيرو إليَّ بعينين كالنبيذ الأصفر والشاي المسموم. أعرف أنه قادر تمامًا على إيدائي لتحقيق مآربه. وأعرف أيضًا أنه يريدني وكورو أن نبقى معه، ولكن في ترتيب مختلف، حيث أكون أنا شريكته وكورو صديقه المفضل. يحب شيرو دائمًا أن يكون مركز كل شيء. ولكن يمكن اللعب بهذه اللعبة على طريقتي أيضًا، فأغلقت عيني كما لو كنت غير قادرة على تحمل الحزن.

تمتم: «كيف أثبت أنني جاد بشأنك؟»

- توقف عن قتل الناس أولاً! ليس فقط لأنه غير أخلاقي، بل لأنه يعرضنا جميعًا للخطر.

أمال رأسه وقال: «سأفكر في الأمر».

قلت محذرة: «لم أعدك بشيء بعد. يجب أن يكون هذا قرارًا نابعًا من أخلاقك».

- هل ستبقين هنا حتى الغد؟

فأومأت برأسي.

قال شيرو: «حسنًا، سأعود قريبًا». وانطلق ليقوم بما لا يعلمه إلا خالقه، ربما سيجمع المال من بعض المتبرعين والنساء. بمجرد أن سمعت صوت الباب الخلفي يُغلق، نهضت بسرعة وكتبت رسالة قصيرة إلى كورو في حال جاء إلى هنا. وثبَّتها على الجدار فوق السرير باستخدام سكين التقشير خاصتي. كان الأمر شاعريًا بعض الشيء، لكن لا يمكن أن يغفل عنها بهذه الطريقة. وبينما كنت أتحمس السكين، شعرت بوخزة من القلق. لا يُفترض أن يستغرق كورو وقتًا طويلًا للخروج من المنزل المحترق. لماذا تأخر كل هذا الوقت؟ في السنتين الماضيتين، بذلتُ قصارى جهدي لكبح مشاعر

الشوق أو القلق تجاهه، لكنني لم أستطع الآن سوى التساؤل عمّا إذا كان قد حدث له شيء.

تركتُ بعض الملاحظات الأخرى، بما في ذلك واحدة محفورة على الجزء السفلي من باب أودا الخلفي. ثم انطلقت في طريقي، بعد أن رتبت ملابسني التي كانت ملطخة بالسخام، على أمل ألا يصابوا بالذعر عندما أعود إلى دار الأدوية.

كنتُ أخطط لتوديع سيدتي العجوز. لا شك أن شيرو سيقول إن هذا علامة على ارتباطي بهذا العالم، لكنني لم أستمع إليه يومًا على أي حال. وبينما أسير في الشوارع، تنصّْتُ على أحاديث الناس. يبدو أن قصر السيد تشين لا يزال يحترق. كنتُ أعتقد أن رجلًا ثريًا سيكون لديه بيت أفضل تجهيزًا لمواجهة الحرائق، لكنهم عانوا من صدمة بعد وفاة ابنهم. وأدخلتني هذه الفكرة في حالة من التأمل. عندما فقدت طفلي، لم أستطع الأكل أو حتى الكلام من شدة الحزن. فالغضب والحزن اللذان استحوذا عليّ لم يتركا شيئًا، كما لو أن جنونًا قد حل بي... وهو جنون بدأ يتلاشى مع مرور الوقت.

كل الكائنات الحية تتغير استجابةً للآخرين. الخروج من السهول ورؤية أشخاص وأماكن جديدة خففت من قساوة قلبي المنفطر، رغم أن الارتباط يخلق نقاط ضعف. لهذا السبب اعتزلَ الحكماء والمتنسّكون في كهوف الجبال، رغم أن الذين قابلتهم كانوا جميعًا من الشيوخ المتسخين سيئي الطباع.

كان لدى سيدتي العجوز ما يكفي من المتاعب، بوجود ابنها الذي أنجب طفلًا آخر من محظية، وتصرفات بوهاي التي أصبحت أكثر تذبذبًا. شعرت بقشعريرة في عمودي الفقري. ذلك التحذير مجددًا، لكنني تجاهلته.

توجّهتُ إلى البوابة الجانبية، وطرقت عليها لتجنب الدخول من أمام المتجر. إذا اكتشف السيد تشين أنني مررتُ من هنا بعد أن أشعلت النار في منزله، فسوف يعقّد الأمور على سيدتي. ولدهشتي، فُتحت البوابة على الفور. كانت تينغ، خادمة المدام هوانغ. قالت: «آه سان، لقد عدت! شكرًا يا إلهي».

- هل كنتِ تتوقعين قدوم شخص ما؟

بدأت تينغ متوترة: «خرج السيد الشاب منذ فترة، لذا ظننت أنه قد عاد. لقد ذهب مع صديق قديم لتاي فورن. الرجل الذي جاء لزيارتها عندما عادوا من بيت السيد تشين».

من يكون هذا الصديق القديم؟ خطر لي ذلك الرجل الهادئ الذي كان يرتدي ملابس المسافرين في بيت السيد تشين. لكنني لم أَسْأَل طويلاً، لأن سيدتي العجوز خرجت بسرعة بفرح وارتياح واضحين. ركضت نحوي كفتاة صغيرة وأمسكت بيدي: «هل أنت بخير؟ هل آذوك؟ كيف خرجت؟»

فأجبتها بـ «نعم» و«لا»، ورفعت كتفي بقدرٍ من الغموض. يبدو أن أخبار الحريق لم تصل إليها بعد. ثم ذهبنا إلى فنائها الخلفي الصغير.

قالت بابتسامة: «هذا اليوم مليء بالعجائب. هل تذكرين صديق طفولتي؟ لقد التقيت به اليوم لأول مرة منذ خمسين عاماً».

قلت لها: «أتعنين الذي كان دائماً يقول الحقيقة؟»

إن كان شيرو محققاً بشأن ذلك الرجل العجوز، الذي اعتقد أن ثعلباً ما تلاعب به. أصبحت في حالة تأهب على الفور. لا يوجد شيء يُدعى «الصدفة البحتة»؛ عندما تتحرك تيارات القدر، غالباً ما يكون السبب هو رغبات البشر.

- كيف عرف مكانك؟

- صدفة. يقول إنه أصبح محققاً خاصاً. لقد تفاجأت، لكنني عندما أفكر في الأمر، يبدو منطقياً.

محقق خاص قادم من موكين؟ شعرت بوخزة في أنفي. يميل الأثرياء إلى مشاركة معارفهم، سواء كان الأمر يتعلق بتجار الفن، أو بيوت الهوى، أو المحققين الخاصين، وكان السيد وانغ والسيد تشين أصدقاء للعائلة.

سألتها: «هل أراد شيئاً منك؟»

ردت بابتسامة صادقة: «لا، كنا فقط سعداء برؤية بعضنا البعض». وبدأت مبتهجة حقاً. صديق الطفولة؟! ربما كان أكثر من ذلك بقليل، بالنظر إلى خديها المتوردان: «لكن سألني إذا كنت قد سمعت أي شائعات عن الثعلب».

قلت لها: «فهمت». عندما تتزامن ثلاثة أحداث أو أكثر بهذه الطريقة، فإن الثعلب الحكيم يعلم أن الوقت قد حان للاختفاء.

«يبدو أنك لست متفاجئة على الإطلاق، يا آه سان. لكنني سعيدة أنك بخير، لقد كنت قلقة للغاية. حتى إنني قدّمت قرباناً للإله الثعلب». ثم جذبتني من يدي لتريني مزاراً بدائياً تحت شجيرة. كان عليه ورقة مزينة بالزهور وكعكة محشوة بمعجون الفاصوليا الحلوة. مثل قربان طفل: جميل جداً، وإن لم يكن في الكثير ليؤكل. لقد أذابت قلبي قليلاً.

- لم يقتصر الأمر على عودتك، بل عاد صديقي باو أيضاً. سبب كوني أنا وباو مقربين، هو أننا بنينا مزاراً للإله الثعلب. لهذا أوّمن.

كان هذا هو الوقت المناسب، مع عدم وجود خدم آخرين حولنا. فتحتُ فمي لأودعها، لكن بدلاً من ذلك خرجت مني جملة مختلفة: «بماذا تؤمنين؟» جلسنا تحت شجرة الدردار على مقعد حجري. قالت: «يقول البعض إن الشيخوخة حزن، لكنني لا أرى الأمر كذلك. لكوني ابنة محظية، كانت فترة شبابي مليئة بالشك. تزوجت رجلاً في عمر والدي، وفقدت ابن زوجي، وكافحت لإدارة هذا المتجر وأنا أرملة. ومع ذلك، أشعر بسعادة كلما تقدمت في العمر. لا أرغب في أن أعود شابة مجدداً».

سألتها بدافع الفضول، رغم أنه كان علي الرحيل: «ولم ذاك؟»

أجابت بابتسامة، وقد تجعدت عيناها: «ما زالت مشاعري كما هي في قلبي. كما تعلمين، عندما رأيت باو، خفق قلبي قليلاً». ثم أضافت بابتسامة خجولة: «لا بد أنك تظنينني امرأة عجوزة بلهاء».

- الحب هو الحب، في أي عمر كان.

قالت وهي تحرك قدميها بخجل: «لست متأكدة إن كان يمكن أن نسميه حباً. لكن رؤية وجهه أعطتني شعوراً لم أتوقعه. أخبريني، هل تشاققين إلى زوجك؟»

كانت هذه أول مرة تسألني بهذه الجرأة، ولم أجد سبباً لعدم الرد: «كنتُ سأقول إنني لا أهتم إذا لم نلتق مجدداً. لكنني أظن أنني سأحزن إذا حدث له شيء».

- إذن، هل هو على قيد الحياة؟

كنتُ قد أعطيتها انطباعاً بأنه قد مات، لذلك اكتفيت بالإيماء.

- هل كان زوجاً مرتباً؟

- لا، لقد وقعت في حبه منذ اللحظة التي قابلته فيها.

كم أتذكر ذلك اليوم جيدًا.

كانت الرياح تهب من الغرب، رياح الخريف التي تفوح منها رائحة الأرض الصفراء المبللة والمطر. انحنى العشب تحت ثقل بذوره، وفي الأفق، اخترقت أشعة الشمس التي أزف رحيلها الغيوم المتجمعة. كنت أقف على قمة الوادي، أشاهد الطريق الأبيض المغبر في الأسفل وهو يتلوى عبر التلال الواسعة. واجتمع المطر والشمس معًا في ما يُطلق عليه الناس «يوم زفاف الثعالب»، رغم أن تلك مجرد خرافة شعبية. نحن نتزوج بالطريقة التي تفعلونها، باختيار يوم محظوظ يتفق عليه الجميع. وعلى أي حال، لم أكن أفكر في الزواج على الإطلاق.

كانت حملة تطهير الثعالب قد نزلت على مدينة لويانغ القديمة، وكنا نغادر. ومن كان لديه ممتلكات باعها (وفي بعض الأحيان باع ممتلكات الآخرين، لكن الثعلب الفاضل لا ينبغي أن يسرق)، أما الآخرون فقد غادروا بحقيبة فارغة. كنتُ شابة في ذلك الوقت، ولم أدرك أن ما كنت أشهده كان بداية انحسار سلالتنا البطيء. فكل عملية تطهير عظيمة قللت من أعدادنا، وأصبح أطفالنا نادرين وثمانين.

أمرتني جدتي أن أنتظر شابًا تأخر. قالوا إنه صديق شيرو. شعرت بالانزعاج. فشيرو دائمًا ما يسبب المتاعب (وما زال كذلك حتى الآن)، لم أكن أرغب في الانتظار من أجل رفيقه، ثعلب من الشمال يحمل اسمًا سخيفًا؛ «أسود». قد يكون أي شخص.

ثم ظهر كورو وهو يصعد التل نحوي. كان شابًا، جادًا، ووسيمًا إلى حد لا يُصدق. جوالًا كبيرًا مليئًا بالحبوب واللفت، وهو ما تبقى من مستودع في المدينة ليأخذه كبار السن، كما قال. دائمًا ما كان جادًا نبيلًا بطريقة سخيفة، فهو آخر من غادر، مخاطرًا بأن يُقبض عليه. لم يكن نوعي المفضل على الإطلاق، لكن نظرته اخترقت قلبي وتركت فراغًا لم يستطع أحدٌ ملأه منذ ذلك الحين. وبالطبع، تصرفتُ بحماقة.

ثم تنهدت.

لم تسألني سيدتي العجوز أي أسئلة أخرى، وهذا كان من حسن صفاتها. كانت تتمتع بنوع من اللباقة التي تتعلمها عندما تكون ابنة محظية وتعيش في بيت مليء بالعداوة. قالت لي: «أنتِ تخططين لتوديعي، أليس كذلك؟» وبالفعل، كنتُ كذلك. من بين جميع وداعاتي عبر السنين، كانت هي أول من توقع ذلك.

قالت بابتسامة حزينة: «أنا سعيدة بعودتك اليوم. لا أعرف لماذا أراد السيد تشين أن يبقيك، لكنه سيأتي للبحث عنك قريباً».

ومن بعيد، سمعت أصواتاً خافتة. على الأرجح كان قصر تشين المحترق يتعرض للنهب. لكن هنا، تحت ظلّ شجرة الدردار، كان كل شيء هادئاً وخضراً.

قلت لها: «سيدتي»، لكنني لم أتمكن من توديعها، إذ ارتفعت فجأة أصوات جلبة من المتجر الأمامي واندفع الخدم إلى الداخل.

- السيد الشاب في الشارع، وهو مغطى بالدماء!

لطالما توجّست من أن يتسبب بوهاي في المشاكل، لكن لم يكن هذا هو الوقت المناسب ليُثبت صدق توقعاتي. اندفعنا للأمام، حيث تجمع حشد صغير، يهتفون بشأن الحريق الذي ما زال يشتعل في قصر تشين، والذي كان يمكن رؤيته من جميع أنحاء المدينة. لقد التهم الحريق نصف المنزل، وكانت فرق الإطفاء تكافح للسيطرة عليه. لكن هذا كان آخر همّي في تلك اللحظة. فقد وقفتُ مذهولة أحرق في ثلاثة أشخاص تُغطيهم الدماء. كان سائق العربة الذي أحضرهم يطالب بأجره. قال إنهم كانوا ثقلين، وإن أحدهم مجنونٌ يدّعي أنه قتل شعباً.

ارتجَّ باو في عربة الريكشا، مستندًا على حضن الرجل الغريب الذي كان يُسمى كوروساكي. تساءل باو لماذا اعتقد في لحظة ما أنه ثعلب وليس إنسانًا؟ لا بد أن الصدمة أزاحت كل تفكير عقلائي من رأسه. في الركن الآخر من العربة، جلس بوهاي صامتًا، متجمدًا كأرنب مذخور. وسائق العربة، الرجل نفسه الذي أوصلهم إلى قصر عائلة تشين، كُفَّ الآن بإعادتهم إلى المنزل. وإن تردد في البداية بسبب الدماء، متدمرًا من ثقل حمولة ثلاثة أشخاص عليه.

قال كوروساكي ببطء وجهد ظاهر: «كنت سأساعدك، لكنني لست في حالة جيدة». ومع ذلك، كان لكلماته، أو ربما لنظراته النافذة، تأثير واضح. ارتجف سائق الريكشا كما لو أنه تلقى أمرًا غير مرئي، ودون مزيد من الشكوى، تابع المسير. في مرحلة ما، علقت العربة وسط الحشد، فمال كوروساكي خارج العربة وتحدث إلى المارة. فتحوا الطريق له على الفور، بل وساعدوا في دفع العربة لبعض الوقت. بدا الأمر غريبًا، لكنه كان مُرهقًا أيضًا، إذ في كل مرة يعود كوروساكي إلى مكانه، كان يبدو أشد شحوبًا.

لو لم يكن باو في مثل هذه الحالة الضعيفة ويشعر بهذا الألم الشديد، لكان قلقًا بشأن حالة كوروساكي أكثر، لكنه أبقى يده مضغوطة على الجرح الذي أحدثته السكين في جنبه. وأغمض عينيه وكزَّ أسنانه. كان الموت أكثر إيلامًا مما توقعه. لم تجرِ صور حياته الماضية أمام عينيه، بل كان يشعر بالذهول التام، وكأن جسده لم يستوعب بعد حقيقة أنه قد طُعن. كانت يده باردتين ورطبتين، بينما سال النزيف من جانبه بطيئًا لكنه متواصل. تساقط العرق من جبينه مع اهتزاز العربة نحو دار الأدوية. يا للمفارقة، أن يكون منزل بوهاي هو أفضل مكان لإحضار شخصين جريحين. واشتبه باو أن كوروساكي قد أُصيب أيضًا، فقد كان يجلس بحذر، داعمًا رأس باو ومحاولًا ألا يتحرك كثيرًا.

وحين وصلوا أخيرًا، أسقط سائق الريكشا عصيَّ العربية التي كان يحملها بعنف. وانقطع التأثير الذي أحدثه كوروساكي، وبدأ السائق بالصراخ مطالبًا بدفع أجرته. اندفع الناس من دار الأدوية كالنمل المذعور وسط نواح وصراخ. ترنح بوهاي خارج الريكشا، واقفًا بصمت ومرتجفًا. ركض سيد دار الأدوية نحو ابنه، ممسكًا بكتفيه وهو يصرخ من هول رؤية الدماء على يديه. فكر باو، وهو يشعر بالدوار، أنه لا يريد أن يموت على عتبة منزل تاغتا، حتى لا يملأ كوابيسها بهذا.

ثم رأى وجوهاً كثيرة، دموعًا غزيرة، وامرأة جميلة تبكي فوق باو. كانت فاتنة، كأنها خرجت من صفحات كتاب قديم، منحنية عليه. إنها المرأة الثعلب التي كان يلاحقها، الجمال الذي زار أحلامه. هل انتهت حياته، وهل هذه مكافأة السماء؟ لا، لأن عينيها الجميلتين كانتا متورمتين من البكاء، وهي تبكي بطريقة غير لائقة، إذ تُجهش وتمسح مخاطها بظهر يدها. والأهم من ذلك، أنها لم تكن تبكي عليه، بل على كوروساكي، الذي لا يزال جالسًا، يحمل رأس باو في جحره. وأحسَّ بذراع كوروساكي باردًا ومتصلبًا.

قالت: «ما الذي فعلته أيها الأحمق؟ كيف لك أن تُطعن هكذا؟»

أراد باو، الذي يشغل الآن مقعدًا في الصفوف الأمامية عن غير قصد لهذه المسرحية، أن يقول إنه ليس خطأ الغريب، لكن كوروساكي ابتسم بضعف: «أنا سعيد لأنني رأيتك مرة أخرى. لقد أوفيتُ بوعدِي لك.»

قالت وهي تجهش بالبكاء: «أي وعد هذا؟»

- قلتُ إنني لن أتركك حتى آخر نفس لي.

- لا أريد ذلك! أريدك أن تتعافى. لقد سامحتك على كل شيء... على تركك طفلتنا وحدها في ذلك اليوم وخروجك للصيد. لقد سامحتك منذ زمن بعيد، فلا تمت الآن.

ردَّ كوروساكي بصوت متقطع: «سنو، عليك أن تكلمي الألف عام دوني». كانت أنفاسه غير منتظمة، وأصابه باردة حتى وهي تستند على صدر باو.

سنو. إذن، هذا هو اسمها الحقيقي. تحدثا وكأن باو لا وجود له، وبالفعل، لم يكن له وجود في عالمهما. أدرك باو، بلا كلمات، أنه يشهد مأساة حقيقية. نهاية أوبرا، موت حبيب. قصة قديمة للغاية ومليئة بالألم، وكأن ثقبًا قد انفتح في سماء النجوم. سالت دموع باو من عينيه، وانسابت على رقبته. كان

شوقهما وحزنهما جليًا حتى أنسى باو ألمه. لطالما كان المراقب، الذي يميز الحقيقة من الظلال، والآن، في نهاية حياته، لم يشعر بأي كذب في كلماتهما. ففكر باو: آه، أنا آسف.

عندما استعاد باو وعيه، وجد نفسه يحملق في سقف غريب، وقد بدأ الغسق يحل في الخارج، وراء النوافذ ذات المصاريع الخشبية العالية. كان باو ممددًا على السرير، وجرحه ملفوف بضمادات بعناية. وصلت إليه رائحة المزيغ المميز للأعشاب الطبية، فأدرك أنه في الغرفة الخاصة من دار الأدوية. وفي الخارج، سمع أحدًا يعطي الأوامر بهدوء: «ادفع للطبيب واطلب منه أن يعود غدًا. هل هذا ابني؟ أخبروه أنني سأحدث إليه بنفسي».

كان ذلك صوت تاغتا، ولم يكن هناك شيء أسعد باو من سماع صوتها الرزين. لم يكن هذا مكانًا للدموع، وتذكر شهرتها في إدارة العمل. ثم فتح الباب.

سألت بصوت هادئًا وهي تجلس بجانبه: «باو؟» كان حلقه جافًا لدرجة أنه لم يستطع الكلام، لكنه أدار رأسه نحوها: «يجب أن أعذر إليك نيابة عن عائلتي».

«لا بأس»، ردَّ عليها بصوت خافت، رغم أن الحقيقة لم تكن كذلك. تُرى، ماذا حدث لبوهاي على أي حال؟

فهمت تاغتا تساؤله من نظراته، فقالت: «لقد حبسنا حفيدي في غرفته. نحن نشعر بالخجل الشديد من تصرفاته». وتوقفت قليلًا بحزن عميق ثم أضافت: «أعلم أن لك الحق في إبلاغ السلطات عنه، لكنه لم يفعل شيئًا كهذا من قبل. إذا رغبت في تسليمه، فلن أمنعك».

ارتجفت شفتاها. كان بوسع باو أن يستغل الموقف، ويجعلها تبقى بجانبه، وربما حتى يبتزها لتكون أكثر قربًا منه. لكن إن فعل ذلك، سيظل يسمع الكذب في صوتها كل يوم. لذلك، اكتفى بهز رأسه. ثم قال: «الرجل الآخر، كوروساكي، ماذا حدث له؟»

«أوه!» وظهرت ملامح الحزن على وجهها: «لقد أصيب هو الآخر».

- لقد أنقذني.

- توقعت ذلك، رغم أنه لم يذكر أي شيء.

- والمرأة الشابة... خادمك؟ لقد عادت.

- نعم، عادت إليّ. لم أكن أدرك أنهما متزوجان. لكن يبدو الأمر منطقيًا الآن.

لم يكن أي من هذا منطقيًا لباو، بما في ذلك كيف هربت المرأة الثعلب من قصر تشين. ومن هو هذا الرجل كوروساكي؟ لديه ذكريات غامضة عن دموعها، وعن حديث مضطرب وعاطفي جرى فوق رأسه في الريكشا وهو ينزف ورأسه على ذراع كوروساكي. كان الحديث غريبًا، مع إشارات إلى الثلج ورحلة الألف عام. شعر بالخجل وكأنه استرق السمع على أسرار لم يكن يجب عليه معرفتها. وماذا بشأن الثعلب الأسود الذي ظن أنه رآه؟ تطايرت أفكاره مثل قصاصات ورق ملونة، تتلاشى عندما يحاول التركيز عليها. وعندما نظر إلى تاغتا، رأى الحيرة ذاتها على وجهها.

قال قبل أن ينسى: «الثعلب الأسود... لقد رأيته».

«حقًا؟» كان ذلك كافيًا بإعادتها إلى تركيزها: «أخبرتُك أنني أظن أنني قابلت حفيده».

أراد باو أن يقول: لا، هذا خطأ، لا يوجد سوى ثعلب واحد، لكنه شعر بالدوار مجددًا.

قالت تاغتا بقلق: «استرح الآن».

أغمض باو عينيه، لكن رأى الثعالب لم تختف من وراء جفنيه. ثعالب سوداء وبيضاء. كانت الثلوج تتساقط... لا، بل كان الخريف، والأمطار تقترب. وهناك فتاة جميلة واقفة على تل، أو ربما كانت ثعلبة بيضاء؟ فكر باو، قبل أن يغلبه النوم: يجب أن أجد الحقيقة.

الحقيقة هي أن كورو، بالطبع، لم يمِت.

أقول «بالطبع» لأنه لم يخطر ببالي إلا لاحقاً أنه ما كان ينبغي له أن ينهار أمام مثل هذه الجروح. كانت ضربات بوهاي العشوائية والمضطربة غير كافية إلا لإحداث بعض الجروح السطحية على ذراعي كورو وظهره. لكن الخوف الأكبر كان من فقدان الدماء، وأعتقد أنه لو ترك على ساحة المعركة لساعة أخرى: «فربما» كان سيلقى حتفه. شرحت هذا لسيدتي، رغم أنها بقيت في حيرة. وفي الحقيقة، كنتُ أحاول طمأنة نفسي أكثر منها.

- وبالطبع، لقد نجا من أمور مثل إصابته بالسهام وسقوطه من سور مدينة بينغ ياو. وفي تلك المرة كانت الأمور شديدة الخطورة.

نظرت إليّ بدهشة، وأدركتُ في توتري أنني تركت لساني يجري بالكلام. كان هذا تصرفاً خاطئاً؛ يمكن أن أفشي سري بهذا الشكل. ماذا يجب أن أفعل؟ كورو بدا في حال سيئة للغاية. كانت يداه باردتين، ونبضه يتسارع بشكل غير منتظم في عنقه.

وضعوه في غرفة بجانب الرجل العجوز. نظفت جروحه بعد أن أخبرت الجميع أنه زوجي. كانت تلك الكلمات مألوفة لكنها مؤلمة، لم أنطق بها منذ عامين. كانت الأحداث اليوم صادمة لدرجة أن أحداً لم يشكّ في كلامي. قالت تينغ: «آه سان، إذن كنت متزوجة من أجنبي؟» فأومأت برأسي، وظلّت واقفة عند الباب، تسأل إذا كنت بحاجة إلى المساعدة. لا. سأتمكن من التعامل مع هذا بنفسني.

ثم أحضروا طبيباً باستخدام جميع العلاقات التي يتمتع بها دار الأدوية. كان قد تلقى تدريبه في اليابان ويتحدث قليلاً من الروسية، وقد جرب كلتيهما معي. لم أكن قد لاحظت أن يديّ كانتا ترتجفان. فقد كانت هناك الكثير

من الدماء. وارتسمت أمامي صورة طفلي المسكينة، بأرجلها المكسورة، وشعرت برغبة في التقيؤ.

رأى الطبيب وجهي الشاحب، وقال إنه يجب أن أغادر، لكنني رفضت قائلة: «لقد اعتدتُ على الجروح ويمكنني المساعدة». في الحقيقة، كنت أرغب في التأكد من أن كورو لن يصاب بتسمم الدم. فهكذا يموت الكثيرون بعد المعارك. حتى جرح من منجل فلاح، يمكن أن يتسبب في موت محتم إذا كان ملوثاً بالروث. شرحت هذا للطبيب، وهدق بي بالنظرة المندهشة التي رمقتني بها سيدتي: «لذا، كما ترى، يجب أن تغسل يديك. وينبغي أن نسكب الخمر القوي على جروحك».

- سيكون ذلك مؤلماً للغاية للمريض!

- لا بأس، لديه قدرة عالية على التحمل. الديدان ستكون جيدة أيضاً لتنظيف الجروح.

- أعتزُّ بشدة! هذه جروح خطيرة، وبعضها عميق للغاية.

كان محقاً. كنت في حالة إنكار ببساطة. أردتُ من كورو أن يقفز ويخبرني أنه كان يتظاهر بالموت، للمرح فقط. لكن بالطبع هذا ليس من طباعه. ذهبت وجلست في الزاوية لأبكي بهدوء، بينما كان الطبيب ومساعداه يعالجون كورو، ويخيطون أسوأ الجروح ويستخدمون كمادات من الأعشاب ذات الرائحة الكريهة. وأظنُّ أنهم كانوا يعرفون ما يفعلونه.

عندما انتهوا من لفه بالضمادات، قال لي الطبيب بلطف: «سيدة كوروساكي...» لا بد أنني بدوت شاردة، فقد كررها عدة مرات قبل أن أجيبه.

- لقد فقد الكثير من الدماء. ستكون الأيام القليلة المقبلة حاسمة لضمان عدم إصابته بالعدوى. لكنكِ تبدين على دراية بذلك.

غرسْتُ أصابعي في ذراعي. وبدأت ذكريات حياتي مع كورو في التدفق أمامي. تذكَّرتُ كيف تعافى من الالتهاب الرئوي عندما كنا نعيش تحت جسر في سوتشو. وكيف كاد كلانا يغرق عندما غمر النهر الأصفر المدينة، وكيف دفعنا أحد المرابين من قاربه بعضا. كان كورو دائماً أقوى مني جسدياً. لا بد أن الأمر سيكون كذلك هذه المرة، أليس كذلك؟

قال الطبيب وهو يغادر: «أنتِ زوجة مُخلصة». كنتُ أرغب في الصراخ أنني لست كذلك، وأن كل هذا خطأي. أو بالأحرى، أن شيئاً قد تحطم بيننا

في أحد أيام الشتاء عندما عدتُ إلى الوكر ووجدته نصف محفور وطفلتنا مفقودة. كورو، ذلك الأحق، كان قد ذهب في رحلة صيد طويلة، وتركها وحدها. أغمضتُ عينيَّ بإحكام، لكن لم أعد أجد ذلك الحقد المشتعل الذي كنت أحمله تجاهه. في مرحلة ما، تبخر ببساطة.

عندما غادر الجميع، جلستُ على الأرضية الحجرية الباردة بجانب سرير كورو، محاولة إقناع نفسي بأن هذا لا يزال أفضل من الاختباء في خندق من فرسان المغول. تلك الأيام ولّت منذ زمن بعيد؛ كنا أصغر سنًا وقتها ويملؤنا الأمل. لكن الناس يموتون طوال الوقت، بغض النظر عن مقدار ما تصلي أو تقدم من عهود، أو حتى تمسك بهم بين ذراعيك. عندما أغمضتُ عيني، رأيت طففتي، تتحمل بصبر ليلة أخرى طويلة من الألم بسبب ساقها المكسورتين وإصاباتنا الداخلية. استمررتُ في آلامها حتى فارقت الحياة، بينما كنت أحاول بكل ما أملك أن أعنتي بها. لم يكن هناك أطباء في تلك المنطقة النائية لرعاية جرو ثعلب. كانت صغيرة جدًا ولا تستطيع الكلام أو البكاء كثيرًا؛ اكتفت بدفن وجهها في صدري ثم رحلت عن هذه الحياة.

كان سكونها هو ما نبهني. تنفّسها الضحل، والطريقة التي انكمشت بها على نفسها نحو النهاية. والآن، كورو أيضًا كان ساكنًا: «ماذا كنت تفعل؟» همستُ وأنا أتحمس الندبة على وجهه. وبينما كنت ألمس خده، فتح عينيّه.

تراجعتُ بسرعة وسحبْتُ يدي: «منذ متى وأنت مستيقظ؟»

- منذ أن طلبتُ من الطبيب استخدام الديدان عليّ.

- إنها علاج جيد للجروح.

بدلًا من الجدل، قال ببساطة: «أنا آسف جدًا لأنني تسببت لك بكل هذا الألم. ليس اليوم فقط، بل أيضًا قبل عامين. لا أحد آخر يُلام غيري».

تلك الكلمات جعلت الدموع تملأ عينيَّ مجددًا، وهو ما كرهته بشدة: «تأكد من أن تتعافى إذن».

- سنو، لا أستطيع أن أكمل رحلة الألف عام معك. لقد قتلتُ رجلًا.

«ما الذي دفعك لفعل ذلك، بعد أن تعاهدنا ألا نفعل؟» إذا كان الثعلب الفاضل يسعى للوصول إلى التنوير، فوجبَ عليه ألا يقتل، أو يسرق، أو يكذب، أو ينخرط في غسل الأموال، أو حتى يحرق منازل الآخرين.

- تتبعت الصياد الذي أخذ طفلتنا وقتلته بيدي العاريتين.

«لم تكن مسلحًا؟ هذا لا يُحتسب إذن. أي شخص سيقول إنه كان دفاعًا عن النفس». كنتُ أهذي بالكلمات لأنني لم أرغب في سماع الحقيقة التي قالها.

- كنتُ أعلم تمامًا ما كنتُ أفعله. طعنْتُ بسكينه.

«أهكذا أُصبتَ بهذه؟» ولمستُ الندبة على وجهه بلطف، وكأن قلبي ينفطر مع كل لمسة.

أدار كورو وجهه بعيدًا: «في ذلك الوقت، كنتُ قد قررتُ بالفعل أنني سأموت أيضًا».

بدأت أبكي بحرقه حينها. لأنني أنا من طلبت من كورو أن يرحل. أن لا يعود أبدًا أو يتحدث معي مجددًا. قلت له بغضبٍ وشر: **أُتمنى أن تموت. لأنك لن تعيد طفلتنا أبدًا.** أحيانًا، تعود أمانينا بأبشع الطرق وأكثرها ظلمة، مثل شوكة تغرس نفسها في الجسد وتنمو بداخله. شجرة تشرب الدم وتحجب الشمس. كانت الخطيئة خطأي؛ سقيتها بالكراهية ودموع الغضب، فنمت وألقت بظلها الوحشي على حياتي.

- لا تبك. لقد وُسمت بالفعل، وأنا أقبلُ حكم السماء.

قلت بغضب: «تسبب شيرو في موت ما لا يُحصى من الناس ولا يزال طليقًا، لماذا يجب عليك أن تموت لأخذ ثأر دموي؟ عِش وكفّر بطريقة أخرى. سأكفّر عن خطاياي أيضًا».

نظر إليّ بلمحة سخرية: «تقصدين أن نبدأ رحلة الألف عام من جديد؟ لا أعتقد أنني سأعيش طويلًا بما يكفي».

«لا تتحدث بهذه الطريقة!» وأدرتُ ظهري له وأخذت نفسًا عميقًا: «ستتعافى. وستعود إلى اليابان، حيث تنتظرك الأنسة يوكيكو».

- لماذا تنتظرني؟

- أليست مغرمة بك؟

- ليس لدي أي فكرة عما تتحدثين عنه. جدُّها عرض عليّ وظيفة في دار النشر الخاصة به. لقد رفضتُ العرض، وهذا كل ما في الأمر.

«كيف يمكنك أن تكون بهذا القدر من الغباء؟» رغبت في صفعه، لكن يجب ألا يُضرب المريض. شيرو يعطي اهتمامًا زائدًا للنساء. أما سحر كورو، فيكُن في تجاهله المتعمد.

قال بهدوء: «على أي حال، لديّ زوجة بالفعل. حتى وإن لم تعترفي بذلك». ثم ساد الصمت.

قلتُ لكم إنني أحيانًا أكون عاجزة عن الكلام معه. كان الصمت طويلًا ومربكًا وحيث التفتُ إلى كورو اكتشفتُ أنه قد غاب في النوم.

خرجتُ إلى الرواق وأغلقتُ الباب خلفي. كان المساء قد حل، وشاع ضباب ناعم من الشفق والفوانيس. وفي حديقة الفناء، تدلّت أزهار الوردية البنفسجية من السقف. سمعتُ همهمات الأحاديث العائلية وأصوات الأواني المتصادمة في المطبخ. كانت العائلة تتناول العشاء؛ وربما كانوا يتناقشون بشأن ما يجب فعله مع بوهاي.

بينما كانوا منشغلين بالعشاء، انتهزتُ الفرصة لأتحدث معه. بهدوء، ذهبتُ إلى جناح الرجال في المنزل، حيث كان بوهاي محبوسًا في غرفته في الطابق الثاني، مقابل جناح النساء. كان أحد موظفي المتجر يجلس أسفل الدرج، يتناول عشاءه، فصعدتُ إلى الطابق العلوي من جناح النساء، وتسلمتُ بحذر من النافذة ثم سرتُ بخفة على السطح حتى وصلتُ إلى نافذة بوهاي. أحدث البلاط الملتف تحت قدمي صوتًا خفيًا. بين الحين والآخر، توقفتُ بحذر، لكن لم يكن هناك أحد في الجوار سوى خفاش صغير يحلق باضطراب خارج الأفاريز. يعتبرُ الصينيون الخفافيش علامة على الحظ السعيد، فتمنيتُ أن يعمل ذلك لصالحي. كانت نافذة غرفة بوهاي مفتوحة قليلًا. من الداخل، وسمعتُ صوتًا خافتًا أشبه بالنحيب. في تلك اللحظة، شعرتُ بشيء من الشفقة تجاه بوهاي، رغم عيونه المرتابة الصغيرة وحقيقة أنه طعن شخصين. ولئلا أخيفه، طرقتُ على النافذة.

ساد صمت متوجّس. ثم قال بوهاي بصوت مرتعش: «من هناك؟»

- إنها أنا، آه سان، خادمة جدتك.

- لماذا أنت بالخارج؟ أليس هذا الطابق الثاني؟

بمجرد أن يتعلم الناس أن لا أحد يمكنه الدخول عبر نافذة في الطابق العلوي، يصعب عليهم تعديل توقعاتهم: «أردتُ التحدث معك، في حال كان لديك شيء لتقوله».

«لقد أخبرتُ جدتي بالفعل. لا شيء لدي لأقوله. سأموت هنا. حياتي انتهت». كان مبتذلًا للغاية، لكنني قدمت له كل كلمات التعاطف، وقلت إنه لا ينبغي له أن يفقد الأمل هكذا.

- لم يمت أحد.

- حقًا؟ هل كوروساكي بخير؟ لم يخبرني أحد بأي شيء؛ أبي خرج لزيارة محظيته الليلة.

بدا توقيت ذلك غريبًا. قال بوهاي بمرارة: «محظيته على وشك الولادة. الجميع يعلم، حتى أُمي. سيحصل على ابن، وتلك ستكون نهايتي». وتردد صوت نحيبه المكتوم. نظرتُ من النافذة وقلت: «لماذا ستكون نهايتك؟»

- الجميع يعلم بلعنة العائلة. الوارث الثاني هو من يرث دائمًا. حتى جدتي تؤمن بذلك، خاصة بعدما بدأتُ أرى عديمي الظلال.

- ومتى بدأ ذلك؟

«قبل تسعة أشهر. حينما كانت محظية أبي حاملًا. إنها علامة، أليس كذلك؟» وتوقفت الضحكة في حلقه.

- لماذا طعنَت كوروساكي؟

- كان ذلك حادثًا! كنتُ أستهدف الرجل العجوز الذي يزعم أنه صديق جدتي. (ورفع رأسه فجأة). يجب أن تبعديه عنها.

- سأفعل إذا أخبرتني بما حدث في موجي. القصة الحقيقية، من فضلك. أعتقد أنك تعرف من قتل بكتو نيكان.

- كيف عرفت؟

أجريتُ عملية استبعاد بسيطة. كنتُ أشتبه في كورو، لكنه قال للتو إنه قتل رجلًا. ليس عدة أشخاص، بل شخصًا واحدًا فقط. كورو ليس من النوع الذي يكذب، لا سيما عندما كان على وشك توديعي وداعًا أخيرًا، لذا اتبعتُ حدسي، ووصولًا إلى سطح الطابق الثاني.

تتهد بوهاي وقال: «لا يهم الآن، لكنني خمنت أنه إما تشين وإما لوو. وعلى الأرجح كان لوو. لهذا تعجّلت العودة للوطن. في الساعات الأولى من صباح اليوم الذي مات فيه بكتو، سمعت أحدهما يغسل يديه عند مضخة المطبخ، ثم يعود إلى الغرفة التي كانا يتشاركانها. بعد ذلك، أصبح كلاهما متوترًا وشكّكا في بعضهما البعض».

- بسبب الصورة التي جمعتكم، مع راية الخيانة تلك؟

- ما كان ينبغي لنا أن نلتقط تلك الصورة، لكن في ذلك الوقت أخذتنا النشوة بغباء. عندما انتشرت الشائعات بأن جاسوسًا حكوميًّا كان يحقق في أمرنا، أصبح تشين ولوو قلقين للغاية. كان لديهما ما يخسرانه أكثر مني. بعد كل شيء، عرفت خلال الأشهر التسعة الماضية أنني سأموت. الانضمام إلى ثورة بدا لي طريقة جيدة للرحيل بشكل مثير. لا أعرف ما الذي أصابنا جميعًا... ما كان يجب أن نستمع إلى شيراكاوا!!

لم أقل شيئًا بينما استمر في سكب ندمه بالدموع. وأكمل: «ما كان يجب أن آخذ جدتي إلى اليابان. هذا ما أقلقني عندما قرر بكتو استخدام الصورة لابتزازنا. كان ينقصه المال، لكنني ظننت أن شيراكاوا سيتعامل معه قبل أن يتداعى كل شيء».

- قال تشين إنه اشترى الصورة والصورة السلبية من بكتو. لم يكن هناك سبب لقتله بعد ذلك.

- لهذا اعتقدت أن لوو هو من فعلها. ربما أراد إسكات بكتو إلى الأبد، إذ لم يثق في أنه لم يصنع نسخًا أخرى. إنه أكثر حسماً منا جميعًا. آه، لماذا استمعنا إلى شيراكاوا وأصبحنا ثوارًا؟

كانت شهقات مختنقة، زادها بشاعة النبذة الممتلئة بالاحتقار الذاتي في صوت بوهاي. لم يكن لدي ما أقوله، إلا أن أشعر بالحزن، ممزوجةً بقدر لا بأس به من: لقد حذرتك. لا يجب أبدًا، أبدًا أن تستمع إلى شيرو.

- عندما قابلته أول مرة، كان والدي قد اتخذ عشيقة. كنا نشرب، وسألني شيراكاوا عن أكبر مخاوفي. أخبرته أنه إذا أنجب والدي ولدًا آخر، فستكون نهايتي. ضحك الجميع... لكنه هو فقط من أخذ كلامي على محمل الجد.

هذا بالضبط نوع المعلومات التي قد تثير اهتمام شيرو. تنهدت وقلت: «هل بدأت ترى عديمي الظلال بعد ذلك؟»

أجاب بوهاي: «نعم. منذ أن كنتُ طفلًا، سمعت شائعات عن ابن زوج جدتي وما حدث له. وكان شيراكاوا الوحيد الذي صدقني. أتساءل هل أنا أفقد عقلي؟»

يا للبائس المسكين بوهاي. لم أكن لأستبعد أن شيرو دبر كل شيء، بما في ذلك الهلوسات المتعلقة بعديمي الظلال. لكنني شعرت بخزي يحرقني وأنا أستمع له. من السهل أن تعرف أن أمثالنا يتغذون على مشاعر الآخرين، لكن الأمر مختلف تمامًا حين تشهد بنفسك الخيانة والانحطاط الذي يصيب أولئك الذين وضعوا ثقتهم في الثعالب.

- أنت محظوظ للغاية لأنك لم تقتل أحدًا. لو كنت مكانك، لبدأت بالتوبة. عند هذه الكلمات، انفجر بوهاي في نحيب مرير: «لكنني سأموت! أعرف ذلك».

ألقي بوجهه على السرير. لم يكن هناك جدوى من الشعور بالأسف عليه، فهو شخص لا يمكن الاعتماد عليه. ومع ذلك، ما قاله عن لوو أثار اهتمامي.

كانت تصرفات لوو في منزل السيد تشين، بما في ذلك الطريقة التي انهار بها تحت الضغط، تشير إلى أن لديه الكثير مما يشغل باله. كنت جاثمة على بلاط السقف المنحني، أفكر بسرعة. إذا كان قد اتخذ قرارًا حاسمًا بالتخلص من بكتو، فقد يكون أيضًا قد دفع تشين من على الحاجز أثناء الشجار، خوفًا من أن يعترف تشين لوالده بأنشطتهم الثورية. ألم يذكر السيد تشين أنه كان يساعد عائلة لوو في ديونها؟ لكن دون ربط لوو وإشعال النار تحته، من غير المرجح أن أحصل على اعترافه. في هذه الأثناء، بدأ الجو يبرد على السطح. تحركت قدمي على البلاط المنحني وأنا أنهض. قال بوهاي بصوت: «لا تذهبي».

«سأذهب للاطمئنان على كوروساكي». لكن ذكر كوروساكي زاد من بكاء بوهاي ندمًا. ربما لا يزال هناك أمل فيه. قلت من خلال النافذة: «من الآن فصاعدًا، حاول أن تعيش حياة صالحة».

عدت إلى المنزل الرئيسي، وتوقفتُ خارج الغرفة التي كان بها الرجل العجوز الذي لا ظل له. استسلم الباب الخشبي المحفور تحت ضغط يدي.

وشعرت بقشعريرة تسري في عمودي الفقري. ربما كان ذلك بسبب خوف
بوهاي منه أو بسبب تحذير شيرو السابق، لكنني تساءلت عن نوع المخلوق
الذي يمكن أن يكونه.

الثعالب حذرة بطبيعتها، لكن حذرنا يتوازن مع فضولنا الذي لا يشبع.
لذا عندما ترددت على عتبة غرفة هذا الرجل العجوز، شعرت بوخزة تحذير.
لا تدخل.

وبالطبع، دخلت.

حين فتح باو عينيه، كان الظلام قد حلَّ، واكتست السماء بأعمق درجات البنفسجي مع الغسق الجميل. لو كان لهذا اللون صوت، لكان رنة جرس خافتة وواضحة. ولسبب ما، كان باو مقتنعاً بأنه يسمعه. بل وكان يعرف أي جرس بالتحديد؛ جرس معبد مدينته في شبابه. لكن ذلك كان ضرباً من الوهم، فقد مرت عقود دون أن يعود إلى تلك المدينة. تردّد رنين الجرس (أو ربما لون المساء؟) في رأسه فارتعش. ومع مرور الوقت، تلاشى الرنين ولم يبق سوى الغسق الذي يتسلل عبر النافذة، حاملاً معه عبق زهور الوستارية، ومرارة الأعشاب، مع لمسة خافتة لرائحة الحريق.

ثمة من يقف خارج غرفته، ظلٌّ باهت ظهر من وراء الورق المشمّع الذي غطى الأبواب الخشبية. تجمد صدر باو. كانت الغرفة مظلمة، بلا مصباح. والضوء الوحيد أتى من سماء الغسق، وعبر الأبواب المغطاة بالورق، بدأ يميز شيئاً فشيئاً شكل امرأة.

أقنع نفسه بأنها خادمة، فهي طويلة ونحيلة جداً لتكون تاغتا. مجرد التفكير في تاغتا، ووجهها اللطيف بخطوط الضحك، منحه قليلاً من الشجاعة. لن يحدث له مكروه في منزل تُديره تاغتا. ورغم ذلك، نبض قلبه بشدة مؤلمة؛ وشعر بوخز حاد في رئته اليسرى. حبس أنفاسه، غارقاً في رعب غامض نكّره بالحمى التي أصابته في طفولته.

ثم جاء صوت خافت. انفتح الباب برفق ودخلت.

الغسق هو أكثر الأوقات خطورة، كما كانت تقول مربية باو العجوز؛ ذلك البرزخ الغائم بين النهار والليل حين تظهر مخلوقات تشبه البشر. تعيش على حافة المجتمع، عند النقطة الفاصلة للجنون حيث تتحقق الأحلام والكوابيس. جفَّ فم باو. ولحق شفتيه بقلق بينما تقترب تلك المرأة. أصبح الظلام كثيفاً لدرجة أنه بالكاد استطاع تمييز ملامحها، لكنَّ عينيهما كانتا تلتمعان.

- هل أنت مستيقظ؟

قالتها بصوت ناعم، ناعم جدًا. صوت مهذب، مليء بالاهتمام. وعلى الفور شعر باو بالخجل. ماذا كان يفكر ليشعر بالخوف منها هكذا؟ لأن هذه بداية كل القصص؟ تدخل امرأة جميلة إلى غرفة طالبٍ مع حلول الليل. ترددت دقات قلبه كهدير مكتوم في أذنيه. لم يفكر بعقلانية لأن هذه القصة تسير بشكل خاطئ؛ باو رجل عجوز وليس طالبًا يُحضّر لامتحانات الإمبراطورية أو كاتبًا للشعر تحت ضوء المصابيح، لقد تعرض للطعن على يد حفيد تاغتا المجنون. وقبل أن يدرك ذلك، كان يروي أفكاره بصوت مسموع. ما الذي أصابني؟

لكن التوتر انكسر، وانفجرت المرأة التي دخلت غرفته في الضحك: «هذا أفضل رد سمعته منذ سنوات»، قالت وهي تمسح عينيها: «أنت كبير في السن حقًا! معظم الرجال لا يفكرون في ذلك أبدًا عن أنفسهم».

كان ضحكها فاتنًا لدرجة أن باو لم يستطع إلا أن يشعر بالإطراء: «ألسيتِ خادمة تاغتا؟ كيف هربت من قصر السيد تشين؟»

- كان الأمر مزعجًا بعض الشيء، لكن ساعدني كوروساكي على تسلق الجدار.

- كيف حاله؟

«ما زال على قيد الحياة، إذا كان هذا ما تسأل عنه». وخلف قناع مشاعرها الخفيف، شعر بحزن وقلق خفيين.

- أخبرتني تاغتا أنه زوجك.

أومأت برأسها بلباقة.

- لكن قيل لي أن لك زوجًا آخر.

«أوه؟» والآن بدا صوتها حذرًا: «ومن يكون هذا؟»

- هل تعرفين رجلًا يُسمى وانغ، يملك فيلا في ضواحي موكدين؟

- رجل ذو مظهر شاحب، وعينين ضيقتين؟ لم تكن لدينا أبدًا علاقة من هذا النوع. في الواقع، هربت من قبيلته... أو فلنقل سجنه.

- هو يريدك أن تعودي. لقد أرسلني للبحث عنك.

«هل أنت محقق؟ محقق حقيقي؟» لماذا تبدو متحمسة فجأة؟ معظم النساء كن سيبكين عند سماع هذا الخبر. اقتربت وجلست على الأرض بجوار سريريه. اعتادت عينا باو الآن على الظلام، فاستطاع تمييز ملامحها. ربما كانت عيناه تخدعانه، إذ بدا وجهها يلمع قليلاً. كلما نظر إليها أكثر، شعر بالدوار. وتسارع قلبه؛ لو كان أصغر سنًا، لانجذب بالفعل.

لإخفاء إحراجيه، قال باو: «أنا هاو نوعًا ما، لكنني أمتهن التحقيق في شؤون الناس».

أملت رأسها، ما جعلها تُذكر باو بكلبٍ، بعينين مشرقتين فضوليتين وقالت: «يبدو ذلك إما ممتعًا وإما مملاً للغاية. أيهما هو الغالب؟»

«الثاني». استمتع باو بهذه المحادثة غير المتوقعة كثيرًا.

- كم يدفع لك السيد وانغ للعثور عليّ؟

- إنه سخّي جدًا. أتلقي راتبًا شهريًا.

- هل سيكون من الأفضل لك ألا تجدني لفترة من الوقت؟

«رغم أن المال مفيد، فإنني يمكنني الاستغناء عنه. في الواقع، سأخبره أنك ذهبت إلى اليابان. وليس ذلك من أفكارى، بالمناسبة»، أضاف بسرعة قبل أن تشكره: «هنالك فتاة صغيرة -حفيدة محاسب في بيت متعة- هي من طلبت مني هذا المعروف».

شعر برغبة قوية في أن يكون صادقًا تمامًا معها. بعد كل شيء، مقارنة بالآخرين الذين قابلهم في رحلته بحثه الطويلة، لم تكذب عليه مرة واحدة. وكان ذلك صادقًا تقريبًا.

- شكرًا لك. وأرجوك اشكرها، إن صادفتها مرة أخرى. (وتوقفت قليلاً قبل أن تُردف): كيف تود مني أن أرد لك الجميل؟

وللحظة -لحظة جنون- تمنى باو أن تبقى معه دائمًا، أن تكون ملكه وحده. شعور بالامتلاك العاطفي الذي لا بد أن السيد وانغ قد عانى منه. لكنه سرعان ما هز رأسه، فتلاشت الفكرة. كان باو كبيرًا في السن بالفعل ولديه شخص يحبه. راقبته بنصف ابتسامة حزينة، وكأنها قرأت أفكاره وأيدت قراره.

ما الذي سيطلبه إذًا؟ كان لديه شعور بأن هذه فرصة لن تتكرر في العمر، وعليه ألا يضيعها. ارتجفت نسمة باردة في جسده. حين صمتت،

شعر بالخوف منها مجددًا، ذلك الشعور الغامض بالقلق. ربما كان سبب ذلك جاذبيتها الغريبة، الصورة المثالية لفتاته المنشودة (لا، لا، الفتاة المثالية هي صغيرة وتبدو مثل سنجاب منغولي)، وتذكر فجأة وصف تشو يولينغ لشيراكاوا. إنه يشبه الشخص الذي تحلم به. كان هذا تحذيرًا شعر به باو في مؤخرة عنقه.

قالت: «لا داعي لأن تكون خائفًا هكذا، بصدق، ليس لدي الكثير لأقدمه. لكنني سأجيب على سؤال واحد لك».

- واحد فقط؟

«واحد هو ما يحصل عليه معظم الناس. لكن يمكن أن يكون سؤالًا كبيرًا، مثل: ما هو معنى الحياة، أو هل هناك حقًا أرنب على القمر، أو أين القبر المخفي لجنكيز خان». تجعد أنفها، وكبح باو رغبته في تربيت رأسها.

«فهمت». نعم، كان محققًا في تخمين أنه يجب عليه استخدامه بحكمة. ماذا سيسأل؟ هل أنتِ ثعلب؟ خطرت الفكرة على ذهنه. اهتزت على شفثيه، إلى جانب أسئلة مثل: وهذان الرجلان الوسييمان بشكل سخيف، هل هما أيضًا ثعلاب؟ هل أحدهما هو الثعلب الأسود الذي قابلته تاغتا قبل ستين عامًا؟

ربما يجب أن يسأل عن شيء أكثر أناانية، مثل كيفية الفوز بقلب تاغتا. أو شيء عملي، مثل موعد وفاته حتى يتمكن من الاستعداد. لكنه بالفعل عرف ما يريد عندما فتح فمه.

- ماذا حدث لظلي؟

رفعت رأسها للأعلى، لكنها ظلت صامتة، تفكر. بعد لحظة، قالت: «أخبرني بما تعرفه».

روى باو لها قصة مرض طفولته وتفاني مربيته القديمة للإله الثعلب. بدأ يشعر بالتعب، إذ كان الجرح في جانبه يستنزف قوته فتقلت كلماته: «كما ترين، سمعت من أخي الأكبر أن مربيتي طلبت من الإله الثعلب أن يصرف عني ظلي».

«همم». قالت بتأمل وأغمضت عينيها. شعر باو مرة أخرى بشعور الخطر، كما لو أن حيوانًا بريًا اقترب منه كثيرًا. ثم فتحت عينيها فجأة. كانتا نافذتين

جدًا لدرجة أنه شعر بالخوف للحظة: «هل تطوّرت أي حواس غير اعتيادية بعد ذلك؟»

«في الواقع، نعم». قرر باو أن يخاطر: «يمكنني سماع الحقيقة عندما يتحدث الناس».

- لا بد أن هذا مفيد في عملك.

كما توقع، شعرت بالحيرة، رغم أن نبرتها ظلت مرحة. لكنها لم تكذب حتى الآن. ولم تسأله إذا ما كان يختبرها.

- كيف يبدو الأمر؟

بتردد، وصف لها الإحساس بالخدر والوخز الذي يشعر به عندما يسمع كذبة، أو عندما ينطق بها بنفسه. واشتعلت عيناها بالاهتمام.

- يا له من تأثير جانبي مثير! هل تمانع أن ترفع ذراعك؟

رفع باو ذراعه، مستجيبًا بشكل غريب. كان الظلام قد حل حتى لم يعد يستطيع رؤية أي ظلال. لكنه كان قادرًا على تمييز ملامحها بوضوح، لا سيما عينيها اللامعتين وأسنانها البيضاء. يا لها من أسنان جميلة، ليست ملوثة كأسنان معظم الناس. والآن وهو يفكر في الأمر، كانت أسنان كوروساكي جميلة أيضًا، بأنياب حادة جدًا. بدأ عقل باو يتوه مرة أخرى، ربما بسبب الألم المتزايد في جانبه. كان رفع ذراعه مجهودًا كبيرًا؛ وتصبَّب العرق البارد من جبينه.

- يمكنك أن تخفضها الآن. هل أستطيع أن أفحص نبضك؟

أومأ باو، فوضعت يدها على معصمه. بدأ قلبه ينبض بسرعة مرة أخرى؛ لا يهم كيف ينظر للأمر، فهو مستلقٍ في غرفة مظلمة مع امرأة جذابة تمسك بيده. لإخفاء إحراجها، قال باو: «هل تلاحظين شيئًا؟»

- طاقتك التشي غير متوازنة. شخص ما أزال الكثير من طاقة الين السلبية، ثم حاول إصلاح الأمور بتحريك بعض الأشياء في جسدك. والنتيجة هي فوضى كاملة... يؤسفني أن أقول إنهم لم يؤدوا عملهم جيدًا.

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- مع مرور الوقت، تكيف جسدك. لقد كانت طاقة اليانغ الزائدة، أو الطاقة الإيجابية، تخرج من خلال أذنك وفمك، وهذا على الأرجح السبب في أنك تستطيع سماع الحقيقة.

كان هذا الحوار غريبًا جدًا لدرجة أن باو تساءل إن كان يعاني من الحمى أو أنه يحلم. طمست ظلمة الغرفة أشكال الأثاث. لكن اليد التي تمسك بمعصمه دافئة، كأن فيها مخالب وفرو. ودون ذلك، بدا كل شيء حقيقيًا. قال: «فهمت. إذن، هل عليّ أن أترك الأمر كما هو؟»

- أعتقد أن هذا هو الحل الأفضل. لا أملك المهارة الكافية لمساعدتك في هذا الأمر.

ثم أطلقت معصمه. وشعر باو بوخزة من خيبة الأمل؛ كانت على وشك المغادرة الآن. لكن منعه كبرياؤه من أن يقول: «لا تذهبي»، وشعر أيضًا بأن المرء لا ينبغي أن يطلب المزيد من المزايا من المخلوقات التي تأتي مع الغسق. بالإضافة إلى ذلك، نبض رأسه بالألم وكأنه شرب الكثير من النبيذ، وازداد ألم الجرح أكثر.

قالت: «أنتَ لست بخير». وبدت حريصة: «أنا قلقة عليك». ولسبب ما، جعل هذا باو سعيدًا.

بينما كان الرجل العجوز باو يروي لي عن الظلال وحمى الطفولة، راقبته بعناية. لست خبيرة في الأمراض، لكن أي ثعلب يمكنه أن يقيس طاقة التشي عند أي أحد. فبعد كل شيء، هذا هو ما يغذينا. فكر فينا كصيادين ذوي خبرة يمكنهم أن ينظروا إلى نهر ويخمنوا أين قد تتجمع الأسماك.

وتفحصه أكد ما خمنه شيرو بالفعل: لقد تلاعب شخص ما بالرجل المسكين. في الواقع، طاقته التي كانت تتدفق بشكل طبيعي في الكائنات الحية قد أعيد توجيهها في جميع أنحاء جسده. لا يقتصر تأثير الطاقة على وظائف الجسد؛ بل تؤثر على الحظ، والطباع، وأشياء أخرى كثيرة. ورغم ذكاء باو الواضح، كنت على استعداد للمراهنة على أن هذا الاضطراب قد يعني أنه سيفشل في أي امتحان مهم.

عند النظر إلى العواقب المحتملة، كان محظوظًا بأن القدرة على تمييز الحقيقة بدت الأثر الجانبي الوحيد. كان شيرو مقتنعًا بأن أحدنا هو من قام بهذا التلاعب. لا أمتلك خبرة شيرو في هذا المجال، إذ يغذي نفسه مباشرة من طاقة الآخرين، وهي ممارسة تخلى عنها كورو، وأنا كذلك، إلا في حالات الضرورة القصوى. لكنه كان محققًا؛ الإهمال والعبثية في هذه العملية يشيران بوضوح إلى تدخل ثعلب آخر.

أعجبني شخصية باو إلى حد ما. بسيط لكنه ممتع، مثل كلب عجوز بساقين معوجتين، يرفض الإغراء دون أن يكون متشددًا في ذلك. من المثير للاهتمام أنه قد مرَّ هو وسيدتي بتجارب لا تُنسى مع الثعالب في صغرهما. وتساءلت إن كانت مجرد صدفة، أم أنه القدر.

في الرواق الخارجي، تسربت برودة المساء إلى عظامي. لقد كان يومًا مليئًا بالمصاعب غير المتوقعة. ولم أتحقق حتى الآن من حالة كورو. ربما كنتُ أخشى ذلك. فبعد كل شيء، قضيتُ العامين الماضيين في مداواة حزني واستيائي. من الأسهل أن أعتبر كورو ميتًا لي من أن أتعامل مع الألم الذي

تذكرني به عودته. كان يجب أن أعرف ذلك. فالأشياء التي تدفنها تعود للظهور في شكل أو آخر. هكذا تسير الأمور في هذا العالم.

كان كورو نائمًا، يتصبَّب جبينه عرقًا وحرارته مرتفعة. أثارت تجاويف وجهه المظلمة في نفسي ألمًا حادًا، فهربت مبتعدة على عجل. يحتاج الثعلب المصاب إلى كميات كبيرة من التشي للتعافي. وسيدتي أمرت الطباخ بإعداد حساء مقوٍّ من خلاصة الدجاج، والتمر الأحمر، والدانغ شينغ، والباي هي⁽¹⁾. لكن ذلك وحده لن ينقذ كورو. الدم الطازج واللحم النيئ هما الأفضل.

في ساحة المطبخ، خيم الهدوء على الحظيرة، باستثناء بعض الحركات المتثاقلة من قنّ الدجاج. لا يزال الإوز الذي أحضرته معي حين دخلت هذا المنزل ملكي، حيث لم يفكر أحد في دفع ثمنهما لي. دخلتُ الحظيرة، وسرعان ما أخرجت الطائرين النائمين، ثم لففتهم على عجل في مفرش طاولة قبل أن أتوجه إلى غرفة كورو. يجب أن أفعلها الآن، قبل أن يضعف أكثر.

كان من الصعب فتح الباب بهدوء وأنا أحمل إوزتين بدأت في المقاومة، لكنني ركلت الباب بقدمي، وكان ذلك كافيًا لجعل كورو يفتح عينيه.

قلت محاولة أن أبدو مبتهجة: «استيقظ! أحضرت لك إوزتين جميلتين. وقد دفعت ثمنهما بسخاء».

لم أستطع منع شعوري بالانتصار الطفيف. كانتا كبيرتين وسمينتين وعدوانيتين، مما يعني أنهما مليئتان بالتشي تردد كورو في البداية. أغلق عينيه مرة أخرى، لكنني أجبرته على ذبح إحداها. بعد ذلك، عاد اللون إلى وجهه.

ثم أشرت: «عليك أن تأكل الإوزة الأخرى أيضًا». ذلك كان سيعيده إلى قوته تمامًا، لكنه هز رأسه.

- أعطها للرجل العجوز.

- تعني باو؟

فأومأ لي: «طاقته غير مستقرة».

(1) دانغ شينغ (Dang Sheng): جذر نبات معروف في الطب الصيني التقليدي. يُستخدم لتعزيز الطاقة وتقوية الجهاز المناعي وتحسين الصحة العامة.

باي هي (Bai He): زنبق نباتي يُستخدم في الطب الصيني التقليدي لعلاج مشاكل الجهاز التنفسي وتهذئة الأعصاب وتحسين النوم. (المترجم)

إذن، هو أيضًا، مثل شيرو، قد لاحظ الحالة الغريبة التي يمر بها باو.
- قال إن ثعلبًا قام بذلك بعد أن صلّت له مربيته قبل ستين عامًا تقريبًا.
وأيضًا، قال إنه بالكاد يمتلك ظلًا الآن.
ظل كورو صامتًا لبعض الوقت، ثم قال: «أعتقد أن هذا الرجل نصف ميت».

- ماذا تقصد بذلك؟

ربما كان السبب هو حلول الظلام المتزايد، أو رائحة الدم الحديدية، أو حقيقة أننا كنا جاثمين على الأرض الحجرية وسط بقايا إوزة ميتة. لو دخل أحد علينا في تلك اللحظة، لنعتنا بالشياطين أو الحيوانات. وهذه ليست إهانة لنا، فنحن نوع مختلف بالفعل. لكن البشر دائمًا ما يولعون بالفارق بينهم وبين ما يسمونه «وحوش».

على أي حال، لم يعجبني حديث كورو عن باو بأنه نصف ميت، خاصة عندما كان هو نفسه لا يزال في خطر، لكنه تابع قائلاً: «من المحتمل أن باو كان على وشك الموت في طفولته؛ وحتى الآن، يواصل تسريب طاقته من رئته اليسرى. لذا ليس من المستغرب أن يكون حظه في الحياة نصف ما ينبغي أن يكون. ربما علينا أن نعطيه الإوزة الأخرى».

عبستُ في وجه كورو. قد يتغذى ثعلب مثل شيرو مباشرة على البشر، لكن يمكننا أيضًا نقل الطاقة. وهذا عبر تمرير النفس في جسد شخص آخر، ويشبه إلى حد كبير التنفس الاصطناعي⁽¹⁾.

«هل تقصد حقًا أن أفعلها أنا؟» شعرت بالإهانة، خاصة بعد أن أعاد كورو تأكيد علاقتنا (والتي لم أقدم لها إجابة واضحة حتى الآن).

- لا، سأفعلها أنا.

- أنتَ لست في حالة تسمح لك بذلك.

- ألم تقولي لي أن أكفّر عن قتل ذلك الصياد؟

ليس وأنت لا تزال جريحًا! أردت أن أصرخ بذلك، لكن لا فائدة من الجدل. سرعان ما استهلك كورو الإوزة الثانية، وكما توقعت، تحسنت حالته كثيرًا. ثم توجه إلى غرفة باو. بقيت خلفه لأنظف الدم والريش والعظام المبعثرة

(1) لهذا السبب، غالبًا ما تُتهم الثعالب بالانحلال الأخلاقي. (المؤلفة)

على الأرض. كان وقت العشاء قد انتهى، والتقطت أذناي بقلق أصوات الأواني المتناثرة وأحاديث الناس. إذا لم يُسرّع كورو، فسيُقبض عليه في غرفة باو. تمنيتُ لو تذكر مسح دم الإوز عن فمه؛ فكرت في فعل ذلك بنفسي، لكنَّ الخجل غلبني بطريقة غير معتادة.

من المزعج أن أكون قريبة من كورو مرة أخرى. كم كان من السهل أن نعود إلى تلك الألفة القديمة، ورغم ذلك تعاملنا بحذر شديد. أو ربما كان ذلك ما شعرتُ به. لم أكن متأكدة مما كنتُ أتوقعه من هذا اللقاء؛ هل ستكون هدنة، أم شيئاً أكثر تعقيداً؟ ففي النهاية، لم أفعل شيئاً في العامين الماضيين سوى لعن كورو في داخلي. لكن عندما سمعتُ صوته واستنشقتُ رائحته المألوفة، انهارت كل قراراتي تماماً.

تلك الليلة، زار الشيطان باو. أو كان ذلك أول ما خطر له عندما فتح عينيه، تشوشت رؤيته بفعل الألم. لقد أصبح نومه متقطعاً منذ أن تركته... تلك المرأة الفاتنة التي نسي اسمها، ولم يعد يذكر سوى شذا الوستارية الذي عبق في الغسق الذي جاءت فيه. نبض الجرح في جنبه، وأثقلت الضمادات بالدم المتسرب. وعند زفيره، يشتدُّ الألم القديم في رثته اليسرى، ويطعنه كحد السيف. أدرك باو، كما تُدرك كل الحيوانات، أنه ينجرف إلى الموت.

التفَّ الخوف حول كتفه كثعبان وعضه في صدره. خفق قلبه كالطبل بينما يعد الثواني وهي تمضي تباغاً. تمنى لو لم يكن وحيداً! أغلق عينيه عن ضوء القمر الذي تسلل مثل الصقيع. وعندما فتحهما مجدداً، لمح شخصاً بجانب سريره.

أياً كان فقد دخل بصمت أفزع باو. أم هل ظهر فجأة، كشبح بين دقة قلب وأخرى؟ تجمد شعره كالإبر؛ والتصق لسانه بسقف فمه. تذكر قصص مربيته العجوز عن الأشباح المنتقمة والمخلوقات التي تلتهم أكباد البشر. تلك التي تأتي في الليالي القمراء لتجلس على صدرك وتمتص أنفاسك.

- من فضلك لا تخف. لم أطرق الباب لأنني ظننتك نائماً.

إنه صوت كوروساكي، ذاك الذي أنقذه من ضربات بوهاي الهمجية. اجتمعت ظلمة الغرفة، والعرق المتجمع أسفل ظهره، والألم في جنبه، لتُضفي على المشهد طابعاً حُلُم محموم. حاول النهوض، لكن جسده الضعيف أبى الطاعة. حجبت أكتاف كوروساكي العريضة ضوء القمر. وتحرك بسلاسة، كأنه لم يُصب أبداً. كيف يعقل ذلك؟ كان وجهه شاحباً مخموصاً منذ ساعات فقط، وذراعه باردتين متصلبتين. لا يمكن أن يتعافى بهذه السرعة.

رغم الظلام، استطاع باو أن يميز ملامح كوروساكي الدقيقة، المحاطة بهالة غريبة. حثَّ نفسه ألا يخاف. رأى حاجبيه الحادين، وفكَّه النحيف،

وتلك الندبة المميزة. لكن حول فمه هناك بقعة، أ تلك بقعة دم؟ ربما هذا ليس كوروساكي على الإطلاق، بل هو مخلوق متخفٍ في هيئة إنسان. شهق باو، واسودَّ كل شيء.

الأسود هو لون خصلات امرأة، لون خشب الأبنوس المصقول، لون البحار المظلمة تحت سماء بلا قمر، لون جواد الإمبراطور المفضل الذي لا شعر أبيض فيه، لون عصا الحبر الصيني المعطر، وجناح غراب لامع. وهو أيضًا لون الثعلب الذي يأتي عند منتصف الليل.

اقترب الثعلب الأسود من وجه باو، بلامح غير بشرية على الإطلاق؛ خُطم طويل مدبب وأذنان منتصبتان. كان قريبًا بما يكفي ليعض أنفه ويفتك بوجهه، ومع ذلك كانت حركاته رقيقة، تكاد تكون مراعية. شعر بنفسه، دافئًا وحارًا، كرائحة رياح السهول، وفاحت منه رائحة الحديد والدم.

ثم جاء الصباح وسمع باو عصفورًا يغرد خارج النافذة. استلقى في فراشه يستمع إلى رقرقتها. وتلبَّدت السماء اللبنية برائحة المطر. إذن، لم يمت بعد. كانت الليلة الماضية ملأى بالأحلام الغريبة والأشباح، ومحادثة طويلة مع خادمة تاغتا، التي اتضح أنها السيدة الثعلب. وهناك ذكرى مبهمة أخرى جعلته يشعر بعدم الراحة، لأنها ذكرته بحكايات الشياطين.

تنهد باو وهو يجلس ببطء. كان جنبه يؤلمه بسبب طعنة السكين، لكن الألم ليس كما كان بالأمس حين كان ينبض بحمى شديدة. حتى الألم المعتاد في رثته اليسرى بدأ يختفي. عندما فحص الطبيب الضمادات، أبدى دهشته. لقد توقف الجرح عن النزيف ولم يرَ أثرًا للعدوى وقال: «مدهش. لكن ليس بقدر المريض في الغرفة المجاورة».

سأل باو: «هل كوروساكي بخير؟» لسبب ما، تذكر الاسم دون أن يتذكر ملامح الرجل الذي أعاده إلى دار الأدوية.

رد الطبيب: «يبدو أنه تعافى تمامًا. كان الوقت متأخرًا عندما رأيته البارحة، لذا ربما بالغت في تقدير إصاباته». ثم مسَّد ذقنه الرقيقة وقال: «إما ذلك، وإما أنني طبيب أفضل بكثير مما كنت أعتقد. ها ها!»

شعر باو ببعض الإحراج، متذكراً تحذيرات الطبيب الهامسة إلى تاغتا الليلة الماضية. ربما كان ذلك تواضعاً مهنيّاً، وإن بدت نظرة القلق في عيني الطبيب وهو يغادر.

بالحديث عن تاغتا، لم يرها باو هذا الصباح رغم النشاط المنتشر في المنزل. خرج بتأقل إلى الممر المفتوح مستنداً إلى الحاجز المنحوت. ورأى شجرة دردار في الفناء، ترتعش أوراقها المسننة مع النسيم.

شعر باو وكأن أحشاه قد أعيد ترتيبها بطريقة غامضة أثناء الليل، فصارت تتمايل مثل الهلام. لكنه علم أن هذا هراء بالطبع. لم يعطه أحد أي حقن طبية (ومرة أخرى حاول ألا يفكر في أحلامه الغامضة)، وبالتأكيد لم يصب بأي حوادث أخرى. بينما وقف هناك، رأى تاغتا تمشي وحدها عبر الفناء. لقد حررها العمر فجعلها امرأة بإمكانها القدوم والذهاب دون أن يلتفت إليها أحد.

عندما لمحته، ابتسمت وقالت: «لا أصدق كم تبدو بحال جيدة».

- أشعر بتحسن كبير. شكراً لرعايتكم.

«كان أقل ما يمكننا فعله». كانت عيناها مبتلتين، كما لو كانت تبكي، لكنها بدت مبتهجة.

- هل حدث شيء جيد؟

«نعم». ثم التفتت حولها لتنادي خادمة كي تحضر الشاي: «يجب ألا تقف طويلاً وأنت مصاب».

جلسا على المنضدة المستديرة ذات السطح الرخامي في الصالة العائلية، حيث كانت الخادومات يمررن عبر الأبواب المفتوحة. كان المكان عامّاً بما يكفي للحفاظ على اللباقة، لكنه يتيح لهما خوض أحاديثهما الخاصة.

قالت تاغتا: «أنجبت محظية ابني فتاة!»

تفاجأ باو بحماسها. معظم الناس كانوا يفضلون ولادة ولد آخر، لا فتاة، لا سيما في ظل حالة بوهاي وارث العائلة الذي بدا أنه قد فقد صوابه. لكنه قدم تهانیه على أي حال.

أضافت تاغتا: «إنها فرصة مؤقتة، إذ قد تنجب محظيته أطفالاً آخرين. لكنها تمنح بوهاي بعض الوقت ليستجمع شتات نفسه».

لم يكن لدى باو أي رغبة في رؤية بوهاي مرة أخرى، لكنه سأل عن حاله.
- اقترح الطبيب أن نرسله إلى مصحة خاصة للعلاج. في الواقع، ذهب بوهاي هذا الصباح لأنهم وجدوا مكانًا له.

كان هذا يفسر النشاط العاجل الذي شهدته باكراً. إرساله إلى مستشفى خاص بدلاً من استجوابه أمام قاضي التحقيق على خلفية طعنه لشخصين، كان خطوة حكيمة.

أنزلت تاغتا عينيها بخجل وقالت: «أنا آسفة جداً. لقد أُلحق بك الأذى، وربما كان خطأ أن نرسله بعيداً، لكنني أعتقد أنه ليس مجرماً. لديه... مشاكل أخرى، وقد لا يعيش طويلاً».

- ماذا ستفعلين إذا طعن المزيد من الناس؟

نظرت تاغتا إلى عينيها وأجابت: «لا أملك ضماناً. لكنه سيبقى محبوساً في المصحة بينما تُقيّم حالته. تحدثت مع بوهاي هذا الصباح قبل أن يغادر. قال إنه يقبل مصيره».

كانت عيناها الرطبتان، الممتزجتان بشعور بالارتياح، ووجهها المحمر والمعتذر يجعلان باو يفكر في أشياء غير مناسبة مثل أن يمسك يدها ويضعها على قلبه. فقال: «إذا زرته، هل يمكنني مرافقتك؟»

نظرت إليه مرعوبة: «لماذا؟ قد يصاب بالجنون مرة أخرى إذا رآك. يقول إنك بلا ظل».

رفع باو يده فوق الطاولة. كان منتصف الصباح غائماً، وكانت الطاولة الرخامية ذات لون رمادي وضبابي، وهو ما قد يبرر خفوت ظله. لكن ظل يده كان موجوداً، وأكثر وضوحاً من اليوم السابق. ونظر باو إلى تاغتا. اتسعت عيناها: «لديك ظل».

«نعم». كان هذا العرض مخاطرة من باو؛ ولم يُدرك ذلك إلا بعد أن سحب يده. ومع ذلك، كان هناك يقين بداخله أن اليوم، من بين جميع الأيام، سيتمكن من إظهار ظله. ربما كان ذلك نتيجة الأحلام التي رآها الليلة الماضية عندما لمس شخص (أو شيء) وجهه.

قالت تاغتا بأمل: «إذا رأى بوهاي هذا، فربما يعود إلى رشده».

لم يرغب باو في الكذب، لذا اكتفى بإيماءة بسيطة.

61

لم أنتظر عودة كورو من غرفة باو تلك الليلة. كانت مشاعري معقدة بما يكفي لأشعر أنه لا ينبغي عليّ البقاء. بالإضافة إلى ذلك، كانت سيدتي العجوز ستقلق، لذا سارعت بتنظيف الفوضى. دحرجت العظام والريش في المفرش الذي لففتُ به الإوزتين (ولن يُستخدم مرة أخرى)، وسكبتُ حوض الماء الدموي على الأزاليات. ربما ستزهر بشكلٍ استثنائي العام المقبل.

بحلول الوقت الذي عادت فيه سيدتي من نقاش عائلي مرهق بعد العشاء، انتظرتها في فناءنا الخلفي الصغير مع فراشها الذي وُضِبَ وغلاية شاي الأفحوان الساخنة. كان المصباح الزيتي مضاءً، وأنار وجهها قليلاً.

- شكراً لك، آه سان. لكن ألا ترغبين في البقاء بجانب زوجك الليلة؟ هزرتُ رأسي. عندما ظهر كورو مغطى بالدماء، كنت قد شرحت علاقتي به باختصار وبإقناع. قبلت سيدتي تفسيري بالنظرة الفارغة التي أظهرها البقية، لكنني تذكرتُ أنه ينبغي لنا الرحيل قريباً. لحسن الحظ، بدت مرهقة من التفكير في بوهاي وهلع كنتها بسبب الولادة الوشيكة. قالت بنعاس بينما كنت أغطيها: «كنت أظن أنه هو».

- من؟

- كورو... كنتُ أظن أنكما مرتبطان. كنت مشوشة.

- ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟

- إنها الطريقة التي نظرتما بها إلى بعضكما. أو بالأحرى، كيف لم تنظرا إلى بعضكما، عندما كنا عائدتين من الغابة في موجي.

تبين أنها كانت أذكى مما توقعت. وعلى أي حال، لم أرغب في أن تفكر في هذا كثيراً؛ وإلا سيكون لديها المزيد من الأسئلة في اليوم التالي.

كانت آمالي في قضاء صباح هادئ قد تلاشت بفعل نقل بوهاي المفاجئ إلى مصحة خاصة، مصحوبًا بتوديع والدته وأخواته المصحوب بالدموع. تحرَّك الجميع بعُجالة شديدة لدرجة أن العديد من الخدم أرسلوا في مهام مختلفة. وأرسلتُ على عجل لشراء الحبال والمعجنات، وهي مزيج غريب ولكنه ضروري لتأمين أمتعة بوهاي وإرضاء شغفه بالحلويات، ولم أملك وقتًا لأطمئن على كورو.

وبينما أُسرِع في العودة، شعرتُ فجأة بشعور مزعج بأن كورو قد يغادر أثناء غيابي. تخيلتُ ذلك بوضوح شديد: الغرفة الفارغة، والنوافذ المفتوحة على مصراعيها، حيث قضى ليلته الماضية. والسرير المجعد، مع أثر جسده على الفراش.

لم أكن قد صالحتُه تمامًا. ماذا لو قرر كورو أن الخيار الأفضل هو أن يختفي أو يصبح ناسكًا على جبل تاي؟ لم أستبعد ذلك أبدًا مع شرفه السخيف. شعرتُ بغصة في قلبي؛ فأصبحت خطواتي ثقيلة. حينها اجتاحني حزنٌ جارف، مثل ماء بئر بارد يغمر معدتي. لم أستطع يومًا السيطرة على كورو، وهذا هو السبب الذي جعلني أحبه كثيرًا.

عندما عدتُ، كان بوهاي قد غادر بالفعل بعربة تجرها البغال (يا لسعيي العقيم لشراء الحبال والحلوى). كنتُ أضع الحبل والمعجنات في أماكنها عندما سمعتُ جلبة قادمة من المتجر الأمامي. أسرع أحد الموظفين إلى أفنية مساكن العائلة وقال: «تاي فُورن، هناك شخص يجب أن تريه!»

سمعتُ خطوات سيدتي السريعة في الممر: «من هو؟»

وشعرتُ بشعور سيئ تجاه هذا. مسحتُ يدي، وتسللت إلى غرفة الاستقبال لأجد أن الزائر ليس سوى شيرو.

كان متكئًا بملابس تاجر كوري، وجالسًا بحذر على الكرسي وكأنه يشعر بالغثيان. قالت سيدتي: «سيد شيراكاوا، هل أتيت لرؤية بوهاي؟»
- آه، نعم، كنتُ قلقًا بشأنه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

كذب.

ترددت سيدتي: «أخشى أنه لم يعد هنا. لقد غادر للتو في رحلة». بدا من دهشة شيرو أنه لم يسمع عن طعن بوهاي لشخصين البارحة، لذلك قالت بارتباك: «إنه ليس... بخير».

«آسف لأنني أم أودّعه. في الواقع، أشعر أنني لست بخير أيضًا، وجئتُ لأخذ بعض الأدوية». وضع شيرو يده على معدته: «لقد سُممت».

- هل كان شيئًا أكلته؟

«نعم». وتردد قليلًا، وكأنه يفكر فيما يجب أن يقوله: «من فضلك أعطني أي شيء يمكنه إزالة السم».

«يا إلهي!» تصلّبت ملامح سيدتي بقلق، وركضت لاستشارة كبير خدم المتجر.

وبمجرد أن غادرت دخلتُ. لا فائدة من الاختباء إذا كان شيرو هنا ليطالب بشيء ما. وقفت فوقه، مشتعلة بالضيق: «لماذا أتيتَ إلى هنا؟»

«كيف لي ألا آتي؟ لقد تركت ملاحظات في جميع أنحاء منزل أودا تقولين إنكِ عائدة إلى المتجر وتطلبين اللقاء هناك».

هسستُ بغضب: «تلك الملاحظات لم تكن لك!»

«أعلم. ويا للأسف». وأغلق عينيه كأنه يعاني بشدة. تساءلتُ عما إذا كان يهرب من شيء ما، أو شخص ما. وعندما تأملتهُ بدا مريضًا حقًا.

قلت: «إذن لقد وجدتك في النهاية».

ارتجف بارتباك مذنب: «كيف عرفت أنها تشو يولينغ؟»

- ما كان ينبغي أن نتركها في قصر السيد تشين عندما اشتعلت النيران! كان عليك التعامل مع علاقاتك العاطفية بطريقة أفضل. هل سُممتك حقًا؟

- حاولت. ظهرت هذا الصباح في منزل أودا بحالة مزرية، تبكي وتنوح. أخذتها إلى الغرفة، وهناك وجدتُ حذاءك القشي تحت سريري.

«حذائي؟» كنت قد نسيت كيف تركتُ ذلك الزوج من الأحذية تحت نبات الوستارية في الليلة الأولى التي زرتُ فيها شيرو: «لماذا احتفظتُ به؟»

- ظننتُ أنني سأعيده إليك. وأيضًا كتعبير عن شغفي، ألا تتحرك مشاعرك قليلًا؟

هزرتُ رأسي. لا يمكن أبدًا معرفة متى يكون شيرو صادقًا.

«على أي حال، دخلت في نوبة غضب واتهمتني بخيانتها. بالطبع، أنت وأنا نعلم أن ذلك غير صحيح... لكنني أتمنى لو كان كذلك». وألقى عليّ نظرة مفعمة بالعاطفة: «هدأتها فقالت إنها تود إنهاء الأمور بشكل لائق. لذلك أخذتها إلى المطبخ، وفتحنا جرة من النبيذ لتوديع بعضنا».

قلتُ بسخرية: «هل قمتَ أيضًا بتحميمص بعض الحبار المجفف وطهي الشعيرية؟» تذكرتُ عمل شيرو في الليلة السابقة، وكيف بدا متمرسًا فيه.

- بالطبع. أنا جيد جدًا في قلي الشعيرية. على أي حال، شربنا بعض النبيذ، وتطور الأمر إلى ما هو أبعد...

- في مطبخ أودا؟

- حسنًا، الطاولة قاسية وغير مريحة إلى حد ما، لكن يمكن للمرء أن يتكيف. قالت إنها ستمنحني هدية جميلة من الفضة، تكريمًا للأيام الخوالي. ولكن في النهاية، أعتقد أنها وضعت شيئًا في النبيذ.

اشتعلت أذناي غضبًا. يا لها من قصة سخيفة! إذا كان شيرو قد تسمم، فهذا كله خطأه... كيف تجرأ على الزحف إلى هنا وتعريضنا جميعًا للخطر؟ قلتُ ببرود: «أي نوع من السم؟»

- قالت إنه سم الغو، لكنني أشتبّه أنه الزرنينخ.

الزرنينخ مسحوق أبيض عديم الطعم... السم القديم الذي استخدمه الأباطرة والمنافسون المخادعون للتخلص من أعدائهم. أما سمُّ الغو، فيُصنع في الجنوب على يد النساء الغاضبات. إنه سم أسطوري، يُقَطَّر بإغلاق العقارب والثعابين السامة في جرة وتركها تتقاتل وتلتهم بعضها البعض. ولأن الأمر يستغرق عشرة أيام لقتل الضحايا عن طريق تأكلهم من الداخل، فإنه يُستخدم لدفع العشاق غير المخلصين للعودة للحصول على الترياق.

قلة قليلة من الناس صنعوا سمَّ الغو الحقيقي؛ لم أواجه نسخته الحقيقية في جميع رحلاتي. وللأسف، فالزرنينخ فعال بالقدر نفسه إلا أنه ليس له ترياق.

بدأ شيرو يلهث قليلًا. احمرَّ وجهه وبدأ مريضًا فعلًا: «سأموت، أليس كذلك؟»

- من الواضح أنها لم تعطيك سَمَّ الغو! لكن لا أصدق أنك كنت غيبًا بما يكفي لشرب النبيذ.
- قال بصراحة: «كنت عطشانًا».
- ماذا حدث لتشو يولينغ؟
- بمجرد أن بدأت تقول إنها سممتني، هربتُ من هناك بأسرع ما يمكن. على حد علمي، لا تزال تبكي على طاولة مطبخ أودا.
- شيرو، لقد كنت شريرًا للغاية!
- أعطاني ابتسامة حزينة، ملتوية: «أعلم. وسأدفع الثمن هذه المرة».
- لو أنك سألتها عمّا أعطتك إياه، فربما تكون هناك فرصة لإنقاذك.
- ستكذب على الأرجح.

لكل مخلوق موعد مع الموت. وسواءً تعجل أو تأخر، فهو أمر متروك للقدر. بدا من غير المعقول أن شيرو كان على وشك الرحيل في تلك اللحظة، لكن الموت قد داهم ثعالب أخرى بالسرعة نفسها.⁽¹⁾ لقد تسبب لي بالكثير من المتاعب، لكن لكي أكون منصفة، كان له دور في الصلح بيني وبين كورو بطريقة ما. قلتُ: «اطلب من الطبيب المحلي المساعدة، فهو ماهر للغاية؛ لقد عالج كورو بالأمس. وحاول ألا تتحرك كثيرًا».

صرخ شيرو: «ماذا حدث لكورو؟ وأين تذهيبين؟» لكنني كنت قد اندفعت بالفعل إلى الخارج.

في الفناء، توقفت لبرهة. كان الوقت ضيقًا، لكنني لم أستطع تجاهل شعوري. أقلتني فكرة غرفة كورو الفارغة لدرجة أنني وقفت خارج بابه. لم أسمع شيئًا. فدفعت الباب بعنف، ولكن كما خشيت، كانت الغرفة الصغيرة فارغة والفراش موضبًا والنوافذ مفتوحة جزئيًا. ولا أثر لكورو.

شعرت بألم خانق، وكأن أحدهم دفع بحجر كبير في حلقي وأجبرني على ابتلاعه. غزت الدموع عيني شاعرة بالخيانة، فمسحتها بسرعة. لقد صدق

(1) أحد أعمامي المفضلين لقي حتفه عندما انفجرت الألعاب النارية العملاقة التي كان يصنعها. كان خسارة كبيرة لصناعة الألعاب النارية في «ليويانغ» لمدة مئة عام بعدها، فقد كان خبيرًا بارزًا في هذا المجال. (المؤلفة)

حدسي؛ رحل كورو بالفعل. لماذا كان ينبغي أن يفاجئني ذلك؟ لم أقل قط إنني أرغب في التصالح معه، كل ما قلته إنني آسفة لأنه كان جريحًا. قبل عامين، أخبرته أن يبقى بعيدًا عني، وقد احترم ذلك بكل جدية، بالطريقة التي يتعامل بها مع الوعود. ربما لم نكن لنلتقي مجددًا لولا أن شيرو قادني إلى ذلك المنزل في موجي. أردت أن أخرج وأبحث عن كورو؛ فلن يكون قد ابتعد كثيرًا إذا رحل هذا الصباح.

لكن من جهة أخرى، قد يموت شيرو إن لم أساعده.

كان الطريق إلى متجر أودا للتصوير مألوفًا الآن للأسف، بأزقته الخلفية وحفرها الممتلئة بالماء والقطط المتجولة. بينما كنت أجري، متفادية المارة عربات اليد المحملة بالفجل، تساءلت إن كنتُ حمقاء، لكن شيرو قد تواصل مع تشو يولينج من أجلي بالأمس، وأي ثعلب وفيّ يجب أن يظهر امتنانه ويردّ الجميل. عبرت فوق بعض الجدران متجاهلة الصرخات المذعورة، ووصلت بسرعة إلى الفناء الخلفي لمتجر أودا.

لحسن الحظ، كانت تشو يولينج لا تزال فيه.

ولسوء الحظ، كانت تشو يولينج تبدو مُنهكة تمامًا وهي متكورة بائسة على طاولة المطبخ. اضطرت إلى مناداتها عدة مرات قبل أن ترفع وجهها المُذهول. وعندما رأتني، قالت بصوت مُتبلد: «انذهبي».

- اسمعي، لا مصلحة لي في شيراكاوا. أنا متزوجة من الآخر.

«لكن حذاءك كان تحت سريره! وكان يرتدي ملابس كورية «السيد كيم» هذا ما كان مكتوبًا على حقيبته، وكان مستعدًا للمغادرة». وانسابت دمعة على وجهها الملطخ بخطوط الكحل. تلطّخت شفاتها باللون الأحمر وتبعثرت ملابسها. كان تغيرًا صادمًا مقارنةً بالمرأة الواثقة الأنيقة التي دخلت صالة السيد تشن بالأمس.

«كيم» هو اسم مستعار كوري غالبًا ما استخدمه شيرو، لكنني لم أذكر ذلك. تنهدت. وفي النهاية، أقنعتها بمرافقتي رغم أنها لم تذكر إذا كانت قد سمّمت شيرو أم لا، مكتفية بإغلاق شفتيها وهز رأسها بعنف. لكن بإخباري لها أن شيرو كان يتوق لرؤيتها (حرفيًا)، وافقت في النهاية على المجيء.

أحد الآثار الجانبية المُحزنة والمدمرة للتعالب هو أن البشر الذين ينغمسون كثيرًا في رفقتنا يصبحون مدمنين علينا بلا أمل. ويقدر ما ادّعت

تشو يولينغ كراهيتها لشيرو، كنت أعلم أنها لن تستطيع الابتعاد عنه. وإذا مات حقًا، فمن المحتمل أن تدخل في حالة جنون وتتبعه في النهاية. حتى الآن، بدت متماسكة، لذا دفعتها إلى عربة الريكشا التي مرّت بنا وعدنا إلى دار الأدوية في أسرع وقت.

ركلتُ البوابة الجانبية غير المُقفلة، وسحبته إلى الصالة حيث كان شيرو الآن مُستلقيًا على أريكة من خشب الورد، ويقوم أحد الصيادلة بفحص نبضه ولسانه. عندما رأى شيرو تشو يولينغ، اتسعت عيناه.

«أعتقد أنكِ ترغبين في قتلي حقًا»، لكن كلماته غُمرت بصوت بكاء عشيقته المهجورة، التي ألقت نفسها عليه واضطر أحد الخدم إلى فصلها عنه.

وبينما أقف هناك، لاهثة من التعب، تذكرتُ بشكل غير مريح أننا، أينما حللنا، نترك خلفنا إرثًا من الفوضى. بعد أن أشعلنا النار في قصر السيد تشن بالأمس، جلبنا الآن المزيد من المتاعب إلى دار الأدوية... وإن كان لبوهاي نصيبه أيضًا. من يدّعي أن الثعالب ظاهرة طبيعية كالحروب والأوبئة قد يكون على حق. لكنني أحب أن أعتقد أننا مجرد عوامل للتغيير. فالثعالب رغم تلقيها الملامة كثيرًا لكونها كائنات تنذر بالشؤم، فإنها كالإبر التي تُفرّق الدامل.

بينما كنتُ أتأمل هذا المشهد، شعرت بوخز الضمير. لقد شرعتُ في الانتقام لطفلتي، لكنني فعلت ذلك بطريقة ثعلبية وعنيدة، لا تختلف كثيرًا عن شيرو في النهاية. وبينما كنت أهرس سلوكي لنفسي، كنت أبتعد أكثر عن طريق التنوير. كم من السنوات حاولتُ أنا وكورو أن نسير في هذا الطريق الضيق، لكننا نُقوّض بسبب خطايانا من الحزن وفقدان الثقة؟ والآن رحل كورو، ومحاولات شيرو المذعورة لإبعاد نفسه عن تشو يولينغ لم تكن إلا مدعاة للتحسّر.

لكن يجب علي إنهاء المهمة. ركضت قافزة فوق النباتات المزروعة وعبرت عدة ساحات حتى وصلت إلى باب غرفة باو، وطرقت عليه بقوة.

- انهض! أحتاج إلى مساعدتك. آن أوان استخدام موهبتك.

دائمًا ما تروق هذه الكلمات للرجال ذوي النزاهة. شخص مثل باو، الذي لولا تشوش تدفق طاقته الداخلية التشي لحقق إنجازات كبيرة في منصب مسؤول حكومي. بدا الرجل العجوز بحالة أفضل بشكل مذهل. لم أكن

لأستغرب لو أن كورو قد منح باو بعضاً من قوة حياته. أمسكت بيده وسحبته على عجل.

عندما وصلنا إلى الصالة، كان الوضع قد هدأ. جلست تشو يولينغ على كرسي، تبكي بصمت وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما (ومشهد مزعج للغاية).

قلتُ لها: «قولي الحقيقة، هل وضعتِ سمَّ الغو في شراب شيراكاوا؟»
قالت بتحدٍّ: «نعم».

نظرت إلى باو، فhez رأسه. كذب.

فغرت تشو يولينغ فمها بدهشة: «كيف عرفت؟»

- إذا لم يكن سمُّ الغو، فما الذي وضعته في شرابه؟

كان شيرو مُلجماً بالصمت. وبدا مذهولاً وهو يقلب نظره بيني وبين باو.
قالت: «زرنوخ».

ومرة أخرى، هزَّ باو رأسه.

كنت أريد أن أضرب قدمي غضباً. كل لحظة تؤخر فيها قول الحقيقة تعني اقتراب شيرو خطوة أخرى من الموت. وفي خلفية ذهني، كانت صورة كورو الراحل تبتعد أكثر وأكثر حتى تختفي في الضباب. لا شك أن هذا سخي، إذ لم يكن لدي الحق في الشكوى. حينها تشابكت أفكاري، وضاق صدري بالألم: «أخبرينا على الأقل إذا كنتِ سمِّمته حتى يستطيع أن يُكفِّر عن خطاياها بالشكل الصحيح».

عند هذه الكلمات، انفجرت تشو يولينغ في نحيبٍ عالٍ: «تخليتُ عن كل شيء من أجله! والآن يشتبه راعيُّ في أنني أخونه. لكنني لم أسمِّمه».

جلس شيرو فجأة: «والمسحوق الأبيض الذي وضعته في الشراب... ما هو؟»

- دقيق الأرز. أردتُك أن تعاني وتكون نادماً قليلاً.

حدَّق الخدم بأعين متسعة، وهم يشاهدون هذا العرض. لقد كان أفضل من مقاعد الصف الأمامي في أوبرا صينية. ثم ما حدث بعد ذلك لم يعد شأني. كان قلبي مثقلاً بالحزن والقلق. لقد نجا شيرو، لكن كورو رحل. كنتُ أرغب من قبل في قطع العلاقة مع كليهما، والآن ندمت بمرارة على ذلك.

62

كان يومًا مليئًا بالاضطرابات، تلاحقت فيه أحداث الأمس كزوبعة؛ التعرض للطعن، ثم زيارة شيطان في الأحلام، كان أمرًا سيئًا بما فيه الكفاية، لكن الفوضى استمرت حتى منتصف الصباح، وكأنها زهرة تتفتح إلى جنون متزايد.

جلس باو يحدق في المجموعة الغريبة التي تجمعت في صالة متجر الأدوية، ومنهم شيراكاوا وتشو يولينغ، التي التقى بها خارج متجر تصوير أودا. اختفت ملابسها الفاخرة المصنوعة من الفرو والجوارب الحريرية المستوردة، وبدأ شعرها الأملس في فوضى. كانت تهذي عن السم، وقد أدرك باو أن دوره هو تمييز الحقيقة، وهو شعور غير معلن تردد كشرارة برق بينه وبين السيدة الثعلب.

هز رأسه بـ: لا، ثم لا، ثم نعم عندما نطقت تشو يولينغ أخيرًا بالحقيقة. ومع انهيار التوتر الذي كان يغلي في الغرفة، انهارت تشو يولينغ أيضًا، وألقت بنفسها مرة أخرى على شيراكاوا.

لكن بالطبع، لم يكن الأمر قد انتهى. قضية فوضوية كهذه، تتسلل إلى حياة الآخرين بتلميحات عن الخيانة ومحاولة القتل، وبها ستؤجج الشائعات. كان باو يأمل ألا يؤثر ذلك كثيرًا على عائلة تاغتا. ما الذي يميز كلاً من المرأة التي أخرجته من غرفته وشيراكاوا ليعبئا مثل هذا الشوق الجامح والفوضى؟ لو كان عليه أن يشك في كون أحدهم ثعلبًا، لكان سيرشح هذين الاثنين. لكن هذا سخيف. ورغم ذلك، بدا رده السريع على هذه الفكرة وكأنه اقتراح زرع في عقله. وكلما تساءل باو عن ردود فعله، ازدادت حيرته. كأن هناك من يخدعه.

هذا صحيح.

كان ذلك نوعًا مختلفًا من التلاعب بالواقع، ليس كالأكاذيب التي تجعله يشعر بالخدر في لسانه والطينين في أذنيه. شعر باو وكأنه على وشك الإمساك بذيل تلك الفكرة قبل أن تتلاشى في البلبلة.

وبينما كان يتأمل في ذلك، لاحظ نظرة شيراكاوا الحادة بما يكفي لتقطع كإزميل لنحت عين تمثال خشبي. أشار شيراكاوا بإيماءة سريعة، فوق نحيب تشو يولينغ، التي كانت الآن في حضنه، تدفن وجهها في عنقه متخيلة تمامًا عن أي لباقة. ووجّه نظره إلى السيدة الثعلب، التي نظرت إليه بامتناع. كانت لحظة ساذجة من الإحباط بين شخصين يبدوان وكأنهما يجب أن يكونا المفضلين لدى الإمبراطور في بلاط يمتلئ بالأجواء الشعرية.

للحظة، أدرك باو حدود تلك المخلوقات. إنها قادرة على الخداع، لكنها تتعثر باستمرار بسبب سلوكها الطائش، كالثعلب الذي يعلق رأسه في زجاجة. لا يملكون خطة متينة، رغم مظهرهم الساحر. وربما هذا هو الرعب الحقيقي. فكر في فينغ، التي وجدت متجمدة على عتبة الباب؛ وزوجة الجزار التي تركت أيضًا في الثلج؛ والمسار الطويل الذي سار عليه، باحثًا عن أي دلائل على وجود الثعالب. هل كان شيراكاوا هو من فعل ذلك أم مخلوق آخر مثله؟ حتى لو كان شيراكاوا، فلن يعرف أو يهتم. فهو يعيش لحظة بلحظة بطريقة غير إنسانية تمامًا، وقد لا يتذكر تلك النساء. هل هذا هو الفرق بين البشر والوحوش؟ دارت أفكار باو في رأسه، وشعر بدوار متزايد. فأمسك برأسه. ثم شعر بنقرة خفيفة على كتفه. وعندما التفت، رأى أن تاغتا قد عادت. قالت له: «لماذا لا تستريح؟»

أشار باو بصمت إلى المشهد أمامهما، فردت تاغتا: «ذهبتُ للبحث عن طبيب للسيد شيراكاوا، لكن يبدو أنه سيكون بخير». وضعت يدها على صدرها، وكأنها كانت في عجلة من أمرها. ولمعت عيناها، وتورّدت وجنتاها. سألهَا باو: «هل كنتِ قلقة؟»

- لا، لقد ذهب السيد كوروساكي معي.

وها هو ذا الذي أنقذ باو من ضربات بوهاي الطائشة... أكان ذلك بالأمر؟ وقف خلف تاغتا بصمت. واستعصت قراءة تعابير وجهه. شعر باو بقلق يعتصر معدته. وقفزت إلى ذهنه كلمات تاغتا الحماسية عندما كانا طفلين: كان وسيماً جدًّا. بالطبع، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، لأن الرجل الذي

أنقذها منذ ستين عامًا في السهول لا يمكن أن يكون في هذا العمر، لكن البريق في عينيها يشبه ما رآه في الماضي بطريقة مؤلمة. فرك باو جبينه. وأجبر نفسه على لقاء نظرات كوروساكي، وفوجئ عندما رأى أن نظرتة كانت موجهة نحو السيدة الثعلب. كانت نظرة مشوبة بالحنين والتأمل، وهي نظرة فهمها باو جيدًا. فجأة، شعر باو بأنه يحب كوروساكي كثيرًا ولا يتمنى له سوى الخير.

قال كوروساكي: «علي أن أغادر الآن. شكرًا على المساعدة».

ردت تاغتا، بنبرة خيبة أمل واضحة: «بهذه السرعة؟ لكنك لم تتعافَ تمامًا».

- نحن لا نستطيع أن نبقى لفترة أطول، وإلا لن تتمكني من مفارقتنا على الإطلاق.

تساءل باو: من يقصد بـ«نحن»؟ من الواضح أنه يقصد ثلاثتهم. كانوا مختلفين عن الجميع كاختلاف البجع عن الإوز. حاول شيراكاوا فك ذراعي تشو يولينغ الملتفتين حول عنقه. ولم يكن الأمر سهلًا، فقد كانت مصممة على عدم تركه يذهب. قد لطخت دموعها مقدمة قميصه ببقع حزينة ويائسة، وتورّمت عيناها واحمرّتا.

قال شيراكاوا بتنهيده ارتياح: «آه، كورو! أخبر هذه المرأة أن تتركني».

ردت السيدة الثعلب بغضب: «افعل ذلك بنفسك!» ثم انحنت بأناقة، وأمسكت يدي تاغتا بكليتي يديها: «أتمنى لك كل الخير يا تاي فورن». ثم وجهت عينيها نحو باو وسألته: «هل لا تزال تحقق في أمر تشين؟»

أوماً باو برأسه: «هل كان موت تشين في البحر حادثًا أم أمرًا متعمدًا؟»

أجابته بصوت ناعم: «عليك أن تستجوب لوو. أعتقد أنك الوحيد الذي قد يتمكن من اكتشاف الحقيقة».

ثم وقّفت عند الباب بجانب كوروساكي. بدا وقوفهما، كما لاحظ باو بغرابة، أشبه بالحيوانات التي لمحها في البرية من بين الأعشاب الطويلة. يقظان حذران. خطت تاغتا خطوة إلى الأمام قائلة: «لا ترحلا! ما زال لدي الكثير من الأسئلة. أريد أن أتحدث معكم أكثر».

قال كوروساكي بطيف ابتسامة خافتة في عينيهِ الداكنتين: «تحدثي إلى الشخص الذي بجانبك. الأصدقاء القدامى هم أفضل الرفاق».

مرّت بقية اليوم بطريقة غامضة وهادئة، كأن شيئاً لم يكن. بدا الجميع متقبلاً مغادرة كوروساكي مع آه سان خادمة تاغتا دون أي استفسارات. وتركا انطباعاً غامضاً بأنها عادت إلى مسقط رأسها في الشمال. أما شيراكاوا وتشو يولينغ، فقد غادرا أيضاً. في الواقع، بدا أن شيراكاوا كان مصمماً على المغادرة لدرجة أن سحره السلس أصبح مضطرباً قليلاً. وبسبب قلق باو على حالة تشو يولينغ، حرص على وضع كليهما (حيث لم تكن تشو تولينغ مستعدة لترك ذراع شيراكاوا) في عربة الريكشا مع تعليمات للسائق بأن يأخذها إلى منزلها.

والعجيب أنه كلما زاد توتر وتشوش شيراكاوا، استعادت تشو يولينغ المزيد من رباطة جأشها. كانت تمسح دموعها وتقول: «تعال معي إلى منزلي، شيراكاوا. الآن بعد أن عدت، لن أدعك ترحل أبداً».

رد شيراكاوا: «راعيك لن يعجبه ذلك. أظن أنه يجب أن نأخذ استراحة من رؤية بعضنا البعض».

- لا. أستطيع التعامل معه. لكن لا أستطيع العيش دونك.

شعر باو بالحرَج والقلق من النظرة التي ثبتتها على شيراكاوا. بدت عينا شيراكاوا مضطربتين، كحيوان عالق في فخ، رغم أن ومضة المكر ظهرت في عينيه، تلمح إلى احتمالات أخرى، وبدأت العلاقة محفوفة بالمخاطر. يمكن أن تدفع العواطف الرجال والنساء إلى أقصى حدود الجنون. ومؤخراً، اندلعت فضيحة محلية عندما قامت إحدى العاهرات بخصي عشيقها بمنجل. ارتجفت عظام باو، وهو يتذكر وجه تشو يولينغ، ونظرتها القوية والإصرار الذي تحمله. وفجأة، خطرت بباله قصص الثعالب، وكيف تنتهي غالباً بنهايات غير سارة لجميع الأطراف.

بعد أسبوعين، جلس باو في فناء إقامة دار الأدوية الخاص. كانت شجرة الدردار في أوج اخضرارها، تبشّر بقدوم الصيف المبكر. راقب باو يريقة تتدلى ببطء على خيط غير مرئي، تتلاعب بها الرياح الخفيفة، فمد يده ليحوّل مسارها بلطف عن فنجان شايه. كان الشاي مزيجاً خاصاً من أحد تجار الشاي المحليين، بطعمه الحلو ونهاية مذاقه المرّ الخفيف الذي ذكّره بالشاي الذي كان يشربه والده.

وصل باو إلى عمر والده حين توفي من التهاب رئوي بعد نوبة برد صيفية. في ذلك الوقت، كان باو يعمل مدرسًا في بلدة أخرى. وعندما علم بمرض والده، سارع إلى سريريه. طوال حياته، شعر باو بالرهبة من والده، لكن حين اقترب منه وهو مستلقٍ في سريريه المنحوت، أصابه شعور بالدهشة من مدى تقلص حجمه. كانت عينا والده ضبابيتين شاردتين، وبين أنفاسه الثقيلة قال لباو إنه كان فتىً جيدًا. كلمات ذكّرت به بحزن توديع أحد الحيوانات المنزلية الأليفة.

قال باو: «أبي»، متسائلًا إن كان قد خلط بينه وبين أخيه الأكبر: «إنه أنا، باو». وأضاف في سرّه، **الفاشل في اجتياز امتحانات الإمبراطورية**. يا للغرابة، لم يعد ذلك يزعجه كما كان من قبل.

قال والده بصوت خافت: «لطالما ظننتُ أنك موهوب. خسارة أنك لم تستغل تلك الموهبة».

كانت تلك آخر كلمات نطق بها والده، عدا تعليقه على أن الشاي تأخر في الوصول. على مر السنين، ظل باو يقلّب تلك الكلمات في ذهنه، يتفحصها وكأنها نافذة تطل على منظر غامض مُبهم. كيف يمكن مقارنة كونه فتىً جيدًا مع كونه خيبة أمل؟ هل كانت الطيبة في نظر والده مضيعة؟ أم أنه كان يهذي، وتشوّش ذهنه بسبب صعوبة التنفس؟

والآن، وهو يتأمل الشاي في فنجان، تذكر كيف أيقظته السيدة الثعلب من فراش مرضه في اللحظة الأخيرة، قائلة له: **آن أوان استخدام موهبتك**. وكذلك التفسير الغريب الذي تلقاه في منتصف الليل حول قدرته على سماع الحقيقة. وهذه كلها كانت من شذرات التفاصيل التي تجمّعت في رأسه بشكل مرضٍ.

رفع بصره ليجد أن تاغتا أتت لتنضم إليه، حاملةً فنجان شاها الخاص. قال: «سأعود إلى موكدن. لقد اشتريت تذكرة القطار بالفعل».

- هل أنت متعافٍ بما يكفي للسفر؟

دُهِش الجميع لسرعة تعافيه بعد الطعنة، حتى هو نفسه. والأسبوعان الماضيان اللذان قضاهما هنا كانا مريحين بشكل محرج تقريبًا. إيقاع هذا المنزل، بخدمته المدربين جيدًا، ووجباته اللذيذة، وأسرته الناعمة، كان مصدر راحة لم يشعر بها باو منذ زمن طويل. بالطبع، كانت هناك بعض المشاكل

عائلية داخلية. فعودة سيد دار الأدوية من بيت محظيته أثارت بعض التوتر، رغم أن حقيقة أن الطفل الجديد كان فتاة وليس صبيًا هَدَّأت قلق زوجته. لكن لم يكن أي من ذلك يعني باو، الذي كان مجرد غريب في البيت. ما كان يهمه أكثر هو رفقة تاغتا الهادئة.

- هل هناك سبب يجعلك مضطرًا للعودة غدًا؟

- لدي بعض الأعمال التي يجب إنهاؤها.

لم تسأله تاغتا عن ماهية تلك الأعمال. وهذا ما أعجبه فيها، بجانب نظرتها المباشرة الودية. فكَّر للحظة في أن يخبرها بما قالت له خادمته آه سان قبل أن تغادر... أن عليه التحقيق في أمر لوو. كان ذلك مسارًا مثيرًا للاهتمام. وتساءل عن سبب قولها لذلك.

شعر باو بتلك الغشاوة المألوفة تغزو ذهنه كلما فكر بعمق في خادمة تاغتا. وأكثر من مرة، عبَّرت تاغتا عن أسفها لمغادرتها: «سأفتقدها كثيرًا، رغم أنني سعيدة بأنها اجتمعت بزوجها»، لكن الحقيقة هي أن باو وتاغتا لم يتذكرا أي تفاصيل أكثر من ذلك. حتى حدسه بشأن الثعالب، وفوضاهم وسلوكهم الهزلي، فقد حِدَّتْه. في الواقع، عندما أخبر تاغتا نظريته السابقة بأنهم قد يكونون جميعًا ممثلين متجولين، هَزَّتْ رأسها بحماس، وقالت إن آه سان قد ذكرت دارًا للآيتام، وهو أصل شائع لمثل هؤلاء الفنانين. ثم تلاشى الدافع الغريب الذي حمله طوال حياته لاكتشاف المزيد عن الثعالب وسيطر عليه منذ طفولته، تلاشى كما تلاشت آلام رثته اليسرى.

سأل باو: «هل لي أن أعود لزيارتك؟»

كانت علاقة باو بأسرة تاغتا، وخاصة بابنها وزوجة ابنها، ودية بشكل ملحوظ. فقد بدا أنهم ممتنون لعدم حمله أي ضغينة تجاههم بعد طعن بوهاي له. وأعلن سيد دار الأدوية مرارًا عن سعادته بأن باو كان صديق طفولة والدته، (ما يعني أنه من غير المحتمل أن يطالب بأي تعويض مالي أو قانوني).

قالت تاغتا: «سأنتظرك. متى قررت الانتقال إلى داليان».

«كيف عرفت؟» فوجئ بأنها استشَفَّت أفكاره، فلم يكن هناك ما يربطه بموكدين سوى شقيقه الأكبر.

- استطعتُ أن أقرأ ما كنتَ تفكر فيه. سؤالك عن المدينة وبحثك عن معارفك. كما أنني أشكرك لمساعدتنا في تسوية الأمور مع عائلة تشين.

في الواقع، كان باو يتساءل ما إذا كان سيظهر مبعوث غاضب من السيد تشين للمطالبة بالتعويض. لكن لم يظهر أحد بعد، وعندما تواصل مع هونغ، بدا أن أسرة السيد تشين كانت مشغولة جداً بالتعامل مع تبعات احتراق قصرهم حتى أنها لم تفكر في الهروب المحتمل لخادمة تسمى آه سان. وحسب ما أخبره هونغ، فقد كان سبب الحريق هو احتراق مبخرة مقلوبة. ولم يذكر أي زوار غريبين، ولا المرأة الغامضة التي تشبه الثعلب. ورغم ذلك، لم ينسَ باو أنه ينبغي له إجراء مقابلة مع لوو حول اختفاء تشين في البحر، وإن بدأ ينسى من أخبره بذلك.

قال باو: «أعدك أنني سأعود قريباً».

ضحكت تاغتا قائلة: «أستطيع الانتظار. لقد انتظرتك في الفناء لعدة أيام عندما كنا أطفالاً. هل تتذكر؟»

ابتسم باو وقال إنه يتذكر.

خاتمة

في خريف ذلك العام، توفيت الإمبراطورة الأرملة تسيشي في المدينة المحرمة. بعيدًا، في عاصمة مانشو القديمة، موكدين، كانت النقاشات في بيوت الشاي وقلل الأثرياء تدور حول ما قد يأتي بعد ذلك. وفي القرى والمزارع، استمر الفلاحون في نقل بضائعهم إلى الأسواق بعربات اليد، بينما اجتاحت أسراب الجراد الجنوب الغربي، ونُصِبَ الطفل البالغ من العمر ثلاث سنوات، آيسين غورو بوئي، آخر إمبراطور محتمل لسلالة تشينغ.

قال كورو: «لا أعتقد أن هذا ينبيء بالخير».

كنا نجلس على جدار بالقرب من الحدود الكورية. في الواقع، كانت هذه المنطقة بأكملها جزءًا من مملكة غوريو، ولكن في الوقت الحاضر لم يعد أحد يولي اهتمامًا لذلك. باستثناء الثعالب بالطبع. فعندما تتمدد الممالك وتتقلص، دائمًا ما تكون هناك أرباح يمكن حصدها. لكن وجبَ أن يُنَجَزَ ذلك بأمانة بالطبع، وهذا مفهوم دون الحاجة إلى توضيح.

نال الجدار الحجري دفئه من حرارة الشمس، مما جعله مكانًا مريحًا للجلوس. كان في الأصل جزءًا من حصن مهدم، هُجِرَ منذ زمن طويل وأصبح الآن موطنًا لفئران الحقول، التي كانت تتسلل داخله وخارجه عبر الشقوق.

قلتُ لكورو بينما كان يراقب أحد الفئران بعينه: «لا تفعل! لقد تناولت ما يكفي من الطعام، ثم ألم تقل إننا يجب ألا نكون جشعين؟»

لم يُجب كورو إلا بإيماءة خفيفة. إنها واحدة من تلك الإيماءات التي يظن الغرباء أنها غامضة. لكنني كنت أعرف أن معناها أنه لا يزال لديه مكان لفأر آخر. كما كنتُ أعلم أنه سيكون من الصعب جدًا عليّ أن أفارقه. لم نكن قد تصالحنا تمامًا بعد... أو أنا لم أفعل. مرّت ليالٍ بكيت فيها، وصباحات لم

أرغب في التحدث معه فيها. لكن في النهاية، كنتُ أنا وكورو فقط من يحمل ذكريات طفلتنا. وهو وحده من عرفها وأحب وجودها القصير بقدر ما فعلت. لقد أدَّى كلُّ منا نصيبه من التوبة عن الأخطاء التي أدت إلى فقدانها؛ كرحلتي لزيارة قبر جدتي. وقراره بالذهاب في رحلة صيد وتركها وحدها، ورحلة الصيد التي استغرقت وقتًا طويلًا، وكانت مليئة بالعقبات والتأخيرات. الكلمات التي قالها لي عندما عاد متأخرًا، غير مدرك أن طفلتنا قد اختُطفَت: **لماذا أنتِ منزوعة هكذا؟ كان والدائي يتركنا وحدنا لأيام.** وأثار بذلك غضبي.

الحقائق هي أننا كنا بعيدين عندما حفر صياد وكرنا وأخذ طفلتنا. الحقائق هي أن معدلات وفيات الأطفال مرتفعة. ونحن جنس ينقرض على أي حال.

الحقائق هي أنني فشلت في حماية ابنتي.

يقول كورو إن هذا غير صحيح، وإن اللوم يقع عليه. يقول إنه لا يستطيع العيش دوني، وأنه حاول وإذا أخبرته أن يبتعد مجددًا، فسيتوجه إلى جبل تاي ويعتكف في كهف حتى يموت. لم أكن أظنه يمزح. فهو قادر تمامًا على هذا النوع من التصرفات. على كل الأحوال، سلكت هذا الطريق المرَّ بما يكفي لرؤية القليل من ضوء الشمس بين الأشواك.

أحاول أن أذكر نفسي بأننا لسنا المسؤولين عن بكتو نيكان أو الصياد الذي استأجره. وفي الأيام الجيدة، لا أفكر فيهما على الإطلاق. وفي الأيام الجيدة جدًا، نستطيع، أنا وكورو، أن نستعيد ذكريات طفلتنا ذات العينين الواسعتين والثقل اللطيف دون أن نلوم بعضنا البعض بشدة.

في أحد الأيام سألته: «ما هو الكتاب الذي كتبته في اليابان وجعل جدَّ الأنسة يوكيكو يعرض عليك وظيفة؟»

أدار رأسه محرجًا وقال: «كان كتابًا عن قصص الأشباح. لم أتوقع أن يقرأه أحد.»

«قصص أشباح عن ماذا؟» بالتأكيد مررنا بالكثير من الأحداث الغريبة على مر السنين.

- المعبد المسكون في دايغو. الرجل بلا أنف في تشيتشيهار. التسع وعشرون درجة ملعونة، والبرر الذي تطفو فيه خصلات الشعر البشري.

تأملت بصمتُ للحظات. فكل واحدة من تلك القصص تتناول زوجة أو طفلاً مفقودًا. قال كورو: «كتبْتُها وأعدت كتابتها لنفسِي».

- مع نهايات سعيدة؟

- أظن أن ناقدًا أدبيًّا وصفها بأنها «مجموعة حزينة وملينة بالشجن».

- لم أكن لأتخيل أنك تملك روحًا شعرية كهذه.

قال بعفوية: «كنت حزينًا جدًّا وأنا بعيد عنك».

ليس هناك الكثير مما يمكن قوله أمام هذه التصريحات. إنه خطأي لأنني تزوجتُ رجلًا يُخجلني بجديته. ولتغيير الموضوع، قلت: «كان عليك أن تضيف قصة شيرو وزوجة حاكم المقاطعة. تلك فضيحة حقيقية». وبالفعل، كانت تلك الفضيحة مشهورة إلى درجة أن شيرو اضطر لتجنب تشانغآن لخمسَ وسبعين عامًا.

قال كورو: «بالحديث عن شيرو، سمعتُ أنه في طريقه إلى فورموزا لإنشاء مصفاة سكر».

«كيف حاله؟» في الحقيقة، كنت مندهشة أن شيرو قد نجا. نظرة العزم على وجه تشو يولينغ كانت توحى بأنها كانت قادرة تمامًا، (كالسيد تشين)، على الاحتفاظ به في سجنها الخاص. البشر كائنات مرعبة بحق.

- يبدو أنه لا يزال مع تشو يولينغ، وإن لم يكن من غير الواضح ما إذا كان ذلك طوعًا أو كرهًا. لكن يستطيع شيرو الاعتناء بنفسه.

نعم، بالتأكيد يمكنه ذلك. قد يستخدم الأموال حتى لإنشاء مصفاة سكر حقيقية. شيرو كسول جدًّا، وتشو يولينغ، رغم هوسها، بدت امرأة أعمال مقتدرة، لذا ربما تستمر علاقتهما لفترة أطول.

كان كورو يحدق متأملًا في الأفق. حيث رفرف طائر العقعق بجناحيه المخططين باللون الأبيض والأسود. قلت: «هل أنت قلق عليه؟»

- لا. كنتُ أفكر فيك. ما إذا كنتِ قد فضلتِ الذهاب معه بدلًا مني.

«هل لهذا كنتُ هادئًا جدًّا عندما كان ثلاثتنا في موجي؟» تذكرتُ حضور كورو الصامد وظل السيدة يوكيكو التي كانت تتشبث به بإلحاح. ولم يُعجبني ذلك أبدًا.

- في الواقع، كنتُ منزعجًا للغاية.

- لم يتغير تعبير وجهك.
- ابتسم كورو ابتسامة ساخرة: «لطالما كنتِ نقطة ضعفه. كنتُ أعرف هذا، ومع ذلك طلبتُ منك الزواج بي».
- «هل قال شيرو شيئاً عن ذلك؟» كنتُ أكشط المِلاط من الحائط بأظافري فتساقطت الحبيبات في العشب البري. ها هي قطعة أخرى من الإمبراطورية التي كانت الثعالب تدمرها.
- كنا نعرف. لذا عندما قلتِ إنك لا تريدين رؤيتي مجدداً، تمنيتُ لك السعادة.
- هل تقصد أنه لو لم يُقتل بكتو نيكان ولم يحتجزني السيد تشين، لكنت ستبقى بهدوء في موجي؟
- أوماً برأسه.
- شعرت بالضيق لكنني ارتحت في نفس الوقت من عناد كورو، فدفعته من على الجدار. أطلق صيحة خفيفة، لكنه هبط برشاقة في وضعية القرفصاء. وعندما وقف، نظر إليّ بعينين متألقتين.
- سنو، لنبدأ من جديد. هل ستسيرين معي في الرحلة الألفية؟
- فقط أنت من يمكنه أن يقترح رحلة أخلاقية كطلب الزواج. لكن لم لا؟ بالإضافة إلى أننا اتفقنا بالفعل على محاولة عدم ارتكاب الكثير من الذنوب.
- ضحكتُ وقفزت من على الجدار فأمسك بي كورو من خصري وأدارني في حلقة.
- قال: «حان وقت مغادرة هذه المنطقة. هناك طاعون دبلي ينتشر بين قوارض المرموط، وأخشى أن ينتقل إلى البشر. وإذا حدثت وفيات، فقد يلقون باللوم على الثعالب أو الأرواح الشريرة. علينا عبور الحدود إلى كوريا؛ يمكننا أن نكون السيد والسيدة بارك، معالجي الأعشاب المتواضعين».
- لنصنع ثروة من بيع الأدوية النادرة.
- لا، يجب أن نعطي الأرباح للفقراء.
- لكننا لا نملك أي أموال الآن!
- قال كورو برقة: «أنتِ كنز قلبي».

لا يمكنك المجادلة مع شخص يقول أشياء كهذه؛ احتضنته بقوة، بقوة شديدة في مواجهة الرياح التي كانت تهب من الشمال، وتحت الشمس الساطعة التي كانت تضيء العشب الطويل من حولنا، حتى بدت كل بذرة كأنها مصنوعة من الذهب الخالص.

وهنا يجب أن أختتم هذه الحكاية. لو أخبرتك بنصف ما يفعله الثعلب في سنة واحدة، لكان بإمكانك ملء كتاب كامل من الغلاف إلى الغلاف، بالإضافة إلى مجموعة طويلة من الحواشي. سأدفن مذكرتي هذه تحت هذا الجدار الحجري، وربما، عندما ينهار الجدار في النهاية، سيعثر أحدهم عليها. أو لا يعثر. فكل القصص لها نهاية، تمامًا كما لها بداية. لكن البداية هي حيث تختار أن تضع قدمك، أما النهاية فهي حدود ما بلغت معرفتك.

أما بخصوص ما إذا كنتُ أنا وكورو سنتمكن من إتمام الرحلة الألفية، فلا أعلم. ولكن إذا كنتَ تحب الثعالب ولو قليلاً، ولا تعتبرنا آفة أو مصدر إزعاج، فاترك لنا بعض التفوف المقلي قريباً.

فمن يدري، قد نأتي لزيارتك في إحدى أمسيات الصيف الجميلة.

ملاحظات

أرواح الثعالب

لطالما افتننتُ بالقصص الصينية القديمة التي تتحدث عن النساء (والرجال) الثعالب الذين يغوون البشر ويخدعونهم. تقليدياً، كانت النساء الموصوفات بـ «الثعالب» يُتهمن بالإرادة القوية، والعواطف الجياشة، والانغماس في الحياة الماجنة. لكنَّ القصص التي تحكي عن هذه الثعالب المتحولة اتَّسمت بالقصر والغموض؛ وكنتُ دائماً أتساءل، في طفولتي، من أين أتت تلك الثعالب وماذا تفعل بين تلك الحوادث التي دُوِّنت في الأدب الصيني بوصفها «تاريخاً».

شمال الصين هو الموطن الأصلي لعبادة الثعالب، التي وصلت لاحقاً إلى كوريا واليابان. ذُكرت الثعالب كرموز لجلب الحظ السعيد، وتعود السجلات التي تشير إليها إلى عهد أسرتي هان وتانغ. واختلاف النظر إليها من ثعالب سماوية إلى شياطين تلتهم الأرواح ربما يعكس وجهين لعملة واحدة؛ حيث تُرى الثعالب ككائنات خارقة للطبيعة غير واضحة النوايا تجاه البشر. ومن اللافت أيضاً وجود أوجه تشابه تاريخية بين الثعالب والأجانب. فكلمة «هوو» (Hu) تحمل النطق الصوتي لكلمة «ثعلب» (狐) وفي العصور القديمة كانت تشير إلى «البرابرة» (胡) القادمين من شمال وغرب الصين⁽¹⁾.

يحتل الثعلب مكانة هامشية في الثقافة الصينية، فهو معبود ومطرود في آنٍ واحد، يعيش في ظلال المستوطنات البشرية. تعكس قدرته على التحول

(1) زياوفاي كانغ، «الثعلب [hu] والبربري [hu]: تفكيك تمثيلات الآخر في حكايات أواخر عهد تانغ»، مجلة الأديان الصينية، العدد 27، رقم 1 (1999): 35-67. (المؤلفة)

بين أشكال الإنسان والحيوان وضعه الغامض والمعلق بين العالمين. ورغم أنه كان يُنظر إليه على أنه مخلوق شهواني وشرير وغير قابل للترويض، فإن الثعلب كان يُعتبر أيضًا إلهًا للخصوبة، ومعالجًا، ومرشدًا أخلاقيًا. في عهد أسرتي مينغ وتشينغ، ساهم كُتّاب مثل بو سونغلينغ وجي يون في نشر قصص الثعالب والأشباح. وفي الأدب الصيني، غالبًا ما ترتبط هذه الكائنات بالحب والشاعرية، مع التركيز عادة على صورة المرأة الثعلبية الجميلة التي تُروّض وتتحول إلى زوجة أو محظية تُنجب أبناءً ينجحون في امتحانات الإمبراطورية.

هناك عدد أكبر بكثير من القصص حول النساء الثعالب مقارنةً بالرجال، ربما لأن العديد من هذه الحكايات تُروى من وجهة نظر بطل ذكر، غالبًا ما يكون عالمًا، تغويه ثعلبة في صورة امرأة متودّدة. ولطالما أثار استغرابي هذا التفاوت في التصوير. إذا كانت هذه الكائنات موجودة حقًا، فما هي دوافعها؟ خلال بحثي من أجل كتابة هذه الرواية، قرأت العديد من القصص عن الثعالب، بما في ذلك ما يزعم أنها مواجهات تاريخية من الصين واليابان. بعض هذه القصص غريبة ومفككة بالفعل، بينما يبدو أن بعضها الآخر يلمح إلى حياة غنية وملئية بالتفاصيل. كتاب «الزوجة الثعلب» يستكشف هذا العالم الذي يتقاطع بشكل مفرّ مع عالمنا. وبينما كنت أكتب عن هذه الكائنات الغامضة، لم أستطع إلا أن أُحوّل القصة إلى رواية بوليسية، بالطبع مع عدد من الجثث...

رحلة الألف عام

يُعتقد أن هذه رحلة روحية تستمد جذورها من مزيج من التقاليد الطاوية والبوذية والفلكلورية، وهي قائمة على الاعتقاد بأن أي كائن أو شيء، إذا التزم بالدراسة الأخلاقية والحياة المستقيمة لمدة ألف عام، فيمكنه أن يهذّب ذاته ويصل إلى مرحلة سامية. على سبيل المثال، يمكن أن يتحول الثعبان الذي يتأمل لمدة ألف عام إلى تنين، والنمر إلى إله جبل. يُعتقد أن العديد من الحيوانات التي تعيش لفترة طويلة وتظهر صفات معينة، مثل اللون الأبيض أو عدد غير معتاد من الذيل، تسير في طريق التنوير. حتى النباتات والأشياء الطبيعية، مثل زهور الفاوانيا القديمة جدًا، والأقحوان، وأشجار الصنوبر، وحتى الأحجار، يُعتقد أنها قد تتحول إلى بشر بعد أن تعيش طويلًا وتتجنب ارتكاب الخطايا.

ليس من الواضح تمامًا ما الذي ينتظرها في نهاية هذه الرحلة، وقد يشمل ذلك التأليه كإله محلي أو الوصول إلى مرتبة القداسة. في الرواية، تذكر سنو والثعالب الأخرى هذه الرحلة بشكل غامض، حيث تُعتبر لغزًا لا يمكن لأحد أن يبدأ في فهمه إلا بعد قرون من التهذيب الأخلاقي والسعي نحو الفضيلة.

الحواشي والتعليقات الجانبية

في الأدب الصيني القديم، هناك تقليد أدبي قديم يتمثل في كتابة الحواشي والتعليقات الجانبية، حيث كان القراء يدونون ردود أفعالهم وتعليقاتهم على النص، وأحيانًا يضيفون قصائد مستوحاة منه، ثم يتداولون الكتاب فيما بينهم. بهذه الطريقة، كان يُعزّز النقاش الأدبي حتى بين النساء اللاتي قد لا تتاح لهن فرصة حضور الدواوين الأدبية. بعض هذه التعليقات كانت مكتوبة بيد شخصيات مشهورة أو اعتُبرت مثيرة للاهتمام لدرجة أن كان يُعاد طبعها مع النص في النسخ الجديدة. تمتلك الصين تاريخًا طويلًا في الطباعة والكتابة، وقد امتدت هذه الهوامش على مدى سنوات بل وحتى قرون، ما أسهم في تنوير عقول القراء لاحقًا.

في الأصل، كنتُ أرغب في ملء هذه الرواية بحواشي شخصية «سنو» وقصص جانبية صغيرة حول ما قد تكون الثعالب مشغولة به، على هامش المجتمع (ها ها!). ولكنني أدركت أن القراء قد لا يميلون كثيرًا إلى الحواشي، لذا قلصت عددها. وربما في يوم ما، أتمكن من كتابة كتاب مليء بالنوادر القصيرة حول الثعالب وغوامضها.

سقوط سلالة تشينغ

كانت سلالة تشينغ (1644-1911) آخر السلالات الإمبراطورية التي حكمت الصين قبل أن تصبح جمهورية. وهي واحدة من سلالتين لا تنتميان إلى قومية الهان (الصينيون)، إلى جانب سلالة يوان، أو السلالة المغولية التي أسسها جنكيز خان. وكما حدث مع المغول، فإن شعب المانشو، الذين كانوا في الأصل قبيلة شبه بدوية من الشمال، انصهروا تدريجيًا في الثقافة الصينية، رغم بقاء آثار من تأثيرهم. فمثلًا، الرداء المعروف باسم تشيباو أو تشونغسام يعود إلى طراز المانشو، وكذلك الأمر لحلاقة الرأس والجذيلة الطويلة التي فرضت على الصينيين تحت تهديد الإعدام.

خلال السنوات الأخيرة من حكم سلالة تشينغ، كانت الإمبراطورة الأرملة تسيشي هي من تمسك زمام الأمور، حيث كانت تعارض بشدة محاولات الإصلاح والتحديث، وحكمت من وراء الكواليس بصفتها وصية على العرش. كان زمنًا يعج بالاضطرابات، وانتشار أمراء الحرب، وتصاعد أصوات الثورة. ونتيجة لذلك، توجه العديد من الشباب الصينيين للدراسة في الخارج، خاصة إلى اليابان، نظرًا لقربها الجغرافي وتقدم حضارتها السريع خلال حقبة مييجي.

الأسماء

كما هو متعارف عليه، تُذكر الأسماء الصينية بترتيب اسم العائلة أولاً. ومعاني الأسماء كما يلي:

- باو (包): يعني «يغلف» أو «يخفي». لم أحدد ما إذا كان هذا اسمه الأول أم الأخير، حيث يمكن أن يكون أيًا منهما، أو حتى لقبًا من مرحلة الطفولة، ولكنه الحرف المستخدم في اسم باو غونغ، القاضي الشهير الذي عُبد لاحقًا.
- تاغتا: كلمة منغولية تعني «حمامة» أو «يمامة».
- هوانغ بوهاي: (黄渤海) هوانغ هو اسم عائلة يعني «أصفر». بوهاي يعني «أمواج المحيط».
- تشين جيانبي: (陈健义) تشين هو اسم عائلة يعني «قديم». جيانبي يعني «قوي وعادل».
- لودونغ: (鲁东) لودو هو اسم عائلة يشير إلى الدولة القديمة لودو. دونغ يعني «الشرق».
- تشو يولينغ: (周玉玲) تشو هو اسم عائلة يعود أصله إلى أقارب العائلة الملكية لسلالة تشو. أما يولينغ فيعني «جرس اليشم».
- شيرو: (白) يعني «أبيض» في اليابانية، ويُنطق «باي» في الصينية.
- كورو: (黒) يعني «أسود» في اليابانية، ويُنطق «هي» في الصينية.
- سنو: (雪) يُنطق «يوكي» في اليابانية، و«شوي» في الصينية.

شكر وتقدير

لطالما عشقتُ قصص الثعالب التي تتحول إلى بشر، وكيف ترى العالم البشري من منظورها الخارجي. وتحويل هذه الأفكار إلى هذا الكتاب لم يكن ليخرج إلى النور لولا:

وكيلتي الرائعة، جيني بنت، التي لولاها كان هذا الكتاب ضعف حجمه ونصف إثارته.

محررتي المبدعة، إيمي آينهورن، لشدة عمق رؤاها. كنت قلقة من ألا يرغب أحد في قراءة كتاب مكتوب من وجهة نظر ثعلب، وأنا ممتنة لتشجيعها الحماسي.

الفريق المدهش في هنري هولت: جانيل براون، ماري بيث كونستانت، لورا فلافين، لوري كوساتزكي، ميريل ليفاقي، مورغان ميتشل، كايتلين مولروني-ليسكي، جوليا أورتيز، كين راسل، كريستوفر سيرجيو، وفينسنت ستانلي، الذين كانوا دعمًا لا يُقدر بثمن في رحلة هذا الكتاب.

أصدقائي الأعزاء والقراء المخلصون، سو وداني يي، لي ليان تان، وسوليكا تشيال، الذين كانوا دائمًا كرماء بوقتهم وقراءة جميع رواياتي، مقدمين ملاحظات صريحة وثاقبة. وشكر خاص لرفيقة الليالي الطويلة شياويوان تو، التي كانت دومًا مستعدة للإجابة عن أسئلتني الغامضة حول أسماء الحيوانات والفولكلور. كما أشكر والديَّ الحبيبين، وخصوصًا والدتي العزيزة، التي انتفعت من دراستها القديمة للأدب الصيني كلما احتجت إلى التأكد من النصوص الأدبية على مدار السنين.

وأخيرًا، شكر كبير لعائلتي وأصدقائي الذين دعموا شغفي بالكتابة على مرَّ السنوات، وخصوصًا أطفالي الذين استمعوا بصبر إلى أفكار قصصي

الغريبة التي كنت أشاركهم بها على مائدة العشاء. وبطبيعة الحال، شكر خاص لجيمس، القارئ الأول والحبیب الأول في كل شيء. أكتب لأجلك، دائماً.

«أَمْسِكُوا الثَّعَالِبَ مِنْ أَجْلِنَا، الثَّعَالِبَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي
تُتْلِفُ الْكُرُومَ. فَكْرُومُنَا مُزْهِرَةٌ».

(نشيد الأنشاد 2:15)

مكتبة
t.me/soramnqraa

الزوجة الثعلب

في رواية «الزوجة الثعلب»، تنسج يانغشي تشو حكاية أسرة تجمع بين الأسطورة والتاريخ في إطار مشوّق وغامض. تدور القصة في منشوريا عام 1908، حيث تبرز شخصية امرأة غامضة، تمتلك القدرة على التحول إلى ثعلب، وتسعى للانتقام ممن دمّر حياتها وقتل طفلتها. تقودها هذه الرحلة المملأ بالأسرار عبر مناطق شاسعة، لتواجه ماضيًا مليئًا بالخيانة والفقدان.

في الجهة الأخرى، يظهر المحقق باو، الرجل المسن الذي يملك قدرة فريدة على كشف الأكاذيب، ويجد نفسه غارقًا في قضية غامضة عندما يُعثر على جثة امرأة شابة في ظروف مريبة. لكن مع اقتراب الأساطير القديمة المدفونة عن الثعالب المتحولة من سطح الواقع، يتساءل باو إن كان يواجه أرواحًا أسطورية أم حيلاً بشرية.

تمزج الرواية بين الواقعية السحرية والأجواء التاريخية، مقدّمة قصة غنية بالتفاصيل عن الانتقام والبحث عن العدالة في عالم سريع التّقلب. وبين تصاعد الأحداث والعلاقات الإنسانية المعقدة، تصحبك «الزوجة الثعلب» في رحلة لا تُنسى، حيث تتداخل الأسطورة بالواقع في مشاهد أسرة.



غلاف: محمود هشام

مكتبة

t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb